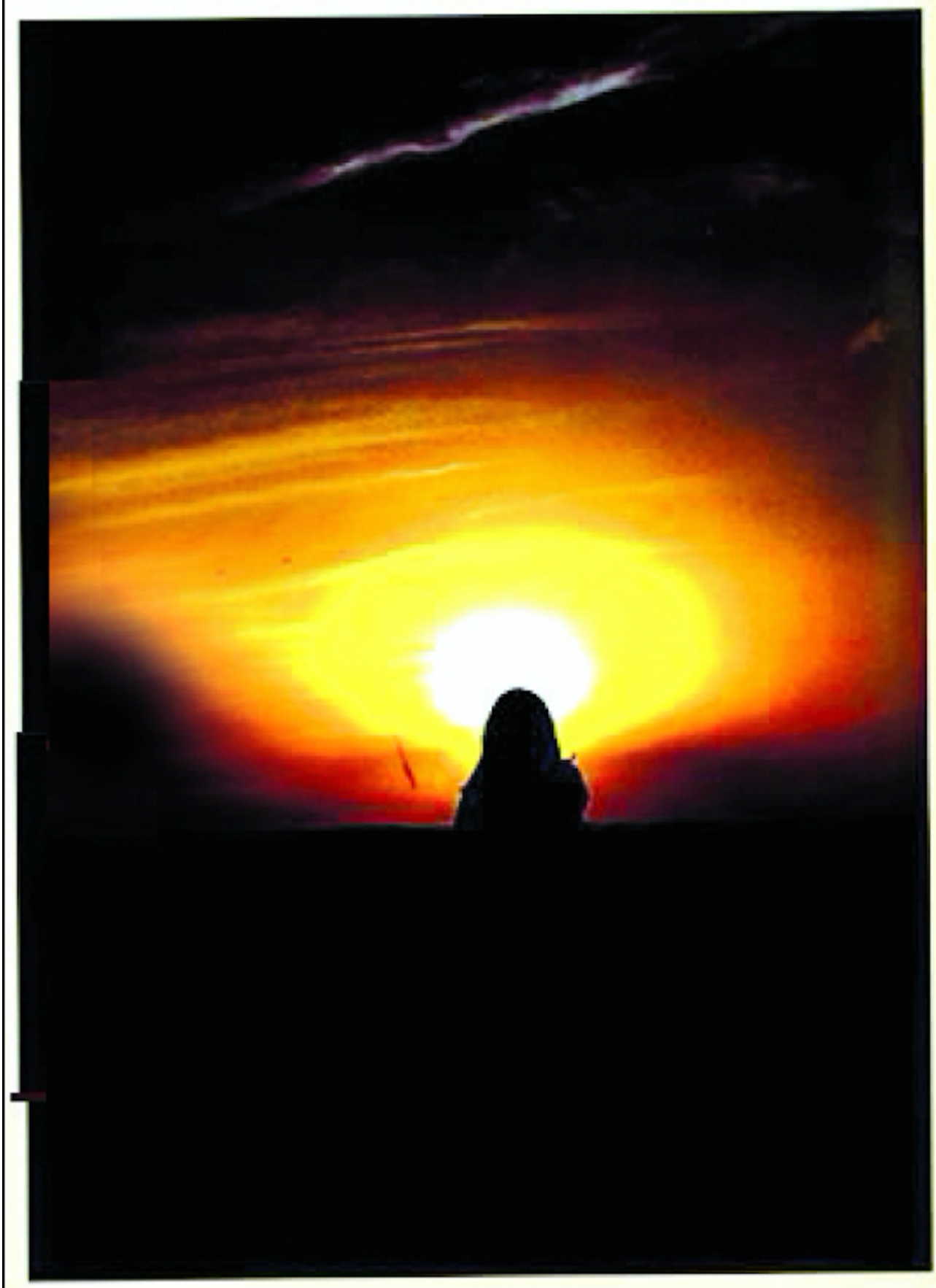

ياسمينة خضرا

فضل الليل على النهار

رواية

وزارة الثقافة

فضل الليل على النهار

للكاتب الجزائري ياسمينة خضرا

ترجمة محمد ساري

في وهران، كما في مكان آخر، بسبب نقص الوقت والتفكير، نكون مجبرين على أن نحب بعضنا بعضا دون أن نعرف.

ألبير كامو: الطاعون.

"أحب الجزائر لأنني أحسَست بها جيدا".

غابريال غارسيا ماكيز.

I

جنان جاتو

.1

كان أبي سعيدا.
لم أتصوّره قادرا على ذلك.
أحيانا، تربكني سحنته المحررة من قلقه.
كان مقرفصا على كومة من الحجر، ذراعاه حول ركبتيه، ينظر إلى الريح التي تعانق ضمور الأكواخ، تنحني فوقها، وتخضها بفظاظة. تتمايل حقول القمح مثل عُرُف آلاف الأحصنة تركض عبر السهل. إنها رؤية شبيهة بالتي يمنحها البحر حينما تخصبه أمواج متلاطمة. وكان أبي يبتسم. لا أتذكَّر أنني رأيته يبتسم؛ ليس من عاداته إظهار رضاه –هل كان يعرف الرضا حقا؟... حياته عبارة عن سلسلة لا نهائية من الانكسارات، فقد صقلته المحَن، ونظرته دوما هلعة؛ يحذر من تقلبات الغد الخائن المتملص مثل حذره من القرع.
لا أعرف له أصدقاء.
كنا نعيش منزوين في أرضنا أشبه بأشباح سُلّمت للقدر، في صمت فلكي لأولئك الذين ليس لديهم شيء مُهِم يقولونه: أمّي في ظل كوخها، منحنية فوق قِدْرها، تحرك بكيفية آلية حساءً من عساقل بطعم مشكوك فيه؛ زَهْرَة، أختي التي تصغرني بثلاث سنوات، منسية في عمق ركن، كتومة إلى حدّ أننا في الغالب لا ننتبه إلى حضورها؛ وأنا، طفل نحيف ووحيد، لم أكد أتفتح حتى ذبلت، أحمل سنواتي العشر كأعباء ثقيلة. ليسَت حياة؛ كنا مَوجودين على وجه الأرض، هذا كل ما في الأمر.
إنّ استيقاظنا صباحا يُعَد من المعجزات، وفي الليل، حينما نستعد للنوم، نتساءل إن لم يكن من المنطقي أن نغمض عيوننا للأبد، مقتنعين أننا تفحصنا جميع الأشياء وانتهينا إلى أنّها لا تستحق ما يجعلنا نبذل جهدا زائدا من أجلها. تتشابَه الأيام بشكل يائس؛ لا تأتي بالجديد أبدا، ولا تقوم عند مغادرتها إلا بتجريدنا من آخر أوهامنا النادرة التي تتدلى في طرف أنوفنا، أشبه بحبات الجزر التي تحرّك الحمير.
في هذه الأيام من 1930، كان البؤس والأوبئة يبيدان العائلات والحيوانات بعدوانية عجيبة، فيُجبران الناجين على الهجرة أو على التشرّد. لا يُظهر أقرباؤنا القلائل أية إشارة لوجودهم على قيد الحياة. أما الأسمال الرثة التي نرى أشباحها بعيدا، كنا متيقنين أنها تمر مرور الريح. لقد كاد يُمْحى الدرب الذي يَجرّ حُفره إلى غاية كوخنا.
لم يكن أبي يكترث للأمر.

يحب البقاء وحيدا، مُتشبّثا بمحراثه، شفتاه بيضاوان من الزبد. أحيانا، يبدو لي كربّ يعيد خلق عالمه، وأبقى الساعات الكاملة أراقبه، مُنبهرا من صلابته واستبساله.
حينما تتكفل أمي بحمل أكله، ليس من مصلحتي أن أتأخر في الضواحي. يتناول أبي غذاءه في أوقات محدّدة، مُكتفيا بالقليل، مستعجلا استئناف عمله. كنْت أحب أن يقول لي كلمة لطيفة أو أن يعتني بي دقيقة؛ لم توجد عينا أبي إلا لأرضه. لم يكن يشعر بالراحة إلا في هذا المكان، وسط كونه الأشقر. ليس لأحد القدرة على إلهائه، ولا حتى أعزّ الناس لديه.
في المساء، عندما نلتحق بكوخنا، كان لمعان عينيه يتلطّف مع غروب الشمس. فيتحوّل إلى شخص آخر، شخص عادٍ، بلا جاذبية ولا فائدة؛ يكاد يخيّب أملي.
ولكنه يكاد يَطير فرحا منذ بضعة أسابيع. موسم الحصاد يعد بالكثير، يتجاوز التقديرات... كبّلت الديون كاهله، فقام برهن أرض الأجداد وأدرك أنه يخوض آخر معركته، أنه يستخدم آخر خرطوشة له. يجهد نفسه كما عشرة أنفار، بلا توقف، وبأحشائه استبسال مميت؛ كانت السماء الصافية ترعبه، كما أنّ أدنى غيمة تكهربه.
لم أشاهده أبدا يصلي ويجهد نفسه بمثل هذا العناد. وحينما جاء الصيف وغطى القمح السهل بسنابل لامعة، اتّخذ أبي مكانا فوق ركام الحجر ولم يتحرّك. ينكمش تحت "مِظَل" الحلفاء، ويقضي معظم أيامه يتأمل المحصول الذي يعد أخيرا بفرجة أكيدة بعد سنوات عجاف من الجدب وقحولة الأرض.
الحصاد على الأبواب. كلما اقترب، كلما فقد أبي هدوءه. يرى نفسه يَحصد السنابل بملء ذراعيه، يحزم مشاريعه بالمئات ويجني آماله بأعداد لا تحصى.
أسبوع قبل ذلك، أقعدني بجانبه فوق العربة واتجهنا نحو القرية، على بعد أميال قليلة خلف الهضبة. في العادة، لا يأخذني إلى أي مكان. ربما فكّر بأن الأمور بدأت تتحسّن وينبغي معها إصلاح طرق تعاملنا واكتشاف ردات فعل جديدة، ذهنية جديدة.
أثناء الطريق، طفق يدندن لحنا بدويا. إنها المرة الأولى في حياتي أسمعه فيها يغني. كان صوته يتسرّب عبر جميع الاتجاهات، يضجر بغلا؛ ولكن بالنسبة لي، كان حفلا بحيث لا يضاهيه أشهر المغنين. فجأة، تماسك، مندهشا من انطلاقه، خجولا من التهريج أمام ولده.
لم تكن القرية ذات شأن. إنّها مكان مُقفر، مثيرة للحزن، بأكواخها الترابية الرازحة تحت ثقل البؤس، بأزقتها الهلعة التي لا تعرف أين تجري لإخفاء قبحها. تقضم معزاة بضْعة أشجار ضامرة، واقفة في عذابها كما المشانق. عند أسفل جذوعها، يقرفص

البطالون الذين لا يختلفون كثيرا عنها. يشبهون الفزازيع المهملة، المتروكة هنا إلى أن تبعثرها الزوابع في الطبيعة.
أوقَف أبي العربة قرب حانوت كئيب يلتف حوله أطفال يرتدون، كما لو أنّها جلابيب، أكياسا من الخيش، مُرقعة بفظاظة، وهم حفاة الأقدام. كانت رؤوسهم محلقة ومبقّعة بأنداب متقيّحة، وتمنح لسحنهم علامة لا رجعة فيها، هي أشبه بلعنة. أحاطونا بفضول رهط من الضغابيس التي تستنكر تدنيس إقليمها. أبعَدهم أبي بحركة من اليد قبل أن يدفعني بداخل الحانوت حيث كان رجل يتناعس وسط رفوف فارغة. لم يكلف الرجل نفسه القيام لاستقبالنا. قال أبي:
- أنا بحاجة إلى رجال وعتاد للحصاد.
ردّ الحانوتي بوَهن:
- هذا فقط؟ أبيع أيضا السكر والملح والزيت والدقيق.
- نترك هذا ليوم آخر. هل يمكن الاعتماد عليك؟
- لأي يوم تحتاج الرجال وعتادهم؟
- الجُمعة الأخرى...
- أنت صاحب الشأن. تصفّر ونكون عندك في اللحظة.
- إذن، أنتظركم جمعة الأسبوع المقبل.
غمغم الحانوتي وهو يسوي عمامته الساقطة على وجهه:
- اتفقنا. أنا مسرور لأنك أنقذت موسمك.
ردّ أبي وهو يبتعد:
- بل أنقذت روحي.
- قبل هذا، عليك أوّلا أن تملكها.
ارتجف أبي عند عتبة الحانوت. بدا كما لو أنّه أدرك تلميحا مسموما في أقوال البقال. بعد أنْ حكّ مؤخرة رأسه، انزلق فوق العربة وعُدنا إلى الدار. تأثرت حساسيته بشكل لافت. انطفأت نظرته التي كانت مشعة هذا الصباح. يكون قد قرأ في ردّ الحانوتي نذير شؤم. هكذا الحال مع أبي؛ يكفي أن تناقض قوله كي تحضّره للأسوإ، أن تمدح حماسه للعمل كي تعرّضه لعين الحسود. كنت متأكدا أنّه بدأ يحسّ بالندم في قرارة نفسه، لأنه اندفع للابتهاج بانتصاره بيد أنّ لا شيء قد تحقّق بعد.
أثناء طريق العودة، انكمش على نفسه مثل حنش ولم يتوقف عن سوط ردف البغلة؛ كانت حركاته مطبوعة بغضب مبهم.

في انتظار يوم الجمعة، أخرج من مخابئها مِحْطبَه العتيق ومناجل متخلخلة وعتادا آخر لتصليحه. كنت أتابعه من بعيد بصحبة كلبي، مترقبا أمرا سيجعلني أصلح لشيء ما. لم يكن أبي يحتاج إلى أحد. يعرف بالتدقيق ما سيفعله وأين يجد ما هو بحاجة إليه.

ثمّ، ذات ليلة، بلا أدنى إخبار، انقضّت علينا المصيبة. كان كلبنا ينبح، ينبح... بدا لي كما لو أنّ الشمس انفصلت عن السماء وسقطت على أراضينا. كانت الساعة حوالي الثالثة صباحا، ومع ذلك أضيء كوخنا كما في وضح النهار. شدّت أمّي رأسها بيديها، مذهولة عند عتبة الباب. حرّكت حولي انعكاسات الأضواء الخارجية ظلها المتعدّد على الجدران. انكمشت أختي في ركنها، مربعة على حصيرها، أصابعها بداخل فمها والعينان منطفئتان.

ركضت نحو الحَوْش، فرأيت هديرا من النيران الهائجة تلتهم حقولنا؛ تصاعدت أنوارها إلى الذروة الخالية من أية نجمة حارسة.

كان أبي يتخبّط كالمجنون، بصدره العاري، الملوّث بلطخات سوداء، يَتصبّب عرقا. يَغطس دلوا صدئا في حوض مياه شرب الحيوانات، ينقض على الحريق، يختفي وسط النيران، يرجع لأخذ الماء ويعود إلى الجحيم. لم يدرك وضعه المثير للسخرية الذي يعاقب رفضه بقبول أمر الواقع، وأنه لا يستطيع فعل شيء، وأنّ لا دعاء ولا معجزة ستمنع أحلامه من التبّخر كما الدخان. فهمت أمّي أننا خسرنا كلّ شيء. نظرَت إلى زوجها وهو يتخبّط كما الشقي وانتابها خوف من عدم رؤيته يخرج من النار الملتهبة. كان أبي قادرا على ضمّ السنابل بذراعيه وترك نفسه يحترق معها. ألم يكن في أوّج انسجامه وسط حقوله؟

عند طلوع النهار، لم يزل أبي يواصل تبليل نفثات الدخان المنبعثة من الباقات المفحّمة. لم يبق شيء من المحصول، ومع ذلك يعاند في عدم الاعتراف بذلك. من الغيظ.

يا له من ظلم !

قبل ثلاثة أيام من بداية الحصاد.

على مسافة خطوتين من النجاة.

على بعد نفَس من الانبعاث.

في نهاية الصبيحة، سلّم أبي بالأمر الواقع. أخيرا، والدلو لا يزال معلقا في ذراعه، تجرأ على رفع عينيه على اتساع الكارثة. لمدّة طويلة، ترنّح على ساقيه المرتخيتين، بعينين داميتين وسحنة متشنّجة؛ وبعد ذلك، سقط على ركبتيه، انبطح على بطنه، ثمّ،

وتحت أعيننا المنذهلة، ترك نفسك يقوم بشيء لا يفعله رجل أبدا أمام الملأ، انفجر بالبكاء... ذرف جميع دموع جسمه.
أدركت حينها أن الأولياء الصالحين نكرونا إلى غاية يوم الحساب وأنّ الشقاء أصبح قدرنا المحتوم.

توقف الزمان بالنسبة إلينا. طبعا، واصل النهار تملصه أمام الليل، والمساء يخلف الفجر، والكواسر تحلق في السماء، ولكن في نظرنا، كما لو أنّ الأشياء استنفذت كل ما عندها من سبل. انفتحت صفحة جديدة ولم نكن مُسجلين بها. لم يتوقف أبي عن ذرع مسافات حقوله المخرّبة. من الفجر إلى الغروب، يهيم على وجهه وسط الأشباح والأنقاض. تخاله شبحا أسيرا بداخل أطلاله. أمّي تراقبه من ثقب بالجدار يقوم مقام الكوّة. كلّما ضرب فخذيه أو لطم خديه إلا وتمتمت تعاويذ راجفة، مستنجدة بأسماء الأولياء الصالحين المنتشرين في المنطقة؛ كانت مقتنعة أن زوجها فقد عقله.
بعد أسبوع، جاء رجل يبحث عن أبي. كان بهيئة سلطان، مُتدثرا أفخَم الملابس، لحيته محلقة بعناية وصدر سترته مرصّع بالميداليات. إنه القايَد، محاطا بحرسه الخاص.
دون أن ينزل من عربة "الكاليش" الفاخرة، أمر أبي بدمغ بصمات يده على الوثائق التي أسرع فرنسي ضامر وشاحب، يرتدي الأسود من الرأس إلى القدمين، بإخراجها من محفظته. لم يفكر أبي ولم يتردّد لحظة. وضع أصابعه بداخل إسفنج مبلل بالحبر وطبعها على الأوراق. انسحب القايَد مباشرة بعد توقيع الوثائق. بقي أبي منغرسا في الحَوْش، ينظر تارة إلى أصابعه الملوّثة بالحبر، وتارة إلى عربة "الكاليش" التي تبتعد باتجاه مرتفع الهضبة. لا أحد منا، أنا وأمي، وجد الشجاعة الكافية للاقتراب منه.
في الغد، لمّت أمي أطراف بؤسها وكدّستها فوق العربة...
انتهى كل شيء.
سأتذكّر طوال حياتي هذا اليوم الذي مرّ فيه أبي إلى الجهة الأخرى من المرآة. كان يوما مفكّكا، بشمسه الجاثمة فوق الجبل وآفاقه المتملصة. مع أنّ الوقت كان منتصف النهار، إلا أنني كنت أشعر بالذوبان داخل ظلام شفاف حيث تجمّدت فيه جميع الأشياء، وتراجعت فيه الضوضاء، وانسحب فيه الكون كي يعزلنا أكثر في هلعنا.
يمسك أبي اللجام، رقبته بداخل كتفيه، العينان تائهتان، تاركا البغلة تقودنا لا أعرف إلى أين. تقوقعَت أمي في ركن على حافة المركبة، مندسة في حايَكِها، لا تكاد تُميَّز وسط صُرَرها. أما أختي الصغيرة فحافظت على أصابعها داخل فمها، بصرها غائب.

لمْ يدرك والديّ أن البنت لم تعد تتغذى، وأنّ شيئا تحطّم بذهنها منذ تلك الليلة التي اختارت جهنم أن ترمي نارها على حقولنا.
تبعنا كلبنا عن بعد، بسحنة منتكسة. كان يتوقف من حين لآخر عند قمة مرتفع ترابي، يقعى على مؤخرته ليرى إن كان قادرا على الصبر، إلى أن نختفي، ثمّ يقفز عبر الدرب ويسرع للالتحاق بنا، يكاد خطمه يكشط الأرض. تتباطأ سرعته كلما قلّص المسافة بينه وبيننا، ثم ومن جديد، يبتعد عن الدرب ويتوقف بائسا حائرا. أدرك أنّ المكان الذي نقصده لا يتسع له. لقد أفهمه أبي ذلك عندما رماه بالحجر عند خروجنا من الكوخ.
أحببت كلبي كثيرا. كان صديقي الوحيد الذي أبوح له أوجاعي. تساءلت عما سيحدث لنا الآن بعدما افترقت طرقنا.

قَطَعنا أميالا لا نهائية دون أن نصادف أيّ كائن حيّ. خُيِّل إليّ أن القدر أفرغ المنطقة من سكانها عمدا كي يتفرغ لتعذيبنا. كان الدرب يسري أمامنا، منفكا، كئيبا، أشبه بتيهنا.
أخيرا، عند نهاية الظهيرة، وقد صرعتنا الشمس، لمحنا نقطة سوداء بعيدة. وجّه أبي البغلة نحوها. إنّها خيمة لتاجر خضر، عبارة عن إسقالة مشكوك في أمرها، مصنوعة من أوتاد وقماش من الخيش، نصِّبت وسط قفار، كما لو أنّها انبثقت من هلوَسَة. أمر أبي أمّي بانتظارنا قرب صخرة. في عاداتنا، تبقى النساء جانبا حينما يلتقي الرجال؛ لا توجد إهانة للزوج أكثر من رؤية رجل يطيل النظر في زوجته. انصاعَت أمّي للأمر، وذهبت تقرفص في المكان المشار إليه، وهي تحمل زهرَة بين ذراعيها.
كان التاجر قصير القامة، جاف البَشرة، بعيني جرذ لاصقتين في عمق وجه مبرقش ببثور سوداء. يرتَدي ثوبا عربيا ممزقا فوق نِعال مشققة تنزلق منها أصابع بلا شكل. كان صِداره البالي يجد صعوبة في إخفاء ضمور صدره الكبير. ترقبَنا تحت ظل خيمته البائسة، ويده تمسك عصا. حينما أدرك أننا لسنا لصوصا، ترك عصاه وتقدّم بخطوة تحت الضوء. قال موجها كلامه إلى أبي:
- الناس ملاعين، يا عيسى. إنها طبائعهم. لا يفيدنا لومهم في شيء.
أوقف أبي العربة عند مستوى الرجل وجذب رافعة الفرملة. فهم تلميحات التاجر ولكنه لم يجب. ضرب التاجر بيديه في هيئة سخط.
- في تلك الليلة، عندما رأيت النيران عن بعد، أدركت أنّ شقيا فقيرا يعود إلى الجحيم، ولكنني لم أكن أتصوّر أن الأمر يتعلق بك.

ردّ أبي: - إنها مشيئة الله.
- غير صحيح، وأنتَ تعرف هذا جيدا. لا دخل لمشيئة الله في مكان يعيش فيه البشر. ليس من العدل أن ننسب إليه الأفعال الشريرة التي لا يقوم بها إلا بني البشر. مَن يحقد عليك إلى حدّ التجاسر بحرق محصولك، يا عيسى، يا طيّب؟
قال أبي: - الله هو الذي يقرّر ما يصيبنا.
هزّ التاجر كتفيه:
- لمْ يخترع البشر الربّ إلا لتسلية عفاريتهم.
وفيما كان أبي يستعد للترجل، التصق طرف من عباءته بالمقعد، فاستنتج أنه نذير شؤم جديد. تشنج وجهه من غيظ مكتوم. سأل التاجر:
- هل أنت ذاهب إلى وَهْران؟
- من قال لك هذا؟
- عندما نفقد كل شيء، نتوّجه دوما إلى المدينة... احذَر يا عيسى. ليس هو المكان اللائق بالنسبة إلينا. وَهْران تعجّ بلصوص دون رحمة ولا شفقة، أخطر من الثعابين، وأمكر من إبليس.
ردّ أبي مستنكرا:
- لماذا تحكي لي هذه الخزعبلات؟
- لأنّك لا تَعرف أين تضع قدميك. المدن ملعونة. تفتقر إلى بَرَكة الأجداد. إنّ الذين غامروا بدخولها لم يرجعوا أبدا.
رفع أبي يده ليطلب منه أن يحتفظ بهذه الترهات لنفسه.
- أقترح عليك شراء العربة. العجلات والإطار الخشبي في وضع جيد، والبغلة لم تتجاوز الأربع سنين. ثمنك هو ثمني.
رمى التاجر نظرة سريعة على مطيتنا.
- أخشى أن لا أجد شيئا ذا قيمة أمنحه لك، يا عيسي. لا تتصوّر أنني أستغل الوضع. لا يزور هذا القفار إلا قليل جدا من المسافرين، وفي غالب الأحيان تتكدّس السلعة وتتعفن وتأكلها المزبلة.
- سأقتنع بما تعطيه لي.
- في حقيقة الأمر، أنا لست بحاجة إلى عربة، ولا إلى بغلة... لديّ بعض النقود مخبأة وسأتقاسمها معك بكل سرور. لقد ساعدتني مرارا في السنوات الماضية. أما مطيتك، فاتركها أمانة عندي، حتما سأجد لها شارٍ. وعُد وقت ما شئت لأخذ نقودك. سوف أحتفظ بها لك، أمانة في رقبتي.

لم يفكّر أبي في اقتراح التاجر. لم يكن لديه اختيار. مدّ يدا راضية.
- أنت من طينة طيبة يا ميلود. أعرف أنك لا تغش.
- لا يغش الإنسان إلا على حساب نفسه، يا عيسى.
أسند إليّ أبي صرّتين، وتكفل بالباقي. ثم أخفى القطع النقدية القليلة التي مدّها له التاجر، وأسرع إلى الالتحاق بأمي دون أن يلقي أية نظرة على الأشياء التي تركها وراءه.
مشينا إلى أنْ فقدنا الإحساس بأقدامنا. كانت الشمس تسحقنا؛ إنّ لمعانها الذي تعكسه على وجوهنا أرض جدباء ومقفرة بشكل يرثى له يجرح عيوننا. تترنّح أمي خلفنا، مثل شبح ملفوف في كفنه، لا تتوقف إلا لتغيّر أختي إلى الكتف الأخرى. تجاهلها أبي الذي واصل سيره قدّامه، بخطى ثابتة، مجبرا إيانا على الإسراع. لم يكن في نيتنا، لا أنا ولا أمي، أن نطلب منه انتظارنا قليلا. كان حلقي يشتعل عطشا وقدميّ داميتين من تمزق حذائي البالي، ومع ذلك واصلت السير. ولكي أخادع التعب والعطش، أركز بصري على ظهر والدي الفوّار، وعلى طريقته في حمل الأثقال وعلى خطاه المنتظمة الفظة والتي يبدو أنها تركل الأرواح الشريرة. لمْ يلتفت ولو مرّة واحدة لينظر إنْ كنّا دائما خلفه.
بدأت الشمس تميل نحو المغيب عندما وصلنا إلى طريق الرومي، تلك الطريق العريضة والمزفّتة. اخْتار أبي زيتونة منعزلة خلف مرتفع ترابي، بعيدة عن الأنظار الفضولية، وباشر في نزع الحشائش والأشواك كي نتمكن من الاستراحة. ثمّ تأكّد بنفسه إن كنا حقا في منأى عن أنظار عابري الطريق، قبل أن يأمرنا بالتخلص من أثقالنا. حَطّت أمي زَهْرَة النائمة عند قدم الشجرة، غطتها بحصير، ثمّ أخرجت من القفة إناءً وملعقة من الخشب. قال أبي:
- لا نشعل النار. سنأكل اليوم اللحم المُجفّف.
- لا لحم لدينا، فقط بعض البيضات الطازجة.
- قلت لا نشعل النار. لا أريد أن يَعرف أحَد أننا هنا. سنكتفي بحبات طماطم وبصل.
انخفضت الحرارة، وبدأت نسمة خفيفة تحرك الأوراق على أغصان الزيتونة. نسمع حفيف العضايا وهي تزحف على العشب الجاف. تدفقت الشمس على الغروب مثل بيضة مكسّرة.
تمدّد أبي تحت صخرة، رافعا ركبة إلى السماء، العمامة ساقطة على وجهه. لم يذق طعم الأكل. بدا كما لو أنّه استاء منّا.

قبل سقوط الليل بقليل، ظهر رجل على قمة الهضبة وأشار إلينا بحركات عريضة من يديه. لم يُرد الاقتراب منا بسبب تواجد أمي بيننا. عادات احتشام واحترام. بعثني أبي لأَسْأَله عما يريد عندنا. إنه راعي غنم، يرتدي أسمالا، بوجه ذابل ويدَين خشنتين. اقترح علينا المبيت والأكل. رفض أبي الضيافة. ألحّ الراعي. سوف لن يغفر له الجيران ترك عائلة تَبيتُ في العراء بقرب كوخه. رَدَّ أبي برفض قاطع، مُغمغما: "لا أريد أن أدين بشيء لأحد". اغتاظ الراعي. عاد إلى قطيع معزه الضامرة، مدمدما وضاربا التراب بقدمه في غضب ظاهر.
قضينا الليلة تحت ضَوء القمر. أمي وزَهْرة عند قدم الزيتونة. أنا تحت عباءتي. وأبي حارس على صخرة، سيف بين فخذيه.
في الصباح، عند نهوضنا، كان أبي شخصا آخر. لقد حلّق ذقنه، وغسل وجهه في عين وارتدى ملابس نظيفة؛ صِدار فوق قميص فقد لونه، سروال تركي بقَعر به ثنايا، لم أرَه قد لبسه يوما و"صبّاط" جلدي قديم نظّفه جيدا.
وصلت الحافلة في الوقت الذي أشرقت فيه الشمس. كوّم أبي أمتعتنا على سقف المركبة قبل أن يجلسنا على مقعد في الخلف. إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها حافلة. حينما تدحرجت في الطريق، تشبثت بمقعدي، مبهورا وهلعا في آن واحد. يغفو بعض المسافرين هنا وهناك، روميون في غالبهم، يرتدون بذلا تعيسة. لم أملّ من تأمل المناظر التي تتتابع من جهتي الزجاج. أبهرني السائق هناك في الأمام. لم أكن أرى إلا ظهره، عريضا مثل جدار قلعة، وذراعَيه القويتَين تلويان المقود بنفوذ كبير. على يميني، عجوز أدرد، يتمايل مع الدورات، وقُفّة مُهترئة عند قدميه. عند كل دورة، يغطس يدا بداخل القفة ليتأكّد إن كان كل شيء في نظامه الأصلي.
انتهت الرائحة العصية الاحتمال والوجوه المتشنجة إلى صرعي؛ فغفوت، ببطن مخضوض والرأس دائري مثل كرة مِمْرغية.

توقفت الحافلة في مساحة محاطة بالأشجار، مُقابل بناية كبيرة بالآجر الأحمر. هجم المسافرون على أمتعتهم. في تسرّعهم، رفس بعضهم قدميّ؛ لم أنتبه للأمر. ذُهِلت لما أرى بحيث نسيت مساعدة أبي في استرجاع أمتعتنا.
ها هي المدينة !...
لم أكن أتصوّر وجود تجمعات سكانية بهذه الضخامة. إنه لشيء مبهر حقا. في لحظة ما، تساءلت إن لم يكن التوعك الذي أصابني داخل الحافلة هو الذي جَعلني أهذي وأرى أشياء غريبة. خلف الساحة، تَتراصَف المنازل إلى ما لا نهاية، في تدرّج جميل،

الواحدة وراء الأخرى، بشرفات مُزهرة ونوافذ عالية. قارعة الطرق معبّدة ومحاطة بالأرصفة. اندهشت ولم أكن أستطيع وضع أسماء على تلك الأشياء التي تقفز إلى عينيّ كما الومضات الضوئية. ترتفع المنازل الجميلة جدا من جميع الجهات، منسحبة خلف سياجات حديدية مدهونة بالأسود، مهيبة وأنيقة. تستريح العائلات بداخل الشرفات، حول طاولات بيضاء مزينة بقنينات وكؤوس عصير البرتقال الطويلة، فيما كان أطفال بخدود موّردة وشعر مذهّب اللون يقفزون في الحدائق؛ كانت ضحكاتهم الرنانة تنبثق وسط أوراق النباتات مثل فوارة ماء. تنبعث من هذه الأمكنة المحظوظة سكينة ورفاهية لم أتصور أنها ممكنة الوجود. إنها على نقيض تام من الرائحة التي تعفن قريتنا حيث تحتضر البساتين تحت الغبار، وتئن أكواخنا تحت بؤس يفوق بؤس حظائر الحيوانات.

كنت في كوكب آخر.

أركض وراء أبي، مبهورا بالمساحات الخضراء التي تحدّها جدران صغيرة مصنوعة بالأحجار المنحوتة أو بسياجات من الحديد المطرّق، والشوارع العريضة المشمسة، والمصابيح الجامدة في بهائها، الشبيهة بحراس مضيئين. والسيارات... قمت بعدّ أكثر من عشرة ثم توقفت. تنبثق من أي مكان، في هدير صَخّاب كما النيازك، ثم تختفي في آخر الأزقة قبل حتى أن نتَمتِم دعاءً.

سألت أبي: - ما هذا البلد؟

- اسْكت وامشِ. انْظر أمامك إنْ أردت أن لا تسقط في حفرة.

إنّها مدينة وهران.

كان أبي يمشي في خطوات ثابتة، متأكدا من قوة اندفاعه، غير مبهور بالأزقة المستقيمة والبنايات المدوّخة التي تتفرّع وتتشعّب أمامنا بلا انقطاع، متماثلة إلى حدّ يبدو لنا أننا لا نزال نبرح في مكان واحد. الشيء الغريب هو أن النساء لا يرتدين الحايك. يتجوّلن بوجوه مكشوفة؛ تضع العجائز قبعات غريبة فوق الرؤوس؛ أما الفتيات فيتبخترن في أجساد نصف عارية، الشعر المسترسل على الأكتاف معرض للريح، غير منزعجات من اختلاطهن بالرجال.

بعد مدّة، قلّت الحركة. دخلنا أزقة مظللة وهادئة، غارقة في صمت لا يعكّر صفوه إلا مرور عربات خيل من نوع "الكليش" أو اصطفاق ستار حديدي. كان بعض الشيوخ الأوربيين يجلسون قرب أبواب منازلهم، الوجوه قرمزية اللون. يرتدون سراويل قصيرة وقمصان مفتوحة على بطونهم وقبعات عريضة فوق الرؤوس. أرهقهم القيظ، فتجدهم يتبادلون أطراف الحديث حول كؤوس الأنيزات الموضوعة على الأرض مباشرة، وهم

يحركون بطريقة آلية مراوح للتبريد. مرّ أبي قربهم دون أن يحييهم ولا حتى أن ينظر إليهم. تَصرَّف كما لو أنهم غير موجودين، ولكن اندفاعه فقد فجأة شبرا من طاقته الأولية.

وصلنا إلى شارع ينشغل فيه متسكعون بالتفرج على الواجهات الزجاجية. انتظر أبي مرور الترامواي كي يعبر القارعة. أشار لأمي إلى مكان وطلب منها أن تنتظرنا هناك، وضعنا قربها جميع أمتعتنا، وأمرني بمتابعته إلى غاية صيدلية في طرف الزقاق.

ألقى نظرة متفحصة عبر الزجاج ليتأكّد أنه لم يخطئ العنوان، ثمّ سوى عمامته ومسح على صِداره ودخل. كان رجل طويل القامة ونحيف يخط على دفتر خلف المِصرَف، مُتحزِّما في بدلة من ثلاث قطع، وطربوش أحمر على رأسه الأشقر. له عينان زرقاوان، ووجه رقيق الخطوط تتوسطه حاشية شارب زادت من إضعاف الشق الذي يخط فمه. حينما رأى دخول أبي، قطّب حاجبيه، ثمّ رفع قطعة خشب جانبا واستدار المصرف كي يستقبلنا.

ارتمى الرجلان في حضني بعضهما البعض.

كان العناق قصيرا، ولكن الشدّة كانت متينة.

قال الغريب وهو يقترب مني:

- هذا حفيدي؟

- نعم، ردّ أبي.

- إلهي ! ما أجمله...

إنه عمي. كنت أجهل وجوده. لم يحدثني أبي أبدا عن أفراد عائلته. ولا عن أحد. كان كلامه معنا قليلا جدا.

قرفص عمّي ليضمني إلى صدره.

- عندك رجل ما شاء الله، عيسى.

فضل أبي عدم التعليق. من خلال حركات شفتيه، فهمت أنه يتلو آيات قرآنية لإبعاد عين الحسود.

وقف الرجل وواجه أبي. بعد صمت، عاد إلى خلف مصرفه وواصل تفرس أبي.

- ليس من السهل إخراجك من جحرك، يا عيسى. أتصور أنّ شيئا خطيرا قد حدث لك. مرّت سنوات دون أن تأتي لزيارة أخيك الكبير.

لم ينتظر أبي ولم يتردّد. روى دفعة واحدة ما حدث له في القرية، الحريق الذي عصف بالمحصول، مرور القايَد... استمع إليه عمي بعناية، دون توقيفه. كنت أرى يديه تتشبثان تارة بالمصرف، وتنغلقان تارة أخرى. عند نهاية القصة، دفع بطربوشه إلى

خلف رأسه وجفف جبينه بمنديل. كان منهارا، ولكنه تحكم في نفسه بالقدر الذي استطاع.
- كان بإمكانك أن تطلب مني المال الذي كنت بحاجة إليه يا عيسى عوض رهن أرضنا. كنت تعرف جيدا ماذا يعني رهن الأرض للقايَد. لقد انجذب الكثير من أمثالنا إلى الطعم المفخّخ وقد رأيت بنفسك المآل الأسود الذي انتهوا إليها. كيف وقعت بدورك في هذا الفخّ؟
لم يكن في أقوال عمي عتاب أو لوم، وإنما يأس مهول. قال أبي وقد افتقد إلى أي حجة يبرّر بها إخفاقه:
- إن الذي وقع قد وقع. هي مشيئة الله...
- ليس الله هو الذي أمَر بحرق حقولك... لا علاقة لله بخبث البشر. وإبليس أيضا.
رفع أبي يده ليضع حدا للنقاش.
- جئت أقيم بالمدينة. إن زوجتي وابنتي تنتظران في طرف الزقاق.
- لنذهب أوّلا إلى بيتي. تستريحون عندي بضعة أيام ثمّ ننظر ما يمكن أن أفعله.
قال أبي بنبرة قاطعة:
- لا. مَن يريد الخروج من قاع البئر عليه أن يبدأ بالصعود مباشرة بعد السقوط. أريد سقفا لي، اليوم وليس غدا.
لم يلح عمي. يعرف جيدا تعنت أخيه الصغير كي يأمل في تعقيله. أخذنا إلى الجهة الأخرى من المدينة... لا يوجد أقبَح من تقلبات المدينة. يكفي أن تبتعد قليلا عن البنايات الشاهقة الجميلة كي تجد نفسك تنتقل من النهار إلى الليل، من الحياة إلى الموت.
إلى اليوم، لا أستطيع منع نفسي من الرعشة كلما تذكرت هذه التجربة الصاعقة. لقد أوقف الحي الذي هَبَطنا فيه وبضربة واحدة كل المغريات التي أبهرتني قبل ساعات قليلة فقط. كنا دائما في وهران، ولكننا كنا وراء الديكور. تركتْ المنازل الجميلة والشوارع المزهرة المكانَ لفوضى عارمة من الأكواخ القبيحة، والبراريك العفنة وخيم البدو المفتوحة للرياح ليل نهار، وزرائب البهائم. قال عمي:
- ها هو جنان جاتو. اليوم يوم سوق.
ثم أضاف بعد صمت كي يطمئننا.
- في العادة، يكون أهدأ.
جنان جاتو: مزبلة من الأكواخ والأجمات المتنوعة، الغاصة بالعربات المفكّكة والمتسوّلين والباعة المتجولين والحَمّارين المتخاصمين مع بهائمهم وحاملي المياه والمشعوذين

والأطفال بأسمال رثة؛ أدغال صلصالية مُحرقة، معبأة بالغبار والعفن، ملقحة بأسوار المدينة كما الورم الخبيث. في هذه الأماكن العصية عن الوصف، يتجاوز البؤس جميع التصورات. أما الرجال، هذه المآسي المتنقلة، فإنهم يذوبون حتما في ظلالهم.
يشبهون المنبوذين الملفوظين من جهنم، بلا حكم ولا إشعار، ليرموا في هذا الجحيم؛ لوحدهم، يختزلون شقاءات الدنيا كلها.
قدّم لنا عمّي رجلا قصير القامة، بنظرة مريبة ورقبة غائبة. إنه سمسار يدعى بْليس، من أصحاب آكلي الجِيَف، المتربصين دوما بضحايا للبقر. في ذلك العهد، كان القناصّون النهابون من أمثال هذا الإبليس يملئون الأحياء الفقيرة. إن الهجرة الزاحفة التي تنقضّ على المدينة جعلتهم يلتصقون بها كما اللعنة. وسمسارنا لم يكن ليشذّ عن القاعدة. كان داركا بغرقنا ويعرفنا تحت رحمته. أتذكر أنه كان يحمل لحية عفريت بدت كما لو أنها أطالت ذقنه بشكل مفرط وشاشية متعفنة فوق رأس كبير أصلع ومتورّم. لم يعجبني من اللحظة الأولى بسبب ابتسامته الأفعوية وطريقته في حك اليدين ابتهاجا كما لو أنه يستعد لالتهامنا ونحن أحياء.
حيّ أبي بحركة رأس وهو يستمع إلى عمّي يشرح له وضعنا. قال السمسار الذي يبدو أنه يعرف عمي جيدا:
- أظن أنّ لديّ شيئا لأخيك، دكتور. إذا كان الوضع مؤقتا سوف لن تجدوا أحسَن منه. إنه ليس قصرا ولكن المكان هادئ والجيران طيبون.
قادنا إلى غاية حَوْش بمظهر إسطبل، قابعا في عمق شبه ثقب ذي روائح نتنة. طلب منا السمسار انتظاره في الزقاق، ثمّ تقدّم إلى العتبة وتنحنَح بصوت مرتفع لإبعاد النساء -عوائد يلتزم بها الرجال في المساكن المشتركة. بعد خلاء الطريق، أشار إلينا بأن نتبعه.
يتشكل المكان من فناء داخلي صغير، تحيطه من جميع الجهات غرف منفصلة تتكدّس بداخلها عائلات منهكة فرّت من الجوع والتيفوس اللذين يتسيّدان المناطق الريفية.
قال السمسار وهو يزيح ستارا عن مدخل غرفة شاغرة:
- ها هو البيت...
غرفة عارية وبلا نافذة، أكبر بقليل من حجم قبر ولا تقل عنه كآبة. تنبعث منها روائح بول القطط والدجاج العفن والقيء. الجدران سوداء وتسيل رطوبة، وحدها المعجزة أبقتها واقفة؛ وفوق الأرضية الترابية افترشت طبقة سميكة من البراز وبعر الجرذان.
أضاف السمسار مزهوا:
- سوف لن تجدوا كراءً بثمن أقل في هذه الناحية.

أطال أبي بصره على حشد من الصراصير تجمعت فوق بلّوعة تقطر أوساخا، ثمّ رفع رأسه إلى أنسجة العناكب المزينة بذباب ميت، وكان السمسار يراقبه بطرف العين، أشبه بزاحفة تحرس فريستها. قال أبي:

- موافق.

وبدأ مباشرة في تكديس أمتعتنا في ركن من الغرفة. تنفس السمسار الصعداء وقال مبتهجا:

- المراحيض الجماعية في عمق الفناء. توجد بئر ولكنها جافة في هذه الأيام. يجب السهر على عدم اقتراب الأطفال من البئر. لقد سقطت بداخلها طفلة صغيرة في السنة الماضية لأن غبيا نسي إعادة الغطاء فوق الثقب. باستثناء هذا، الأمور الأخرى على أحسن ما يُرام. المستأجرون ناس يلتزمون حُدودهم وبلا مشاكل. أتوا جميعا من أعماق البلد للارتزاق ولا يشتكون أبدا. إذا احتجتم إلى أي شيء، اتصلوا بي، بي وحدي، أضاف ملحا. لي معارف كثيرة وبإمكاني أن أدبّر لكم أي شيء تطلبونه، في النهار كما في الليل، إذا عندكم المال طبعا. وأذكركم أنني أكري الحصائر والأغطية والمصابيح والمواقد البترولية. يكفي أن تطلبوا. سآتيكم بالعين في قبضة يدي إنْ دفعتم ثمنها.

لم يكن أبي يستمع إليه؛ بدأ يكرهه. وفيما كنا ندخل قليلا من النظام لبيتنا الجديد، رأيت عمي يُبعد السمسار ويدس خلسة شيئا ما في يده.

- هذا يكفي لتبتَعد عنهم بعض الوقت.

عرض السمسار الورقة النقدية إلى الشمس وتملاها بابتهاج خبيث. ثم وضعها ضد جبهته وبعد ذلك ضد فمه ونبح:

- ربما ليست للنقود رائحة، ولكن إلهي كم أشمّ فيها رائحة طيبة.

2

ليس لدى أبي الوقت لتضييعه. أراد العودة إلى حياة طبيعية في أقرب وقت. ابتداء من يوم الغد، عند الفجر، جرّني معه للبحث عن سُخرة بإمكانها أن تكسبنا بعض القطع النقدية. غير أنه لا يعرف الشيء الكثير عن المدينة ولا يعرف من أين تؤكل كتفها. رجعنا مع غروب الشمس بخفي حنين، يرهقنا التعب. خلال ذلك، قامت أمي بتنظيف جحرنا وأدخلت قليلا من النظام في أمتعتنا. تعشينا بفظاظة ونمنا مباشرة. في اليوم الموالي، قبل الفجر، عدنا، أبي وأنا، للبحث عن شغل. بعد مشي طويل وشاق، جذب ازدحام انتباهنا.

- ما هذا؟ سأل أبي متسوِّلا ملفوفا في أسماله.

- يبحثون عن أذرع لتفريغ شحنة باخرة في الميناء.

اعتقد أبي أنه بصدد الإمساك بخيط الجنة. أمرني بانتظاره على شرفة مطعم عتيق وانقضّ وسط المجموعة. رأيته يُحَرّك ذراعيه شمالا ويمينا قبل أن يختفي داخل الحشد. حينما غادرت الشاحنة المعبأة بالقرويين، لم أجد أثرا لأبي؛ لقد نجح في الركوب معهم.

انتظرته ساعات طويلة تحت الشمس الساحقة. غير بعيد عني، قرب الأكواخ الخشبية، يتزاحم ناس بأسمال رثة، واقفون، مقرفصون، جامدون تحت ظل ملاجئهم التعيسة. كانت أنظار الجميع تائهة، وعلى وجوههم قطعة من الليل الحالك. بدا كما لو أنهم يترقبون في صبر معتم شيئا قد لا يأتي أبدا. عند حلول المساء، تبعثر أغلبهم في صمت، يائسين من كظم غيظهم. لم يبق في الضواحي إلا المشردون وبعض المجانين الصارخين وأشخاص مشبوهون بعيون ذئبية. فجأة صرخ أحدهم "سرّاق"، فحدث هرج ومرج، كأنّ مغارة علي بابا انفتحت فجأة: اشرأبت الأعناق، تمدّدت الأجساد كما الزنابك؛ فرأيت بأمّ عينيّ حفنة من صعاليك متسخين يهجمون على طفل رث الأسمال وهو يحاول التملص منهم. إنه السارق. تمّ رجمه في لمح البصر، وسط صراخ طارد نومي لأسابيع. حينما نُفذت العقوبة، لم يبق وسط الغبار إلا جسد الفتى المتصدّع والغارق في بركة من الدم. صُعقت، فقفزت إلى السقف حينما اقترب مني رجل. قال رافعا يديه إلى الأعلى لطمأنتي:

- لا أريد تخويفك يا بني. أنت هنا منذ الصباح. الآن يجب أن تلتحق ببيتك. هذا المكان لا يليق بك.

- أنتظر أبي... لقد ذهب مع الشاحنة ولم يعد بعد.
- وأين يوجد أبوك الأحمق؟ كيف ينسى ابنه في مثل هذا المكان... أتسكن بعيدا؟
- لا أعرف...
بدا الرجل حائرا. إنه ضخم وطويل القامة، بذراعين مشعرين، ووجه حرقته الشمس وعين مشوّهة. ألقى نظرة حواليه، يداه على خصريه، ثمّ وعلى مضض دفع نحوي مقعدا ودعاني إلى الجلوس إلى طاولة اسودّت من الوسخ.
- سيُظلم الليل بعد قليل، وحان وقت غلق المحل. لا يمكنك البقاء هنا، أفهمت؟ المكان غير آمن. لا يقيم فيه إلا المجانين... هل أكلت؟
أشرت أنْ لا بحركة من الرأس.
- كنت شاكا في الأمر.
دخل إلى المطعم وعاد بصحن معدني تجمد فيه حساء ثخين.
- ليس لديّ الخبز...
اتخذ مكانه إلى جانبي، ألقى إليّ نظرة حزينة وأنا أغطس المغرفة داخل الصحن. قال متنهدا:
- إنّ أباك أحمق حقا.
سقط الليل. أغلق الطباخ محلّه، ولكنه لم يذهب. علّق مصباحا على خشبة وبقي معي، في سحنة مكفهرة.
في الساحة الغارقة في العتمة، تتحرك أشباح هنا وهناك. استولى فريق من لا مأوى لهم على جميع الزوايا، التف بعضهم حول نار من الحطب، وتمدّد البعض الآخر على الأرضية مباشرة استعدادا للنوم. مرّت الساعات، انخفض الضجيج، ولم يظهر أبي بعد. كان غضب الطبّاخ يتصاعد رويدا رويدا كلما مرّ الوقت. تأخّر عن الرجوع إلى بيته، وفي الوقت نفسه يدرك أنه إذا تركني بمفردي سأتعرض لا محالة للاعتداء.
حينما ظهر أبي أخيرا، شاحب الوجه، قلقا، صرخ الطباخ في وجهه:
- أين تحسب نفسك يا شقي؟ في مكّة؟ ماذا حدث لك حتى تنسى ابنك في مكان مثل هذا؟ هنا لا ينجو من الاعتداء من كان صنديدا متعوّدا على المعارك، فماذا نقول عن ابنك المسكين؟
كان أبي مسرورا جدا برؤيتي إلى حدّ أنه ابتلع لوم الطباخ مثلما يُبتلع العسل. أدرك أنه أخطأ خطأ جسيما وأنه لولا أن الطباخ وقف إلى جانبي، لما عثر عليّ ثانية. ردّ متلعثما:

- ذهبت مع الشاحنة. ظننت أنهم سيرجعوننا إلى هذا المكان. أخطأت التقدير. أنا لست ابن هذه المدينة. والميناء بعيد جدا عن هذا المكان. فتُهت ولم أعرف طريقي ولا كيف أعود إلى هذا المكان. قضَيت ساعات طويلة وأنا أدور في الأزقة دون أن أعثر على هذا المكان.
صرخ الطباخ وهو ينزع المصباح من الخشبة:
- رأسك هو الذي لا يدور بالشكل المناسب، يا أخي. إن مَن يبحث عن العمل، يترك ابنه في البيت... الآن، سيرا ورائي، واحذرا أين تحطان أرجلكما. سنعبر أقذر حفرة الأفاعي خلقها الله على وجه الأرض. قال أبي:
- لا أعرف كيف أشكرك.
- لم أقم بعمل جبار. لا أحب أن يتعرّض الأطفال للأذى، هذا كل ما في الأمر. كنت سأبقى إلى جانبه إلى غاية الصبح. لم يكن لينجو لو تركته وحيدا في عش الأفاعي هذا. وكان ضميري سيؤنبني كثيرا.
ساعدنا على الخروج من المهلكة بلا عناء، وشرح لنا كيف نتجنب الأحياء الخطيرة كي نعود إلى بيتنا سالمين قبل أن يختفي في العتمة.

طبق أبي توصيات الطباخ بالحرف الواحد. سلّمني لأمي. في الصباح عندما استيقظت، كان قد غادر المنزل. في المساء حينما يعود أكون نائما.
لم أعد أراه.
اشتقت إليه.
لا يوجد شيء لي في الفناء. ضجرت. لقد تربيت وحدي، صديقي الوحيد كلب عجوز. لذلك لم أعرف كيف أنضم إلى الأطفال المتشاجرين بلا انقطاع في الساحة. كما لو أنهم عفاريت في حالة هيجان. كانوا أصغر مني، بعضهم لا يكاد يظهر من الأرض ومع ذلك يقومون بضجيج يوقظ الميت من قبره.
كنت أجلس عند عتبة بابنا وأكتفي بمراقبتهم، تبعدني عنهم ألعابهم المذهلة التي تنتهي دوما بقوس حاجب مفتوح أو ركبة مقشرة.
تقتسم ساحتَنا خمسُ عائلات، جاءت كلها من المدن الداخلية؛ فلاحون مفلسون أو خمّاسون انتهى إيجارهم. في غياب الرجال الذين يغادرون البيت عند الفجر بحثا عن القوت، تلتقي النساء حول البئر ويحاولن منح روح لثقوب الجرذان التي تأوينا، غير منزعجات من المشاجرات الصاخبة التي يخوضها أولادهن. بالنسبة إليهن، إنّ الأشقياء يتدرّبون على مواجهة مصائب الحياة. ومن الأفضل أنْ يبكّروا على التدريب.

كانت اللكمات والركلات التي يتبادلها الأطفال تُدخل في نفوسهن ابتهاجا فعليا لأنهم مباشرة بعد حصص ذرف الدموع والصراخ، يتصالحون لحظة قبل أن يستأنفوا عداواتهم بقتالية مدهشة... تتفاهم النساء بينهن جيدا، يتكاتفن في أوقات الشدّة. حينما تمرض واحدة منهن، يتفقن على وضع شيء في قدرها، يعتنين برضيعها، ويتداولن على خدمتها. يحدث لهن أن يتقاسمن طرف حلوة ما، ويبدو أنهن يتأقلمن مع مشاكلهن الصغيرة برزانة مؤثّرة. وجدتهن رائعات.

هناك بَدرَة، الأمازونية الضخمة، التي تموت في قص الحكايات الفاحشة. كانت جرعة الأوكسجين التي تبهجنا. كانت فجاجة أقوالها تحرج أمي، ولكن الأخريات كنّ شغوفات بسماع حكاياتها. كانت بدرة أما لخمسة أطفال ومراهقَين صعبي المراس. في المرة الأولى، تزوّجت راعي أغنام أبله، يكاد يكون متأخرا عقليا، تقول عنه بأنّه مسلح كالحمار ولكنه لا يعرف شيئا عن شؤون الحياة الزوجية...

هناك باتول، نحيفة وخمرية مثل حبة قرنفلة، شابت وهي في الأربعين، وجهها مليء بالوُشوم، تنفجر ضاحكة قبل حتى أن تفتح بدرة فمها. زُوِّجت قسرا لشيخ في سن جدها، تدّعي أنّ لها قدرات خارقة –تقرأ في خطوط اليد وتفسِّر الأحلام. تأتي النساء من الحي ومن أمكنة أخرى لاستشارتها. تقرأ لهن مستقبلهن مقابل بعض حبات بطاطا، قطعة نقدية أو علبة صابون. أما سكان الساحة فبالمجان...

هناك يَزَّة، سمينة شقراء بصدر ضخم، يضربها زوجها السكير تقريبا كل ليلة. تحدّب رأسها من كثرة الضرب المبرّح الذي تتلقاه كل ليلة، ولم يبق لها من أسنان إلا القليل. عيبها أنها لا تنجب، مما يضاعف غيظ زوجها اتجاهها.

هناك ماما، غارقة إلى الرقبة وسط عش من الأطفال الهائجين، تقوم بشغل عشر خادمات، مستعدة لتقديم أي تنازل كي تمنع سقفها من السقوط على رأسها...

ثمّ هناك حدّة، جميلة كما حور الجنة، لم تكد تخرج من المراهقة حتى وجدت نفسها تعيل طفلين. خرج زوجها ذات صباح يبحث عن الشغل ولم يعد. فبقيَت وحيدة، لا مورد لها ولا معالم تستأنس بها، فلولا تضامن الجيران لاضطرت إلى التسوّل أو ربما إلى ما هو أبشع.

كل يوم، تلتقي النساء حول البئر ويقضين معظم الوقت في الحفر في الماضي مثلما يُحرَّك سكّين داخل جرح. يتحدثن عن بساتينهن المسلوبة، عن هضابهن الخضراء المفقودة إلى الأبد، عن الأقرباء المتروكين هناك، في بلد جميع المصائب، وقد لا تراهن ثانية أبدا. حينئذ تذبل الوجوه حزنا وترتج الأصوات. وحينما تهدّد الأشجان بجرفها، تقفز بهن بَدرة إلى ملابسات مضاجعاتها مع زوجها الأول، وكما العصا

السحرية، ترخي الذكريات الحزينة مخالبها السامة، فتتمرغ النساء وهن ينفجرن ضاحكات؛ تستعيد الأمزجة المرحة سطوتها ويسترجع الفناء شيئًا من روحه.
يتواصل المزاح إلى غاية سقوط الليل. أحيانا، يستغل بْليس غياب الرجال ويدخل إلى الفناء مستعرضا عضلاته. بمجرد أن تسمع النساء نحنحاته في الرواق، يتبخرن. يهجم السمسار على الفناء الخالي ويوبّخ الأطفال الذين لا يشمّهم، يختلق مشاكل تافهة وينطلق في وصفنا بأشقياء جحودين وبالحشرات لمجرد خربشة لاحظها على الجدار. يقف مقابل غرفة حدّة، وبخبث قملة عوراء، يهدّد بطردنا جميعا إلى الشارع. حينما يغادر الفناء، تخرج النساء من جحورهن مقهقهات، متسليات أكثر، غير خائفات من عنتريات السمسار. كان بْليس يتظاهر برجولة فائقة ولكنه لم يكن قدّها. أبدا، لم يتجرَّأ على إظهار وجهه الشبيه بوجه الجرذ في حضور رجل من الرجال، وإنْ كان طريح الفراش وسط الساحة. كانت بَدْرَة مقتنعة أن بْليس يطارد حدّة. كانت المرأة الشابة فريسة سهلة، فقيرة وهشة، زادها تأخرها في دفع الكراء هشاشة؛ كان السمسار يضغط بقوة كي يُرضِخها.
كي تجنِّبني أمّي بذاءات بَدْرَة، أذنت لي بالخروج إلى الشارع- إذا كنا نسمّي هذا شارعا. إنه درب مُحفّر، تحيطه من الجانبين أكواخ من الزنك وبيوت حقيرة متعفنة. يوجد منزلان فقط بمادة صلبة: حَوْشنا وشبه إسطبل تتكدّس بداخله عدّة عائلات. في الركن، يشتغل الحلاق، هزيل بلا عمر محدّد، قصير القامة لا يكاد يتجاوز الصندوق الخشبي الخاص بجلوس الزبائن، ضامر إلى حدّ أن الأذْرُع الخشنة ترفض دفع ثمن خدماته. عيادته على الهواء الطلق، تتشكّل من صندوق ذخيرة حربية جلبه من مفرغة عسكرية، من قطعة مرآة التقطها من خزانة مهملة ومن لوحة مهترئة عليها إناء معدني وغُرَيرية متنسّلة للصابون ومقص معوج وتشكيلة من الشفرات غير المستعملة. حينما لا يحلق ذقن الشيوخ الجالسين على الأرض، يقرفص إزاء صندوقه ويغني. صوته مبحوح والكلمات مكسّرة، ولكن شيئا ما في تضرّعه يجعل غناءه مؤثرا. لا أملّ من سماعه.
إلى جانب الحلاق ترتفع كومة من الأشياء الغريبة تنتحل شخصية دكان مواد غذائية. يُدعى الدُكاني "ساق الحطب"؛ جندي خيالة سابق مسرَّح، ترك جزءًا من جسده في حقل ألغام. إنها المرّة التي أرى فيها ساقا من حطب. انتابني إحساس غريب. بدا الدكاني مفتخرا بها؛ يحب إشهارها في أنوف الأطفال الذين ينقبون حول أكياسه. لم يكن "ساق الحطب" راضيا عن تجارته. تنقصه رائحة البارود وجلبة الثكنات. يحلم بالرجوع إلى صفوف الجيش وخوض المعارك مع العدو. في انتظار أن تنبت ساقه

المبتورة من جديد، يبيع المصبرات المهربة وأرغفة السكر والزيت المغشوش. في أوقات فراغه، يمارس مهنة قلع الأسنان –رأيته مرارا يقلع بقايا أسنان أطفال مسوّسة بكَلاّبة صدئة؛ فكان كما لو أنه يقلع قلوبهم.
ثمّ هناك الأرض الخلاء المُمتدّة إلى غاية أحراش مخيفة. غامرت باتجاهها ذات صباح، متسليا بالمعارك الطاحنة التي تقودها مجموعتان من الأطفال، الواحدة يقودها دحّو، متوحش برأس حليق مع خصلة شعر مجعدة تتدفق على جبهته، والأخرى يقودها فتى كبير السن، أغلب الظن أنه متخلف عقليا، يتصوّر نفسه غازٍ حقيقي. كما لو أن الأرض انفتحت تحت قدميّ. في لمح البصر، تقاذفتني زوبعة من الأذرع، وجرِّدت من نعليّ وعباءتي وشاشيتي قبل أن أفهم ما يحدث لي. بل حاول بعضهم أن يجرني خلف الأحراش كي يدنسوا عرضي. أجهل كيف استطعت التخلص من الرهط؛ لقد صُدِمت في عمق أعماقي، ولم أضع قدميّ ثانية في تلك الأقاليم الملعونة.
كان أبي يجدف مثل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة، ومع ذلك بقي يدور في حلقة مفرغة. كَثُر المُبكّرون والتوظيف مادة نادرة. بؤساء لا حصر لهم يلفظون أنفاسهم في المزابل، بطونهم لاصقة في ظهورهم، والناجون لا يتردّدون في بقر بعضهم البعض من أجل قطعة خبز زنخة. الأوقات صعبة، والمدينة التي روّجت لنا آمالا كبيرة، اتضحت لنا خدعة فظّة مرعبة. مرة على عشرة، يتمكن أبي من خطف شغل مستعجل لا يدر له حتى ما يكفيه لشراء قطعة صابون ينظف نفسه من غبار وعرق السخرة. في بعض الأماسي، يرجع إلى البيت مترنحا، بوجه جهم وظهر متألم من كثرة الأثقال التي يحملها طوال النهار، فيكون في حالة انهيار قصوى بحيث ينام على البطن. كان مرهقا وبالأخص يائسا. يتشقق عناده تحت ثقل الشك.
مرت أسابيع. يضمر أبي على مرأى العين. أضحى سريع الغضب ويعثر في كل مرة على ذريعة ليفرغ غيظه على أمي. لا يضربها؛ يكتفي بالصراخ والتوبيخ، وأمي الصبورة تطأطئ رأسا آثما ولا تقول شيئا. انفلتت الأمور من بين أيدينا وامتلأت لياليا غيظا. لم يعد أبي يغمض له جفن. لا يتوقف عن التذمر والضرب بيديه. أسمَعه يذرع الغرفة تائها في العتمة؛ أحيانا يخرج إلى الفناء ويجلس على الأرض، ذقنه بين ركبتيه والذراعان حول ساقيه إلى غاية طلوع النهار.
ذات صباح، أمرني بارتداء عباءة نظيفة وأخذني عند أخيه. كان عمي بداخل صيدليته يرتّب علبه وقواريره على الرفوف.
تردّد أبي قبل أن يدخل إلى المحل. لأبي أنفه زائدة، فبقي يدور طويلا حول الموضوع، مرتبكا، قبل أن يكشف عن سرّ زيارته: إنه بحاجة إلى نقود... مباشرة أدخل عمي يده

في الدرج-الصندوق، كما لو أنه كان يتوقع سبب زيارة أخيه، وأخرج ورقة نقدية عريضة. نظر أبي إلى الورقة بسحنة مضطربة. أدرك عمي أن أخاه سوف لن يمدّ يده. استدار المصرف ووضعها له في جيبه. بقي أبي خافض الرقبة، مُتجمدا. وحينَما نطق بكلمة "شكرا" كان صوته أبح، أطرش، لا يكاد يُسمع.
عاد عمي إلى مكانه. بدا كما لو أنه يخفي شيئا في قلبه ولا يتجرأ على إفراغه. لم يتوقف بصره عن كيل بصر أبي، فيما كانت أصابعه البيضاء النظيفة تدق بعصبية على خشب المصرف. بعد أن وزن بعناية الإيجابي والسلبي، استرجع رباطة جأشه وقال:
- يا عيسى، أعرف أن الوضع صعب للغاية. ولكنني متيقن بأن حالتك ستتحسن مع الوقت... لو تتركني أساعدك قليلا؟
قال أبي واعدا:
- سأسدّد الدين إلى آخر سنتيم.
- ليس هذا قصدي يا عيسى. سدّد دينك متى شئت. لو كان الأمر بيدي، لستَ مجبرا على دفه شيء. أنا مستعد لإعطائك أكثر. لا يطرح أي مشكل عندي. أنا أخوك، مستعد لمساعدتك في أي وقت وبأي شيء تريده.
تنحنح وأضاف:
- لا أعرف كيف أشرح لك ما أريد قوله. وجدت دوما عوائق كثيرة للحديث معك. أخاف أن أجرح كبرياءَك في وقت لا أرغب إلا أنْ أكون أخاك. يا عيسى، حان الوقت لتتعلّم السماع. لا عيب في سماع نصائح الغير. الحياة تعلّم مستمر؛ كلما اعتقدنا أننا نعرف، كلما صدمنا بحقيقة جهلنا، ذلك أنّ الأشياء تتغيّر بسرعة ومعها الذهنيات.
- سأتدبّر أمري...
- لا أشك في هذا يا عيسى. ولا لحظة واحدة. غير أنّ الإرادة الحسنة تشترط وسائل إصرارها. الإرادة الحسنة وحدها لا تكفي.
- ماذا تقصد بأقوالك يا ماحي؟
ضغط عمي على أصابعه بعصبية بالغة. بحث عن كلماته، أدارها مرارا في ذهنه، ثمّ، وبعد تنهد قال:
- لك زوجة وطفلان. عبء ثقيل بالنسبة لرجل معدم؛ يقيّد يديك، يلوي جناحيك.
- إنها عائلتي.
- أنا أيضا عائلتك.
- يختلف الأمر.

- الأمر سيان، يا عيسى. ابنك حفيدي. إنه من دمي. اتركه عندي. تعرف جيدا أنه لن يحقق شيئا ذا بال في جرتك. ما هي المهنة التي تريد تلقينها إياه؟ حمّال، ماسح أحذية، بغّال؟ يجب أن ترى الواقع كما هو. برفقتك لن يذهب الطفل بعيدا. إن هذا الطفل بحاجة إلى الدخول إلى المدرسة، إلى تعلّم الكتابة والقراءة، إلى أن يعيش طفولة طبيعية. أعرف أن أولاد العرب لا يُوجَّهون إلى الدراسة، بل مصيرهم مرتبط بالحقول ورعي الغنم. أمّا أنا فأستطيع أن أبعثه إلى المدرسة وأجعل منه رجلا متعلما... أرجوك عيسى، لا تسيء فهم طلبي. فكّر بعقلك ولو دقيقة واحدة. إن هذا الطفل لا مستقبل له معك.

تأمل أبي طويلا أقوال أخيه، خافض العينين وجامد الفكين. حينما رفع رأسه، لم يكن له وجه؛ لقد تغلفت تقاسيمه بقناع شاحب.

قال بيأس مطبق:

- دائما هكذا، لن تفهمني أبدا يا أخي.

- لا تتصرف كالأحمق يا عيسى.

- أسكت... من فضلك، لا تزد كلمة... أنا لا أملك معرفتك، وأتأسف على ذلك. ولكن إن كانت المعرفة تتمثل في إهانة الغير، ليس لي حاجة بها.

حاول عمي أن يقول شيئا؛ أسكته أبي بحركة يد صارمة. أخرج الورقة النقدية من جيبه وحطّها على المصرف.

- لا أريد نقودك أيضا.

وعلى هذا، أمسكني من الذراع بضغينة خلت معها أنه نزع لي كتفي ودفعني إلى الشارع. حاول عمي اللحاق بنا؛ ولكنه لم يتجرأ على متابعتنا وبقي واقفا قرب محله، متأكدا أن الخطأ الذي ارتكبه قبل قليل لن يغتفر له أبدا.

لم يكن أبي يمشي، بل كان يتدحرج مثل جلمود صخر على منحدر هضبة. لم أره في نوبة غضب مماثلة. كان على قاب قوسين أو أدنى من الانفجار. ترتعد قسمات وجهه؛ عيناه تبحثان عن كيفية ردم العالم تحت الأرض. لمْ يقل شيئا، وأضاف صمته الدفين إلى هيئته ضغطا أرعد أحشائي وجعلني أخشى وقوع مصيبة.

حينَما ابتعدنا، ألصقني ضد جدار وأغرق بصره المجنون في عينيّ الهلعتين؛ إطلاق مدفعية لم تكن تهزني من الرأس إلى القدمين بتلك الفظاظة. قال بصوت مخنوق:

- هل تعتقد أنّني لا أساوي شيئا؟ هل تعتقد أنني أنجبت طفلا كي أرميه لكلاب مسعورة تنهش لحمه دون أن أفعل شيئا؟ مُخطئ أنتَ على طول الخط إنّ تصوّرت أن

هذا صحيح. وعمّك المزيّف مخطئ هو أيضا. والقدر الذي يظن أنه سيهيننني مخطئ هو أيضا... أتعرف لماذا؟... ربّما قهرتني الحياة بَعْض الوقت، ولكنني لا أزال على قيد الحياة. وما دمت حيّا، سأفعل المستحيل للخروج من هذه الحفرة العفنة. عندي صحة ثور، وذراعايّ يرفعان جبلا وكرامتي ليست للبيع، مهما كان الثمن.
انْغَرزَت أصابعه في كتفيّ، أوجعتني. لم ينتبه لذلك. كانت عيناه تلمعان في وجهه مثل عيني مَجنون.
- صَحيح أنني لم أكن قادرا على إنقاذ أراضينا، ولكنك تتذكّر جيدا، زرعت القمح وكان المحصول سيكون وافرا لولا تلك المصيبة التي حدثت. وهذا ليس خطئي أنا. عادة ما تنهار الجهود والأدعية أمام جشع العباد. كنت ساذجا. لم أعد كذلك الآن. لا أحد سيطعَنني في الظهر... سأنطلق من الصفر، ولكنني سأنطلق بحذر يقظ.
سأشتغل أكثر مما يفعله العبيد، سأواجه نوائب الدهر، وسترى بعينيك شجاعة أبيك وعزيمته التي لا تقهر. سنخرج من هذه الحفرة اللعينة التي تكاد تبتلعنا، سننتقم لأنفسنا، أقسم لك. هل تصدّقني أنت أم لا؟
- نعم أبي.
- حدّق جيدا في عينيّ وقل لي بأنك تصدّقني.
لم يكن لأبي عينان، وإنما جيبان من الدموع والدماء يهددان بإغراقنا نحن الاثنين.
- أنظر إليّ.
أمسكت يده ذقني بعنف وأرغمتني على رفع رأسي.
- أنت لا تصدّقني، أليس كذلك؟
كان حلقي مسدودا ومختنقا. لم أقدر على الكلام ولا على مقاومة نظرته. يده هي التي أبقتني واقفا.
فجأة، ارتطمت يده الأخرى على خدي.
- لا تقول شيئا لأنّك تفكّر بأنني أهذي. أيها الطفل الوقح. ليس من حقك أنْ تشك فيّ، أتسمع؟ ولا أحد يملك حق الشك فيّ. إذا كان عمّك القذر يحتقرني ولا يراني قادرا على إعالة عائلتي، فإنّه ليس أحسن مني على الإطلاق.
إنها المرّة الأولى التي يرفع يده عليّ. لم أفهم، أجهل خطئي والسبب الذي جعله يفرغ شحنة غيظه عليّ. خجلت من أن أكون السبب في إغضابه، كما خفت أن ينكرني، هو الذي يمثل أعز شيء في عينيّ.

رفع أبي يده ثانية ولكنه تركها معلقة. أصابعه ترتعش. عيناه المحتقنتان تشوّهان وجهه. أطلق صرخة بهيمة جريحة، جذبني إلى صدره شاهقا، ضمني إليه بشدّة، ولمدّة طويلة إلى حدّ أحسست أنني سأموت.

3

استقرت النساء في ركن من الفناء حول مائدة صغيرة. يرتشفن الشاي وهنّ يتدفأن تحت الشمس. كانت أمّي بينهن، متحفظة، وأختي زَهْرَة بين ذراعيها. انتهى بها الأمر إلى الانضمام إليهن دون أن تشاركهن الحديث. أمّي خجولة، وغالبا ما تحمر وتكاد تختنق من الضيق حينما تنطلق بَدْرَة في حكاياتها الفاحشة. في هذه الظهيرة، كان الحديث متشعبا، ينتقل من الديك إلى الحمار، فقط لمقاومة حرارة الفناء المسيّلة للعرق.
كانت عين يزَّة الصهباء سوداء منتفخة؛ لقد عاد زوجها بالأمس ثملا. تصرّفت الأخريات كما لو أنّ شيئا لم يحدث؛ حياءً واحتراما. حافظت يزَّة على كرامتها؛ تواجه نذالة زوجها بعزّة نفس.
قالت ماما لباتول العرّافة:
- منذ فترة، أرى حلما غريبا. يتكرّر دائما: أكون وسط الظلمة، ممدّدة على البطن، وشخص يغرس لي خنجرا في ظهري.
التفتت النساء نحو باتول، يترقبن تفسيرها. مطّت العرافة شفتيها، حكّت شعرها؛ لا ترى شيئا.
- قلتِ بأنه نفس الحلم.
- نعم، نفسه تماما.
سألت بَدرة:
- أنت راقدة على بطنك، في الظلام، وشخص يطعنك بالخنجر في الظهر.
ردّت ماما مؤكّدة:
- هذا هو الضبط.
أضافت بدرة وهي تلعب بعينيها متسلية:
- أنت متأكّدة أنّه خنجر وليس شيئا آخر؟
مرّت بعض الثواني قبل أن تدرك النساء تلميحات بدرة ويغرقن في الضحك. وبما أنّ ماما لم تفهم سبب غرق جاراتها في الضحك، ساعدتها بدرة قليلا:
- يجب أن تقولي لزوجك بأن يخفف من اندفاعاته.
ردّت ماما بعصبية:

- أنت دائما هكذا، ليس في فمك إلا الكلام القبيح. أنا جادة فيما أقول.
- وأنا أيضا، لست أقل جدية منك.
استأنفت النساء ضحكاتهن من جديد، الأفواه مفتوحة على اتساعها في حَمْحمات مرتعدة. حردت منهن ماما بعض اللحظات، منزعجة من قلة حيائهن، ثمّ حينما رأتهن غارقات في قهقهات متواصلة، بدأت تبتسم بدورها، قبل أنْ تنفجر بضحكات متقطعة.
وحدها حدّة لم تضحك. كانت منكمشة على ذاتها، تبدو ضئيلة ولكن جمالها يُسلِب العقل، بعينيها الواسعتين كعيني عروس البحر ووجنتيها الجميلتين على خديها. بدت حزينة ولم تنبس ببنت شفة منذ أن أخذت مكانها وسط الأخريات. فجأة، مدّت ذراعها فوق المائدة وقدّمت راحة يدها لباتول.
- قولي لي ماذا ترين؟
يحمل صوتها حزنا كبيرا.
تردّدت باتول. ولكن أمام هلع نظرة المرأة الشابة، مسكت اليد الصغيرة من طرف الأصابع ولمست بظفرها الخطوط التي ترتسم على الكف الشفاف.
- تملكين يد جنية، يا حدّة.
- قولي لي ماذا ترين يا جارتي العزيزة. أريد أن أعرف، لم أعد قادرة على التحمل.
تأملت باتول طويلا راحة اليد الممدّدة. في صمت.
نطقت حدّة يائسة:
- هل ترين زوجي؟ أين هو؟ ماذا يفعل؟ هل اتخذ زوجة أخرى أم مات؟ أتوسّل إليك، قولي لي ماذا ترين. أنا مستعدّة لمواجهة الحقيقة مهما كانت مرارتها.
تنهدّت باتول؛ ارتخت كتفاها.
- لا أرى زوجك في هذه اليد، يا عزيزتي المسكينة. في أي مكان. لا أحسّ بحضوره ولا بأي أثر له. إما أنه ذهب بعيدا جدا، ونسيك تماما، أو أنه ليس من هذا العالم.
شيء مُؤكّد، إنه لن يعود إليك.
شهقت حدّة ولكنها تماسكت. تشبّثت عيناها بعيني العرافة.
- ماذا يخبئ لي المستقبل يا جارتي العزيزة؟ ما مصيري، أنا وَلِيّة وحيدة بطفلين صغيرين، بلا عائلة، بلا عائل يتكفل بي؟
قالت بدرة:
- سوف لن نتركك تضيعين.
ردّت حدّة:

- إذا كان زوجي تركني أضيع، لا يمكن لأيّ ظهر أن يحملني. قولي لي يا باتول، كيف يكون مصيري؟ يجب أن أعرف. حينما يكون المرء على دراية بوقوع مصيبة، يتلقى ضرباتها بصبر.

انحنت باتول على يد جارتها، مرّت ظفرها مرارا على الخطوط المتقاطعة.

- أرى كثيرا من الرجال حولك يا حدّة. ولكن قليلا من الفرح. السعادة ليست ديدنك. أرى انفراجات صغيرة، يلتهمها تدحرج السنوات بسرعة. مناطق ظل وشجن، ومع ذلك فأنت صامدة لا تستسلمين.

- كثير من الرجال؟ هل أصير أرملة أو مطلقة مرات عديدة؟

- الرؤية مُضبّبة. يوجد كثير من الناس حولك، وكثير من الضجيج أيضا. يشبه حلما، ولكنه ليس كذلك. إنه... إنه أمر غريب. ربّما أنا أهذي فقط... أشعر بالتعب يسري في جسدي اليوم. أعذريني...

وقفت باتول والتحقت ببيتها بخطى واهنة.

انتهزت أمي ذهاب العرافة لتنسحب بدورها. وحينما دخلنا غرفتنا وبّختني بصوت خفيض خلف الستار:

- ألا تخجل بجلوسك مع النساء؟ كم مرة قلت لك أن الأطفال لا ينبغي أن يسمعوا ما تحكيه الأمهات؟ أخرج إلى الشارع ولا تبتعد كثيرا.

- لا يوجد شيء لي في الشارع.

- ولا يوجد شيء لك بين النساء كذلك.

- سأتعرّض للضرب مرة أخرى.

- ما عليك إلا أن تدافع عن نفسك. أنت لست طفلة. عاجلا أو آجلا، يجب عليك أن تدبّر أمرك بمفردك، ولن تتوصل إلى ذلك بسماعك لثرثرات النساء.

لا أحب الخروج. إنّ الاعتداء الذي تعرّضت له في ميدان اللعب قرب الأحراش ترك في نفسي هلعا شديدا. لا أغامر بالخروج إلا بعد إلقاء نظرة متفحصة للضواحي، عين أمامي، وعين خلفي، على أهبة الركض لأدنى حركة مشبوهة. بداخلي رعب أسود من أطفال الحي وبالأخص ذلك المسمى "دحّو"، طفل قصير القامة، قميء الوجه وماكر كالشيطان. كان يرعبني. بمجرد أن يظهر طرف أنفه في آخر الزقاق إلا وأشعر بجسدي يتفتت إربا إربا؛ كنت سأعبر الجدران كي لا أقع في قبضته. كان طفلا غامضا، مخاتلا كما الصاعقة. يُقرصن الضواحي على رأس عصابة من فتيان ابن آوى أكثر خداعا وشراسة منه. لا أحد يعرف من أين جاء ولا من هي عائلته، ولكن الجميع يتفق على أنه سينتهي على طرف حبل المشنقة أو بطعنة وتد في الرأس.

ثمّ هناك "ألمورو" –سجين سابق نجا من سبع عشرة سنة من الأشغال الشاقة. كان طويل القامة، شبه عملاق، بجبهة عريضة وأذرع هرقلية. يحمل الوشوم على كامل جسده وشريطا أسود فوق عينه المفقأة. على وجهه ندبة تمتد من الحاجب الأيمن إلى الذقن، تشق فمه إلى قسمين. كان "ألمورو" هو الرعب في أبشع أشكاله. حينما يعلن عن حضوره في مكان ما، تتوقف الأصوات فجأة وينسحب الناس خلسة مطأطئي الرؤوس. ذات صباح، رأيته عن قرب. كنا مجموعة من الأطفال ملتفين حول "ساق الحطب"، الحانوتي. يحكي لنا الخيّال السابق عن بطولاته الحربية في الريف المغربي –لقد خاض حربا ضد المتمرّد البربري عبد الكريم. كنا نشرب من ينابيع شفتي بطلنا حينما رأينا وجهه يصفر. بدا لنا كما لو أن أزمة قلبية بدأت تعصف به. أخطأنا التقدير: كان "ألمورو" واقفا خلفنا، مخيّما على ساقيه الصلبتين، يداه على وركيه. يحدّق في الحانوتي مقهقها.

- أتريد أن تبعث هؤلاء الأطفال إلى جبهة القتال، يا رأس الحطب؟ لهذا تملأ رؤوسهم بحكايات المهزومين؟ لماذا لا تروي لهم كيف رماك ضباطك إلى الكلاب بقدم ناقصة بعد سنوات من الخدمة الوفية؟

فجأة، فقد "ساق الحطب" القدرة على استعمال الكلام؛ كان فمه يتحرك في الهواء مثل فم سمك خارج الماء.

واصل "ألمورو" بغيظ أكبر:

- تحرق محصول القرى البعيدة، تقتل أغنامهم، تتهجّم على المساكين بضربات البنادق، وبعد ذلك تأتي هنا لتعرض انتصاراتك القذرة في الساحة العمومية. وتسمي هذه حربا؟... أتريد أن أقول لك؟... لست إلا نذلا، وتثير في نفسي قرفا عفنا. بي رغبة دفينة في شَويك على اللوحة التي تستعملها كقدم حتى تخرج عيناك من أذنيك... إن الأبطال أمثالك لا يستحقون نصبا تذكارية، ولا حتى كلمة صغيرة على الحفرة الجماعية التي سيحشرون بداخلها. ما أنت إلا بيّاع قذر، يفكّر بتغطية وجهه بإدخالها في رايات أسياده.

كان الخيّال المسكين يصفر ويرتعد؛ كانت جوزة عنقه تصعد وتهبط بسرعة عجيبة. فجأة بدأت رائحة كريهة تنبعث منه –لقد أفرغ ما ببطنه في سرواله.

ومع ذلك، لم يكن في جنان جاتو إلا الأطفال وأصحاب الأذرع القوية. الناس في أعمهم لمْ يَكونوا سيّئين. لمْ يتمكن البؤس من تلويث روحهم، ولا الشقاء من استئصال بساطتهم المرحة. يعرفون أنّهم في الحضيض الأسفل، ومع ذلك لم يتخلوا عن التشبث بالرعاية الإلهية، مقتنعين أنّه في يوم ما سيتبخّر النحس اللاصق بقفاهم وأنّ الأمل

سيولد من جديد من رحم رماده. كانوا ناسا طيّبين، وأحيانا محبّبين ومسلين؛ يحافظون على إيمانهم في كل الأوقات والظروف، وهذا يمنح لهم صبرا عجيبا. كان يوم السوق في جنان جاتو يوم حفل حقيقي، ويساهم كل فرد بما استطاع كي يحافظ على الوهم. كان بائعو الحساء يكافحون بقوة من أجل التخلص من المتسوّلين، حيث تتحوّل المغرفة إلى عصا يهشّون بها الذباب المهاجم. بنصف دورو، يمكن الحصول على مشروب يتكوّن من الحمص والكمون والماء المغلي. كما توجد بعض المطابخ المريبة حيث تلتف حولها عناقيد الجائعين تستنشق دخان الطبخ بملء رئتيها. طبعا، لا يغيب اللصوص عن النداء. يجيئون من كل الأصقاع، يتربصون بشجار أو تغافل يستثمرونه. لا ينجر ناس جنان جاتو خلف التحريض. يدركون أنه ليس بمقدورهم ترويض المتمردين، لذلك يفضلون المهرجين. يتهافت الجميع، كبيرا وصغيرا، على حضور مشاهدهم. ومن بين مفضلي هذا "العرس" يتصدر "القوالون" القائمة. يحدث هؤلاء تجمعات مضطربة حول حلقاتهم. لا يستوعب الناس كل تفاصيل حكاياتهم المفكّكة مثل ملابسهم، ولكن لتلك الحكايات القدرة على إغراء الجمهور وإبقائه لاهثا يترقب المزيد من العجب العجاب. إنهم مسرح المنبوذين، مسرح على الهواء الطلق. منهم تعلّمت مثلا أن مياه البحر كانت عذبة قبل أن تفرغ فيها أرامل البحارة دموعها... بعد القوال يأتي فتّان الأفاعي. كانوا يخيفوننا برمي زواحفهم بين أقدامنا. رأيت بعضهم يبتلع الحنش المرتعد إلى النصف قبل أن يخرجه خلسة من كم عباءته –مشهد مُنفِّر وذو علاقة بالتنويم المغناطيسي في آن؛ مشاهد تطاردني في كوابيس ليلية مخيفة... الأكثر مكرا هم المشعوذون، من جميع الأصناف، بحركاتهم وأصواتهم المجلجلة خلف رفوفهم المكدّسة بسوائل غريبة وتمائم سحرية وجثث الحشرات المجففة المشهورة باحتوائها على مفعول مثير للشهوة الجنسية. يقترحون أدوية لجميع أنواع الأمراض؛ الطرش، تسوّس الأسنان، داء المفاصل، الشلل، الحصر، العقم، الصلع، الأرق، السحر، النحس، البرودة الجنسية؛ والناس يصدقون بسذاجة مذهلة. رأيت شخصا ابتلع شرابا وبعد ثواني معدودة راح يقفز ويصيح بالمعجزة وهو يتمرغ على التراب. شيء مدهش. أحيانا يأتي بعض الدراويش الملتحين، يخطبون على الناس بأصوات صَحلاء وسحن متجهمة. يصعدون على مصاطب مرتجلة ويندفعون في كلام بلاغي مسجوع، يندّدون بانحراف العقول وباقتراب الساعة ويوم الحساب. يتحدثون عن القيامة وغضب البشر، والقدر والنساء الزانيات؛ يشيرون إلى المارين بأصابع اتهام ويوبخونهم بألفاظ مكشوفة أو ينطلقون في عرض نظريات غريبة لا أوّل لها ولا آخر... "كم من عبيد تمردوا ضد السلاطين

قبل أن يجدوا أنفسهم في حبل المشنقة؟ صرخ أحدهم وهو يحرك لحيته الكثة. كم من سلطان ظن أنه سيغيّر مجرى التاريخ قبل أن يتعفن في عمق زنزانة معتمة؟ كم من نبي حاول إصلاح عقولنا قبل أن يجعلنا أكثر جنونا من السابق؟" ويأتيه جواب من وسط الحشد المتجمهر: "كم مرّة قلت لك أنّك أبشع من الموت. ضع قلنسوة على وجهك الشبيه بوجه بومة وأرينا كيف ترقص رقصة البطن، عوض صدع رؤوسنا بخزعبلاتك..." ومن بين مراكز تسليتنا يوجد سليمان وهو يتأبّط أرغنا صغيرا متنقلا وعلى كتفه قرد؛ يذرع الساحة وهو يدير مرفع علبته الموسيقية فيما يمدّ قرده قبعة الوصيف باتجاه الفضوليين؛ حينما يتصدّق هؤلاء عليه بقطعة نقدية، يشكرهم بتكشير مضحك... على بعد مسافة قصيرة، من جهة زرائب البهائم، يتجمع تجار الحمير، سماسرة مخيفون، ماكرون، يستطيعون تحويل بغلة إلى حصان أصيل بفضل كلامهم الخلاب المقنع؛ أحب الاستماع إليهم وهم يمدحون فضائل بهائمهم. تكاد تحس بمتعة وأنت تقع في حبائلهم لأنك ستشعر حتما بأنهم يعاملونك معاملة تليق بالباشوات... أحيانا، وفي وسط هذا اللغط، تنزل فرقة "القارقابو"، تتشكل من زنوج معبئين بالتمائم، يرقصون كما السحرة، وهم يفتحون عيونهم اللبنية. نستمع إليهم من بعيد، وهم يقرعون صناجاتهم الحديدية ويضربون على طبولهم في جلبة صامة. لا تظهر فرق القارقابو إلا بمناسبة احتفالات زاوية سيدي بلال، وليّهم الصالح. يقودون عجلا استغفاريا ملفوفا بألوان الزاوية ويطوفون على البيوت لجمع المال اللازم لتحقيق شعيرة الأضحية. إنّ مرورهم على حي جنان جاتو يقلب حتما عادات الناس رأسا على عقب؛ تركض النساء إلى عتبات الأبواب برغم الممنوعات، فيما ينبثق الأطفال من جحورهم كما اليرابيع لينضمّوا إلى القافلة؛ فيصبح الهرج والمرج مدوّخا فعلا.

ومن بين جميع هذه الشخصيات العجيبة، يتفوق سليمان على الجميع. موسيقاه جميلة ولطيفة تسري في العروق سريان الماء، وقرده مازح ظريف. يُحكى أنّ سليمان ولد مسيحيا في عائلة فرنسية مرفهة وعالمة، وأنّه وقع في حبّ بدوية من "تعظميت" قبل أن يعتنق الإسلام. يقال بأنه كان باستطاعته أن يعيش عيشة الملوك لأنّ عائلته لم تتنكر له، ولكنه اختار العيش في حضن عائلته الجديدة ومقاسمة أفراحها وأحزانها. قصته مؤثرة جدا. لم يوجد عربي ولا بربري، ولو من بين أولئك الذين لا يحترمون شيئا، لا يُكنّ له تقديرا خاصا أو يتجرأ على رفع يد آثمة عليه. لقد أحببت هذا الرجل حبا جما. إلى أبعد ما يمكن لذاكرتي أن تتذكر، في أعمق قناعات الشيخ الذي صرته الآن، لو يوجد شخص عكس لي، وبمثل هذا الوضوح الرائع، ما أعتبره أكمل رشد:

التمييز –هذه القيمة، اليتيمة في أيامنا هذه، والتي كبّرت بشعبي في وقت لم يكن أحد يراهن على جلده.
وخلال تلك الفترة، نجحت في اكتشاف صديق يكبرني ببضع سنوات. يسمى "هواري". كان نحيفا، بل وضامرا ضمورا مربكا، أشقر اللون، أصهب تقريبا، بحاجبين ممتلئين وأنف على شكل منقار طائر أحدّ من مشذب. لم يكن في حقيقة الأمر صديقا؛ يبدو أنّ حضوري لا يزعجه، وبما أنني كنت بحاجة إلى حضوره، اجتهدت لاستحقاقه. ربما كان "هواري" يتيما –أو ربما هاربا من منزل والديه لأنّني لم أره يوما خرج أو دخل بيتا. كان يقتات خلف ركام هائل من الخردة، في نوع من مَطيَرة مغطاة ببقايا براز. يقضي وقته في صيد العصافير لبيعها.
لا يقول هواري شيئا أبدا. يمكنني أن أحدّثه لساعات طويلة، فلا يعير لي أدنى اهتمام. كان طفلا غريب الأطوار ووحيدا، يلبس سروال المدن و"بيري" فيما كان أطفال الحي لا يزالون يلفون أجسادهم في العباءات ويغطون رؤوسهم بالشواشي. في المساء، يصنع فخاخا بأعواد الزيتون التي يغطسها في صمغ قوي. في الصباح، أرافقه داخل الأحراش وأساعده لإخفاء أفخاخه وسط الأجمات. كلما حطّ طائر فوق الفخ وطفق يضرب بجناحيه هلعا، ننقضّ عليه ونضعه بداخل قفص في انتظار القبض على آخرين. بعد ذلك، نذهب إلى الشوارع لنقترح تحف صيدنا على مربي العصافير المتربصين.
تحصّلت على أولى نقودي مع هواري. هواري لا يغش. عند نهاية جولتنا التي تمتد أياما عديدة، يدعوني إلى متابعته إلى ركن هادئ حيث يفرغ محتوى كيسه. يأخذ قطعة نقدية له ويدفع بأخرى نحوي، وهكذا إلى أن لا يجد شيئا يقتسمه. بعد ذلك، يرافقني إلى غاية الفناء وينسحب. في الغد، أنا الذي كنت ألتحق به في المطيرة. أظن أنه لم يكن يأتي أبدا للبحث عني، لأنّ بمقدوره أن يستغني عن مساعدتي ومساعدة أي شخص آخر.
كنت أشعر براحة مع هواري. واثقا ورائقا. دَحّو الصعلوك نفسه يتركنا في حالنا. لهواري نظرة داكنة، معدنية، غامضة تبعد المزعجين. صَحيح أنه لا يقول شيئا، ولكنه حينما يقطّب حاجبيه، ينزلق الأطفال هاربين بسرعة تجعل ظلهم يتأخر في اللحاق بهم. أظن أنني كنت سعيدا مع هواري. أحببت صَيد العصافير كما تعلّمت أشياء كثيرة حول الفخاخ وفن التمويه.

ذات مساء، انهار كل شيء في وقت كنت أفكّر أنني سأجعل أبي فخورا بي. انتظرت نهاية العشاء كي أخرج كنزي الصغير من مخبئه. ثمّ مددت ثمار جهدي لوالدي بيد ترتعد من الانفعال. سألني بريب:

- ما هذا؟

- لا أعرف الحساب... إنها النقود التي ربحتها ببيع العصافير.

- أي عصافير؟

- عصافير ملوّنة جميلة. أقبض عليها بعيدان مبللة بالصمغ...

بفظاظة، أمسكني أبي من اليد كي يقاطعني. من جديد، لمعت عيناه ببريق جنوني. زيّف ارتجاف صوته حينما قال:

- افتَح أذنيك جيدا يا بني. أنا لست بحاجة إلى نقودك ولا إلى إمام يقرأ شهادة موتي.

تضاعفت قوة ضغطه كلما مطّ الوجع قسمات وجهي.

- أترى؟... إنني أوجعك. أحس بوجعك يسري بعروقي. لا أريد سحق يدك؛ أحاول فقط أن أدخل برأسك الصغير أنني لست شبحا، وأنني من لحم ودم، وأنني لا أزال على قيد الحياة.

شعرت بعظام أصابعي تذوب داخل قبضتي. غيّمت دموعي نظرتي. اختنقْت من الألم، ولكنه من غير المقبول أن أصرخ أو أبكي. بيني وبين أبي، كل شيء مسألة شرف؛ ولا يقاس الشرف إلا بقدرتنا على تجاوز الصعوبات.

سألني وهو يريني المائدة التي تتناثر فوقها بقايا أكل:

- ماذا ترى هنا تحت أنفك؟

- عشاءنا يا أبي.

- ليست وليمة، ولكنك أكلت حتى شبعت، أليْس كذلك؟

- نعم يا أبي.

- منذ أن جئنا إلى هذه الدار، هل حدث لك أن نمت بلا عشاء؟

- لا يا أبي.

- وهذه المائدة التي تأكل عليها، هل كانت لدينا عند وصولنا؟

- لا يا أبي.

- وهذه المدفأة البترولية، هناك في الركن، هل أعطاها لنا شخص ما؟ هل التقطناها في الشارع؟

- لقد اشتريتها لنا يا أبي.

- عند وصولنا كنا نستضيء بـ"الماريبوزا"، أليس كذلك؟ فتيل يرثى لحاله يَعوم وسط بقعة زيت، أتتذكّر؟... وبماذا نستضيء هذه الليلة؟
- بالقنديل البترولي.
- والأفرشة والأغطية والوسائد، والدلو والمكنسة؟
- اشتريتها كلها يا أبي.
- إذن لماذا لا تحاول أن تفهم يا ولدي؟ قلتُ لك في المرة السابقة: حالتي في الحضيض الأسفل ولكنني لم أمت بعد. أنا نادِم أشد الندم لأنني لا أستطيع توريثك أرض أجدادك. ولا يمكنك تصور مدى ندمي وألمي. لا تمر لحظة دون أن ألوم نفسي. ولكنني لا أستسلم. أستميت في الشغل كي أسترجع قليلا مما ضاع. ولكن مسئولية إخراجكم من هذا الجحيم هي مسئوليتي وحدي، وحدي دون غيري. هل تفهمني يا ولدي. لا أريدك أن تشعر بأدنى مسئولية فيما حدث لنا. لا دخل لك في الأمر. لستَ مدينا لي بشيء. لا أسمَح لك بممارسة أي شغل كي تساعدني. أنا لا آكل من هذا الخبز. أسقط وأنهض، إنه الثمن المطلوب دفعه، ولست حاقدا على أحد. لأنني سأصل، أعطيك عهدي. أنسيت بأنني أملك ذراعين أرفَع بهما جبلا؟ لذلك، فباسم أحيائنا وأمواتنا، إذا أردت تخفيف تأنيب ضميري فلا تعد أبدا ما فعلته اليوم أمامي، وتذكّر أن كل قطعة نقدية تدخلها إلى البيت تغرقني بشبر آخر في العار.
رفع ضغطه عني. ذابت يدي ونقودي، الواحدة في الأخرى –كنت عاجزا عن تحريك أصابعي. امتدّ الخدر إلى غاية المرفق.
في الغد، أرجعت أرباحي إلى هواري.
قطّب هواري حاجبيه وهو يراني أدس النقود في جرابه. لم يدم اندهاشه طويلا. عاد إلى الاهتمام بفخاخه كما لو أنّني لم أفعل شيئا.
أربكني ردّ فعل والدي. لماذا أساء الظن بمساهمتي المتواضعة؟ ألست ابنه، لحم لحمه؟ بأي صيغة حمقاء تتحوّل نية حسنة إلى إهانة؟ كنت سأمتلئ فخرا لو قبل نقودي. عوض هذا، قمت بجرحه.
أظن بأنه ابتداء من تلك الليلة بدأت أشك في استقامة نواياي الحسنة. امتلك الشك كياني، احتله كلية.
لم أعد أفهم.
لم أكن واثقا من أي شيء.

طفق أبي يسترجع زمام الأمور بيديه. كان يحاول خاصة أن يؤكّد لي أن عمي مخطئ في حقه. كان يجهد نفسه في الشغل ولا يخفي عنا ذلك. هو الذي كان سابقا يكتم مشاريعه كي يقيها من العين الحاسدة، ها هو يحكي لأمي وبجميع التفاصيل عن المبادرات التي يباشرها كي يوسّع حقول أشغاله ويربح نقودا أكثر –كان يرفع صوته متعمدا كي أسمعه. كان يعدنا بالعجب العجاب، يقوم برن قطعه النقدية مع عودته مباشرة، وعيناه تلمعان، يحدثنا عن منزلنا المستقبلي، منزل حقيقيي، بمصراعين في النوافذ، وباب من الحطب عند المدخل، وربما، من يعرف؟ بستان صغير حيث سيزرع فيه الكسبرة والنعناع والطماطم وعساقل أخرى ستذوب على طرف اللسان أسرع من الحلويات. كانت أمي تستمع إليه، مسرورة برؤية زوجها يشيّد أحلاما مغرية، وإن كانت غير مصدقة بجميع ما يقول. ولكنها تتصنع تصديقه، وحينما يمسك بيدها – الشيء الذي لم أره يفعله سابقا- تذوب أمي ابتهاجا.

كان أبي يجهد نفسه ليل نهار. أراد الخروج من هذا الوضع في أقرب وقت ممكن. في الصباح، يشتغل عند أعشّابي؛ بعد الظهر عند خضار متجول؛ وفي المساء، يشتغل مُدلكا في حمام عمومي. كان يفكر في إنشاء شغل خاص به.

من جهتي، كنت أتسكع في الأزقة، وحدي، تائها.

ذات صباح، فاجأني دَحّو الصعلوك أسرح بعيدا عن بيتنا. كان يحمل حنشا حول ذراعيه؛ حنش أخضر اللون وبشع المنظر. حاصرني في ركن وبدأ يحرك الزاحفة تحت أنفي وهو يدوّر عينيه النهمتين. لا أحتمل رؤية الأحناش؛ يهزني رعب أسود. تسلى دَحّو بالموقف، ساخرا من خوفي؛ وصفني بدجاجة مبللة، بامرأة... كنت على وشك الإغماء حينما نزل عليّ هواري من السماء. مباشرة، أوقف دَحّو تعذيبه الصغير، مستعدا للفرار إن تدخل صديقي لإنقاذي. لم يُسرع هواري لإنقاذي. نظر إلينا لحظة ثمّ واصل سيره كما لو أنّ شيئا لم يكن. لم أصدق ما رأيت. اطمأن دَحّو، فاستأنف تخويفه لي وهو يقهقه بصوت مرتفع؛ ليواصل ضحكه إلى الأبد، لم يعد يثير في نفسي شيئا. لقد تغلّب حزني على خوفي: لم يعد لي صديق.

4

غفا ساق الحطب خلف مصرفه، عمامته على الوجه، وساقه الاصطناعية بمحاذاة اليد، مستعدا لاستخدامها في حالة ما إذا حام شخص مشبوه حول حلوياته. لم تعد الإهانة التي سلّطها عليه ألمورو إلا مجرد ذكرى. لقد علّمته الفترة الطويلة التي قضاها في الخيالة أن يميّز بين الأمور. أفترض أنه يكون قد قضى أغلب حياته وهو يتلقى تعسف رؤسائه من ضباط الصف بخضوع بليد، لذلك قد يعتبر مبالغات الأذرع القوية لجنان جاتو كما لو أنها نوع إضافي لتعسف السلطة. بالنسبة إليه، فإن الحياة تتشكل من الأعلى والأسفل، من لحظات بأس وشجاعة ولحظات جبن وخذلان؛ إن الذي يهم هو الوقوف بعد السقوط وردّ الفعل المتماسك عند تلقي الضربات... إنْ لم يسخر منه أحد بعد "انهزامه الذليل" أمام ألمورو، فهو الدليل القاطع على أن لا أحد يمكن أن يراهن على تلك المواجهة دون أن يخسر رقعة من روحه. ألمورو، ليس مواجهة عادلة؛ ألمورو، إنه الموت الزاحف، فصيل الإعدام. أن يواجهه شخص ما ويفقد ريشات قليلة فقط، لهو إنجاز عظيم؛ أما أن يخرج سالما، مع تلويث عمق السروال فقط، فإن تلك معجزة في حدّ ذاتها.

أما الحلاق فقد أنهى حلق جمجمة شيخ. كان هذا الأخير مربعا على الأرض، يداه على ركبتيه، الفم مفتوح على ناب مسوّس. بدا كما لو أن كشط الشفرة على جلدة رأسه يحدث له متعة لا حصر لها. كان الحلاق يحكي له خيباته؛ ولكن الشيخ لا يستمع إليه؛ بقي مغمض العينين ويتلذّذ بمرور الشفرة على رأسه الأصلع كما حصى البحر.

صرخ الحلاق عند نهاية حكايته:

- هاه... جمجمتك صلعاء إلى حدّ يمكن قراءة ما يدور بخلدك.

قال الشيخ:

- أمتأكّد أنت أنك لم تنسَ شيئا؟ لا زال الظل يكتنف أفكاري.

- يا لها من أفكار يا شيخ؟ أتريد أن تقنعني بأنك لا زلت تفكر؟

- أحذّرك بأنني شخت ولكنني لم أخرف بعد. أنظر جيدا، ربما عثرت على شعرة أو اثنتين لم تستجب لندائك وهذا يقلقني.

- لا شيء، أؤكد لك. رأسك أملس من بيضة.
ألحّ الشيخ:
- من فضلك، أنظر جيدا.
لم يكن الحلاق ساذجا. يعرف أنّ الشيخ بصدد توطين قدمه. تأمل عمله، تأكّد بعناية فائقة أنه لم ينسَ شعرة على رقبة الشيخ المخطّطة قبل أن يحطّ موسه، معلنا لزبونه أن فترة الراحة قد انتهت.
- هيا يا عمّ جابري، اعط الريح لقدميك. ماعزك في انتظارك الآن.
- من فضلك...
- كفاك نوما، قلت لك. عندي شغل ينتظرني.
وقف الشيخ على مضَض، تأمل نفسه في طرف المرآة، ثمّ فتّش مليا في جيوبه. قال في نبرة أرادها مؤنبة للضمير:
- أخشى أن أكون قد نسيت مرة أخرى نقودي في البيت.
ابتسم له الحلاق؛ أدرك قصده.
- هكذا دائما، يا عم جابري.
- خيِّل إليّ أنني وضعتها في جيبي هذا الصباح قبل أن أخرج من البيت. ربما أضعتها أثناء الطريق.
قال الحلاق مستسلما:
- لا عليك. الله هو الرازق.
ردّ الشيخ في نباح نفاق:
- هذا غير معقول. أذهب الآن وأعود إليك بالنقود.
- قديمة يا شيخ. حاول أن لا تضيع أنت أيضا في الطريق.
لفّ الشيخ عمامته حول رأسه وأسرع في مغادرة المكان.
نظر إليه الحلاق وهو يبتعد، ضجرا، ثم جلس القرفصاء قرب صندوق ذخيرته. غمغم قائلا:
- دائما نفس الحكاية. يعتقدون أنني أتصدّق بعملي. إنه قوت يومي الوحيد يا ناس. ماذا سآكل هذا المساء.
يقول هذا الكلام آملا أن يحرك ساق الحطب.
ولكن ساق الحطب تجاهله.
انتظر الحلاق دقائق طويلة؛ والخيال السابق لا يحرك ساكنا. فتنفس الصعداء وتأمل غيمة في السماء، وبدأ يغني:

عيناكِ تغيبان عني
فأصبح أعمى
إنْ نظرتِ إلى غيري
أموت كل يوم
حينما لا أراك
في أي مكان بين الأحياء
ماذا تعني الحياة يا حبيبتي
حينما يحكي لي الجميع
غيابَك عن هذا العالم
ماذا أفعل بيديّ
إنْ لم يكن جسدك
نبض المولى...

صاح ساق الحطب:
- امسح بها، خير لك.
كما لو أنّ الحلاق تلقى دلو ماء بارد. اشتطّ غيظا من بذاءة الحانوتي التي أوقفت سحر اللحظة وجمال الأغنية. أنا أيضا أحسست بالغبن؛ لقد قذفوني من أعلى حلم. حاول الحلاق أن لا يعير أدنى اهتمام لردّ البقال. بعد أن هزّ رأسه، تنحنح من جديد، ليستأنف غناءه، ولكن حباله الصوتية رفضت الانطلاق؛ فقد القلب شهية الانبساط.
- كم يعجبك إزعاج الناس؟
غمغم ساق الحطب وهو يتململ بتكاسل:
- كسَّرت لي رأسي بنعيقك.
احتج الحلاق:
- أنت خشبة... انظر حواليك جيدا. لا شيء سوى الفراغ والضجر. تكاد أرواحنا تتفتَّت. تبتلعنا الأكواخ، تخنقنا الروائح الكريهة، ولا أحد يتصدّق علينا بابتسامة. ومع كل هذه المنغّصات، لا نستطيع أنْ نُغني، ماذا بقي لنا؟ تبّا لك !
أشار ساق الحطب بإبهامه إلى لفيفة من حبل القنب معلقة إلى محجن فوق رأسه:
- بقيت لك هذه. تختار واحدة منها، تربطها في غصن شجرة، ثمّ تلفها حول رقبتك وتطوي ساقيك بضربة واحدة. هكذا تكون مرتاحا للأبد ولا قذارة تأتي لإزعاج نومك.
- لماذا لا تفتح لنا الطريق أنت أوّلا، خاصة أنّك قَرِف أكثر منا جميعا.
- لا أستطيع. لي ساق حطب ولا تُطوى.

رمى الحلاق المنشفة. انكمش تحت صندوقه ومسك رأسه بيديه، ربما ليواصل الغناء في سرّه... يعرف أنه يغني للهواء. مُلهمته غير موجودة. يخترعها على حسب تغيّر تنهداته، وهو على وعي تام بعجزه عن استحقاقها يوما. إنّ طرف مرآته يوجد هنا كي يعكس له عبثية هيئته الفيزيائية، التي لا تنفصل عن فظاظة آماله. كان قصيرا جدا، أحدب نوعا ما، ضامرا، قبيح الوجه وأفقر من ابن آوى؛ لا سقف له ولا عائلة ولا أي حظ لتحسين حياة الكلب التي يعيشها ولو بقيد أنملة. لذلك يكتفي بتأجيج أحلامه، فقط ليتشبَّث بشيء ما فيما ينفصل عنه بقية العالم، أحلام مقموعة، مستحيلة، من الصعوبة عليه المطالبة بها دون أن يتحوّل إلى مسخرة، فيكتفي بقضمها في ركن مثل عظم لذيذ ولكنه عار بشكل يائس.

كان يُقطِّع لي قلبي.

صاح "ساق الحطب" باتجاهي وهو يفكك غطاء بوقال السكّريات:

- اقترب يا ولد...

مدّ لي سكّرية، دعاني إلى الجلوس بجانبه وتَفرَّسَني طويلا.

- أريني قليلا وَجهك، أضاف وهو يرفع لي ذقني بطرف من أصبعه. أحَّحمْ... أكيد أنّ الله كان ملهما يوم نحتك، يا ولدي. حقا، ما أروع هذه الخلقة... كيف حدث أنّ لك عينين زرقاوين؟ هل أمّك فرنسية؟

- لا.

- جدّتك إذاً.

- لا.

حَشّت يده الخشنة في شعري قبل أن تنزلق بطيئة على خدي.

- يا صغيري، وجهك وجه ملك.

أطلّ بْليس السمسار فجأة من ركن الزقاق وقال مهدّدا:

- أترك هذا الطفل، خير لك.

سحب الخيّال الشيخ يده بخفة. أضاف بليس:

- أنت تعرف جيدا عمّا أتحدث. أحذّرك، أبوه شخص غريب الأطوار. سيقلع ساقك الثانية دون أن تنتبه. ويزعجني أن يكون في حَوْمَتي مُقعَد بلا ساقين. يقال بأنه يجلب النحس.

- ماذا تحكي، يا بليس العزيز؟

- العَبها مع الآخرين أيها الخبيث. لماذا لا تذهب إلى إسبانيا، أنت المولع بالبارود، عوض المكوث هنا في جحرك وعينك الماكرة على الأطفال؟ لا يزال الرصاص يلعلع هناك، وهم بحاجة إلى طُعمَة المدافع.
قال الحلاق:
- لا يمكنه الذهاب. له ساق حطب لا تُطوَى.
قال ساق الحطب ليصون ماء الوجه:
- أسكت أنت، أيها الصرصور. وإلا جعلتك تبتلع جميع قذارات شفراتك العفنة، الواحدة وراء الأخرى.
- أوّلا، يجب أنْ تمسك بي. ثانيا، أنا لست صرصورا. لم أخرج من المجاري ولا أملك قرن استشعار على جبهتي.
أشار إليّ بليس السمسار بمغادرة المكان فورا.
في اللحظة التي نهضْت، ظهر أبي من مضيق، فركضت للقائه. عاد أبي إلى الدار باكرا على غير عادته؛ من خلال سحنته المنشرحة والرزمة الذي كان يشدّها تحت إبطه، أدركت أنه كان منبسطا للغاية. سألني من أين لي بالسُكّرية وعاد مباشرة قرب الحانوتي ليدفع ثمنها. حاول "ساق الحطب" رفض النقود، مبرّرا بأن الأمر يتعلق بسكرية بسيطة وأنها مُنحت عن طيّب خاطر؛ لم يكن أبي على خطّ واحد مع الحانوتي، فألحّ كي يقبل هذا الأخير حقه.
بعد ذلك، عدنا إلى البيت.
فكّ أبي تحت عيوننا غلافا رماديا عريضا وأعطى لكل واحد منا هدية: خمار لأمي، فستان لأختي الصغرى وجَزْمة مطاطية جديدة لامعة لي. قالت أمي:
- هذا تبذير.
- لماذا؟
- أكيد أنك صرفت نقودا كثيرة، وأنت في أمسّ الحاجة إليها؟
ردّ أبي بحماس فياض:
- هذه ليست إلا البداية. أعدكم أننا سنرحل عن هذا المكان في الأجل القريب. أشقى كثيرا وسأصل. يبدو أن الأمور بدأت تتحسّن، لماذا لا نستفيد منها قليلا؟ يوم الخميس، لي موعد مع تاجر معروف في الساحة. إنه شخص جاد، وله خيوط طويلة في عالم الأعمال. سيدخلني شريكا معه.
- من فضلك عيسى، لا تجهر بمشاريعك إذا أردت إنجازها. لم يسعفك الحظ سابقا أبدا.

- لم أكشف لك عن كل ما في القدر. ستكون مفاجأة سارة. لقد اشترط التاجر مبلغا ماليا كي يشركني معه، وقد تمكنت من جمع هذا المبلغ...
تضاعفت مخاوف أمي وتفلت في حضنها كي تبعد النحس وقالت:
- أرجوك، لا تضف شيئا. اترك الأمور تمر في الكتمان. العين الحاسدة لا تغفر للثرثارين.
سكت أبي، وهذا لم يمنع عينيه من اللمعان بابتهاج لم أعرفه عنده سابقا. هذه الليلة، قرّر أن يحتفل بتصالحه مع القدر؛ ذبح ديكا عند الدجاجي، نزع ريشه وأفرغه في نفس المكان قبل أن يرميه داخل قفة ويأتي به إلى البيت؛ تعشينا في ساعة متأخرة، خلسة، احتراما لجيراننا الذين غالبا ما لا يجدون الشيء الكثير يسدون به رمق جوعهم.

كان أبي مبتهجا. عصابة من الأصحاب تُرمى وسط حفل بهيج لا تكون أكثر ابتهاجا منه. يعدّ الأيام على أصابعه. خمسة فقط؛ أربعة فقط؛ ثلاثة فقط.
واصل الذهاب إلى عمله، إلا أنه كان يرجع باكرا. كي يراني أركض للقائه... لو وجدني نائما، أكيد أن متعته ستفسد. يفضّل أن يجدني واقفا عند عودته؛ بهذه الطريقة، يتأكّد أنني كنت حقا واعيا بأن الريح بدأت تجري بما تشتهي سفينتنا التائهة، بأن غيوم سمائنا بدأت تنسحب، بأنّ أبي أنا كان صلبا كما شجرة بلّوط، قادرا على هزّ الجبال بقوة قبضتيه فقط...
وجاء ذلك الخميس الذي طالما انتظرناه.
هناك أيام تتنكر لها الفصول. يتحفّظ منها القدر وكذلك العفاريت. أيام يُسجّل فيها الأولياء الصالحون غيابهم، ويتيه إلى الأبد الرجال الذين يكونون عرضة لأنفسهم. وهذا الخميس واحد من تلك الأيام. تعرّف عليه أبي مباشرة. ابتداء من الفجر، كان أبي يحمل إشارته على الوجه. سأتذكرها بقية حياتي. كان يوما قميئا، بائسا، عنيفا، لم يتوقف من النواح بشلالات من المطر المدرار والرعود بنبرات الكفر. كانت السماء تهرس السواد إلى حد لم تعرف كيف تتخلص منه، والغيوم النحاسية كما الأمزجة المتبرّمة. قالت أمي:
- لا تقُل لي بأنّك ستخرج في مثل هذا الجوّ؟
وقف أبي على عتبة غرفتنا، عيناه مثبتتان على تلك الكدمات الغامضة الصاعقة في السماء مثل نذير شؤم. تساءل إنْ لم يكن في صالحه أن يؤجل الموعد. ولكن الحظ لا يبتسم للمتردّدين. يعرف ذلك، وافترض أن المخاوف التي توسوس في صدره ما هي

إلا عمل الشيطان الذي يريد إبعاده عن فرصة العمر. فجأة، استدار نحوي وأمرني بمرافقته. ربما اعتقد أنه إذا أخذني معه، سيجعل القدر يشفق لحاله بتخفيف الضربات الخادعة.
ارتديت عباءتي المرفقة بـقَلمُونَة وجزمتي المطاطية وأسرعت للحاق به.
وصلنا إلى مكان الموعد مبللين إلى غاية العظام. تعوم قدمايّ داخل جزمتي المليئة بالماء، وقَلْمونَتي تضغط على كتفيّ مثل حمل ثقيل. الزقاق فارغ. باستثناء عربة خيل مُقلوبة على الرصيف، لا يوجد أحد... أو هكذا خُيّل لنا. ولكن ألمورو كان هناك؛ يشبه طائرا كاسرا جاثما على مصير إنسان. بمجرد أن رآنا ندخل الزقاق خرج من مخبئه. تُذكِّر عَيناه بفوهة بندقية صيد؛ تحضن الموت في عمق حدقتيها. لم يكن أبي يتوقع وجوده هناك. لم يضيّع ألمورو وقته؛ انقضّ على أبي؛ لكمة قوية أولى، لكمة ثانية، وبعد ذلك ركلة. تحت وقع المفاجأة، قضى أبي زمنا قبل أن يسترجع تماسكه. دافع عن نفسه ببسالة، ردّ الصاع صاعين، قاوَم مقاومة الأبطال. ولكن ألمورو كان قويا ماكرا؛ إن تجربة الصعلكة التي يتميّز بها ومعها جميع حيل الملاكمة التي ترافقها تغلّبت على شجاعة أبي، غير المتعوّد على مثل هذا النوع من التلاحم الجسدي، هو القروي المُهمَّش، الصموت. سقط أبي تحت ضربة الشَغربية. انقضّ عليه ألمورو ولم يترك له أدنى فرصة للنهوض. واصل الضرب بقوة قبضتيه بنية الإجهاز عليه. شلّني الرعب. كما لو أنني في كابوس. أردت الصراخ، أردت الركض لإنقاذ أبي؛ ولكن لا وريد ولا عضلة استجاب لندائي. اختلط دم أبي بماء المطر، وسال باتجاه المجرى. ألمورو لم يبالِ. كان يعلم يقينا ماذا يريد. حينما توقف أبي عن المقاومة، قرفص الكاسر قرب فريسته، مزّق عباءتها؛ لمع وجهه مثل ليل تحت برق حينما اكتشف كيس النقود مخفيا تحت الإبط. بضربة خنجر، قطّع الخيط الذي يربطه بكتف أبي، ثمّ أمسكه برضا قبل أن ينسحب دون أدنى نظرة باتجاهي.
بقي أبي فترة طويلة ممددا فوق الأرض، بوجه دامٍ وعباءته الممزقة على بطنه العاري. لم يكن بإمكاني فعل شيء لمساعدته. كنت فوق كوكب آخر. لا أتذكر الطريقة التي عدنا بها إلى منزلنا.
قال أبي بغيظ دفين: "كنت ضحية وشاية. كان هذا الكلب هناك من أجلي. انتظرني. يعرف أنني أحمل معي مالا. يعرف، يعرف... هذه ليست ضربة حظ، لا. كان هذا القذر هناك من أجلي."
وبعد ذلك سكت.
خلال أيام وأيام، لم ينبس ببنت شفة.

رأيت في حياتي ذوبان الشموع، وتفتيت مدرة تراب تحت الندى؛ إنه المشهد نفسه الذي يمنحه لي أبي. كان يتفكّك خيطا خيطا، بلا رحمة، منكمشا في ركن، دون أكل ولا شرب. كان يجتر في صمت مرارته وغيظه، وجهه على ركبتيه وأصابعه متشابكة خلف رقبته. لقد أدرك أنه، مهما فعل ومهما قال، سيكون للنحس دائما الكلمة الأخيرة، وأن لا شيء سيغيّر مجرى القدر، لا القسم على رأس جبل، ولا نذور أكثر الناس خشوعا.

ذات ليلة، كان ذلك السكير الذي يتقيأ غضبه داخل الزقاق. تزَوبَعت شتائمه البذيئة بفظاظة وسط الفناء، مثل ريح شريرة تتدحرج داخل قبر. كان صوتا شرسا، مشكلا من السعار والازدراء، يصف الرجال بالكلاب والنساء بإناث الخنازير، ويعد البؤساء والجبناء بأيام سوداء؛ صوت مجلجل، مستبد، يعي تمام الوعي بحالة اللاعقاب التي يتمتع بها، ما يجعل منه أكثر نذالة؛ صوت تعوّد الناس البسطاء على التعرف عليه وسط ألف جلبة فظيعة: صوت ألمورو... بتعرفه على الصوت، رفع أبي رأسه بقوة دفعت بمؤخرة جمجمته إلى الاصطدام بالجدار. بقي متحجرا لثواني عديدة؛ بعد ذلك، وقف كشبح يمرق من عتمته، أشعل المصباح البترولي، بحث بداخل كومة من الملابس مهملة في ركن، أخرج جرابا صغيرا بجلد بالٍ، فتحه. تلألأت عيناه في انعكاسات الضوء. شدّ تنفسه، فكّر مليا، ثمّ، وبحركة حازمة، أولج يده بداخل الجراب. لمعت شفرة خنجر جزار في قبضته. وقف، ارتدى غَنْدورته ودسّ السلاح الأبيض بداخل القَلْمونة. رأيت أمي تتحرّك في ركنها. أدركت أن زوجها على شفا حفرة من الجنون، ولكن لم تجرؤ على إرجاعه إلى التعقل. إن هذا النوع من الحكايات لا يخص النساء.

خرج أبي في العتمة. سمعت رفس قدميه يتيه في الفناء، أشبه بدعاء وسط زوبعة رملية. صرّ باب الفناء قبل أن ينغلق؛ وبعد ذلك، خيّم الصمت... صمت سحيق شدّني يقظا إلى الصبح.

عاد أبي عند الفجر. خلسة. تخلّص من غندورته، رماها مثلما اتفق، أرجع الخنجر إلى جرابه والتحق بركن الغرفة الذي يحتله منذ ذلك الخميس اللعين. انكمش على نفسه ولم يتحرّك.

انتشر الخبر في جنان جاتو كما تأكل النار الهشيم. كان بليس السمسار مبتهجا. يمر من باب إلى باب صارخا: "ألمورو مات، انبسطوا أيها الناس الطيبون. ألمورو لن يزعج أحدا؛ لقد بقر شخص أحشاءه بضربة خنجر."

بعد يومين، أخذني أبي إلى صيدلية عمي. كان يرتعد مثل مصاب بالحمى، بعينين جاحظتين ولحية منطلقة.
لم يغادر عمي مصرفه كي يقترب منا. إن زيارتنا الصباحية، في وقت يستعد التجار لرفع ستائر محلاتهم، لم توحِ له بشيء ذي بال. فكر بأنّ أبي قد جاء لأخذ ثأره من إهانة ذلك اليوم، وكم كان انشراحه كبيرا حينما سمعه يقول بصوت واهن:
- أنت عل حق، يا ماحي. ليس لابني أي مستقبل معي.
بقي عمي فاغر الفم.
قرفص أبي أمامي. أوجعتني أصابعه حينما أخذني من كتفيّ. حدّق في عينيّ بقوة وقال:
- هذا من أجل مصلحتك يا ابني. أنا لا أهملك ولا أتنكر لك؛ أحاول فقط أن أمنح لك حظوظا أكبر في حياتك.
قبّلني على رأسي –سلوك يُخصّص للشيوخ المبجلين-، حاول أن يبتسم لي، فلم يتمكن، وقف وغادر العيادة بفظاظة، يكاد يجري، ربما لإخفاء دموعه عنّا.

5

يقطن عمي في المدينة الأوربية، عند نهاية زقاق معبّد بالإسفلت، تحيطه منازل صلبة، أنيقة وهادئة، بسياجات من الحديد المُطرّق والنوافذ بمصراعين خشبيين. كان زقاقا جميلا بأرصفة نظيفة، مُزينة بأشجار تين مُشذّبة بعناية. في أماكن متفرقة، توجد مقاعد يجلس عليها الشيوخ ليتسلوا بمرور الوقت. يركض الأطفال في الحديقة العمومية. لا يرتدون أسمال أطفال جنان جاتو، وليست لهم ملامح حتمية على وجوههم الجميلة المرحة، بدوا كما لو أنهم ينهلون من الحياة بملء صدورهم وبمتعة صادقة. تَسود في الحيّ سكينة لا تُصدَّق؛ لا تُسمع إلا قهقهات الأطفال وزقزقة العصافير.

كان منزل عمي يرتفع بطابق واحد، وبه حديقة صغيرة عند المدخل وممر قصير على الجانب. تتدفق نبتة "الجهنّمية" على الجدار الواطئ الذي يقوم مقام السياج وتتدلى في الفراغ، مزيّنة بأزهارها البنفسجية اللون. وفوق الشرفة، تتشابك أغصان الكروم إلى ما لا نهاية. قال عمي وهو يدفع الباب الصغير:

- في الصيف، تتدلى عناقيد العنب في كل مكان. يكفي أن ترتفع قليلا على أطراف قدميك لتقطف منها ما تشاء.

تبرق عيناه بألف نار. يكاد يطير فرحا.

- سيطيب مقامك هنا يا ولدي.

فتحت لنا الباب امرأة صهباء، في الأربعين من عمرها. كانت جميلة، بوجه دائري وعينين كبيرتين خضراوين. حينما رأتني واقفا عند درج المدخل، ضمت يديها الملتصقتين إلى قلبها وبقيت واجمة بعض الوقت، بلا صوت، منذهلة. ثمّ جرى بصرها يسأل بصر عمي، وتنفست الصعداء حينما أشار لها هذا الأخير بالإيجاب. قرفصت أمامي لتراني عن قرب وصاحت:

- ألهي، ما أجمله؟

أمسكتني بين ذراعيها بخفة كادت تفقد لي توازني. كانت امرأة قوية بحركات فظة أحيانا، رجولية تقريبا. ضمتني بقوة إلى صدرها؛ أحسست حتى بخفقات قلبها. تفوح عطرا طيبا مثل حقل من الخزامي، وزادت الدموع التي تلألأت على جوانب أهدابها من تعميق اخضرار عينيها. قال عمي بصوت مرتعد:

- عزيزتي جرمان، أقدّم لك يونس، بالأمس ابن أخي، اليوم ابننا.

شعرت بارتعاش يهزّ جسد المرأة؛ تدفّقت الدمعة المتردّدة على حافة أهدابها والعاكسة لعميق التأثر وسالت على خذها بطفرة واحدة. قالت وهي تحاول خنق شهقة:
- جوناس... جوناس... لو تعرف كم أنا سعيدة...
- حدِّيثيه بالعربية. لم يدخل المدرسة بعد.
- هذا ليس مشكلا. سنتدارك الأمر بسرعة.
وقفَت مُرتعدة، أخذَت بيدي وأدخلتني صالة بدت لي أكبر من إسطبل، مزينة بأثاث مهيب. يلج ضوء النهار جارفا عبر باب-نافذة ضخمة، بها ستائر وتشرف على شرفة حيث يسترخي كرسيان متحركان حول منضدة صغيرة. قالت جرمان:
- إنه منزلك الجديد.
يتبعنا عمي، الابتسامة تنير وجهه، وعلبة تحت الإبط.
- اشتريت له بعض الملابس. عليك أن تكملي الباقي غدا.
- طيّب، سأهتم بالطفل. زبائنك ينتظرون.
- على حسب ما أرى، تريدينه لوحدك.
قرفَصت جرمان من جديد لتتأملني جيّدا. قالت بالعربية:
- أظن أننا سنتفاهم جيدا، أليس كذلك، جوناس؟
حطّ عمي علبة الملابس على صُوان وجلس براحة على أريكة، يداه على ركبتيه، والطربوش مائل قليلا إلى الخلف. قالت جرمان:
- هل تنوي البقاء في البيت فعلا لتتجسّس علينا؟ عُد إلى عملك؟
- هذا غير مقبول يا نصفي الثاني. اليوم عطلة بالنسبة لي. عندي طفل في البيت.
- هل أنت جاد فيما تقول؟
- لم أكن جادا في حياتي مثل هذه اللحظة.
قالت جرمان مستسلمة:
- طيّب، جوناس وأنا سنذهب لأخذ حمام.
- اسمي يونس.
ردّت عليّ بابتسامة لطيفة، لمست خدي براحة يدها وهمست في أذني:
- ليس الآن يا عزيزي...
ثمّ وجّهت كلامها إلى عمي:
- بما أنك هنا، كن مفيدا وسخِّن لنا الماء.
دفعتني إلى غرفة صغيرة حيث يوجد نوع من القدر الفولاذي، فتحت حنفية الماء، وفيما كان الحوض يمتلئ، بدأت تنزع لي ثيابي.

- أوّلا سنبدأ بالتخلص من هذه الأسمال، أليس كذلك جوناس؟
لم أعرف ماذا ينبغي لي أن أقول. تابعت بعيني يديها البيضاوَين وهي يحوم حول جسدي لأتخلص من شاشيتي، وجلابيتي، وقميصي البالي، وجزمتي المطاطية. خيّل إليّ أنها يعريني ورقة ورقة كما يفعل الخريف مع الشجرة.
جاء عمي بدلو حديدي يفور ماؤه. وقف في الرواق، محتشما. ساعدتني جرمان على التسلل داخل الحوض، ودعكتني بالصابون من الرأس إلى القدمين، غسلتني مرات عديدة وهي تحكّ جسدي بقوة بسائل معطّر، ثمّ جفّفتني بمنشفة عريضة وراحت تحضر لي الملابس الجديدة. بعدما ارتديتها، أوقفتني أمام مرآة كبيرة؛ لقد تحوّلت إلى شخص آخر تماما. كنت أرتدي سترة بحّار يَعلوها طوق عريض ومزيّنة من الأمام بأربعة أزرار نحاسية خشنة، وسروالا قصيرا بجيوب على الجانبَين، وقبّعة "بيري" كالتي عند هواري.
وقف عمي ليستقبلني عند عودتي من الشرفة. كان سعيدا جدا إلى حدّ أربكني.
صاح:
- أليس رائعا أميرنا الحافي القدمين؟
- أحذر، ستجلب عليه العين الحسود... أما بالنسبة للقدمين الحافيتين، فإنك نسيت أن تشتري له الأحذية.
ضرب عمّي جبهته براحة يده.
- صحيح، أين كان رأسي؟
- فوق الغيوم بدون شك.
خرج عمّي فورا. عاد بعد قليل بثلاثة أزواج من الأحذية بمختلف القياسات. تناسبت مع قدميّ أصغرها. إنها أحذية بخيوط سوداء وليّنة، تدغدغني في الوتدين، ولكنها تغلف قدميّ بشكل رائع. لم يُرجِع عمي بقية الأحذية؛ يحتفظ بها لي للسنوات القادمة...
لم يفارقاني قيد أنملة، محلقَين حولي كفراشتَين حول شعلة نور، وهما يطوفان بي داخل الغرف الواسعة بسقوفها العالية التي بإمكانها إسكان جميع مستأجري بليس السمسار. تتدلى الستائر من جهتي النوافذ ذات الزجاج النظيف والمصاريع الخشبية المدهونة بالأخضر. كان منزلا جميلا مشمسا، بدا لي في البداية متاهيا بأروقته وأبوابه المتوارية وأدراج سلالمه الملولبة وخزائنه الحائطية التي خلتها غرفا. فكرت في أبي، في كوخنا، في أراضينا الضائعة، وثقب الجرذ في جنان جاتو؛ بدا لي الفرق شاسعا إلى حدّ الدوار.

كانت جرمان تبتسم لي كلما رفعت بصري باتجاهها. تدلّلني من اليوم الأول. لم يعرف عمّي من أي طرف يمسكني، ولكنه لم يغادرني ثانية. يتنافسان على تقديمي كل ما بالبيت. يضحكان حول أي شيء؛ أحيانا، يشدّ بعضهما بعضا من اليد ويكتفيان بالنظر إليّ، يترفّقان بالدموع، فيما كنت أكتشف، مبهورا، أشياء العصور الحديثة.
في المساء، تعشينا في الصالون. غرابة أخرى، لم يكن عمّي بحاجة إلى قنديل بترولي كي ينير لياليه؛ يكفي الضغط على زر لتشتعل مجموعة مصابيح في السقف.
كنت منزعجا جدا على الطاولة. أنا المتعوّد على الأكل في صحن واحد مع عائلتي، أحسست بنفسي مُتَغرِّبا أمام صحن شخصي. لم أبتلع الشيء الكثير. انزعجت من النظرات المتواصلة التي تراقب أدنى حركاتي، ومن الأيدي التي تعود بلا كلل لتحش شعري أو تقرصني من الخد.
كانت جرمان تكرّر لعمي دون توقف:
- لا تتسرّع. لنترك له الوقت الكافي ليتلاءم مع معالمه الجديدة.
يتماسك عمّي لبعض اللحظات، ثمّ يأخذه الحماس من جديد، برعونة أكثر.
بعد العشاء، صعدنا إلى الطابق الأول. أعلنت جرمان:
- ها هي غرفتك.
غرفتي... تقع في عمق الرواق، أكبر مرّتين من تلك التي كنت أتقاسمها مع عائلتي في جنان جاتو. يحتل سرير كبير الوسط، تحت الحراسة المشدّدة لطاولتين صغيرتين من الجهتين. لوحات معلّقة على الجدران، يصوّر بعضها مناظر رائعة، وعلى بعضها الآخر أشخاص في وضعيات خشوع، الأيدي مضمومة تحت الذقن والرأس مكلل بالذهب. فوق المدفأة الكبيرة، يوجد تمثال نحاسي لطفل بجناحين يقف على دكّة مربعة الشكل، يعلوه صليب. وغير بعيد عنه، مكتب صغير يرافق كرسيا مبطّنا. تحلق رائحة غريبة داخل الغرفة، لطيفة وعصية التحديد. من خلال النافذة، يمكننا أن نرى أشجار الشارع وسقوف المنازل المقابلة.
- أعجبتك الغرفة؟
لم أجب. أخافني هذا البذخ الفظ الذي يحاصرني. خشيت أن أسقط كل شيء أرضا بخطوة واحدة في غير موقعها الصحيح، ذلك أن النظام الصارم المحيط بنا بدا متوازنا في أدنى تفاصيله ولا يشدّه إلا خيط رقيق.
طلبت جرمان من عمّي أن يتركنا. انتظرت خروجه لتبدأ بنزع ملابسي وإمدادي فوق الفراش، كما لو أنني لست قادرا على النوم بدون مساعدتها؛ اختفى رأسي وسط الوسائد.

- أحلام لذيذة، يا ابني.
أرجعَت الغطاء على جسدي، وضعَت قبلة لا نهائية على جبهتي، أطفأت المصباح الجانبي وفارقتني على أطراف أصابع قدميها وغلقت الباب خلفها بعناية فائقة.
لا تزعجني الظلمة؛ كنت طفلا وحيدا، بلا خيال يُذكر، ونومي سهل. ومع ذلك، أمسك أحشائي ضجر غير مفهوم بداخل هذه الغرفة المحاصرة. أوحشني والديّ. لم يكن غيابهما هو الذي يرعد بطني. يوجد شيء غريب بداخل هذه الغرفة لم أتمكن من تحديده رغم أنني أحسّ به يطوف في الهواء، غير مرئي وضاغطا في آن. هل هي رائحة الأغطية، أو تلك المحلقة في الزوايا هي التي تصعد إلى رأسي؟ هل هي هذه الرائحة اللاهثة التي ترن هنا وهناك، وأحيانا بداخل المدفأة الكبيرة؟ كنت على يقين أنني لست وحيدا، بأن حضورا ما يتربّص بي في العتمة. ارتعدت رقبتي وكاد تنفسي يتوقف حينما أحسست بيد باردة تلامس وجهي. في الخارج، يضيء البدر الشارع. تصفر الريح ضد الأسْوِجة فيما تقلع الأشجار شعرها تحت الزوابع. أغمضت عينيّ بشدّة وأنا أتشبّث بالجوخ. لم تنسحب اليد المثلجة. وبدا الحضور مُهيمنا شيئا فشيئا. أحسّ به واقفا إزاء السرير، مُستعدا للانقضاض عليّ. بدأ الهواء ينقصني؛ وقلبي على وشك الانفجار. فتحت عينيّ وتفاجأت بالتمثال يدور ببطء فوق المدفأة الكبيرة. يحدّقني بعينيه الكفيفتين، الفم مشلول في ابتسامة حزينة... قمت مرعوبا وتخندقت خلف السرير. اشرأب عنق تمثال الطفل ذي الجناحين كي يواجهني؛ غطى ظله الوحشي الجدار كلية. ولجت تحت السرير، انكمشت في طرف غطاء، قلبي يخفق بشدّة، وانكمشت على نفسي وأغمضت عينيّ، متأكدا أنني لو فتحتهما، سأفاجئ التمثال بأقدامه الأربعة وهو يتفرّسني.
كنت خائفا جدا إلى حدّ لا أعرف إن غفوت أو أغمي عليّ...
- ماحي...
أيقظتني الصرخة. ارتطم رأسي بشفرات السرير. صرخت جرمان:
- جوناس ليس بغرفته.
ردّ عمي غير مُصدّق:
- ماذا تقولين، جوناس ليس بغرفته؟
سمعتهما يَركضان في الرواق، يصفقان الأبواب، يتدحرجان عبر أدراج السلالم. قال عمي: "لم يخرج من الدار. الباب مغلق بالمفتاح. باب الشرفة مُغلق أيضا. هل نظرت في المرحاض؟... ردّت جرمان بنبرة هلعة: "تفقّدت ولا أثر له... – هل أنت متأكّدة أنه ليس بغرفته؟... – قلت لك بأن سريره كان فارغا...

بحثا عني في الطابق الأول، حركا بعض الأثاث، ثمّ صعدا ثانية وعادا إلى غرفتي.
صَرخَت جرمان وهي تكتشفني جالسا على حافة السرير:
- إلهي... جوناس... أين كنت؟
كان جانبي الأيمن مقسوطا وأحس بالوجع في مفاصلي. انحنى عمي على الحدبة الصغيرة التي نمت على جبهتي.
- هل سقطت من السرير؟
مددت ذراعا مفلوجا باتجاه التمثال الصغير:
- لقد تحرّك طوال الليل.
ضَمّتني جرمان مباشرة.
- جوناس، يا عزيزي جوناس، لماذا لم تنادِني؟ وجهك شاحب وهذا بسببي.
في الليلة الموالية، اختفى تمثال الطفل الصغير من غرفتي؛ وكذا الصليب والأيقونات.
بقيَت جرمان بقربي تحكي لي قصصا في خليط من العربية والفرنسية وتدعك شعري إلى أن خطفني النوم.
مرّت أسابيع؛ اشتقت إلى والديّ. لم تدخّر جرمان أي جهد كي تجعل حياتي مريحة. في الصباح، عندما تذهب للتبضّع، تأخذني معها عبر المحلات ولا ترجعني إلى البيت إلا ومعي سكرية أو لعبة في اليد. في الظهيرة، تعلّمني القراءة والكتابة. أرادَت تسجيلي بالمدرسة ولكن عمي لم يرد استعجال الأمور. أحيانا، يأذن لي بمرافقته إلى الصيدلية. يجلسني إلى مكتب صغير، في الغرفة الخلفية للمحل، وفيما ينشغل مع زبائنه، يكلفني بنقل حروف الأبجدية على كراس. وجدَت جرمان بأنني أستوعب بسرعة ولم تفهم لماذا يتردّد عمي بإسناد تعليمي إلى معلم حقيقي. بعد شهرين، تعلّمت قراءة الكلمات دون أن أتعثر كثيرا في المقاطع اللفظية. أصرّ عمي على موقفه؛ رفض الحديث عن المدرسة قبل أن يتأكّد من أن أبي سوف لن يرجع في موقفه ويأتي لاسترجاعي.
ذات مساء، فيما كنت أسرح في أروقة الدار، دعاني للالتحاق به في مكتبه. كانت غرفة بسيطة، بكوة صغيرة تضيئها إضاءة خافتة. كانت الجدران معبأة بالكتب بأغلفة كرتونية؛ توجد الكتب في كل مكان، على الرفوف، فوق الأصونة، على الطاولة. كان عمي يجلس على كرسي، منحنٍ على كتاب ضخم، وعلى أنفه نظارات. أخذني على ركبتيه ووجهني نحو صورة امرأة معلّقة على الجدار.
- ينبغي عليك أن تعرف شيئا مهما يا ولدي. لم تسقط فجأة من أعلى شجرة لتقع في هاوية... أترى هذه السيّدة على الصورة؟... لقد أطلق عليها جنرال اسم "جان

دارش". كانت سيّدة نبيلة، غنية وصاحبة نفوذ كبير. اسمها لالة فاطنة وكانت تملك أراضٍ بسعة بلد. تعج السهول بقطعان ماشيتها، ويأتي الأعيان من كل حدب وصوب لطلب الإعانة والمشورة. كان الضباط الفرنسيون أنفسهم يكنون لها احتراما مهيبا.
يحكى أن الأمير عبد القادر لو التقى بها لغيّر مجرى التاريخ... أنظر إليها جيدا، يا ولدي. هذه السيّدة، هذا الوجه الأسطوري، إنها جدّتك.
كانت جميلة، لالة فاطنة. كانَت مُتكئة على وسائدها، الرقبة مستقيمة والرأس شامخ فوق قميص من القفطان المرصّع بالذهب والأحجار الكريمة، يبدو كما لو أنها تتسيّد على البشر وأحلامهم. مرّ عمي إلى صورة ثانية تجمع ثلاثة رجال ببرانيس الأسياد، الوجوه وقورة بلحى معتنى بها، النظرات قوية كما لو أنها ستنبثق من الإطار.
- هذا الذي في الوسط هو أبي، أي جدّك. الآخران إخوته. على اليمين، سيدي عبّاس. هجر إلى سوريا ولم يعد أبدا. على اليسار عبد المؤمن، عالِم متنوّر. كان يمكن أن يصبح حجر الزاوية للعلماء بسعة معارفه التي أطبقت الآفاق، ولكنه استجاب بسرعة إلى نداء المغريات. عاشر البورجوازية الأوربية، أهمل أراضيه وماشيته وبذّر أمواله في البيوت المستهترة. عُثر عليه ذات يوم مقتولا بطعنة خنجر في الظهر.
وبعد ذلك، أدارني نحو صورة ثالثة أكبر من الصورتين الأوليين.
- هنا يظهر جدّك في الوسط محيطا بأولاده الخمسة. لقد رزق بثلاث بنات من زواج أوّل ولكنه لا يحكي عنهن أبدا. على يمينه، كبير الإخوة، قدّور. لم يكن يتفاهم مع الشيخ وقد تمّ تجريده من الوراثة عندما التحق بفرنسا كي يمارس السياسة. على اليسار حسان؛ كان يحي حياة مستهترة، يعاشر النساء المنحرفات اللائي يغدق عليهن الأموال والذهب، ودون علم القبيلة أبرم اتفاقات استهلكت جزءًا كبيرا من مزارعنا وخيولنا. حينما جُرَّ جدّك أمام المحاكم، صعق من هول الخسارة. فلم يشفى من هذه الضربة أبدا. إلى جانب حسان، عبد الصمد، صبور في العمل، اضطر إلى مغادرة المنزل العائلي لأنّ الشيخ منعه من الزواج بقريبة لنا انضم أهلها إلى مساندة الفرنسيين. مات عسكريا في مكان ما بأوربا في نهاية حرب 14-18... وهذان الصغيران اللذان تراهما جالسين عند قدمي الشيخ، هما أبوك عيسى، صغيرنا، وأنا، أكبره بسنتين. كنا متحابين كثيرا... حدث أنني أصبت بمرض خطير، لم يتمكن الأطباء ولا الدراويش من علاجه. كنت في سنك تقريبا. يئس جدّك من شفائي. حينما اقترح عليه أحد أصدقائه أن يأخذني عند الأخوات المسيحيات، رفض رفضا قاطعا. وبما أنّ صحتي كانت تتدهور يوما بعد يوم، اضطر ذات صباح إلى أن دقّ على باب ديرهن...

أراني صورة تظهر فيها مجموعة من الراهبات:
- إنّ الأخوات الطيّبات هنّ اللائي أنقَذن حياتي. دام العلاج سنوات حيث كنت أتابع دراستي، فتحصلت على البكالوريا. وبعد ذلك، قبِل جدّك بأن يدفع لي مصاريف دراسة الصيدلة برغم إفلاسه بسبب الرهانات والأوبئة. ربما أدرك أنّ حظّي في الخلاص مع الدراسة أفضل من حظي مع دائنينه. حينما التقيت بجرمان في كلية الكيمياء حيث كانت تدرس البيولوجية، لم يعترض على اقترانا برغم علمي أنّ عينه قد حطت على قريبة أو بنت حليف ليزوّجها لي. بعد نيل شهادة الصيدلي، سألني عما أريد أن أفعله بحياتي المهنية. اخترت العيش في المدينة وفتح صيدلية. وافق دون شروط مسبقة. هكذا اشتريت هذا المنزل وهذه الصيدلية. لم يأتِ جدّك لزيارتي هنا ولو مرة واحدة. ولا حتى حينما تزوّجت بجرمان. لم ينكرني، أراد أن يمنح لي حظي في الحياة. مثلما فعل أبوك حينما سلّمك إليّ... أبوك عامل شهم ونزيه. حاول أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ولكنه كان وحيدا. لم يكن مخطئا. من سوء حظه أنه كان آخر عجلة لعربة انحرفت عن سيرها العادي. ربّما لو اتّحدنا نحن الاثنين لاستطعنا أن نعيد المياه إلى مجاريها الطبيعية، ولكن القدر قرّر خلاف ذلك.
أخذ ذقني بين الإبهام والسبابة ونظر إليّ جيدا في العينين:
- ربما تساءلت لماذا أحكي لك كل هذا يا ولدي... لكي تعرف جذورك جيدا. بداخل عروقك، تجري دماء لالة فاطنة. يمكنك أن تنجح في مكان أبيك وتخرج من الورطة التي انزلقتم بداخلها وترجع إلى غاية القمة التي كنتم في ذروتها.
قبّلني على جبهتي.
- الآن، عد إلى جرمان. تكون قد اشتاقت إليك.
انزلقت من على ركبتيه وركضت نحو الباب.
قطّب حاجبيه حينما رآني أتوقف فجأة.
- نعم يا ولدي؟...
نظرت إليه بدوري في العينين وسألت:
- متى تأخذني لرؤية أختي الصغيرة؟
ابتسم:
- بعد غد، إنه وعد مني.

رجع عمي إلى الدار مبكرا على غير عادته. كنّا أنا وجرمان في الشرفة، هي على الأريكة تقرأ، وأنا أحاول العثور على السلحفاة التي صادفتها بغتة بالأمس بين

نباتات الحديقة. حطّت جرمان الكتاب على الطاولة الصغيرة وقطّبت حاجبيها؛ لم يأتِ عمي ليقبلها مثلما يفعل كل يوم. انتظرت بضع دقائق؛ لم يظهر عمي، وقفت ولحقت به.

كان عمّي في المطبخ، جالسا على كرسي، يضع مرفقيه على الطاولة، الرأس بين يديه. فهمت جرمان أنّ أمرا خطيرا قد وقع. رأيتها تجلس مقابلة له وتمسك قبضته.

- مشاكل مع الزبائن؟

ردّ عمّي بعصبية:

- لماذا تريدين أن تكون لي مشاكل مع الزبائن؟ لست أنا الذي يسجل لهم ما يتناولونه من أدوية...

- أراك مضطربا.

- طبيعي، أنا عائد للتوّ من جنان جاتو.

اهتزّت جرمان قليلا:

- أليس من المفروض أن تذهب هناك مع الطفل؟

- فضّلت جسّ النبض أوّلا.

قامت جرمان وأحضرت إناء ماء وسقت كأسا لزوجها الذي أفرغه في جوفه بجرعة واحدة.

رأتني واقفا وسط الصالون وأشارت إلى السقف، قائلة:

- جوناس، انتظرني في غرفتك. سنراجع دروس البارحة.

أوهمتها أنني أصعد السلالم، مكثت بعض الوقت وسط الرواق، نزلت بعض الأدراج واسترقت السمع. لقد أجّج اسم "جنان جاتو" فضولي. أردت أن أعرف ماذا يوجد خلف سحنة عمي المنهارة. هل حدثت مصيبة عند أهلي؟ هل تمّ التعرف على هوية قاتل ألمورو واقتيد أبي إلى السجن؟

سألت جرمان بصوت خفيض:

- تكلم، ما هي الأخبار؟

ردّ عمي متعبا:

- أي أخيار؟

- هل رأيت أخاك؟

- إنه في حالة لا تبشّر بالخير أبدا.

- هل أعطيت له النقود؟

- هنا الضربة الموجعة ! حينما وضعت يدي في جيبي، تشنّج كما لو أنني سأخرج سلاحا. قال غاضبا: "لم أبع لك ابني على حسب ما أعرف. سلّمته لك لبعض الوقت فقط." صعقني ردّ فعله كما لا تتصوّرين. عيسى على شفى حفرة من الهاوية. أخشى عليه السقوط الفج.
- إلى هذه الدرجة؟
- حالته سيّئة للغاية. لو رأيت عينيه؟ تخالينه عفريتا.
- وجوناس، هل ستأخذه غدا لرؤية أمه؟
- لا.
- ولكنك وعدته.
- غيرت رأيي. لم يخرج أنفه بعد من الوحل؛ ولا أريد أن أرجعه إليه ثانية.
- ماحي...
- لا تلحّي. أعرف ماذا يجب أن لا أفعله. من الآن فصاعدا، على طفلنا أن ينظر أمامه. خلفه، لا يوجد إلا الخراب.
سمعت جرمان تتحرّك بعصبية على كرسيها.
- استسلمت بسرعة ماحي. أخوك بحاجة إليك.
- أتعتقدين بأنني لم أجرّب؟ عيسى قنبلة، يكفي أن تلمسه كي ينفجر. لا يترك لي أدنى فرصة. سوف يقطع ذراعي لو مددت له يدي. بالنسبة إليه، كل ما يأتيه من الغير يعتبر صدقة.
- أنت لست الغير، أنت أخوه.
- هل تعتقدين أنه يجهل ذلك؟ في رأسه الصغير، الأمور متساوية. مشكلته أنه يرفض الاعتراف بأنه سقط إلى الحضيض الأسفل. الآن، وبعد أن أصبح ظل نفسه، كل ما يبرق يحرقه. ثمّ إنه حاقد عليّ. لا تتصورين كم يحقد عليّ. لو بقيت بقربه، كنا سنتمكن من إنقاذ أراضينا، هكذا يفكر. بل هو مقتنع بهذا أشد الاقتناع. اليوم أكثر من ذي قبل. أنا متأكّد أن هذه الفكرة هي التي تسيطر على ردود أفعاله.
- أنت الذي تعتقد ذلك...
- ربما، ولكنه مهووس بهذه الفكرة. أنا أعرفه جيدا. يسكت كي يجتر جيدا غضبه. يكرهني. بالنسبة إليه، لقد بعت روحي للشيطان. أنكرت أهلي، تزوّجت بكافرة، تخليت عن أرضنا مقابل دار في المدينة، استبدلت غندورتي ببدلة أوربية، وحتى وإن وضعت الطربوش على رأسي، فهو يلومني على رمي عمامتي لحشائش القرّاص. بينه وبيني، لم يعد التيار يمر أبدا.

- كان عليك أن تمنح بعض الأوراق النقدية لزوجته.
- لم تكن لتقبلها. تعرف أنّ عيسى سيقتلها.
صعدت بسرعة إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي.

في منتصف نهار الغد، أنزل عمي ستار محله الحديدي وجاء ليأخذني. يكون قد فكّر بهدوء، أو ربما تكون جرمان هي التي أقنعته. على كل حال، أراد التأكد بشكل نهائي. تعب من العيش في حيرة أن يرى أبي يتراجع عن موقفه. ترهن الشكوك سعادته؛ يملك مشاريع خاصة بي، ولكن احتمال تراجع أبي ينغّص أيامه. إنّ أبي قادر على المجيء بلا سابق إخبار، يمسكني من اليد ويجرني خلفه دون حتى أن يقدّم أدنى تفسير.
أخذني عمي إلى جنان جاتو. فبدت لي جنان جاتو أرعب من السابق. هنا يدور الزمن في حلقة مفرغة. بلا تتابع في الأفكار. الوجوه السمراء الداكنة نفسها تلقي نظراتها المكثفة حولها، الظلال الصينية نفسها تتداخل مع الظلام. أعلى ساق الحطب عمامته إلى قمة رأسه بحركة فظة حينما رآنا نقترب من الحي. أما الحلاق، فكاد يقطع أذن الشيخ الذي كان يحلق له رأسه. أوقف الأطفال أفعالهم وحركاتهم واصطفوا طول الدرب لينظروا إلينا مليا. تقسم أسمالهم على أجسادهم الضامرة.
تجنّب عمي إطالة النظر على البؤس المستشري؛ مشى مستقيم القامة، رافع الذقن، النظرة متملّصة.
لم يدخل معي إلى الفناء، مفضلا انتظاري في الدرب.
- خذ كل وقتك، يا ولدي.
ركضت داخل الفناء. كان ابنا بَدرَة يتشاجران قرب البئر، الذراعان متشابكان في صراع لاهث. يشدّ الأصغر جسد الكبير إلى الأرض ويحاول طي مرفقه. في زاوية بقرب المرحاض، قرفصت حَدّة فوق إناء قدّ في برميل حديدي تغسل ثيابها. كان فستانها معقوفا إلى غاية نصف الفخذين مانحا ساقيها الجميلين العاريين إلى دفء الشمس. كانت تدير لي ظهرها ولا يبدو أنها منزعجة من الصراع الشرس الدائر بين ابني جارتها.
رفعْت ستار غرفتنا وانتظرْت بضع ثوانٍ كي تتأقلم عينايّ مع الظلام السائد بداخلها. رأيت أمّي ممدّدة على فراش رثّ، لفّت جسدها بغطاء، ورأسها معصّب بمنديل.
قالت متأوّهة:
- يونس ابني، هل أنت يونس؟

ركضت نحوها، وارتميت فوقها. حزمتني بذراعيها وضمّتني إلى صدرها؛ كانت الضمّة رخوة. تحترق أمّي بالحمى.
دفعتني برفق؛ ربما كان وزني يمنعها من التنفس. قالت:
- لماذا رجعت؟
أختي جالسة بقرب المائدة. لم أرها من الوهلة الأولى لأنها كانت صامتة ومنسحبة. تبصرني بعينيها الكبيرتين الفارغتين متسائلة أين تكون قد رأتني سابقا. تغيّبت لشهور قليلة وها هي لا تتذكرني. أختي لا تتكلم بعد. لا تشبه أقرانها الآخرين ويبدو أنها ترفض أن تكبر.
أخرجت من كيس صغير لعبة كنت اشتريتها من أجلها، وضعتها على المائدة. لم تأخذها أختي؛ اكتفت بالنظر إليها قبل أن تواصل تفرّسي. أخذت اللعبة ثانية –إنها دمية صغيرة من القماش- ووضعتها بين يديها. لم تنتبه لذلك.
سألتني أمّي:
- كيف اهتديت إلى طريق الحَوْش.
- عمي ينتظرني في الدرب.
أطلقت أمي صرخة مدوية كي تجلس على فراشها. من جديد، شدّتني بذراعيها وجذبتني إلى صدرها.
- أنا مسرورة برؤيتك. كيف الحال عند عمّك؟
- جرمان لطيفة جدا معي. تغسلني كل يوم وتشتري لي كل ما أحب. عندي لعب كثيرة وأواني المربى، وأحذية... أتعرفين ماما، الدار كبيرة جدا. بها غرف كثيرة ومكان يتسع للجميع. لماذا لا تأتون للعيش معنا؟
ابتسمت أمي، فاختفت بقدرة قادر كل الأوجاع التي دعكت قسماتها. أمّي جميلة، بشعرها الأسود الذي ينسدل على ظهرها إلى غاية الخصر وبعينيها الواسعتين اللوزيتين. حينما كنا في أرضنا، وأراها تتأمل حقولنا من فوق ترعة تراب، كنت غالبا أحسبها سلطانة. إنها رشيقة، متأنقة، وحينما تتدحرج عبر سفح التلّة، إنّ البؤس الذي يتشبث بأذيال فستانها كما رهط من الكلاب لا يتمكن من الالتحاق بها. قلت بمزيد من الإلحاح:
- صحيح ماما، لماذا لا تأتي للعيش معنا في دار عمي؟
قالت وهي تمسح شيئا على خدها:
- لا تجري الأمور هكذا عند الكبار يا ابني. ثمّ إنّ أباك لن يقبل أبدا العيش عند شخص آخر. يريد أن يبني نفسه من جديد بقدراته الخاصة ولا يدين لأحد بشيء.

أضافت:
- وجهك مشع، يبدو أنك سمنت قليلا. ثمّ... يا إلهي، كم أنت جميل في هذه الملابس. كما لو أنك ابن رومي.
- جرمان تسميني جوناس.
- من هي؟
- زوجة عمّي.
- أمر طبيعي. لا ينطق الفرنسيون أسماءنا جيدا. إنهم لا يتعمدون ذلك.
- أعرف القراءة والكتابة...
حشت أصابعها في شعري.
- هذا شيء عظيم. لم يكن أبوك ليتركك عند عمك لو لم يتأكّد بأنه سيمنح لك ما لا يستطيع أن يمنحه لك.
- أين هو الآن؟
- يشتغل... بلا توقف... سترى، قريبا سيأتي للبحث عنك ليأخذك إلى منزل أحلامه. أتعرف بأنك ولدت في منزل جميل؟ إن الكوخ الذي تربيت فيه ملك لعائلة من الفلاحين كان أبوك يشغلها عنده. في البداية كنا تقريبا أغنياء. احتفلت القرية بأكملها بعرس زواجنا. أسبوع كامل من الغناء والولائم. منزلنا كبير وتحيطه حدائق من جميع الجهات. ولد إخوتك الثلاثة الأوائل كالأمراء. لم يكتب لهم العيش. أنت جئت بعدهم ولعبت في تلك الحدائق إلى حدّ اللهث. ثمّ قرّر الله أن يستبدل الشتاء بالربيع، فجفت حدائقنا. إنها الحياة، يا ابني. ما تمنحه لنا بيد، تخطفه باليد الأخرى. ولكن لا يمنعنا شيء من استرجاعه ثانية. وأنت ستنجح إن شاء الله. سألت باتول العرافة. قرأت في خطوط الماء بأنك ستنجح في حياتك. لهذا، كلما اشتقت إليك، أصف نفسي بالأنانية وأقول: إنه مريح في المكان الذي يوجد فيه. لقد نجا.

6

لم أمكث طويلا عند أمّي. أو مكثت دهرا. لم أعد أتذكّر. الوقت لا يُحتَسب؛ يوجد شيء آخر، أكثر كثافة، أكثر جوهرية. كما في ردهة استقبال السجون، إنّ المهم هو ماذا يبقى من اللحظة التي نتقاسمها مع الشخص الذي فارقنا. في ذلك العمر، لم أدرك مدى الخراب الذي أحدثه ذهابي في أفراد عائلتي، مدى التشوّه الذي أصبحت أمثله في نظرهم. لم تذرف أمّي دمعة واحدة. ستبكي فيما بعد. كلّمتني مبتسمة دون أن تطلق يَدي. كانت ابتسامة أمّي غفرانا.

لقد قلنا لبعضنا البعض كل ما كنا نريد قوله، يعني لا شيء تقريبا، لا شيء لم نكن نعرفه. قالت أمّي بنبرة قطعية: هذا المكان ليس جيدا لك.

في حينها، لم تثر هذه الكلمات في نفسي شيئا ذا بال. لم أكن إلا طفلا لا تتجاوز الكلمات عنده حواف الشفتين إلا نادرا. هل استوعبتها؟ هل أطلت النظر بها؟... ثمّ ما قيمة ذلك؟ على كل حال، كنت في مكان آخر.

هي التي ذكّرتني بأنّ هناك من ينتظرني في الزقاق، وأنّ عليّ بالذهاب؛ فغاب الدهر مثلما تغيب الأضواء حينما نضغط على الأزرار، بسرعة باغتتني.

في الخارج، الحوش غارق في الصمت. لا ضجيج، لا أصوات شجار. صمَت الحوش؛ هل يسترق السمع إلى بابنا؟ عندما خرجت إلى الفناء، تفاجأت بوجود كامل جيراننا حول البئر. بدرة، ماما، باتول العرافة، حدّة الجميلة، يزَّة وذريتهن ينظرون إليّ عن بعد. كما لو أنهم يخشون تلويث ملابسي إن اقتربوا مني أكثر. انقطع أشقياء بدرة عن التنفس. احتفظوا بأيديهم لاصقة على أجسادهم هم الذين يحشرون أصابعهم في كل مكان. يكفي أنني غيّرت ملابسي كي أربكهم. إلى اليوم، لا زلت أتساءل إنْ لم يكن العالم في نهاية المطاف سوى مظاهر. تملك وجها شبيها بالورق المعجّن وكيس خيش على الظهر، فأنت فقير. تغسل وجهك، تمشط شعرك، ترتدي سروالا نظيفا، فأنت شَخْص آخر تماما. ليست إلا اختلافات ضئيلة. في الحادية عشر من العمر، تربكك هذه اليقظات. وبما أن الأسئلة لا تأتيك بالأجوبة، تقتنع بالتي تليق بك. كنت مقتنعا أن البؤس لا يتعلق بالقدر، وإنما يستلهم طاقته من الذهنيات. كل شيء يُعجَن في الرأس. ما تكتشفه العيون، تعتنقه الروح، فنفكّر بأنه واقع الكائنات والأشياء الذي

لا يتغيّر. ومع ذلك، يكفي أن ندير انتباهنا قليلا من الحالة السيئة لنكتشف طريقا مغايرا، جديدا كما قطعة نقود، وغريبا يثير أحلامنا... في جنان جاتو، لا مكان للأحلام. قرّر الناس أن مصائرهم مختومة بأقفال نهائية ولا يوجد شيء حولها، ولا خلفها، ولا تحتها. إن طول النظر باتجاه العود الذي يجرح، انتهى بهم إلى الالتحام روحا وجسدا بحَول عيونهم.
مدّ لي عميّ يده. أمسكتها بخفة. حينما انغلقت أصابعه على معصمي، توقفت عن النظر خلفي.
لقد كنت في مكان آخر.

لم أحتفظ بالشيء الكثير من سنة تكفلي الأولى. اطمأن عمي وسجلني في مدرسة على بعد هِدْفتَين من زقاقنا. كانت منشأة عادية، بأروقة بلا جاذبية وشجرتي دلب كبيرتين في الفناء. بدا لي أن المكان كان مظلما نوعا ما، وأنّ أضواء النهار لا تخدش إلا أعالي البناية. خلافا للمعلّم، رجل خشن وصارم يدرّسنا اللغة الفرنسية بلهجة "أوفرنيا" القوية والتي يحسن بعض التلاميذ تقليدها جيدا، كانت المعلمة لطيفة وصبورة معنا. كانت ممتلئة قليلا، وترتدي المئزر الداكن نفسه دائما، وحينما تمر بين الصفوف، يتبعها عطرها كما الظل.
يوجد عربيان في قسمي، عبد القادر وإبراهيم، ابْنا أعيان يرافقهما الخدم إلى غاية مدخل المدرسة.
كان عمي يعتني بي كما لو تعلق الأمر بقرة عينه. يشجعني انشراح مزاجه. من حين لآخر، يدعوني إلى مكتبه ويقص عليّ حكايات لا أستوعب لا معناها ولا مقاصدها. وهران مدينة رائعة. تملك نبرة فريدة تضيف إلى مرحها المتوسطي انجذابا لا يذبُل. تنجح في جميع مبادراتها. تعرف متع الحياة ولا تعيشها في السر. أمسياتها ساحرة. بعد قيظ النهار، ينتعش الجوّ ويخرج الناس كراسيهم إلى الأرصفة ويقضون ساعات طويلة في تبادل أطراف الحديث حول كؤوس الأنيزات. من شرفتنا، كنا نراهم يحرقون السجائر ونسمع أحاديثهم. تنطلق بذاءاتهم الغامضة وسط الظلام كما النيازك وتتدحرج قهقهاتهم إلى غاية أقدامنا، شبيهة بالأمواج التي تأتي للَحْس أصابع أرجلنا عند شاطئ البحر.
كانت جرمان في غاية السعادة. لا يمكنها أن ترفع بصرها باتجاهي دون أن تشكر السماء بدعاء خاشع. كنت على وعي تام بالسعادة التي جلبتها لهما، لجرمان وزوجها، وهذا أثلج صدري.

أحيانا، كان عمي يستقبل ضيوفا، بعضهم يأتي من بعيد؛ عرب وبربر، يرتدي بعضهم بدلات أوربية وبعضهم الآخر ملابس تقليدية. كانوا ناسا مُهمّين، مُتميّزين جدا.
يتحدّث الجميع عن بلد اسمه الجزائر؛ ليس ذلك الذي يدرَّس في المدرسة ولا بلد الأحياء الراقية، وإنما بلد آخر مسلوب ومستعمَر ومَقموع، والذي يجتر غضبه مثل أكل فاسد –جزائر جنان جاتو والانكسارات الجارحة والأراضي المحروقة والعذابات المتكرّرة والحمالين... بلد يحتاج إلى إعادة تعريف حيث اختارت جميع متناقضات الكون أن تستنزف طاقته وتعيش على مدخراته.
أظن أنني كنت سعيدا عند عمي. لم أشعر بأن جنان جاتو ينقصني. أقمت علاقة صداقة مع طفلة تسكن مقابلا لنا. اسمها لوسات. كنا في قسم واحد وأذن لها أبوها بأن تلعب معي. عمرها تسع سنوات، لم تكن آية في الجمال، ولكنها كانت دمثة الأخلاق وسخية، وتعجبني رفقتها.
في المدرسة، استوت لي الأمور ابتداء من السنة الثانية. نجحت في الذوبان بين الصفوف. صحيح أن الأطفال الروميين كانوا غرباء نوعا ما. يستطيعون استقبالك بالأحضان قبل أن يلفظوك مباشرة بعد التحية. يتفاهمون جيدا فيما بينهم. طبعا يحدث لهم أن يتشاجروا في أوقات الراحة، أن يغذوا أحقادا دفينة لبعضهم البعض، ولكن بمجرد أن يعلن غريب ما –عادة ما يكون عربيا أو من "فقرائهم"- يتحدون في كتلة واحدة ضده. يقومون بعزله، يسخرون منه ويشيرون إليه تلقائيا بالبنان حينما يحين البحث عن متهم. في البداية، كلّفوا موريس، تلميذ كسول وعدواني، باضطهادي. حينما اكتشفوا أنني متخاذل، عاجز عن ردّ الضربات أو البكاء، انصرفوا عني. ومع ذلك، حينما اكتشفوا "فرائس" أخرى، قبلوني على حافة مجموعتهم. لم أكن واحدا منهم ولا يفوِّتون فرصة دون تذكيري بذلك. الغريب أنه يكفي أن أخرج من محفظتي اللُمْجة التي تعدها لي جرمان حتى يتعقّلوا؛ فجأة يتحولون إلى أصدقاء لي ويعبرون لي عن احترام مهدّئ. وبعدما نقتسم اللمجة، ونبتلع آخر فتات، يتنكرون لي بسرعة تجعل انقلابهم عليّ يربكني.
ذات مساء، عدت إلى المنزل أستشطّ غضبا. كنت بحاجة إلى تفسيرات، وفي الحين. غضبت ضد موريس والمعلم وضد جميع تلاميذ قسمي. لقد جُرحت في كرامتي، ولأول مرة، شعرت بأن ألمي لا يختزل في ألم عائلتي وإنما يمكنه أن يمتد إلى أناس لا أعرفهم لا من آدم ولا من حواء، ومع ذلك يصبحون قريبين مني، في لحظة إهانة، مثل قرب أبي وأمي. وقعت الحادثة أثناء الدرس. أرجعنا ورقة التمرين، وكان عبد القادر مضطربا. لم ينجز تمرينه. أمسكه المعلم من الأذن، أصعده فوق المصطبة وقدّمّه

للقسم: "هل يمكنك أن تقول لنا لماذا لم تنجز تمرينك مثل جميع زملائك يا عبد القادر؟" أبقى التلميذ المذنب رأسه منخفضا، وقد احمرّ من الخجل. "لماذا يا عبد القادر لم تنجز تمرينك؟" وحينما لم يتلقَ جوابا، خاطب بقية القسم: "هل يمكن لأحدكم أن يقول لي لماذا لم ينجز عبد القادر تمرينه؟" دون أن يرفع أصبعه، أجاب موريس باندفاع: "لأنّ العرب كسالى يا سيّدي". إن القهقهات التي انطلقت حولي سحقتني.

بعد عودتي إلى المنزل، ذهبت مباشرة إلى مكتب عمّي وسألته:

- هل صحيح أن العرب كسالى؟

تفاجأ عمي من عدوانية لهجتي. حطّ الكتاب الذي كان يقرأه والتفت إليّ. إن ما أدركه في ملامح وجهي لطّف ردّ فعله. قال لي وهو يفتح ذراعيه:

- تعالى هنا يا ولدي...

- لا... أريد أن أعرف إن كان هذا الكلام صَحيحا. هل العرب كسالى فعلا؟

مسك عمي ذقنه بين إبهامه وسبابته وهو يتفرسني. الساعة حاسمة؛ من واجبه أن يقدم لي التفسيرات اللازمة. بعد أن فكّر، قابلني وقال:

- لسنا كسالى. نأخذ فقط الوقت لنعيش. وهذا ليس شأن الغربيين. بالنسبة إليهم، الوقت من ذهب. أما بالنسبة إلينا، الوقت لا ثمن له. يكفي كأس شاي لسعادتنا، بينما لا تكفيهم أية سعادة. يكمن الاختلاف هنا، يا ولدي.

لم أكلّم موريس من ذلك اليوم ولم أعد أخشاه.

وبعد هذا، جاء ذلك اليوم –يوم إضافي آخر- وقد باغتني كلية لأنني تعلمت أن أحلم. رافقت لوسات عند خالتها، خياطة مختصة في السراويل، تقع ورشتها في حي "شوبوت"، الواقع في الأعلى، غير بعيد عن حيّنا، ورجعت إلى البيت راجلا. كانت صبيحة من أيام أكتوبر، وتزيّن السماء شمس كبيرة كما القرعة. يجرّد الخريف الأشجار من آخر أسمالها فيما كانت ريح شديدة الهبوب تعبث بركام الأوراق الجافة المتناثرة في الطريق. في الشارع الذي كنا نحب أنا ولوسات التجول وإمعان النظر إلى واجهات المحلات، توجد حانة. لا أتذكر اللافتة المعلقة في الواجهة، ولكنني لا زلت أتذكّر السكارى الذين يرتدون إليها؛ أشخاص نزقون، صاخبون، عادة ما تتدخّل الشرطة بالعصي كي تهدّئهم. في اللحظة التي وصلت قرب بابها، انفجر شجار عنيف. بعد الشتائم، تلتها جلبة ارتطام الطاولات والكراسي، ورأيت رجلا سمينا غاضبا يمسك متسولا من الرقبة وحزام السروال ويدحرجه على الرصيف. سقط

المسكين عند قدميّ في صوت حزمة تبن. كان في حالة سكر متقدّمة. قال خادم الحانة وهو يقف عند العتبة:
- لا تضع قدميك هنا مرة ثانية أيها المُقمّل... هذا ليس مكانا لأمثالك.
دخل النادل إلى الحانة وخرج بعد لحظات وفي يده نعل.
- خذ نعلك يا حجا البئيس. ستجري بها أحسن وأسرع إلى خسارتك.
أدخل المتسوّل عنقه حينما ارتطم النعل برأسه. وبما أنه أغلق عليّ طريقي لأنه تمدّد بكامل طول جسده عرض الرصيف، ولم أعرف إن كان عليّ استدارته أو قطع القارعة إلى الرصيف المقابل، فوجمت في مكاني.
تشمّم المتسوّل الأرضية، خدّه مضغوط على الأسمنت، عمامته على رقبته. كان يدير لي ظهره. حاولت يداه المرتجفتان أن تتشبّثا بشيء ما، ولكنه كان سكرانا إلى حدّ يصعب عليه الوقوف بسرعة. بعد تعثرات متكرّرة، تمكّن من الجلوس، فبحث بأصابعه عن حذائه، انتعله، ثمّ لمّ عمامته وأدارها على رأسه بشكل يثير الضحك.
تنبعث منه رائحة كريهة؛ يكون قد بال على نفسه.
تمايل وهو يحاول الوقوف، اتكأ بيد على الأرض كي لا يسقط ثانية، ثمّ بحث باليد الأخرى عن عصاه، رآها بقرب حفرة مجرى المياه، فزحف على بطنه كي يسترجعها.
فجأة، انتبه إلى حضوري فتجمّد. عندما رفع رأسه باتجاهي، تفتّت وجهه.
إنه أبي.
أبي... الذي كان قادرا على رفع الصخور وهز الجبال، إركاع الشكوك وليّ رقبة القدر... كان هنا، عند قدميّ، على الرصيف، غارقا في أسمال نتنة، الوجه متورم، وزاويتا الشفتين تقطران ريقا، وزرقة عينيه أكثر مأساة من الزرقة الجاثمة على وجهه... حطام... خرقة... مأساة.
نظر إليّ كما لو أنني كنت عائدا من القبر. تضبّبت عيناه الرميصتان، المنتفختان بشيء غريب، وتكمّشت تقاسيم وجهه مثل ورق تغليف قديم بين يدي لمّام الخرق.
- يونس؟ قال منذهلا.
لم تكن صرخة... مجرّد حشرجة معلقة بين التساؤل الواهن وشهقة البكاء...
صُعِقت.
فجأة، أدرك خطورة وضعيته، حاول أن ينهض. دون أن يفارقني بصره، اتكأ على عصاه ونهض وهو حريص على أن لا يفلت منه أي تأوّه برغم تشويه تقاسيم وجهه تحت قوة الجهد الذي بذله. خانته ركبتاه وسقط بائسا على حفرة المجرى. بالنسبة لي، فكما لو أن أحلامي كلها هي التي انهارت، أحلام الأمس وتمنياتي العزيزة هي التي

جرفتها مياه المجرى القذرة. كان شقائي عظيما. رغبت لو انحنيت فوقه، ووضعت ذراعي حول رقبته وأوقفته. رغبت لو مدّ لي يده، لو تشبّث بي. رغبت ألف أمنية أخرى، ألف حلّ، ألف طريقة أنقذه بها، ولكنني لم أملك إلا عينيّ كي لا أصدّق ما يحدث أمامي وساقين رفضتا الاستجابة لرغبتي. كنت أحب أبي كثيرا ولم أتخيّل أبدا أن أراه عند قدميّ، محزما مثل فزّاعة، أظافره سوداء ومنخاراه متملصان...
حينما أدرك عجزه في تجاوز سكره، توقف عن الحركة العابثة، وأشار لي بيد مسحوقة أن أبتعد.
في آخر قفزة لكرامته، تنفس أبي بقوة واتكأ ثانية على عصاه. كان عليه أن يغرف من عمق أعماق ما تبقى له من عزّة نفس كي يسترجع قليلا من القوة، فمال إلى الأمام، ترنح يمينا وشمالا، استند إلى الجدار، ووقف على ساقيه الرخوتين؛ كان يصارع بكل قواه وبكل أحشائه كي يبقى واقفا. تشبّث بسند مهزوز، كما حصان هرم ومريض على وشك السقوط على الأرض. ثمّ، قدّم رجلا وأخّر أخرى، كتفه يكشط واجهة الحانة، باشر بالابتعاد. عند كل خطوة، يجهد نفسه بتصليح مشيته، يبتعد قليلا عن الجدار كي يثبت لي أنه قادر على السير باستقامة ودون أن يستعين بأي شيء.
يوجد في هذه المعركة المؤثرة التي يخوضها ضد نفسه ما يملكه الهلع من شهامة وقبح في آن واحد. تعتعه السكر ولا يمكن أن يذهب بعيدا، فتوقف بعد أمتار قليلة والتفت لينظر إن كنت قد غادرت المكان. ولكنني لم أتحرّك، كنت واجما، ذراعايّ متدليتان، أكثر سكرا منه. حينئذ رماني بنظرة ستضطهدني طوال حياتي؛ تلك النظرة الخلعة التي سيغرق بداخلها أي عهد، وإن كان ذلك العهد الذي يقسمه أشهم أب لأفضل ابن... نظرة نلقيها مرة واحدة في العمر، ذلك أن بعدها وقبلها، لا يوجد شيء... فهمت أنه يلقيها عليّ لآخر مرة؛ فهمت أن تلك النظرة التي أفتنتني وأرعبتني، حضنتني وحذرتني، أحبتني وأشفقت عليّ، لن تلقى عليّ مرة أخرى.

- منذ كم وقت وهو في هذه الحالة؟ سأل الطبيب وهو يرجع سماعته بداخل حقيبته الصغيرة.
ردّت جرمان:
- رجع عند منتصف النهار. كان يبدو عاديا. ثمّ مررنا إلى الطاولة للغداء. أكل قليلا، ولكنه فجأة ركض باتجاه المرحاض ليتقيأ.

كان الطبيب شخصا طويل القامة، معظما، بوجه ضامر وشاحب. أعطت له بدلته الرمادية الداكنة هيئة ناسك. أغلق أحزمة حقيبته بيد صارمة وهو يتفرّسني. قال معترفا:

- لا أرى ما يشكو منه. حرارته عادية، لا يعرق ولم أكتشف أي عرض من أعراض البرودة.

كان عمّي واقفا مع جرمان بقرب السرير ولم يقل شيئا. تابع عملية الفحص بعناية، ومن حين لآخر كان يلقي نظرة قلقة إلى الطبيب. نظر هذا الأخير بداخل فمي، أشعل مصباحا يدويا صغيرا فوق عينيّ، مرّر أصابعه تحت أذنيّ، استمع إلى تنفسي. عندما نهض، قطّب حاجبيه مستغربا:

- سأسجل له أدوية ضد الغثيان. يجب أن يلتزم الفراش نهار اليوم. من المفروض أن تتحسن حالته. يكون قد ابتلع شيئا لا يتحمّله جهازه العضوي. إذا ساءت حالته، اتصلوا بي.

بعد ذهاب الطبيب، مكثت جرمان بقربي. كانت تبدو قليلة.

- هل أكلت شيئا في الشارع؟

- لا.

- هل لديك ألم في البطن؟

- لا.

- إذن ما بك؟

أجهل ما أصابني. كنت أحسّ بنفسي أتفتت في جميع الجهات. أشعر بالدوار كلما رفعت رأسي. بدا لي كما لو أن أحشائي تتشابك، وأن روحي تتجمّد...

عندما استيقظت كان الليل قد خيّم كلية. خفَت ضجيج الشارع. كان البدر يضيء غرفتي وتتسلى ريح خفيفة بهز أغصان الأشجار. الليل متقدّم على ما يبدو. في العادة، لا ينام الجيران إلا بعد أن يعدوا جميع النجوم. كان فمي مليئا بطعم مر وحلقي يحرقني. رميت الغطاء ووقفت. ارتعدت ساقايّ. اقتربت من النافذة وانتظرت أن أرى مرور شبح ما وأنفي لاصق بالزجاج. أردت التعرف على أبي في كل متروبص.

فاجأتني جرمان وأنا في تلك الوضعية، الجسد متجمد، والوجه مبلل ببخار تنفسي. سارعت إلى إرجاعي إلى السرير. لم أسمع ما كانت تقوله لي. بين الفينة والأخرى،

يختفي وجهها خلف وجه أمي؛ وبعد ذلك، يبعدهما وجه أبي، محدثا ارتعادا حادا في أحشائي.
أجهل كم بقيت من الوقت مريضا. حينما عدت إلى المدرسة، اعترفت لوسات بأنني تغيّرت، ولم أعد أنا نفسه. تكسّر شيء ما بداخلي.

جاء بْليس السمسار إلى صيدلية عمّي ليُحَدِّثه عن أمر ما. تعرّفت عليه بمجرّد سماع تنحنحه. يملك طريقة في تحرير صوته لا نجدها عند أي شخص آخر. كنت في الغرفة الخلفية أراجع دروسي عندما دخل. تمكّنت من رؤيته عبر انفراج الستار الذي يفصلها عن الصيدلية. كان مبلّلا إلى غاية العظام، يرتدي برنوسا مرقعا كبيرا عن جسده، وسروالا رماديا ملطخا بالوحل وحذاءً مطاطيا يترك آثارا وسخة على الأرض. توقف عمّي عن فرز حساباته ورفع رأسه. لم تكن زيارة السمسار مهمة بالنسبة إليه. لا يغامر بْليس في المجيء إلى الحي الأوربي إلا نادرا. أدرك عمّي أنّ ريحا مشئومة تصفر في اتجاهه بمجرّد أن رأى سحنة السمسار الهلعة الشبيهة بسحنة فريسة مطاردة.
- نعم؟...
أولج بْليس يدَه تحت شاشيته وباشر بحك قمة جمجمته بعصبية؛ هذه إشارته للتعبير عن ارتباكه الكبير:
- يتعلّق الأمر بأخيك، دكتور.
أغلق عمّي الدفتر بضربة حازمة والتفت إليّ. أدرك أنّني أراقبهما. قام بدورة حول مصرفه، أخذ بْليس من المرفق وابتعد قليلا نحو ركن جانبي. غادرت مكاني واقتربت من الستار للاستماع.
- ماذا حدث لأخي؟
- لقد اختفى.
- ماذا؟... ماذا تعني بكلمة "اختفى"؟
- يعني... يعني أنه لم يرجع إلى منزله.
- منذ متى؟
- منذ ثلاثة أسابيع.
- ثلاثة أسابيع؟ ولا تخبرني إلا اليوم؟
- الخطأ يعود إلى زوجته التي لم تخبر أحدا. أنت تعرف حال نسائنا في غياب أزواجهن. يفضلن أن تشتعل النار في بيوتهن ولا يطلبن المساعدة من الجيران. على

كل حال، عرفت الخبر هذا الصباح من باتول العرّافة. قصدتها زوجة أخيك بالأمس وطلبت منها أن تقرأ في خطوط يدها مصير زوجها. هكذا، عرفت باتول أنّ أخاك لم يظهر حسه منذ ثلاثة أسابيع.

- يا إلهي...

رجعت مسرعا إلى طاولة عملي.

أزاح عمّي الستار ووجدني منحنيا على كراس المحفوظات.

- اذهب وقل لجرمان تأتي لتستخلفني في الصيدلية. عندي أشغال مستعجلة تتطلب حضوري.

جمعت كراسي وخرجت إلى الزقاق. عند مروري، حاولت أن أقرأ في عيون بْليس ولكنه أدار بصره. ثمّ ركضت كالمجنون عبر الأزقة.

كانت جرمان لا تستقر في مكان. كلما تحرّرت من زبون إلا ووقفت خلف ستار الفصل لتراقبني. أقلقها هدوئي. بين الفينة والأخرى، ولأنها لم تتمكن من السيطرة على نفسها، تلتحق بي على طرف الأصابع وتبقى منحنية فوق كتفيّ وأنا أحفظ محفوظاتي عن ظهر قلب. تحش يدها شعري قبل أن تنزلق على جبهتي لتتحسس حرارتي.

- هل أنت متأكّد بأنك في حالة جيدة؟

فلا أجيبها.

عادت نظرة أبي الأخيرة، تلك التي رماني بها ذلك اليوم وهو يترنّح سكرا وعارا، تقضمني بشراهة دودة.

خيّم الليل منذ ساعات وعمّي تأخّر عن الرجوع. في الزقاق الفارغ تحت الطوفان، انهار حصان، جارا في سقوطه العربة التي يسحبها. تدفّقت حمولة الفحم على القارعة، فيما كان صاحب العربة يحاول بلا جدوى إيجاد حل لمشكلته، وهو يزمجر ضد البهيمة والطقس الرديء.

عبر زجاج النافذة، كنا، جرمان وأنا، نشاهد الحصان الممدّد على الأرض، القدمان الأماميتان مطويتان والعنق مفكّك. كانت مياه المطر تنثر شعر العرف على الأرضية.

راح سائق العربة يبحث عن المساعدة وعاد بعد قليل مع مجموعة من المتطوعين يتحدون المطر المدرار والصاعقة.

قرفص أحدهم أمام الحصان. قال بالعربية:

- مات بغلك.

- لا، لقد سقط فقط.
- أقول لك أنه جامد لا يتحرّك.
رفض صاحب العربة القبول بالأمر الواقع. انحنى بدوره قرب البهيمة دون أن يجرؤ على وضع يده عليها.
- مُستحيل... كان حصاني في صحة جيدة.
ردّ المتطوّع:
- البهائم لا تشتكي. تكون قد بالغت في استخدام السوط، يا صديقي.
تناولت جرمان المُدوِّرة وأنزلت ستار الصيدلية الحديدي إلى النصف ؛ ثمّ، سلّمت لي المطرية، أطفأت ضوء الصالة ودفعتني إلى الخارج. بعد أن وضعت الأقفال، استرجعت المطرية، ضمتني إليها وأسرعنا بالرجوع إلى البيت.
لم يلتحق بنا عمّي إلا في ساعة متأخرة من الليل. كان يقطر ماءً. ساعدته جرمان على نزع معطفه وحذائه في الرواق. قال غاضبا وهو يشير إليّ بالذقن:
- لماذا لم ينم بعد؟
هزّت جرمان كتفيها وتسلقت بسرعة الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي. نظر إليّ عمي بعناية. كان شعره المبلل يلمع تحت السقف، ولكن بصره كان داكنا.
- من المفروض أن تكون في غرفتك نائما. أذكرك بأنّ يوم غد يوم مدرسة.
عادت جرمان بمِبذَلة نوم ارتداها عمّي في الحين. أدخل قدميه في خُفَين وتقدّم نحوي.
- من فضلك يا ولدي، اصعَد إلى غرفتك.
ردّت جرمان مخبرة إياه:
- إنه على علم باختفاء أبيه.
- عرف الخبر قبلك، ولكن هذا ليس حجة للسهر.
- على كل حال، لن يغمض له جفن قبل أن يسمع ما لديك من أخبار. يتعلّق الأمر بأبيه.
لم يستسغ عمّي أقوال جرمان الأخيرة. هدّدها بعينيه. لم تدر بصرها. كانت قلقة، وتدرك أنه من غير المعقول أن تخفى عني الحقيقة.
حطّ عمّي يديه على كتفيّ وقال:
- بحثنا عنه في كل مكان. لا أحد شاهده. في الأماكن التي يرتاد إليها، لا يتذكر أحد أنه رآه في الأيام القليلة الأخيرة. أمك تجهل أين يوجد. لا تفهم لماذا ذهب... سنواصل البحث عنه. كلّفت السمسار وثلاثة رجال من معارفي بالبحث عنه في المدينة...
قلت بحماس:

- أنا أعرف أين هو. لقد ذهب يشتغل في بلاد بعيدة، وسيعود إلينا في سيارة جميلة.
استفسر عمّي جرمان بالنظر، خائفا من أن أكون في حالة هذيان. طمأنَته بخفقة خفيفة من الأهداب.
عندما التحقت بغرفتي، تمدّدت وأثبتت بصري في السقف ورحت أتخيّل أبي في مكان ما يجمع الكنوز بملء ذراعيه، مثلما يحدث في الأفلام التي يدعوني إليها أب لوسات، في ظهيرة أيام الأحد. تردّدت جرمان على غرفتي مرات عديدة لتتأكّد أنني نمْت. تصنَّعت النوم. تُحرِّك الغطاء، تلمس جبهتي خلسة، تسوِّي وسادتي ثم تغادر الغرفة بعد أن تغطيني جيدا. عند اصطفاق الباب، أرمي الغطاء وأعود ببصري إلى السقف، كما الطفل المسحور برؤيا عجيبة، أتابع مغامرات أبي كما على شاشة.

عاد بْليس السمسار والرجال الثلاثة الذين كلّفهم عمي بالبحث عن أبي بخفي حنين. لقد بحثوا عنه في محافظات الشرطة، في المستشفى، في المواخير، في المزابل، في الأسواق، ولدى حفاري القبور والصعاليك والسكارى والسماسرة... لقد تبخّر أبي.
بعد أسابيع من اختفائه، ذهبت إلى جنان جاتو دون أن أخبر أحدا. تعلّمت التجوال في المدينة، وأصبح بإمكاني زيارة أمي دون طلب الإذن من جرمان، ودون مرافقة عمّي. وبّختني أمّي بفظاظة. وجدت مبادرتي غبية وأخذت مني عهدا بعدم تكرارها.
كانت الأحياء تعج بالأشرار والصعاليك، ويمكن لطفل يرتدي ثيابا جديدة أن يتعرّض للسطو والسرقة من قبل أولئك المتربصين في الزوايا الخالية المظلمة. شرحت لها أنني جئت لأعرف إنّ كان أبي قد عاد إلى الدار. أخبرتني أمي أن أبي ليس بحاجة إلى أن نتحيّر على حاله، وأنه في حالة جيدة حسب باتول العرّافة وأنه بصدد جمع أموال كبيرة. "حينما يعود، سيمرّ أولا عند عمك لاسترجاعك قبل أن يأتي لأخذنا أنا وأختك، كي يقودنا جميعا إلى منزل كبير تحيطه الحدائق والأشجار المثمرة الكثيرة".
وبعد هذا، أرسلت الابن البكر لبدرة ليبحث عن بْليس السمسار كي يرجعني فورا قرب عمّي.
لقد حيّرني طويلا هذا الرفض الصارم الذي جابهتني به أمي.
انتابني إحساس بأنني المتسبِّب في جميع مصائب الأرض.

7

خلال أشهر، لا يغمض لي جفن في الليل إلا بعد النظر مليا في السقف. من طرف إلى آخر. طولا وعرضا. أتمدّد على الظهر، والجمجمة غارقة بداخل الوسادة، أركّب وأعيد تركيب مغامرات أبي حيث يتدحرج فيلمه المفكّك فوق سريري. أتخيّله ثريا عظيما مبجّلا وسط رجاله، قطاع طرق يجوبون المناطق البعيدة، أو باحثون عن الذهب يخرجون بضربة فأس واحدة من الأرض تبر القرن، أو رئيس عصابة كما في الأفلام، يرتدي بدلة أنيقة بثلاث قطع، سيجار خشن في زاوية الفم. أحيانا، في دورة ضجر غامض، أفاجئه تائها في الأحياء الشريرة، سكرانا وبألبسة بالية ممزقة، يطارده أطفال لرجمه. في هذه الليالي، كان قَيْد يسحق معصمي –قيد شبيه بذلك الذي كاد يلصق نقودي بلحمي في ذلك المساء الذي فكّرت فيه إسعاد أبي وأنا أمدّ له النقود التي ربحتها في بيع العصافير.

بقي اختفاء أبي لاصقا كشوكة وسط حنجرتي؛ ليس بإمكاني ابتلاعها ولا إخراجها. أشعر بنفسي مسئولا عن هروبه. لم يكن أبي ليجرؤ على إهمال أمي وأختي في تلك الوضعية المزرية لو لم يصادفني في طريقه، في ذلك اليوم المشئوم. كان سيدخل إلى جنان جاتو بعد سقوط الليل ويتخلّص من سكرته في زاوية دون أن يثير شكوك الجيران. كان رجل مبادئ؛ يجتهد دائما للتفريق بين الأشياء ويسهر أن لا تختلط. يقول دائما بأنه يمكن للإنسان أن يَفقد ثروته وأراضيه وأصدقائه ومعالمه، ومع ذلك تبقى له دوما فرصة وإن كانت ضئيلة كي يبني نفسه من جديد؛ في المقابل إذا فقد كرامته، ليس من الفائدة أن يحاول إنقاذ الباقي.

يكون أبي قد شعر بأنه فقد كرامته في ذلك اليوم. وبسببي. فاجأته وهو في الحضيض الأسفل من تعفنه، فلم يتحمّل. اجتهد ليؤكّد لي أنه يرهن شرفه مقابل ألا يترك نوائب الدهر تلوّث سمعته... ولكن النظرة التي رماني بها قرب الحانة، في حي "شوبوت"، وهو يحاول بشكل مثير للسخرية أن يقف على ساقيه، قرّرت عكس ذلك... هناك من النظرات التي تقول الكثير عن مآسي أصحابها؛ أما نظرة أبي، فكانت غير قابلة للنقض.

لمت نفسي على أنني سلكت ذلك الشارع، ومررت قرب الحانة في الوقت الذي رمى فيه النادل-الطارد أرضا أبي ومعه عوالمي؛ لمت نفسي لأنني فارقت لوسات بسرعة، وتأخرت في الرجوع منشغلا بالنظر إلى واجهات المحلات...

في ظلمة غرفتي، لم أفعل إلا اجترار شقائي، غير عارف بأي الظروف المخففة أتوسّل. كنت شقيا إلى حدّ أنني ذات مساء ذهبت إلى غرفة المهملات أبحث عن تمثال الملك الصغير الذي أرعبني في أوّل ليلة قضيتها عند عمّي. عثرت عليه في عمق صندوق غاص بالأشياء القديمة، نفضت عنه الغبار وأرجعته إلى مكانه فوق المدخنة، مقابل سريري. ولم أسحب عينيّ عنه، متأكّدا أنني سأراه ينشر جناحيه ويحرك ذقنه اتجاهي... ولكن لا شيء من هذا حدث. بقي التمثال جامدا في مكانه، مغلقا وبلا أية فائدة، فاضطررت إلى إرجاعه إلى صندوقه العفن قبل طلوع الشمس.

- الله شرير...

ردّ عمي بلطف:

- لا دخل لله في هذا الموضوع يا ولدي. أبوك ذهب، هذا كل ما في الأمر. ليس الشيطان هو الذي حرّضه على الذهاب ولا الملك جبريل هو الذي أخذه من يده. حاوَل أن يتشبّث بالحياة بالقدر الذي استطاع، ولكنه فشل. ليس أبسط من هذا. الأيام دوّال. يوم لك ويوم عليك. ولا أحد يستطيع ضمان دوام الحال على حاله. ولسنا مجبرين على الاعتماد على أنفسنا فقط. إن الشقاء الذي يصيبنا لا يخبرنا عن مجيئه. ينزل علينا كالصاعقة، وينسحب كالصاعقة أيضا، دون أنْ يتأخر عند الأحزان التي يسببها لنا، بل ودون حتى أن يدرك وجودها. إذا أرَدت أن تبكي، فابكِ. إذا أردت التفاؤل بعودته، فادعو الله أن يرجعه لك، ولكن، من فضلك، لا تبحث عن المذنب في المكان الذي لا تجد معنى لعذابك.

بكيت ودعوت؛ ومع مرور الموسم، انطفأت الشاشة فوق رأسي واسترجع السقف سطحيته. ليس من الفائدة بمكان أن نقوم مقام أشباحنا. استأنفت طريق المدرسة ، ومعها يد لوسات. إن الأطفال الكُثَّر الذين يحومون حولي لم يخطئوا. إنهم أطفال ليس إلا، أطفال معرّضون هم أيضا لنوائب الدهر، يقضون عقوبات تعسفية ومع ذلك يتأقلمون معها. وإذا لم يطرحوا أسئلة كثيرة، فذلك لأن الأجوبة في الغالب لا تأتي بشيء ذي بال.

واصل عمّي استقبال زواره الغرباء. يأتون متفرقين وسط الليل، ينغلقون داخل الصالون خلال ساعات وهم يدخنون كالمصانع. تلوّث رائحة سجائرهم المنزل. تنطلق أحاديثهم وتنتهي دائما بالطريقة نفسها، ملبّدة في البداية، تتخللها لحظات صمت وتأمل بعد ذلك، قبل أن تشتعل وتهدّد بإيقاظ الجيران. أسمع عمي يستخدم منزلته كصاحب المكان كي يصالح بين الأمزجة ويقرّب بين الأقطاب المتناطحة. حينما لا تجد

الاختلافات ميدانا للتفاهم، يخرج الضيوف إلى الحديقة لاسترجاع راحة النفوس. تتلألأ أطراف سجائرهم بفظاظة وسط الظلمة. بعدما ينتهي الاجتماع، ينسحبون على أطراف الأقدام، الواحد وراء الآخر، وهم يحدقون مليا في الضواحي، قبل أن يبتلعهم الليل.
في الغد، أفاجئ عمّي داخل مكتبه يسجل نقاطا لا نهائية على دفتره الكرتوني. ذات مساء لا يشبه الأماسي السابقة، أذن لي عمي بالالتحاق بالضيوف في الصالون. قدّمني إليهم باعتزاز. تعرَّفت على بعض الوجوه، ولكن الجوّ كان أقل تشنجا، أقرب إلى حفل رسمي. سمح لشخص واحد بإلقاء الخطاب. حينما يفتح فمه، يتشبّث أصدقاؤه بشفتيه ويبتلعون كلامه بمتعة لا حدّ لها. يتعلق الأمر بضيف شرف، شخصية مهيبة، يقف عمي أمامه بإعجاب كبير... لم أتمكن من وضع اسم على ذلك الضيف المبجل إلا بعد مرور وقت وأنا أقرأ مجلة سياسية: مصالي حاج، أحد الوجوه الرائدة للحركة الوطنية الجزائرية.

اندلعت الحرب في أوربا. مثل دمَّل.
سقطت بولونيا تحت هجمات القوات النازية بسهولة مربكة. توقع الناس مقاومة شرسة ولم يشاهدوا إلا مناوشات محزنة، سحقتها بسرعة الدبابات المرصّعة بالصلبان المعقوفة. لقد أثار النجاح الكاسر للفرق الألمانية رعبا ممزوجا بالانبهار. توجّه انتباه الناس جميعا وفي كتلة واحدة باتّجاه الشمال وتوقف عند ما يحدث في الجهة الأخرى للمتوسط. لم تكن الأخبار جيّدة؛ إنّ شبح الالتهاب الشامل يسكن العقول. لا يوجد شخص واحد جالس في مقهى بدون جريدة مفتوحة على مخاوفه. يتوقف المارون، يتساءلون، يتدافعون على الحانات أو على مقاعد الحدائق العمومية كي يَجسّوا نبض غرب في تيه مُتسارع. في المدرسة، أهملنا معلمونا قليلا. يأتون في الصباح بأخبار عديدة وأسئلة كثيرة ويعودون في المساء بنفس التساؤلات ونفس القلق. لقد أحضر المدير جهاز راديو إلى مكتبه وخصّص مُعظم أوقات أيامه للأخبار، مهملا التلاميذ الذين استغلوا الزمن المضطرب لينتشروا بكثرة في ساحة المدرسة.
يوم الأحد، بعد القُدّاس، لا تأخذني جرمان إلى أي مكان. تنزوي في غرفتها، راكعة على ركبتيها أمام صليب وتغرق في دعاء طويل. ليس لديها عائلة في أوربا، ولكنها تطلب الله من كامل قواه كي تتغلب الحكمة على الجنون.

طفق عمّي يغيب عنّا بدوره، الحقيبة غاصة بالمنشورات والبيانات السرية. لجأت إلى لوسات. ننسى أنفسنا في الألعاب إلى أن يناديا صوت معلنا عن وقت الأكل أو النوم.

يسمى أب لوسات جيروم وكان يشتغل مهندسا في ورشة غير بعيدة عن حيّنا. كان دائما غارقا في كتاب تقني، أو ممددا على سرير قديم مقابل حاكٍ للأقراص يستمع إلى موسيقى "شوبرت" دون انقطاع، ولا يكلف نفسه حتى جهد إلقاء ولو نظرة عما نقوم به. كان طويل القامة ونحيفا، يتربص خلف نظارات دائرية الشكل، يبدو أنه ينمو في دائرة مغلقة على مقاسه، محافظا بقصد وصرامة على مسافات تجاه الجميع، بما في ذلك الحرب التي تستعد ابتلاع العالم، عباده وخيراته. شتاءً وصيفا، يرتدي قميصا كاكي اللون، مزينا بكتيفات وبجيوب كبيرة غاصة بالأقلام. لا يتكلّم جيروم إلا إذا سُئل وحينها يجيب بنوع من الانزعاج. غادرته زوجته بعد سنوات قليلة من ولادة لوسات وترك ذلك على نفسيته أثرا عميقا. صحيح أنه لا يرفض شيئا للوسات، ولكنني لم أره يوما يأخذها بين ذراعيه ويحضنها. في قاعة السينما حيث يأخذنا لنتسلى بالأفلام الصامتة المتسلسلة، نقسم أنه كان ينمحي بمجرد انطفاء الأضواء. أحيانا، يخيفني، خاصة منذ أن أسرّ لعمي وفي لهجة لا مبالية أنه ملحد. في ذلك العهد، لم أكن أدري أن مثل هذا النوع من البشر يوجدون. لم يكن يوجد حولي إلا المؤمنون؛ عمّي مسلم، جرمان كاثوليكية، جيراننا من اليهود أو النصارى. في المدرسة كما في الحي، كان الله على جميع الألسنة وفي جميع القلوب، واستغربت لرؤية جيروم يدبّر شؤونه بدونه. سمعته يقول لمبشّر إنجيلي: "إن كل إنسان إله نفسه. حينما يختار إلها آخر، يصبح أعمى وظالما." حدّق في وجه الإنجيلي كما لو كان الشيطان نفسه.

في يوم "الصعود"، يأخذنا، لوسات وأنا، نتأمل المدينة من مرتفعات جبال المُرجاجو. صعدنا أوّلا لزيارة القلعة القروسطية قبل أن ننضم إلى قافلة الحجاج الذين يطوفون حول مصلى "صانتا كروز". كانوا بالمئات، نساء وشيوخ وأطفال يتزاحمون عند أقدام "العذراء". تسلق بعضهم جوانب الجبل بأقدام حافية، وهم يتشبثون بأشواك الوزال وبالأحراش، وزحف بعضهم الآخر على ركابهم التي أدمتها الجراح. كان كل هذا الجمع الخاشع يتمايل تحت الشمس القائظة، العيون جاحظة، الوجوه منزوفة، وهم يدعون الأولياء الصالحين ويتوسلون إلى المولى لإنقاذ حياتهم البائسة. أفهمتني لوسات أنّ المصلين أسبانيون، يحجون كل سنة في يوم "الصعود" ويتحملون هذا الامتحان الشاق كي يشكروا "العذراء" على إنقاذ مدينة وهران القديمة من وباء الكوليرا الذي أهلك آلاف العائلات في 1849.

اندهشت لهول التضحية، وقلت للوسات:
- ولكنهم يعذّبون أنفسهم كثيرا.
أجابت لوسات بخشوع:
- إنهم يقومون بهذا من أجل الله.
ردّ جيروم بصلابة:
- الله لم يطلب منهم شيئا.
قرع صوته كضربة سوط، واضعا حدا لحماسي. لم أكن أرى حجاجا، بل هالكين في حالة روع، ولم يبدُ لي الجحيم أقرب مثلما بدا لي في يوم الصلوات الكبرى. منذ ولادتي، حُذّرت من الكفر. لا يكفي أن نرتكبه كي نشعر بالذعر؛ إن سماعه أيضا يعتبر ذنبا. أدركت لوسات اضطرابي. أحسست بها غاضبة ضد أبيها، ومع ذلك منعت نفسي من الاستجابة لابتساماتها المضجرة. أردت العودة إلى المنزل.
أخذنا الحافلة للرجوع إلى المدينة. ضاعفت طريق الكورنيش الضيقة المؤدية إلى وهران القديمة من ضجري. رغبت في القيء عند كل دورة. في العادة، كنا، لوسات وأنا، نحب التجوال في "اسكاليرا"، والاستمتا ع بأكل "البايلا" أو "الكالديرو" في مطعم شعبي إسباني وكذا شراء بعض الأشياء من عند الحرفيين السفرديين في الدرب. في ذلك اليوم، لم يكن قلبي راغبا في أية متعة. كانت قامة جيروم الطويلة ترمي بظلها على همومي. خشيت أن ينزل "كفره" الشقاء عليّ.
أخذنا الترامواي إلى غاية المدينة الأوربية وواصلنا راجلين إلى غاية حيّنا. كان الجوّ جميلا. تتجاوز الشمس الوهرانية في إضاءة سماء المدينة، ومع ذلك كنت أحس بنفسي غريبة عن الأضواء المحيطة وعن المزح المنبثقة عنها. برغم ضغط يد لوسات على يدي لم تتمكن من إخراجي من كآبتي...
ما كنت أخشاه، سقط عليّ مثل قرميدة: يوجد ناس في زقاقنا. كان جيراننا واقفين من جهتي الرصيف، أذرعهم مُربّعة على صدورهم، والأصبع على الخد.
سأل جيروم بالنظر رجلا بسروال قصير يقف عند باب منزله. كان هذا الأخير يسقى حديقته، فأغلق الحنفية ووضع أنبوب السقي جانبا، ومسح يديه في مقدمة قميصه الداخلي قبل أن يرفع ذراعيه علامة الجهل:
- أكيد أنّ هناك خطأ ما. لقد أوقفت الشرطة ماحي، الصيدلي. أخذته قبل قليل بداخل شاحنتها. لم يكن أعوان الشرطة لطفاء معه.

أطلق سراح عمي بعد أسبوع من الاعتقال. كان عليه انتظار الليل كي يعود إلى المنزل، مختلسا طريقه، خداه منهاران والنظرة داكنة. بضعة أيام من السجن كانت كافية لتغييره كلية. كدنا لا نتعرّف عليه. ضاعفت لحيته غير الحليقة من تشنج تقاسيم وجهه وكست سحنته التائهة ببصمة شبحية. يبدو أن الشرطة جوّعته ومنعته من النوم ليل نهار.

لم يدم ارتياح جرمان إلا لحظة اللقاء. أدركَت مباشرة أنهم لم يُرجعوا لها زوجها كاملا. كان عمّي بليد الذهن تقريبا. لا يفهم في الحين ما يقال له، ويقفز إلى السماء حينما تطلب منه جرمان إنْ كان يحتاج إلى شيء. في الليل، أسمعه يذرع الغرفة ويتلفظ بكلام مبهم. أحيانا، وأنا في الحديقة، حينما أرفع بصري باتجاه النافذة بالطابق الأول، أدرك ظله خلف الستار. كان عمّي يراقب الزقاق بلا هوادة كما لو أنه يتوقع رؤية مجيء عفاريت الجحيم إلى منزله.

استرجَعت جرمان السيطرة على شؤون العائلة واهتمت شخصيا بتسيير الصيدلية. كانت في الفرن والطاحونة في آن واحد، ولم تمر أيام قليلة حتى أهملتني. كانت الحالة الذهنية لزوجها تتدهور على مرأى العين، وأرعبها رفضه الصارم أن يفحصه الطبيب. أحيانا، تنهار أعصابها وتنفجر بكاءً وسط الصالون.

تكفّل جيروم بمرافقتي إلى المدرسة. كانت لوسات تنتظرني كل صباح عند باب منزلنا، منشرحة، ضفائرها مزدهرة بالحواشي. تأخذني من اليد وتجبرني على الركض للالتحاق بأبيها في أسفل الزقاق.

تصوّرت أن عمّي سيستعيد حالته الطبيعية بعد بضعة أسابيع؛ ولكن حالته تسوء من يوم لآخر. ينغلق على نفسه داخل الغرفة ويرفض الفتح عندما ندق على الباب. كما لو أن جنا مشئوما يسكن بالدار. كانت جرمان يائسة. وأنا لم أفهم شيئا. لماذا اعتقلت الشرطة عمي؟ ماذا حدث في محافظة الشرطة؟ لماذا هذا العناد في عدم كشف ما حدث له خلال فترة سجنه، ولا حتى لجرمان؟... ولكن ما أخفته البيوت، انتهى الشارع إلى البوح به ونشره فوق السطوح: عمّي رجل ثقافة، قارئ مواظب ومُصغٍ للاضطرابات التي تحرك العالم العربي، فكان متضامنا فكريا مع القضيةً الوطنية التي بدأت تنتشر في أوساط النخب المسلمة. لقد حفظ عن ظهر قلب نصوص شكيب أرسلان وكان يحتفظ بجميع المقالات النضالية التي تنشر في الصحافة؛ مقالات يفهرسها ويشرحها ويعلّق عليها عبر مقلات طويلة. كان منشغلا بالجوانب النظرية للتطورات السياسية، ولم يقدّر حق قدرها خطورة التزاماته وتجنده ولا يعرف من النضال إلا الخطب المتحمسة، والورش السرية التي كان يساهم بتمويل قسط منها

والاجتماعات السرية التي كان مسئولو الحركة ينظمونها في منزله. كان وطنيا في القلب، أقرب إلى المبادئ النظرية منها إلى الحركة الجذرية التي كان يمارسها مناضلو حزب الشعب الجزائري، ولم يتصوّر نفسه في أية لحظة يُعتقل ويُعتّب باب محافظة الشرطة ويُرمى بزنزانة كريهة الرائحة ليقضي بها الليل برفقة الجرذان والأشرار. في واقع الأمر، كان عمّي رجل سلام، ديمقراطيا تجريديا، مثقفا يؤمن بالخطب والبيانات والشعارات، ويغذي عدوانية دفينة اتجاه العنف. كان مواطنا محترما للقوانين، واعيا بالمرتبة الاجتماعية التي منحته أياه شهاداته الجامعية ومهنته كصيدلي، وعلى بعد أميال من توقع مداهمة الشرطة لمنزله، وهو الجالس برفاهية في صالونه الأنيق، قدماه فوق مخدّة ورأسه في جريدة حزبه: "الأمة".
يُحكى أنه كان في وضعية يرثى لها قبل حتى أن يصعد إلى داخل شاحنة الشرطة وأنه أفرغ كل ما بجعبته مع أولى لحظات الاستنطاق، وقد تعاون مع الشرطة بشكل جدّ إيجابي بحيث أطلقت سراحه بعد أسبوع فقط من اعتقاله دون أن تتخذ ضده أي إجراء عقابي –الشيء الذي أنكره إلى آخر لحظة في حياته. وقد فقد عقله مرارا لأنه لم يتحمّل أن يكون موضوع مثل هذا العار.

بعد أن استرجع قسطا من صفاء ذهنه، عبّر عمي لجرمان عن مشروعه: لم يكن ممكنا لنا أن نبقى في وهران؛ كان لزاما علينا أن نغيّر أفاقنا. اعترف لنا بلهجة حزينة:
- تصوروا... تريد الشرطة أن تؤلّبني ضد أهلي. كيف اقتنعوا أن بإمكانهم أن يجعلوا مني واشٍ؟ هل لدي سحنة خائن، يا جرمان؟ من أجل ربّ السماء، هل أنا قادر على الوشاية بأسماء أصدقائي المناضلين؟
شرح لجرمان أنه مسجل عند الشرطة؛ وأنها ستراقبه عن قرب، وبهذه الكيفية، سيجعل أقرباءه وأصدقاءه في خطر.
سألته جرمان وهي حزينة لأنها مجبرة على مغادرة مدينة مسقط رأسها:
- هل لك وجهة معيّنة على الأقل؟
- سنستقر بريو صالادو.
- لماذا ريو صالادو؟
- إنها قرية هادئة. زرتها قبل أيام قليلة لدراسة إمكانية فتح صيدلية هناك. فوجدت واحدة في الطابق الأرضي لمنزل كبير...
- وستبيع كل شيء هنا، في وهران؟ منزلنا، الصيدلية؟...
- ليس لدينا خيار.

- لا تترك لنا أدنى حظ للرجوع إلى حيث حلمنا كثيرا...
- أنا آسف.
- وإن ساءت ظروفنا في ريو صالادو؟
- سننتقل إلى تلمسان، أو إلي سيدي بلعباس، أو إلى الصحراء. أرض الله واسعة، جرمان، هل نسيت؟

لقد كتب علي في مكان ما، أنّني سأرحل دوما، وأترك خلفي جزءًا من ذاتي.
كانت لوسات واقفة أمام باب منزلها، اليدان خلف الظهر، والكتف على الجدار. لم تصدّقني عندما قلت لها بأننا سنرحل. الآن وقد حضرت شاحنة النقل، فإنها تلومني. لم أجرؤ على عبور الطريق لأذهب إليها وأعبّر لها عن حزني أنا أيضا. اكتفيت بالنظر إلى العمال وهم يخرجون الأثاث والصناديق ويضعونها بداخل المركبة الكبيرة. كما لو أنهم ينزعون عظام آلهتي وملائكتي الحارسة.
دفعتني جرمان إلى مقصورة الشاحنة. انطلق هدير المحرك. انحنيت لأرى لوسات. تمنيت أن تتحرر يدها، أن توجّه لي إشارة وداع خفيفة؛ لم تتحرك لوسات. بدت كما لو أنها لم تدرك أنني راحل فعلا. أم أنها رفضت قبول رحيلي.
تدحرجت الشاحنة، وغطى السائق صديقتي. اشرأب عنقي إلى حد كسر عمودي الفقري في محاولة مني لأخذ معي ولو وهم ابتسامة، الدليل بأنها تعترف أن لا دخل لي في هذا الفراق، وأنني كنت شقيا مثلها تماما. بلا جدوى. تدحرج الزقاق في زئير خردة حديد، ثم اختفى...
وداعا لوسات.
لمدة طويلة، اعتقدت أن عينيها هي التي تملأ روحي بسكينة لطيفة. اليوم، أدركت أن ذلك الإحساس الجميل لم تتسبّب فيها عيناها وإنما بصرها، ذلك البصر الوديع واللذيذ، الذي ما إن برعم حتى أضحى أموميا، وحينما ينحط عليّ...

تقع ريو صالادو على بعد ستين كيلومترا غرب وهران. لم يبدُ لي في حياتي سفر أطول من هذا السفر. تتدحرج الشاحنة عبر الطريق مثل جمل هرم استنفذ جميع قواه. يكاد المحرّك يَحتضر عند كل دورة. يرتدي السائق سروالا متسخا بالسواد وقميصا عرف أياما أفضل. قصير القامة، عريض المنكبين له وجه ملاكم سقيم، كان يسوق بصمت، يداه المشعرتان مثل الرتيلاء تمسكان بالمقود. كانت جرمان ساكتة، لاصقة بالباب، غير مبالية بالبساتين المتراصفة على جانبي المقصورة. من خلال أصابعها المتشابكة في تجويف تنورتها، أدركت أنها كانت غارقة في الدعاء.

عبرنا "ميسَرغين" بصعوبة بسبب العربات التي تسد القارعة. كان يوم سوق، وتتزاحم المتسوقات حول الرفوف، حيث يعرض بعض العرب البدويين، الذين يعرفون من خلال عماماتهم، خدماتهم كحمالين. يتبختر شرطي وسط الساحة وهو يدير مِقمَعة بيد لا مبالية. يحيّي السيدات بمجاملة مفرطة، يكاد مُقدّم قبعته يغطي حاجبيه، ويدير رأسه عند مرورهن ليكحّل عينيه بالنظر إلى مؤخراتهن. بغتة، قال السائق:

- اسمي كوستا. كوكو عند الأصدقاء.

رمى نظرة باتجاه جرمان. وعندما ابتسمت له تأدبا، تشجّع:

- إنني يوناني.

وبعد ذلك، بدأ يرقص على مقعده.

- أملك نصف هذه الشاحنة. لا يبدو ذلك من خلال مظهري، أليس كذلك؟ ومع ذلك فهي الحقيقة. بعد مدّة ليست بالبعيدة، سأكون سيّد نفسي وسوف لن أتحرك من مكتبي... أما الشخصان اللذان يوجدان في الخلف فهما إيطاليان. سيفرغان باخرة في أقل من يوم. إنهما يشتغلان في هذه المهنة منذ أن كانا في بطني أميهما.

تلألأت عيناه في حدقتيهما المشحمتين.

- هل تعرفين يا سيدتي أنك تشبهين قريبتي مِلينَة؟... قبل قليل عندما وصلت، لم أصدّق عينيّ، حسبت نفسي في حلم. تشبهينها بشكل عجيب. نفس الشعر، نفس لون العينين، نفس القامة. ألست من أصل يوناني، سيدتي؟

- لا، يا سيدي.

- من أي بلد أنت إذاً؟

- من وهران. الجيل الرابع.

- واوُو... يكون جدّك قد تبارز بسيفه مع ولي العرب الصالح... أنا، أتواجد في الجزائر منذ خمس عشر سنة فقط. كنت بحارا. رسّت بنا السفينة هنا. التقيت "بيرْت" في أحد الفنادق. وبعدها مباشرة قرّرت التوقف عن الملاحة. تزوّجت "بيرْت" وأقمنا بحي اسْكاليرا... وهران مدينة جميلة جدا.

ردّت جرمان بحزن:

- نعم إنها مدينة جميلة، بل وجميلة جدا...

أدار السائق المقود بحركة فظة كي يتجنّب دهس حِمارَين يتجولان وسط القارعة. صرّ الأثاث بعنف في الخلف، وتلفّظ الناقلان الإيطاليان بشتائم في لهجة مطاطية.

أعاد السائق الشاحنة إلى توازنها وضغط على دواسة السرعة بقوة كادت تفجر أحشاء المحرك. صاح أحد الرجلين من الخلف:

- ايه كوكو... كف عن الثرثرة وراقب الطريق جيدا...
وافق السائق بحركة من الرأس وسكت.
استأنفت البساتين استعراضها. تتنافس حقول البرتقال والكروم كي تغزو التلال والسهول. تنبثق منازل أنيقة هنا وهناك، وغالبا فوق تلة صغيرة لتشرف على المناظر الخلابة، محاطة بأشجار شامخة وحدائق. أما الطرق المؤدية إليها، فكانت مُعلّمة بأشجار الزيتون أو النخيل الباسقة. بين الفينة والأخرى، يظهر مستعمِر يمشي وسط حقوله أو يمتطي حصانا يركض بسرعة جنونية لا ندري باتجاه أية سعادة. وبعد ذلك، ودون سابق إخبار، كما لو أنها تتعمّد على تنغيص الروائع المحيطة، تنبثق أكواخ قصديرية وسط التضاريس، قبيحة إلى حدّ القرف، مسحوقة تحت ثقل البؤس والشؤم. يتخندق بعضهم خلف أسوار تين الصبار، في خجل جلي –لا تكاد تظهر سقوفها وهي على قاب قوسين أو أدنى من السقوط على أهلها؛ يتشبّث البعض الآخر بجوانب الصخور، أبوابها أقبح من فم أثرم، مغطية بالطين الممزوج بالقش مثل أقنعة جنائزية.
من جديد، التفت السائق إلى جرمان وقال لها:
- لا زلت متعجبا من قوة شبهك لقريبتي مِلينَة، سيّدتي.

II

ريو صالادو

.8

أحببت ريو صالادو كثيرا. فولمان صالسوم عند الرمان؛ المالح في أيامنا. على كل حال، لم أكف عن حبها، وأنا عاجز عن تصور شيخوختي تحت سماء غير سمائها أو أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة بعيدا عن أشباحها. كانت قرية استعمارية رائعة، بأزقتها المُخضَوضرة والمنازل الفاخرة. تبسط الساحة التي تُنظّم فيها الحفلات الراقصة وتغني فيها أشهر الفرق الموسيقية بساطها المبلّط على بعد خطوتين من مدخل مقر البلدية، محاطة بأشجار النخيل المتعاظمة التي يربط بعضها بعضا شريط مزخرف من المصابيح. سيغني في هذه الساحة "إيمي باريلي"، "كسافيي كوغا" مع "شيهواهوا"، كلبه الشهير مختبئ في جيبه، جاك إيليان، بيراز برادو، أسماء وفرق أسطورية لم تتمكن وهران، بأناقتها وشهرتها كعاصمة الغرب، من استقدامها. تحب ريو صالادو جذب الأنظار، أخذ ثأرها على الرهانات التي أعطتها خاسرة على طول الخط. إن القصور الريفية التي تعرضها بوقاحة مقصودة على طول الشارع الرئيسي هي طريقتها في إفهام المسافرين الذين يعبرونها بأن المظاهر فضيلة حينما يتعلق الأمر بردم الأحكام التعسفية، وإحصاء طرقات الصليب التي كان من الواجب تحديها للوصول إلى القمر. سابقا، كان المكان إقليما مخربا، متروكا للعظايا والصخور، حيث لا تطأ أرضيتها إلا بعض أقدام الرعاة، مرة واحدة وبمَحْض الصدفة، ولا يرجعون إليها أبدا؛ إقليم من الأدغال والأودية الجافة، حيث تجول فيها الخنازير والضباع بلا منازع –باختصار، أرض تنكّر لها الرجال والملائكة ولا يمر عبرها المسافرون إلا كهبّة ريح كما لو تعلق الأمر بقبور ملعونة... ثم وفي نهاية المطاف، حطّ الرحال على أرضها الجدباء متسكعون، مُهمَّشون، أغلبهم من الإسبانيين، ببؤسهم الشبيه ببؤسها. شمّروا على سواعدهم، وباشروا بترويض السهول المتوحشة، لا يقلعون مصطكا إلا ليغرسوا دالية، لا يعزقون ميدانا مهملا إلا ليسطروا معالم مزرعة. فنشأت ريو صالادو من مخاطرات رائعة مثلما تنبت البراعم فوق مقابر العظام.

تتربّع ريو صالادو وسط كرومها وخزّانات خمورها –يوجد منها حوالي مائة-، وتترك نفسها تُتَذوّق على طريقة النبيذ البلدي، وهي تترقّب بين موسمين لقطف العنب نشوة الأيام القادمة الحالمة. برغم شهر جانفي البارد نوعا ما، بسمائه الداكنة، ينبعث من أركانها عطر صيفي دائم. ينشغل الناس بأعمالهم اليومية، في حماس واندفاع، قبل أن تجمعهم المحلات عند غروب الشمس حول كأس أو حادث عابر؛ يمكن سماع قهقهاتهم أو سخطهم على بعد أميال.

قال عمّي واعدا وهو يستقبلنا، جرمان وأنا، عند عتبة باب منزلنا الجديد:
- سيعجبك الوضع في هذه القرية.
أغلبية سكان ريو صالادو إسبانيون أو يهود، فخورون ببناء كل منشأة في هذه القرية بأيديهم، كما أنهم أخرجوا من أرض مخرّقة بالأحجار عناقيد عنب تُسكر آلهة الأولَب. كانوا أناسا مستحبين،عفويين ومتكاملين؛ يحبون أن ينادي بعضهم بعضا من بعيد، اليدان حول الفم على شكل قِمْع. نخالهم منحدرين من مسبك واحد ذلك أنهم يعرفون بعضهم بعضا كأصابع اليد الواحدة. يختلف الوضع مع وهران حيث تنتقل من حي إلى آخر بشعور أنك تسافر في الزمن، تغيّر كوكبا. تنبعث من ريو صالادو نشوة التعايش المنشرح، حيث تقام بها الولائم خلف واجهات كنيستها الواقفة على يمين البلدية، المنسحبة قليلا كي لا تزعج المحتفلين.
كان عمّي على صواب. ريو صالادو مكان مناسب لإعادة حياة جديدة. يرتفع منزلنا على الجانب الشرقي للقرية، مرصّع بحديقة رائعة وشرفة تفتح على بحر من الكروم. كان منزلا كبيرا، واسعا ومضيئًا، بطابق أرضي بسقف مرتفع، أعيد إصلاحه ليحتوي على الصيدلية التي تنفتح بدورها على حانوت خلفي غريب، مليء بالرفوف والخزانات الحائطية السرية. يصعد درج لولبي إلى الطابق العلوي وينفتح على صالون شاسع، تحيطه ثلاث غرف كبيرة وقاعة حمام مبلطة وبداخلها حوض للاغتسال يرتكز على أقدام أسد برونزية. لم أشعر بالراحة النفسية إلا في اللحظة التي انحنيت فيها على جدار الشرفة الخارجي، العائم تحت ضوء الشمس، وساح بصري خلف تحليق حجلة فكاد أن لا يعود.
انبهرت بالمناظر الخلابة. لقد ولدت وقضيت طفولتي الأولى بين الحقول، وها أنا أسترجع معالمي القديمة، الواحد وراء الآخر، رائحة الحرث وصمت الأحجار. ولدت من جديد في ثوب قروي، مزهوا بإدراكي أن ملابسي الحضرية لم تغيّر طبيعة روحي. إذا كانت المدينة وهما، فإن الريف انفعال متنامٍ باستمرار؛ كل يوم جديد يذكّر بفجر الإنسانية، وكل يوم يأتي كما لو أنه سلم نهائي. أحببت ريو صالادو من الوهلة الأولى. كان بلد نعمة. يقسم المرء أن الآلهة والعفاريت عثروا في هذه الأماكن عن سكينتهم. يبدو كل شيء مطمئنا، مُتحرّرا من وساوسه القديمة. وفي الليل، عندما تأتي بنات آوى تشوّش على نوم السكان، تثير فينا رغبة مطاردتها إلى غاية عمق أعماق الغابات. يحدث لي أن أخرج إلى الشرفة في محاولة مني لرؤية ظلالها المختلسة وسط أوراق الكروم المموجة. أسْهو لساعات وأنا أسترق السمع إلى أدنى حفيف، أتأمل القمر، ألامسه بأهدابي...

... ثمّ ظهرت إيميلي.
حينما رأيتها لأوّل مرة، كانت جالسة عند مدخل بوابة الصيدلية، رأسها بداخل قلنسوة معطفها، وأصابعها تسوّي خيوط حذائها. كانت طفلة صغيرة جميلة بعينين خائفتين، بسواد معدني. كنت سأخالها ملَكا سقط من السماء، لولا أن وجهها المرمري الشاحب كان يحمل بصمات مرض خبيث. قلت:
- صباح الخير. هل يمكن أن أساعدك في شيء؟
ردّت وهي تدفع نفسها جانبا كي تفسح لي الطريق:
- أنتظر أبي.
- يمكنك انتظاره بداخل الصيدلية. البرد هنا قارص.
رفضت بحركة من رأسها.
عادت بعد أيام، يرافقها عملاق أشبه بمَنهير. إنه أبوها. سلّمها لجرمان وانتظر قرب المصرف بداخل الصيدلية، مستقيما وغامضا مثل صخرة. قادت جرمان الطفلة إلى الغرفة الخلفية قبل أن ترجعها لأبيها بعد دقائق قليلة. حط الرجل ورقة نقدية على المصرف، مسك الطفلة من اليد وخرج الاثنان إلى الشارع. سألت جرمان:
- ماذا فعلت لها؟
- حقنتها... ككل يوم أربعاء.
- ومرضها، هل هو خطير؟
- الله وحده العالم.
في الأربعاء المقبلة، تعمّدت الإسراع عند خروجي من المدرسة كي أراها. وكانت هناك، في الصيدلية، جالسة على مقعد مقابل المصرف المعبأ بالعلب والقوارير. تتصفح سارحة كتابا بغلاف كرتوني.
- ماذا تقرئين؟
- كتابا مصورا عن "الغواديلوب".
- ما هذا "الغواديلوب"؟
- جزيرة فرنسية كبيرة في بلاد الكرايبب.
اقتربت منها على أطراف الأصابع كي لا أزعجها. كانت تبدو هشّة، انجراحية.
- اسمي يونس.
- وأنا إيميلي.
- سأقفل ثلاث عشرة سنة بعد ثلاثة أسابيع.
- أما أنا، فاحتفلت بسنواتي التسع في نوفمبر الماضي.

- هل تتألمين كثيرا؟
- ليس كثيرا، ولكن الأمر يزعجني.
- ما بك؟
- لا أعرف. في المستشفى لم يفهموا شيئا. والأدوية التي وصفوها لي لم تأتِ بفائدة.
جاءت جرمان وأخذتها لحقنتها. تركت إيميلي كتابها على المقعد. كانت هناك مزهرية فوق صوان جانبي؛ قطفت وردة ودسستها داخل الكتاب قبل أن أصعد إلى غرفتي.
عند عودتي، كانت إيميلي قد ذهبت.
في الأربعاء المقبل، لم تعد إيميلي لأخذ حقنتها. وكذلك أيام الأربعاء الأخرى.
قالت جرمان:
- ربما احتفظوا بها في المستشفى.
بعد بضعة أسابيع، ولما لم تظهر إيميلي، فقدت أمل رؤيتها من جديد.
وبعد ذلك التقيت بإيزابيل، حفيدة الجدّ روسيليو، أكبر ثري في ريو صالادو. كانت إيزابيل طفلة جميلة نوعا ما، بعينين كبيرتين زرقاوين وشعر طويل يتدلى على ظهرها. إلهي، كم كانت متصنّعة. تتعامل مع غيرها من علٍ. ومع ذلك حينما تحط عينيها عليّ، تصغر وتنبسط، ولكن الويل للمتهوّرة التي تتجرأ على الالتصاق بي عن قرب. كانت إيزابيل تريدني لوحدها. كان والدها التاجر في الخمور يشتغل عند الجدّ روسيليو، الذي يعتبر شيخ العائلة المبجّل. يسكنون فيللا واسعة غير بعيدة عن المقبرة اليهودية، في شارع بواجهات يتدلى فوقها نبات الجهنمية.
لم ترث إيزابيل شيئا كبيرا من أمها، فرنسية معقّدة –يقال بأنها من عائلة مفلسة ولكنها لا تفوّت مناسبة دون أن تذكّر مغتابيها أن لديها دم أزرق في عروقها-، ولها ميل عميق إلى النظام والانضباط؛ في المقابل كانت صورة طبق الأصل لأبيها – كطالوني بسحنة داكنة، أقرب إلى السمرة. تملك وجهه ذا الوجنتين البارزتين، الفم القاطع والنظرة الثاقبة. في الثالثة عشرة من عمرها، بأنفها الجاثم في الأعلى وحركتها المتعاظمة، تعرف بالتدقيق ماذا تريد وكيف تتحصل عيه، ساهرة على علاقاتها بالصرامة نفسها التي تستخدمها في السهر على الصورة التي تريد أن تمنحها لنفسها. أسرّت لي يوما بأنها كانت سيّدة قصر في حياة سابقة.
هي التي اتّصلت بي في الساحة العمومية يوم الحفل الشفيعي. اقتربت مني وسألتني: "هل أنت جوناس؟". ودون أن تنتظر جوابي، أضافت بلهجة حازمة: "يوم الخميس عيد ميلادي. أدعوك للحضور." من الصعب معرفة إنْ تعلّق الأمر بدعوة أم باستدعاء. يوم الخميس، وسط فناء يعجّ بالأقرباء والقريبات، وفيما كنت أشعر بنفسي

تائها وسط الضجيج، جاءت إيزابيل وأمسكتني من ذراعي وقدّمتني لذويها: "هذا أفضل زميلي".
قبلتي الأولى، يعود الفضل إليها. كنا في الصالون الكبير، في منزلها، في عمق ركن منحصر بين بابين. كانت إيزابيل تلعب بالبيانو، ظهرها صلب والذقن مستقيم. فيما جلست إلى جانبها على المقعد، أتأمل أصابعها الرقيقة التي تجري على ملامس الآلة الموسيقية كوهج مستنقعي. تملك موهبة رائعة. فجأة، توقفت وأنزلت الغطاء على الملامس بلطف ورقة لا نهائية. بعد تردّد قصير، أو تفكير قصير، التفتت نحوي، أخذت وجهي بين يديها وحطت شفتيها على شفتيّ، مغمضة العينين في جوّ ملهم.
بدت لي القبلة أبدية. فتحت إيزابيل عينيها قبل أن تنسحب.
- هل أحسست بشيء، السيّد جوناس؟
أجبتها فورا:
- لا.
- أنا أيضا. شيء غريب، ولكن في السينما بدا الأمر عظيما... أظن أنه يجب أن ننتظر لنصبح راشدين كي نحسّ فعلا بمثل هذه الأشياء.
أغرقَت بصرها في بصري، وقالت بلهجة آمرة:
- لا يهم. سننتظر الوقت اللازم.
تملك إيزابيل صبر أولئك المقتنعين بأن الأيام الآتية ستخصّص لهم. قالت بأنني أجمل طفل على وجه الأرض، وأنني كنت دون شك أميرا جذابا في حياة أخرى، وقد اخترتني خطيبا لها لأنني أستحق ذلك فعلا.
لم نُقبِّل بعضنا بعضا مرة أخرى، ولكننا كنا نلتقي تقريبا كل يوم كي نخط مشاريع فرعونية بعيدا عن العيون الحاسدة.
وفجأة، بدون سابق إخبار، انقطعت علاقتنا الغرامية كما تحت تأثير شؤم ما. حدث ذلك يوم الأحد صباحا، وكنت بالبيت أقاوم الضجر. عاد عمي إلى الانغلاق على نفسه بداخل مكتبه، فكان بمثابة ميّت، وجرمان ذهبت إلى الكنسية. لم أتوقف عن الدوران، منتقلا بلا حماس من لعبة فردية إلى كتاب. الجوّ جميل. الربيع يعلن عن نفسه مُطهّرا. جاءت السنونوات قبل الوقت، وريو المشهورة بأزهارها تعبق برائحة الياسمين في كل مكان.
خرجْت أجرّ قدميّ عبر الأزقة، يدايّ خلف ظهري ورأسي يسرح بعيدا. دون إدراك مني، وجدت نفسي قرب منزل عائلة روسيليو. نادَيت على إيزابيل من النافذة.

كالعادة. لم تهبط إيزابيل لتفتح لي الباب. بعد أن راقبتني طويلا عبر مصراعي النافذة، فتحتهما بغتة في اصطفاق غاضب وصرخت باتجاهي:
- كذّاب.
فهمت من خلال جفاء نبرتها ولمعان نظرتها أنها حاقدة عليّ إلى حدّ الموت. تستخدم إيزابيل دائما هذه النبرة وهذه النظرة حينما تستعد لنشر غضبها.
مكثت بلا صوت، لأنني كنت أجهل الشيء الذي تلومني عليه ولم أكن أنتظر مثل هذا الاستقبال الجاف من قبلها. صاحت بلهجة قاطعة:
- لا أريد أن أراك ثانية.
ثمّ، صرخَت مرعوبة من استغرابي:
- لماذا؟ لماذا كذبْت عليّ؟
- لم أكذب عليك أبدا.
- آه، نعم، لم تكذب؟ اسمك يونَس، أليس كذلك؟ يو- نَس؟... لماذا إذًا تسمي نفسك جوناس؟
- جميع الناس ينادونني جوناس... ماذا يغّير في الأمر؟
صرخت بقوة كادَت تخنقها:
- يتغيّر كل شيء.
كان وجهها المحتقن بالأسى يرتعد:
- نعم، يتغيّر كل شيء.
ثمّ وبعد أن استرجعت أنفاسها، قالت بلهجة قاطعة:
- لسنا من عالم واحد، سيّد يونس. وزرقة عينيك غير كافية.
وقبل أن تصفق مصراعي النافذة في وجهي، شهقت شهقة ازدراء وأضافت:
- إنني من عائلة روسيليو، هل نسيت؟ هل تتصورني متزوجة مع عربي؟... الموت أفضل...
في عمر تكون فيه اليقظة أوجع من أول نزف عند المراهِقة، تطبع الضربة بالحديد الأحمر. صدمت، واضطربت مثلما يخرج المرء من نوم اصطناعي. من الآن فصاعدا، سوف لن أدرك الأشياء بالطريقة نفسها. إن بعض التفاصيل التي تبعدها سذاجة الطفولة إلى حدّ حجبها كلية عن الأنظار، تخرج من قمقمها وتبدأ في جذبك نحو الأسفل، في اضطهادك دون هوادة، إلى حدّ أنك حينما تغمض عينيك بصلابة استعدادا للنوم، تنبثق إلى ذهنك، عنيدة وشارهة، هي أشبه بالندم.
أخرجتني إيزابيل من قفص ذهبي لترميني داخل بئر.

آدم الذي طرد من الجنة لا يكون تائها مثلي، وجوزة عنقه أقل صلابة من الجلطة التي بقيت وسط حلقي.
ابتداء من هذا الإنذار الأول، أصبحت أحذر جيدا أين أضع قدمي. لاحظت أيضا أنه لا يوجد أي حايك عربي أبيض اللون يحلق في فضاء أزقة قريتنا، وأنّ الأسمال المعمّمة التي ترهق نفسها في البساتين من الفجر إلى غروب الشمس، لا تتجرّأ حتى على الاقتراب من ضواحي ريو صالادو، القرية الاستعمارية بامتياز، حيث وحده عمّي –الذي يحسبه الكثير تركيا من تلمسان- استطاع أن يلحق نفسه بها، دون أن نعرف بالضبط الحظ الأعمى الذي أدخله إليها.
صعقتني إيزابيل.
صادفتها في الشارع مرات عديدة. كانت تمرّ بقربي دون أن تنظر إليّ، مناخرها هي أيضا أعلى من عُقافة جزار، وتتصرف كما لو أنني غير موجود إطلاقا... ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. لإيزابيل عيب فرض أذواقها ومراراتها على الآخرين. حينما لا تحمل شخصا في قلبها، تشترط من جميع محيطها أن يتقيأه. رأيت إذا ميادين لعبي تنحصر تدريجيا، وأصبح زملاء مدرستي يتجنبونني عمدا... لقد قام جان كريستوف لامي بمشاجرتي في ساحة المدرسة وضربني ضربا مبرّحا خصيصا لينتقم لها.
كان جان كريستوف يكبرني بسنة. ابن والدين بوابين، فلا تسمح له مكانته الاجتماعية بالتحليق بعيدا، ولكنه كان شغوفا بحفيدة الجدّ روسيليو الحصينة. إذا كان قد ضربني بقوة وفي المكان الموجع، فلكي يظهر لها درجة حبه لها، وإلى أي مدى هو قادر على الذهاب من أجلها.
صعق المعلّم من تورّم وجهي، فأَصْعَدني إلى المصطبة وأمرني بأن أريه "المتوحش الصغير" الذي شوّهني بتلك الطريقة. ولأنه لم يتلقَ اعترافا من قبلي، أحرق أصابعي بمسطرته الحديدية وعاقبني بالوقوف إزاء الحائط إلى غاية نهاية الدرس. أبقاني بالقسم بعد خروج التلاميذ، آملا أن ينزع مني اسم الفظ. ولكنه اقتنع بعد تهديدات طفيفة أنني لن أتنازل، فصرفني واعدا بالاتصال بوالديّ.
كاد يُغمى على جرمان حينما رأتني أعود من المدرسة بوجهي المتورّم. هي أيضا أرادت أن تعرف من شوّهني بتلك الطريقة المشينة ولم تتلقَ مني إلا صمتا واستسلاما. قرّرت إرجاعي فورا إلى المدرسة كي تكشف خيوط الحكاية. ولكن عمّي المستلقي في زاوية بالصالون أقنعها بعدم الفعل: "لا تأخذيه إلى أي مكان. لقد حان الوقت كي يتعلّم الدفاع عن نفسه".

بعد أيام قليلة، وفيما كنت أتجوّل على طرف الكروم، قطع جان كريستوف لامي، برفقة صديقيه الدائمين سيمون بن يامين وفابْريس اسْكاماروني، عبر الحقول للوصول إليّ. لم تكن هيأتهم عدوانية، ولكنني خفت. لا يأتون أبدا إلى هذا المكان، مفضلين من بعيد ضجيج الساحة العمومية وصيحات ميادين لعب كرة القدم. كان حضورهم إلى الضواحي مريبا. كنت أعرف نوعا ما فابريس الذي يسبقني بقسم وأراه في ساحة المدرسة باستمرار منكبا على كتاب الشرائط المرسومة. إنه طفل بلا مشاكل، غير أنه مستعد ليكون ذريعة لرفيق أشراره جان كريستوف. وليس غريبا أن يقدّم له يد المساعدة في الحالات الصعبة؛ كان يحسن الضرب كما يتفنن في تجنب الضربات أيضا؛ وبما أن لا أحد تمكن من إسقاطه أرضا، لم أكن متأكدا من أن صديقه سيرفض التدخل إن دارت الأمور في غير صالحه. أما سيمون، فلا أطمئن إليه بتاتا. إن ردود أفعاله غير متوقعة إطلاقا، يستطيع دون سابق إخبار أن يركل زميلا له، فقط ليضع حدا لحوار أزعجه. كان في قسمي، يجلس في آخر الصفوف ويقضي جل وقته في التهريج وإزعاج المجتهدين والتلاميذ النجباء. كان واحدا من التلاميذ المشاغبين القلائل الذي يحتج عندما يتلقى نقطة رديئة، كما أنه يغذي عدوانية صريحة اتجاه البنات، وبالأخص الجميلات والمجتهدات. لقد حدثت لي قضية معه بمجرد وصولي إلى المدرسة. لقد جمع حوله التلاميذ المشاغبين وهزأ جهرا من ركبتي المجرّدتين من الشعر، ومن سحنتي الشبيهة بسحنة "بنت بلهاء"، ومن حذائي برغم أنه جديد، والذي أوجد له شكلا ضفدعيا. وبما أنني لم أرد على استهزاءاته، وصفني بالجبان وانصرف عني.

كان جان كريستوف يتأبط علبة. راقبت نظرته، وعيني أيضا على إشارة مشفرة من زملائه. لم يكن بتلك الهيئة الماكرة التي يتحلى بها عادة، ولا ذلك الضغط الذي يزيد من تشنج تقاسيم وجهه حينما يستعد لضرب شخص ما.

طمأنني فابريس من بعيد:

- لا نضمر لك أي شر.

اقترب مني جان كريستوف. بخطوة خجولة. كان مضطربا، بل ونادما، وتبدو كتفاه كما لو أنهما ترزحان تحت ثقل غير مرئي.

مدّ لي العلبة بحركة لطيفة. قال لي:

- أطلب منك العفو.

وعندما تردّدت من تسلم العلبة، خوفا من مزحة، وضعه بين يديّ.

- إنه حصان خشبي. له قيمة كبيرة في نظري. اليوم، أهديه لك. إذا عفوت عني، خذه.

شجعني فابريس بعينيه.
عندما سحب جان كريستوف يده ملاحظا أن هديته ثابتة بين يديّ، همس لي:
- شكرا لك لأنك لم تبلِّغ عني.
في ذلك اليوم، ختمنا نحن الأربعة على أروع صداقة عشتها في حياتي.
بعد أيام، عرفت أن إيزابيل وقد أغضبتها مبادرة جان كريستوف التعيسة، هي التي اشترطت من هذا الأخير أن يقدّم لي اعتذاراته وأمام الشهود.

بدأ صيفنا الأول في ريو صالادو بشكل سيء. في 03 جويلية 1940، اهتزّ البلد تحت عملية "كاتابولت" التي رأت سرب القوات الجوية البريطانية، "قوة H"، يُقنبل البواخر الحربية الفرنسية للقاعدة البحرية لمرسى الكبير. بعد ثلاثة أيام، عادت طائرات جلالتها تنهي عملية القصف دون أن تترك لنا الوقت الكافي لقياس سعة الكارثة.
لقد لقيَ حفيد جرمان، وهو طباخ في سفينة "دانكارك"، حتفه مع ألف ومائتين وسبعة وتسعين بحارا قتلوا في ذلك القصف. رفض عمّي، الذي ساءت حالته النفسية وغرق في صمت مرضي، مرافقتنا لحضور الجنازة، فاضطررنا أن نذهب جرمان وأنا بدونه. وجدنا وهران في حالة ذعر. تدفقت المدينة إلى الواجهة البحرية في ازدحام مهول، منذهلة من الهيجان الكابوسي حول القاعدة المشتعلة. احترقت بعض البواخر والبنايات منذ القصف الأول؛ كادت أدخنتها السوداء تخنق المدينة وتغرق الجبل.
اغتاظ الناس وأصيبوا برعب، خاصة أنّ السفن المستهدفة كانت محل مفاوضات لنزع سلاحها تطبيقا لاتفاقية الهدنة الممضاة قبل أسبوعين. ها هي الحرب التي افترض الجميع أنها عاجزة عن عبور البحر المتوسط تشعل النار على أبواب المدينة. بعد الرعب والتأثر، حلّ الهذيان. انطلقت الأقاويل والشائعات من جميع الأنواع وفجّرت المخاوف الأكثر جنونا. تكلّم الناس عن هجوم الألمان، ونزول فرق المظليين ليلا في عمق البلد، وإنزال السفن للعسكر، وقصف جديد مكثف والذي يستهدف هذه المرة السكان المدنيين وإغراق الجزائر في العاصفة المهولة التي هي بصدد إرجاع أوربا إلى العهد الحجري.
كنت مستعجلا للرجوع إلى ريو.
بعد مراسيم الجنازة، سلّمت لي جرمان قسطا من النقود وأذنت لي بزيارة جنان جاتو، مكلّفة برتران، أحد أحفادها، كي يرجعني سالما من "المغامرة".

من الوهلة الأولى، بدا لي جنان جاتو أنه تغيّر. إن اتّساع المدينة قد دفع الأحياء القصديرية ومخيمات البدو الرحل بعيدا باتجاه البحيرة الصغيرة. كما تراجعت الأحراش أمام تقدّم الإسمنت المسلح، وفي أمكنة الفُرَج الغابية المعبأة بالأوساخ والمنعرجات المظلمة المناسبة للاعتداءات، نشرت الورش عتادها الضخم. في مكان السوق، وسط الأجمات، برزت أسوار ثكنة عسكرية أو سجن مدني. تحاصر حشود مزدحمة مراكز التوظيف، لم يكن بعضها إلا عبارة عن طاولة يتيمة نصبت عند أسفل ركام من الخردة... ومع ذلك، البؤس جاثم هنا دائما، لا يتزحزح؛ يقاوم كل شيء، بما في ذلك المشاريع البلدية الأكثر حماسا. الأشباح السقيمة نفسها تلامس الجدران، والأسمال نفسها تنكمش في عمق ملاجئها الكرتونية؛ أما الأكثر بؤسا، فإنهم يقفون في وضعية حراسة أمام المطاعم الشعبية الوسخة كي يبللوا خبزهم الحافي في روائح الطبخ، الوجوه معفّرة بالرماد، النظرة مجمّدة، مُخيَّطين إلى برانيسهم، أشبه بالموميات. نظرت إلينا ونحن نمر كما لو كنا الزمان بحد ذاته، كما لو انبثقنا من عالم موازٍ. كان برتران المجرّب يسرع الخطى كلما أطال أحد الأشقياء نظره على ملابسنا الجميلة. يوجد بعض الروميين الذين يتحرّكون هنا وهناك، ومسلمون ببدل أوربية، الطربوش على الأذن، ولكننا نحسّ في الجوّ باختمار حتمي لعواصف مؤجلة. بين الفينة والأخرى، نصادف مشاجرات كلامية سرعان ما تتحوّل إلى ملاكمات حقيقية أو تتوقف فجأة، تاركة المكان لصمت مربك. كان الضجر عظيما، والانتظارات على شفا حفرة من الانفجار. لم تتمكن الرقصات المطنطنة لتجار الماء، الذين يدورون على أنفسهم في سروجهم المتعدّدة الألوان والمرصّعة بالأجراس، أن يبعدوا الشؤم الزاحف. يوجد كثير، بل وكثير جدا من المعاناة...

يرزح جنان جاتو تحت ثقل الأحلام المبقورة. يتمايل أطفال سلِّموا عرضة لأنفسهم تحت ظل أبكارهم، أسكرهم الجوع والرعن؛ كانوا مآسي ناشئة، أطلقوا في الطبيعة، مقرفين من الأوساخ والعدوانية، يركضون حافي الأقدام كي يتسلقوا خلف الشاحنات المُتزعْرجة وسط العربات، وهم يقهقهون غير مبالين، يلامسون الموت حسب درجة السرعة. في بعض الأماكن، يلتفون حول كرة من الخرق أو حول مبارزة خشنة؛ يوجد بداخل ألعابهم المرعبة اندفاعات متهوّسة، انتحارية تفقد العقل.

قال برتران كي يخفّف قليلا عن الضغط:

- هذا يغيّرك عن ريو، أليس كذلك؟

لم تتمكن ابتسامته من إخفاء شيء؛ كان الخوف يقطر على وجهه كما الماء القذر. أنا أيضا، انتابني خوف شديد، ولكن الكرة التي ألهبت أحشائي تبخّرت في اللحظة التي

تعرفت على ساق الحطب عند عتبة حانوته. لقد ضعف الشقي كثيرا وأدركته الشيخوخة. استقبلني بتقطيب حاجبيه مثلما فعل في زيارتي الماضية، منذهلا ومنبسطا في آن واحد.
اتكأ على مرفق وقال لي:
- ألا يمكن أن تمنحني قليلا من حظك، يا أزرق العينين؟ إذا كان الله موجودا، فلماذا لا ينظر قليلا إلى هذه الجهة؟
أوقفه الحلاق الذي لم أره لتداخل هيأته بأدوات عمله، قائلا:
- كفاك كفرا... ربما أدار الله لنا ظهره بسبب خلقتك الوسخة.
أما الحلاق، فلم يتغيّر. سوى أنه يحمل أثر ضربة شفرة على الوجه.
لم يكترث كثيرا بوجودي.
يتحرّك جنان جاتو، ولكنني لا أعرف في أي اتجاه. لقد اختفت أكواخ القصدير التي تخندقت وراء سياج العنّاب المتشجّر. في مكانها، وسط مساحة واسعة جرداء، بلون أحمر داكن، تمّ حفر سواقي عميقة مُسيّجة. يتعلق الأمر بأسس جسر كبير سيتخطى السكة الحديدية قريبا. خلف حَوْشنا، حيث ينتهي تفتيت آثار مركز صيانة الطرق، يرتفع نحو السماء في مكانه مصنع كبير، يتشبّث بجدرانه التي توشك على الانهيار.
أراني ساق الحطب بإبهامه علبة السكريات:
- أتريد واحدة يا صغيري؟
- لا، شكرا.
يقرفص تاجر حلويات المقمع خلف موقد غاز لعهد ما قبل التاريخ، ودلو من المسترجعات معلق على كتفه، يطقطق سدائده الحديدية. اقترح علينا حلوياته ذات الشكل المقمعي؛ لقد أسال لمعان عينيه بردا في ظهورنا.
دفعني برتران أمامه بحذر. يبدو أنه لا شيء يجلب اطمئنانه، لا الوجوه المحيطة ولا الأشباح القابعة هنا وهناك. عند مستوى الحوش، قال لي:
- أنتظرك هنا. لا تتسرع، خذ وقتك.
مقابل الحوش، في المكان الذي كانت تنتصب فيه مطيرة هواري، برز منزل بجدران حجرية، تنطلق من جانبه الأيسر، وتصعد عبر الدرب الذي كان يقوم مقام زقاق إلى غاية الميدان المهمل حيث كاد الأطفال أن يرجموني ذات يوم.
عادت إليّ ذكرى هواري بغتة. فرأيته وهو يدربني على صيد الطيور، فتساءلت عن مصيره.

قطّبت بَدْرَة عينيها عندما رأتني أتقدّم نحو الفناء. كانت تنشر غسيلها، وذيل فستانها معلق على الحبل الغريب الذي تستخدمه كحزام، تاركة ساقيها عاريتين إلى غاية منشأ الفخذ. وضعت يديها على خصرها الضخم وشرّعت ساقيها على طريقة شرطي يمنع الدخول إلى بناية ما.

- الآن فقط تتذكّر أنّ لك عائلة...

لقد تغيّرت بَدْرَة كلية. خفت سمنتها، وذبل وجهها، المقدام سابقا، على ذقنها. لم تعد إلا كوما من الترهل، بلا حيوية ولا معالم واضحة.

لا أعرف إن كانت تستفزني أو توبّخني. قالت وهي تشير إلى باب بيتها المغلق:

- أمك خرجت مع أختك. وقد لا تتأخران عن العودة.

أزاحت بقدمها الإناء المليء بالغسيل كي تحرّر كرسيا واطئا وتدفعه باتجاهي. قالت:

- اجلس... خير لك... زرِّيعة واحدة، تتشابهون جميعا. ترضعوننا إلى أن تجف ضروعنا، وبمجرد أن تتعلّموا الوقوف على أرجلكم، تتملصون وتتركوننا على الحديدة. مثل آبائكم تماما، تغادروننا على أطراف الأصابع ولا يَهمّكم مصيرنا إطلاقا.

أدارت لي ظهرها، منشغلة بتعليق غسيلها. كنت أرى فقط كتفيها المترهلين يتحركان بثقل ظاهر. أوقفت حركاتها كي تتمخّط أو تمسح دمعة، هزّت رأسها واستأنفت في نشر ملابسها المعصورة على حبل قديم من الخيش يقطع الفناء على اثنين. قالت:

- أمك ليست على ما يرام. إنها في وضعية حرجة. أنا متأكد أن مصيبة ما حدثت لأبيك، ولكن أمك ترفض الاعتراف بذلك. يوجد كثير من الرجال يهاجرون عوائلهم كي يستقروا في أمكنة أخرى ويبدأون حياتهم من الصفر، هذا صحيح، ولكن ليس هذا فقط. كثرت الاعتداءات في أيامنا هذه. لديّ إحساس بأنّ أباك المسكين تعرّض لمكروه وأهمل في ساقية ما. أبوك كان رجلا شهما. ليست من شيمه أن يهمل زوجة وأولادا بلا عائل. يكون حقا قد تعرّض لمكروه. تماما مثل زوجي. قُتِل من أجل ثلاثة "صوردي"، ثلاثة سنتيمات بائسات. وفي وضح النهار. طْرَقْ. ضربة خنجر في الظهر. ضربة واحدة وتوقف كل شيء. كل شيء. كيف يمكن لرجل أن يموت بهذه السهولة عندما يكون مسئولا عن أفواه كثيرة يعيلها؟ كيف يمكن أن يمكر به طفل لم يخرج بعد من الأرض؟...

تكلّمت بدرة كثيرا في ذلك اليوم، تكلّمت دون أن تسترجع أنفاسها. كما لو أن آلة البندور انفتحت فجأة بداخلها. تحدّثت كما لو أنّ ما بقي لها في الحياة سوى الكلام، لتنتقل من مأساة إلى أخرى، تذكّر بحادث جارح من هنا، وتباشر بحركة يأس من هناك، لتصمت فجأة كما لو أنها تعيش الجرح من جديد. كنت أرى كتفيها يرتجفان

خلف صف الغسيل الأول، وساقيها العاريين في الأسفل، ومن حين لآخر، الانتفاخات الدهنية المتعرجة الشكل على مستوى الخصر وسط شقاق الملابس المنشورة. أخبرتني أن بْليس السمسار قد قام بطرد حدّة الجميلة بطفليها الصغيرين، وليس معها إلا صرّة ملابسها. حكت لي أيضا كيف رمت التعيسة يزّة نفسها في البئر ذات ليلة عاصفة، كي تتخلص من تكرار ضرب زوجها السكير. أما باتول العرّافة، فغادرت الحوش واشترت لنفسها بالأموال التي جمعتها من التعساء حماما ومنزلا في قرية الزنوج. أما الساكنة الجديدة التي لا يعرفون من أي وحل خرجت، فكانت تفتح غرفتها للمنحرفين، ساعة تنغلق جميع المصاريع والأبواب. أما بْليس، ففي غياب الرجال في الحوش، أصبح يتصرف كقواد حقيقي.

بعد أن أنهت نشر غسيلها، أفرغت مياه الإناء القذرة داخل الساقية، أنزلت ذيل فستانها ودخلت بيتها. واصلت سخطها وإطلاق ضغينتها في عمق جحرها إلى غاية رجوع أمي.

لم تتفاجأ أمي وهي تجدني جالسا في الفناء. تصرّفت كما لو أنها لا تعرفني. حينما وقفت لأسلّم عليها، تراجعت قليلا إلى الوراء. لم ترض أن تضمني بذراعيها المتدليين إلا بعد أن انكمشت بقوة في صدرها. قالت لي مكرّرة:

- لماذا عدت؟ لماذا؟ لماذا؟

أخرجت النقود التي سلّمتني إياها جرمان ولم أجد الوقت الكافي لأسلمها لها. لقد انقضّت يد أمي كالبرق على الأوراق القليلة وأخفتها بأسرع مما يفعل البهلواني.

دفعتني إلى داخل بيتنا الضيق، وهناك، أخرجت من حضنها النقود وعدّتها مرارا، كي تتأكّد أنها لا تحلم. خجلت من لهفتها، خجلت من شعرها المجعّد الذي لم يعرف بكل تأكيد المشط منذ أيام عديدة، خجلت من حايكها البالي الذي يتدلى على كتفيها الضامرين مثل ستار قديم، خجلت من الجوع والشقاء اللذين يشوّهانها، هي التي كانت جميلة كالبدر. قالت:

- نقود كثيرة ! هل عمّك هو الذي بعثها إليّ ؟

خشيت أن يكون ردّ فعلها شبيها برد فعل أبي، كذبت:

- إنها نقودي.

- هل تشتغل؟

- نعم.

- هل فارقت المدرسة؟

- لا.

- لا أريد لك أن تفارق المدرسة. أريد أن تصبح عالما كبيرا، كي تعيش هنيئا إلى آخر أيام عمرك... أفهمت؟... لا أريد لأولادك أن يعيشوا حياة بؤس كحياة الكلاب.
لمعت عيناها بألف شعلة حينما مسكتني من الكتفين.
- أعدني يونس... أعدني بأنك ستتحصل على أكبر قدر من الشهادات مثل عمّك، وأن تشتري منزلا كبيرا وتشتغل مهنة حقيقية.
انغرزت أصابعها بقوة في لحمي إلى حدّ أنني أحسست بالوجع.
- أقسم لك أمي... أين زهرة؟
تراجعت إلى الوراء بخطوة، حذرة، ثم تذكرت أنني لست إلا ابنها ولست جارة حسودة وشريرة، فهمست في أذني:
- تتعلّم مهنة... ستكون خيّاطة. سجلتها عند خياطة في المدينة الأوربية. أريد لها أن تنجح هي أيضا.
- هل شفيت؟
- ليست مريضة. وليست مجنونة. إنها صماء بكماء فقط. ولكنها تفهم وتتعلم بسرعة، هكذا قالت لي الخياطة. أشتغل عندها ثلاثة أيام في الأسبوع. أقوم بتنظيف البيت والغسيل. هنا أو عند الغير، الأمر سيان. ثمّ إنّ علي أن أعيش...
- لماذا لا تأتي للعيش معنا في ريو صالادو؟
صرخت كما لو أنني تلفظت بكفر:
- لا. لا أتحرّك من هنا طالما أن أباك لم يعد. تصوّر لو يرجع ولا يجدني في المكان الذي تركني فيه. أين سيبحث عني؟ ليس لدينا عائلة، ولا أصدقاء في هذه المدينة الغولة. ثمّ، أين تقع ريو صالادو هذه؟ لا يحضر في بال أبيك أننا قد غادرنا وهران... لا، سأمكث في هذا الحوش إلى غاية رجوعه.
- ربّما يكون قد مات...
أمسكتني يدها من الرقبة ودفعت رأسي ضد الجدار خلفي.
- أيها المجنون، كيف تتجرأ على القول مثل هذا الكلام؟ باتول العرّافة أكّدت لي مرارا أنها رأته في خطوط يدي وفي تموجات الماء. أبوك بخير، إنه حي يُرزَق. إنه يشتغل ويجمع ثروة وسيعود إلينا غنيا. سيشتري لنا منزلا جميلا، بمدخل فاخر وحديقة ومرأب للسيارة، وسيثأر لنا من شقاء الأمس واليوم. من يعرف؟ ربما سنعود إلى أرضنا، ونسترجع شبرا شبرا جميع الأفراح التي أجبرونا على رهنها.
كانت أمي تتكلّم بسرعة، بسرعة عجيبة. تتكلم بارتعاشات في الصوت وبلمعان غريب في العينين. ويداها ترسم في الفضاء أوهاما عظيمة. لو كنت أعرف أنها تحدّثني

للمرة الأخيرة في حياتنا، لكنت صدّقت مجموع خرافاتها ولبقيت بقربها. ولكن كيف لي أن أعرف؟
من جديد، هي التي أصرت عليّ بالذهاب لألتحق بوالديّ الجديدين، دون تأخير.

.9

يلقّبوننا بـ"أصابع المذراة".
كنا لا نفترق أبدا.
هناك جان كريستوف لامي، ستة عشر سنة وقد صار عملاقا. ولأنه كان أكبرنا، فكان القائد. أشقر مثل حزمة تبن، وعلى شفتيه ابتسامة خاطب أبدي؛ كانت أغلبية فتيات ريو صالادو يهمن به. ولكنه لزم حدّه منذ أن رضيت إيزابيل روسيليو أن تتخذه "خطيبا" مؤقتا لها.
هناك فابريس اسكاماروني الذي يصغرني بشهرين، فتى رائع، القلب في اليد والرأس في الغيوم؛ كان يطمح ليصبح روائيا. تملك أمه محلات في ريو ووهران، وهي أرملة مجنونة قليلا. تقود حياتها مثلما تريد وكانت المرأة الوحيدة التي تسوق السيارة في المنطقة. تلوك الألسنة المغرضة حولها حكايات إلى حدّ الشلل؛ والسيّدة اسكاماروني غير مبالية. كانت جميلة وثريّة ومستقلة. ماذا تريد فوق هذا؟... في الصيف، تحشرنا نحن الأربعة في المقعد الخلفي لسيارتها الصلبة ذات الست أسطوانات والخمسة عشر حصانا وتقودنا إلى شاطئ "تَرْغا". بعد السباحة، ترتجل مشواة بالفحم وتُشبعنا زيتونا أسود وشواء خروف وسردين على الجمر.
وهناك أيضا سيمون بن يامين، من يهود الجزائر، خمسة عشر سنة مثلي تماما؛ قصير القامة، يميل إلى السمنة قليلا، وحماقات لا حصر لها. إنه فتى بشوش، متحرّر من الأوهام بسبب إخفاقاته العاطفية، ولكنه حبّوب عندما يبذل قليلا من الجهد. يحلم بامتهان المسرح أو السينما. في ريو، لم تكن عائلته ذات مكانة كبيرة. أبوه سيّء الحظ؛ لا يشتغل في قضية إلا ومآلها الفشل، بحيث أصبح يدين بالمال للجميع، بما في ذلك العمال الموسميين الذين يشغّلهم.
كنّا، سيمون وأنا، متلازمَين باستمرار. يقع منزل عائلته على بعد خطوتين من منزل عمّي، ويمر عليّ كل صباح قبل أن نذهب للالتحاق بجان كريستوف في أعلى الهضبة. كانت الهضبة ثكنتنا. نحب التجمع تحت الزيتونة المئوية الجاثمة على ذروة المرتفع لنشاهد ريو تتلألأ قيظا عند أقدامنا. فابريس آخر من يلتحق بنا، يحمل قفة

مليئة بصندويتشات مقانق الكاشير والفلفل المملح والفواكه الموسمية. نمكث هناك إلى ساعة متأخرة من الليل، نشيّد المشاريع البعيدة الاحتمال، ونستمع إلى جان كريستوف وهو يحكي لنا بالتفاصيل المملة النُغَص التي تسببها له إيزابيل روسيليو. أما فابريس، فإنه يسكرنا بأشعاره وبنثره الإسهالي، مستخدما ألفاظا حوشية لا نعرف من أية قواميس يستقيها.

أحيانا، وتبعا للأمزجة، نفتح حلقتنا لدخول زملاء آخرين، وبالأخص الأقرباء صوزا: جوزي، أفقر قريب العشيرة الذي يقتسم غرفة الخادمات مع أمّه والذي يتغذى صباح مساء بحساء الخضر المخلوطة بالخبز؛ وآندري، الملقب بدادي، نسخة من أبيه، الصارم جيم جيميناز صوزا الذي يملك أحد أهم مزرعة في المنطقة. كان آندري نوعا من الطاغية العادي، مستبدا مع عماله، ولكنه لطيف مع أصدقائه. طفل مدلّل، عادة ما يتلفظ ببذاءات لا يقدّر أبعادها. بقي لومي له خفيفا برغم الأقوال الجارحة التي يصرّح بها اتجاه العرب. ولكن تعامله معي كان حذرا. يدعوني إلى بيته في كل المرات التي يدعو فيها أصدقائي، دون أي تمييز، غير أنه لا يتردّد في توبيخ المسلمين العرب في حضوري كما لو أنها ممارسات طبيعية. كان أبوه يقيم الدنيا ويقعدها في مزرعته حيث يحشر كما البهائم العائلات الكثيرة المسلمة التي تكدّ عنده. كان جيم جيميناز صوزا أوّل من يستيقظ وآخر من ينام، الخوذة الاستعمارية لاصقة على جمجمته، والسوط يتدلى على جزمة الفروسية، يشغّل "سجناءه" إلى غاية الإرهاق، والويل للمتمارضين. يعامل كرومه بتبجيل مطلق ويعتبر كل دخول غير مأذون في حقوله تدنيسا لا يغتفر. يحكى أنه قتل معزة تجرأت على الرعي في داليته وأطلق النار على الراعية الطائشة التي حاولت استرجاعها.

كان عهدا غريبا.

من جهتي، واصل مصيري مسارَه. لقد صرت رجلا: زادت قامتي بحوالي ثلاثين سنتيمترا، كما بدأت أحس بأثر الزغب تحت لساني عندما أمرّره على شفتيّ.

لحق بنا صيف 1942 ونحن على الشاطئ نتسفّع تحت الشمس. كان البحر رائعا في الأفق، شفافا بحيث يمكن رؤية جزر حابيباس. كنا، فابريس وأنا، مسترخيَين تحت واقية الشمس، فيما كان سيمون، المسرور بشورته السُخري، يُضحك الحاضرين بقيامه بغطسات بهلوانية في الماء. يأمل بهذه الطريقة جذب انتباه الفتيات، ولكن صرخاته السينمائية تخيف الأطفال وتزعج السيّدات المتمدِّدات على كراسيهن الطويلة. أما جان كريستوف، فكان يستعرض عضلاته وهو يذرع الشاطئ ذهابا وإيابا، مدخلا بطنه تحت عضلات صدره ويداه على خصره كي يسطّر شكل ظهره

المثلث. إلى جانبنا الأقرباء صوزا الذين نصّبوا خيمة. يفضل آندري الاستعراض. فيما يكتفي الآخرون بإحضار كراسي تُطوى، يأتي هو بخيمة؛ وإذا غرسوا خيما على الرمل، ينشر خانا بأكمله. في الثامنة عشر من عمره، يملك سيارتين، واحدة منزوعة السقف يتجول بها في شوارع وهران حينما لا يعبر بها شارع ريو الرئيسي في هدير صام، وفي وقت القيلولة. في هذا اليوم، لم يجد أفضل ما يفعله من تعنيف خامده جلول. لقد بعثه ثلاث مرات إلى القرية تحت شمس قائظة. المرّة الأولى ليشتري له السجائر؛ المرة الثانية علبة كبريت؛ المرّة الثالثة لأنّ السيّد طلب سجائر الباصْطوص، وليس الشارْبونْتيي. كانت القرية بعيدة نوعا ما، وجلول المسكين يذوب مثل ثُليْجة.
كنا، فابريس وأنا، نتابع المشهد منذ البداية. أدرك آندري أن طريقة تعامله مع خادمه تزعجنا، وكان يجد لذّة ماكرة في تأجيج إزعاجنا. بمجرّد أن عاد جلول، كلّفه بالعودة للمرة الرابعة إلى القرية ليجلب له مفتاح العلب. دار الخادم، مراهق نحيف، على أعقابه وصعد الترعة اللاهبة في وقت بداية الظهيرة. قال قريبه جوزي بلهجة احتجاج:
- دادي، خفّف عنه قليلا...
ردّ آندري وهو يشبك يديه خلف رقبته:
- إنها الطريقة الوحيدة لإبقائه يقظا. ترخي الحبل لحظة، وتسمع شخيره في الدقيقة المولية.
تدخّل فابريس مدافعا:
- تصل الحرارة إلى 37 درجة. المسكين من لحم ودم مثلك ومثلي. سيصاب بضربة شمس.
وقف جوزي، مستعدا لإرجاع جلول. أمسكه آندري من المعصم وأجبره على الجلوس.
- لا تتدخل، جوزي. أنت لا تملك خدما ولا تعرف طبيعتهم... إن العرب مثل الأخطبوط؛ يجب أن تضربه كي يتمدّد.
انتبه أنني كنت عربيا وسطهم، فاستدرك:
- أو على الأقل... بعض العرب.
ثمّ قفز على قدميه وركض يرمي نفسه في البحر، مدركا كراهية أقواله العصية الاحتمال. شاهدناه يسبح وهو يحدث تموّجات المياه خلفه. ساد ضجر تحت الخيمة. صعُب على جوزي أن يتملك سخطه؛ تصطك فكاه بفظاظة. أغلق فابريس الكتاب الذي كان يقرأه وتفرّسني بصرامة.
- كان يجب عليك أن ترد له الصاع صاعين، جوناس.
قلت بقرف:

- حول أي موضوع؟
- موضوع العرب... أقواله غير مقبولة وانتظرت أن تعيده إلى مكانه.
- إنه في مكانه، فابريس. أنا الذي أجهل أين مكاني.
بعد هذا، جمعت أمتعتي والتحقت بالطريق المؤدي إلى القرية. التحق بي فابريس. حاول أن يصرف عني فكرة الذهاب في تلك الساعة من النهار. أحسست بالاشمئزاز، وبدا لي الشاطئ فجأة متوحشا مثل جزيرة غير آهلة بالسكان... في تلك اللحظة بالذات، كسّرت طائرة رباعية المحرّك هدوء السبّاحين وهي تحلق قريبة جدا من الهضبة القريبة. يتسرّب دخان من جانبها. صرخ جوزي هلعا:
- إنها مشتعلة... إنها في خطر... ستَسقُط...
اختفت الطائرة خلف القمم. على الشاطئ، وقف الجميع، وعيونهم تتابع الأفق. يترقّب الجميع انفجارا، أو دخان نار يشير إلى مكان الاصطدام.. لا شيء. واصلت الطائرة تحليقها الخطير وسط تعطل محركاتها، ولكنها لم تسقط، مما جعل الجميع يتنفس الصعداء.
هل هو نذير شؤم؟
بعد شهور قليلة، في 07 نوفمبر، وفيما كان المساء يستقر على الشاطئ الفارغ، انبثقت أشباح مخيفة من عمق الأفق... لقد بدأ إنزال القوات الأمريكية على الشواطئ الوهرانية.

- ثلاث طلقات نارية فقط؟ أين اختفى جيشنا العظيم؟
قال الجدّ روسيليو ساخطا، وهو يقف في الساحة المركزية، على غير عادته، إذ لا يحب الظهور في المناسبات العمومية.
في ريو صالادو، استُقبِل خبر الإنزال مثل سقوط البرَد على الكروم. أعطى جميع رجال القرية موعدا عند مدخل البلدية. كان الغضب وعدم التصديق يُقرآن على الوجوه. جلس الأشخاص الأكثر ارتباكا على الرصيف وراحوا يضربون بأيديهم علامة اليأس. عاد رئيس البلدية مستعجلا إلى مكتبه، ويقول مساعدوه المقربون أنه في اتصال هاتفي دائم مع السلطات العسكرية لمنطقة وهران. قال أكبر ثري في المنطقة ساخطا:
- ضحك الأمريكان على ذقوننا. فيما كان جنودنا ينتظرونهم متخندقين في مخابئهم، استدارت سفن العدو خطوطنا الدفاعية عبر جبل الأسود ورست على شواطئ أرْزِيوْ بلا عراقيل. وبعد ذلك، دخلوا في البرية عبر غاية تليلات دون أن يصادفوا أحدا قبل أن ينقضّوا على وهران من الخلف... يستعرض الأمريكيون عبر شارع مَعَسْكر فيما

تنتظرهم قواتنا عند المنحدرات. وبعد ذلك، ولا شبه مناوشة عسكرية. دخل العدو إلى وهران كما إلى السوق... كيف سيكون مصيرنا الآن؟
طوال النهار، تتشكّل الأخبار والتعليقات ثم تتفكّك بسرعة جنونية. سقط الليل دون أن ينتبه له أحد، ولم يلتحق الكثير منهم بيوتهم إلا مع الفجر، هلعين، يرون الخطر قريبا جدا، بل منهم من أقسم أنه سمع هدير الدبابات وسط الكروم.
وبّختني جرمان وهي تفتح لي الباب:
- ماذا جرى لك حتى تبقى خارج البيت إلى غاية هذه الساعة المتأخرة؟ كدت أموت من القلق. أين كنت؟... لقد اشتعلت الحرب في البلد، وأنت تجرّ قدميك في الشوارع.
غادر عمّي غرفته. كان جالسا على الأريكة في الصالون، وحار ماذا يفعل بأصابعه.
سألني قائلا:
- هل صحيح أن الألمان دخلوا البلد؟
- ليس الألمان، وإنما الأمريكان...
قطّب حاجبيه:
- لماذا الأمريكان؟ ماذا جاءوا يفعلون عندنا؟
استقام كتلة واحدة، حرّك أنفه في ازدراء عظيم وصاح:
- أنا ذاهب إلى غرفتي. عندما يصلون، قل لهم أنني لا أريد رؤيتهم ويمكنهم إضرام النار في المنزل.
لم يأتِ أحد ليضرم النار في منزلنا، ولم يعكّر أي قصف جوّي سكون حقولنا. مرّة واحدة، رأى الناس دراجتين ناريتين من جهة بوحْجَر، قرية مجاورة، أتلفتا الطريق. دار الدرّجان في الناحية بعض الوقت، ثمّ قفلا راجعين أدراجهما. تحدّث البعض عن عساكر ألمان، وآخرون عن دورية مراقبة أمريكية؛ وبما أن لا أحد من المتحدّثين رأى عن قرب الجيشين العدوين، وضعت علامة على سوء التفاهم وعاد الناس إلى كرومهم.
كان آندري صوزا أوّل من ذهب إلى وهران بعد تلك الأحداث. قال لنا:
- إن هؤلاء الأمريكيين يشترون كل شيء. حرب أم لا، فهم يتصرفون مثل السيّاح. إنهم في كل مكان، بداخل الحانات، والمواخير، والأحياء اليهودية، وحتى في قرية الزنوج، برغم منع قادتهم لمثل هذه المغامرات. كل شيء يهمّهم: الزرابي، الحصائر، الشواشي، البرانيس، الرسومات على القماش، ولا يناقشون الثمن. رأيت أحدهم يخرج حزمة أوراق نقدية كي يشتري بندقية قديمة صدئة يعود تاريخ صنعها إلى الحرب العالمية الأولى من عند أحد جنود الخيّالة.

ولتقديم برهان على صحة أقواله، أخرج ورقة نقدية من جيب سرواله الخلفي وبسطها على الطاولة.
- أنظروا كيف يعامل الأمريكان نقودهم؟ إنها ورقة من مائة دولار. هل رأيتم ورقة نقدية فرنسية معبأة بمثل هذه الخطوط؟ إنها توقيعات. شيء غبي، ولكنه اللعب المفضل عند الأمَرْلوك. يسمونه*Short Snorter* . يمكنك أن تضيف أوراقا أخرى وبعملات مختلفة. منهم من يملك لفائف من هذه الأوراق. ليس للاغتناء. فقط لجمعها... أترون هذين التوقيعين، هنا؟ إنهما من لوغال وهاردي، أقسم لكم أنه صحيح. وهذا، إنه من إيغول فلاين، الزورّو العالمي... أهداه لي جُو مقابل صندوق خمر بلدي.
أخذ ورقته النقدية، أعادها إلى جيبه، ثمّ نفض يديه ووعد أنه سيعود إلى وهران قبل نهاية الأسبوع كي يعقد صفقات تجارية مع المارينز.
عندما خفّ الشك وأدرك الجميع أن الأمريكان لم يأتوا محتلين وإنما منقذين، ذهب أشخاص آخرون إلى وهران للتعرف عن قرب عمّا يحدث هناك. شيئا فشيئا، انطفأت آخر مواقد التأزم، ورفعت فرق الحراسة حول الديار والمزارع.
كان آندري متهيجا للغاية. كل يوم، يقفز داخل سيارته ويتجه نحو عقد صفقات أخرى. بعد كل دورة، يعود إلينا بغنائمه بهدف إبهارنا. كان علينا أن نذهب إلى وهران نحن أيضا، لنتأكّد بأنفسنا من متانة الحكايات التي تسري في القرية حول هؤلاء "اليانكيين". ألحّ جان كريستوف على فابريس، وألحّ فابريس على أمّه لتقودنا إلى وهران. قاومت مدام اسْكاماروني بعض الوقت، ولكنها انتهت إلى الرضوخ.
انطلقنا عند الفجر. طفقت الشمس في الظهور عندما وصلنا إلى ميسَرْغين. صادفنا سيارات عسكرية من نوع "الجيب"، تجوب الطريق بسرعة، وعلى جانبي القارعة، مجموعة من الشاحنات المتوقفة، وداخل الحقول، مجموعات من العساكر تغتسل، الصدور عارية والأناشيد عالية؛ شاحنات أخرى معطّلة، أغطية المحرّك مفتوحة، يحيطها ميكانيكيون متكاسلون؛ مواكب أخرى تنتظر عند أبواب المدينة. لقد تغيّرت وهران. إن الحمى العسكرية التي استولت على أحيائها أصبغتها بأجواء احتفالية. لم يبالغ آندري؛ كان الأمريكيون في كل مكان، في الشوارع كما في الورش، يدحرجون دباباتهم وسط الجمال والقبور، ينشرون وحداتهم بقرب تجمعات البدو السكنية، وقد غصّ الجوّ بالغبار والضجيج. يفسح ضباطهم المنبسطين على سياراتهم 'الجيب" المنزوعة السقف ممرات وسط الحشود بصفارات الكلاكصون. أما الآخرون، فارتدوا ملابس أنيقة، واتخذوا أماكن مريحة في شرفات المقاهي برفقة جميلات وهران، فيما كانت أغاني "دينا شور" تنبعث من فونوغراف. ضبطت وهران وقتها على الساعة

الأمريكية. لم ينزل العم صام قواته العسكرية فقط، بل جاء بثقافته أيضا: علب الجراية المعبأة بمزيج الحليب المركّز، والشوكولا، والـ *corned-beef* والشوينغوم، والكوكا كولا، وسكريات كيندي، والجبن الأحمر، والسجائر الشقراء. تتدرّب الحانات على موسيقى اليانكي. أما "الأولاد"، ماسحو الأحذية الذين تحوّلوا إلى بائعي جرائد، فيركضون من ساحة عمومية إلى موقف الترمواي وهم يصيحون *Stars and Stripes* في لهجة غير مفهومة. وعلى الأرصفة التي تداعبها الرياح، تخفخف أوراق المجلات الأسبوعية مثل *Esquire, New yorker, live*. وقد بدأ هواة الأفلام الهوليودية يتقمصون سلوك أبطالهم المفضلين، بتقليد حركات أجسادهم كمط الشفتين جانبا؛ كما طفق التجار يكذبون بلا شفقة حول الأسعار بالانجليزية...

فجأة، بدت لنا ريو صالادو غير ذي قيمة. استهوت وهران على أرواحنا. يرتعد صخبها في عروقنا، وتعيد لنا جرأتها حيويتنا. كنا منتشين، وقد سحرتنا فعلا حيوية الشوارع بمحلاتها اللامعة وحاناتها الغاصة بالناس. دوّختنا العربات والسيارات والترامواي المتدحرجة في جميع الاتجاهات. أما الفتيات الساحرات المندفعات، الوقحات بلطف ومكر، فكانت ترفرف حولنا شبيهة بالحوريات.

لا مجال للعودة إلى ريو مساء. ستعود مدام اسكاماروني بمفردها إلى القرية. فتحت لنا غرفة فوق إحدى محلاتها، شارع الصيادين، وحرصت أن نعدها بأن لا نرتكب حماقات أثناء غيابها. بمجرّد أن اختفت سيارتها في آخر الشارع، إلا وغزونا المدينة. إلينا ساحة الأسلحة، بمسرحها من نوع ركوكو وبلديتها المزينة بأسدين ضخمين من البرونز الكهنوتي؛ النزهة طوال البحيرة؛ ساحة الباستي؛ ممر كلوزيل حيث يعقد العشاق مواعيدهم؛ الأكشاك الجليدية حيث يُقدّم أبرد عصير الليمون على وجه الأرض؛ قاعات السينما الفاخرة ومحلات دارمون الكبرى... لا ينقص وهران شيء، لا الجمال ولا الجرأة. تتفجر كما الألعاب النارية، تحوّل المزحة إلى صيحة احتفال، والسكرة إلى عرس. سخية وعفوية، ليس بإمكانها إظهار فرح دون التفكير في اقتسامه. تكره وهران الشيء الذي لا يسلّيها. تخدش السحنة الكئيبة فتنتها، يعكّر البخيل أمزجتها؛ لا تحتمل أن تستر غيمة انشراحها. تريد أن تكون لقاءً سعيدا عند كل دورة، وأعراسا متتابعة على ساحاتها، ويزدهر نشيد الحياة أينما وصل صوتها. تجعل من المرح ذهنية، قانونا أساسيا، الشرط الذي بدونه يكون كل شيء في هذه الحياة خسارة. جميلة، أنيقة، واعية بالانبهار الذي تمارسه على الأجانب، فكانت تتحضّر خفية، بلا مساحيق ولا ضوضاء، مقتنعة بأنه لا يمكن لأية زوبعة –ولا حتى للحرب التي بدأت تلوّثها- أن تحدّ من ازدهارها. لقد وُلدت وهران من حاجة للإغواء،

فإنها الأناقة أولا. لو لقبناها بـ "المدينة الأمريكية"، ستليق جميع هلوسات العالم بأمزجتها. واقفة على صخرتها، تنظر إلى البحر، مسترخية بشكل مزيّف، لتذكّر أسيرة جميلة تراقب من أعلى برجها أميرها الفتان. ومع ذلك، لا تؤمن وهران بالعرض كثيرا، ولا بالأمير الفتان. تنظر إلى البحر فقط لتبقيه على مسافة بعيدة. توجد السعادة بداخلها، وتنجح جميع مبادراتها.
لقد سحرَتنا فتنتها.

صاح آندري صوزا:
- اِيـــيـه... يا قروين...
كان جالسا في شرفة محلٍ للعصير، برفقة جندي أمريكي. من خلال حركاته الكبيرة، فهمنا أنه يريد إدهاشنا. كان يرتدي ألبسة أنيقة، وقد مشط شعره إلى الخلف وألصقه على صدغيه تحت طبقة سميكة من اللّمْعين، الحذاء لامع ونظارات شمسية تغطي نصف وجهه.
- تعالوا، اجلسوا... ستذوقون هنا أحسن شوكولا مُملَّت، وألذ حلزون بالمرق الحار.
ثمّ وقف وراح يبحث عن كراسي إضافية. تحرّك الجندي كي يفسح لنا المكان ونظر إلينا ونحن نحيطه بعين مطمئنة. قال آندري مزهوا بتقديم صديقه اليانكي الذي يعرضه أينما ذهب مثل قطعة متحفية:
- صديقي جُّو. قريبنا الأمريكي. جاء من قرية تشبه قريتنا. صالك لايك سيتي، تعني بحيرة مالحة. كما عندنا. صالت ريفر، الوادي المالح.
ورمى برأسه إلى الخلف في ضحكة مثيرة للجدل، مزهوا جدا باكتشافه. سأله جان كريستوف:
- هل يتكلّم الفرنسية؟
- بغير وضوح. يقول جُّو بأنّ جدّته الأولى فرنسية من منطقة الصافْوا العليا، ولكنه لم يستخدم لغتنا أبدا. لقد تعلّم بضعة كلمات وجمل منذ أن وصل إلى شمال إفريقيا. جُّو برتبة عريف. وقد شارك في كل الجبهات.
حرّك جُّو رأسه ليؤكّد على أقوال صديقه، متسليا بحركات الإعجاب التي كنا نرسمها بحواجبنا. قام ليصافحنا الواحد وراء الآخر، فيما كان آندري يقدّمنا إليه باعتبارنا من أعزّ أصدقائه ومن أجمل فتيان صالت ريفر. برغم سنه الثلاثين وآثار المعارك، يحتفظ جُّو بوجه طفلي بشفتين رقيقتين ووجنتين صغيرتين مقارنة مع قامته الطويلة

وبنيته الصلبة. حينما يبتسم بملء شدقيه، وكان يفعل ذلك كلما رفعنا إليه أبصارنا، تكتسي ملامح وجهه هيئة ساذجة بنظرته اللامعة ولكنها دون حدّة حقيقية.
أعلن آندري قائلا:
- جُّو له مشكل.
تساءل فابريس:
- هل هو هارب من الجيش؟
- لا. جُّو ليس جبانا. الحرب ديدنه، غير أنه لم يطأ امرأة منذ ستة أشهر، وأصبحت خصيتاه معبأتين بالحليب بحيث صعب عليه تقديم رجل على الأخرى.
تساءل آندري:
- لماذا؟ أيفتقرون إلى الصابون في الجيش؟
ردّ آندري وهو يربت بلطف على معصم العريف:
- ليس هذا هو المقصود. جُّو بحاجة إلى سرير حقيقي، تحيطه مصابيح بأضوائها الحمراء القانية، وامرأة حقيقية، بلحمها وشحمها، تعرف كيف تهمس له البذاءات المهيّجة في عمق أذنيه.
انفجرنا ضاحكين. وقلّدنا جُّو بتحريك رأسه بإلحاح. شقّت ابتسامته وجهه إلى نصفين. شرّع آندري ذراعيه علامة السخاء الكبير وقال:
- لهذا السبب قرّرت أخذه إلى الماخور.
حذّره جان كريستوف قائلا:
- سيمنعونك من الدخول.
- ومن سيتجرأ على منع آندري جيميناز صوزا من الدخول حيث يريد؟ في الكاميليا، إنهم مستعدون لاستقبالي بالسجاد الأحمر. صاحبة الدار صديقة. لقد أشبعتها هدايا حتى أصبحت تذوب كالزبدة كلما رأتني، وتسرع لتلبي لي جميع الطلبات. سأقود صديقي جُّو هناك، وسنرعى في الجزّات الذهبية إلى حدّ القرف، أليس كذلك، جُّو؟
- *yeh ! yeh !* قال جُّو وهو يدعك قبعته بين يديه الممتلئتين.
تجرأ جان كريستوف قائلا:
- كم أرغب في الذهاب معكم؟ لم يحدث لي أن لمست امرأة فعلا. هل تستطيع مساعدتي على الدخول؟
اندهش سيمون وقال بازدراء:

- أنت مجنون؟ هل ستذهب حقا إلى هذه المَباوِل، مع كل الأمراض الفاضحة التي تحملها العاهرات؟
قال فابريس:
- أنا أتفق مع سيمون. هذه الأماكن ليست لنا. ثمّ إننا وعدنا أمي بأننا سنلتزم بالسلوك القويم.
هزّ جان كريستوف كتفيه. انحنى على آندري وهمس له في أذنيه. رفع آندري منخاريه ومطّ شفتيه بتعالٍ وقال:
- سأدخلك إلى جهنم إنْ كان هذا يُسلّيك.
بدا جان كريستوف منبسطا ومتحمسا، فالتفت نحوي:
- وأنت جوناس، هل ستأتي معنا؟
- لِمَ لا...
كنت أوّل من اندهش من عفويتي.

يقع ماخور وهران مباشرة خلف المسرح، في زقاق ضيق متسخ تقود إليه سلالم تفوح بُولا وتعج بالسكارى... بمجرد أن أشرفت على "وكر الذئاب"، انتابني إحساس بالضجر، وكان عليّ أن أبذل جهدا كبيرا كي لا أعود أدراجي. كان جُّو وآندري في المقدّمة، يستعجلان الوصول. جان كريستوف يقتفي آثارهما؛ كان خجولا متردّدا، ولم تقنع الهيئة المنطلقة التي يحاول التظاهر بها. يلتفت من حين لآخر، ويغمز لي بنظرة جريئة، فأردّ عليه بابتسامة متشنجة. ولكن بمجرد ظهور شخص مريب في طريقنا، نقفز جانبا، مستعدين للهروب. كانت بيوت البغي تتراصف على جناح واحد، الواحدة بجانب الثانية، خلف أبواب بسقائف مدهونة بألوان ساطعة. كان الزقاق غاصا بالزوار. جنود، بحارة، عرب يختلسون المشي خائفين أن يتعرف عليهم قريب أو جار، أطفال حفاة بوجوه متسخة يتسوّلون، أمريكيون، سنغاليون، قوّاد بسُحن عنترية يسهرون على محميتهم، يخفون الخناجر تحت الأحزمة، وعساكر من الأهالي بالشواشي الحمراء؛ حركة حاشدة ومزيّنة بغرابة.
كانت صاحبة الكاميليا امرأة ضخمة بصرخات زلزالية. يسيّر مؤسساتها بقبضة من حديد، صارمة مع زبائنها كما مع فتياتها. حينما وصلنا، وجدناها عند الباب توبّخ زبونا سمجا:
- إنك أسأت الفعل، جيجي... وهذا سلوك غير لائق... أتريد مضاجعة فتياتي مرة أخرى؟ هذا يتوقّف عليك، جيجي... واصل معنا مثل هذا السلوك الفظ، وسوف لن

تضع قدميك هنا مرة أخرى... أنت تعرفني، جيجي. حينما أشطب شخصا من قائمة زبائني، أستطيع ردم التراب فوقه دون شفقة. أفهمت، جيجي أم أنك بحاجة إلى رسم؟

ردّ الزبون محتجا:

- أنتِ لا تتصدّقين عليّ. إنني هنا بنقودي، وما على عاهرتك إلا الانصياع لرغباتي.

- نقودك، جيجي، امسَح بها طيزك. نحن في ماخور ولسنا في مركز تعذيب. إذا لم تعجبك الخدمة، ابحث عن غيرنا. إذا عدت إلى ما فعلته اليوم، سأقلع قلبك بيديّ العاريتين.

يكاد جيجي يكون قزما. وقف على أطراف أصابع قدميه كي يواجه المرأة العملاقة، نفخ خديه، تماسك؛ يرتعد وجهه المحمر من الغضب. سقط على عقبيه، ساخطا على المرأة التي وبّخته جهرا وأمام الملأ، فدفعنا وابتعد يندس وسط الحشد المتجول عبر الزقاق.

صرخ جندي:

- يستحق أكثر من هذا. إذا لم تعجبه الخدمة، فليبحث عن مكان آخر.

قالت المرأة:

- الكلام يسري عليك أنت أيضا، يا رقيب. لست أطهر منه، وأنت تعرف هذا جيدا.

أدخل الرقيب رقبته بين كتفيه فبدا صغيرا جدا أمام المرأة العملاقة.

كانت صاحبة الماخور في مزاج سيء للغاية، ففهم آندري أن المفاوضات لن تكون في صالحه. تمكن من إدخال جان كريستوف معتمدا على قامته الطويلة، ولكنه لم يستطع شيئا بالنسبة لي. قالت بنبرة صارمة:

- ليس إلا طفلا، دادي. لا يزال حليب أمه في أسنانه. أغمض عينيّ بالنسبة للأشقر، أما هذا الطفل بعينيه الزرقاوين، فلا. سيُغتصب في الرواق قبل أن يَصل إلى أقرب غرفة.

لم يلح آندري. لم تكن المرأة من النوع الذي يتراجع عن قراراته. قبلت أن أنتظر أصدقائي خلف المصرف، فأمرتني بأن لا ألمس شيئا وأن لا أكلم أحدا... تنفّست الصعداء. الآن وقد اكتشفت الماخور، لم أرغب في الذهاب أبعد مما أنا فيه. أحسست بغثيان يحرّك أحشائي.

بداخل القاعة الكبرى المضبّبة بدخان السجائر، وقف زبائن يترصدون فرائسهم، مكوّمين كأفظاظ. كان بعضهم سكرانا ولم يتوقف عن الغمغمة والترنّح. عرضت العاهرات أجسادها على مقعد مبطّن، في عمق الرواق المؤدي إلى الغرف. يواجهن

الزبائن، ترتدي بعضهن ثيابا خفيفة، فيما تلف البعض الثاني نفسها في شالات شفافة. هن أشبه بلوحة أوجين دولاكروا العصابي، الممثلة للسيدات المخلوعات. هناك البدينات اللائي يتدفقن شحما، النهود مشدودة في رافعات العنق أوسع من فراش النوم؛ هناك نحيفات كما لو أنهن أخرجن توا من ملجأ العجائز، عيونهن داكنات؛ هناك سمراوات بأشعر اصطناعية شقراء مبتذلة؛ هناك شقراوات مزينات كما المهرجين، يتركن عمدا طرفا من نهد مكشوفا؛ تدخّن جميعهن في صمت وترمقن القطيع المعروض قبالتهن وهم يحكّون ما بين الفخذين، بنفاد صبر.

كنت جالسا خلف المصرف، أتأمل هذا العالم الغريب، نادما على المغامرة التي قادتني إليه. إنه أشبه بوكر اللصوص. تنبعث منه روائح النبيذ المزغول وعرق الأجساد الهائجة. يخيّم على المكان ضغط مبهم كما العفونة المشئومة. تكفي شرارة، كلمة في غير محلها، ربما نظرة بسيطة كي تفجِّر البناية... ومع ذلك، كان الديكور، رغم أنه اصطناعي وذو إلهام ساذج، مسليا بستائره المخملية الخفيفة، الشفافة تقريبا، والمرايا المذهبية، واللوحات الرخيصة التي تصوّر حوريات بلباس حواء، والموتيفات المزيّنة المنسجمة مع الجدران المغطاة بالموزاييك، والمقاعد الصغيرة الشاغرة في الزوايا. ولكن الزبائن لم يكونوا يشترطون الكثير من هذه الناحية. لا عيون لهم إلا للفتيات العاريات المتناثرات عبر الرواق على المقاعد المبطنة، يستعجلون الاقتحام وركوب الحجور الفاتنة، الرقاب مخططة بالعروق المرتعشة.

بدأت أستثقل انتظاري. ذهب جان كريستوف مع امرأة مدّعية، وجُّو مع فتاتين راشحتين بالمساحيق، واختفى آندري.

منحت لي صاحبة الدار صحنا من اللوز المقلي ووعدتني بأجمل فتياتها لاحتفال بسنة رشدي.

- بلا حقد، صغيري؟

- بلا حقد، سيّدتي.

- إنك تثير عطفي... ثمّ، توقف عن إمطاري بـــ"سيّدتي"، هذا يلوي أعصابي.

هدأت سيّدة هذا الفضاء، واقتربت من مصالحتي. خشيت أن تتراجع عن موقفها، فتقدّم لي امتيازا، وتأذن لي بالاختيار وسط هذا الكوم من اللحم المعروض على المقعد.

- أمتأكّد أنت بأنك لا تريد؟

- نعم، لا أريد...

صرخت وأنا مرعوب بفكرة أن تتغاضى عن صغر سني وتعيّن لي فتاة. ثمّ أضفت كي أبعد عنها الفكرة تماما:

- بصريح العبارة، لم أكن أريد المجيء. لست مستعدا.
- معك الحق، صغيري. لسنا مستعدين أبدا عندما يتعلق الأمر بمواجهة امرأة... إذا عطشت، فالليمونادة خلفك. هدية من عندي.
تركتني لمصيري وذهبت عبر الرواق تتفقّد إن كانت الأمور تسير على أحسن حال.
في تلك اللحظة رأيتها. حرّرت زبونا والتحقت بزميلاتها على المقعد. أحدث رجوعها اضطرابا في قاعة الانتظار. ذكّر جندي عملاق للآخرين أنه كان هنا قبل الجميع، مفجرا بذلك موجة من التذمّر. لم أهتم بالهيجان الذي بدأ يستولي على الزبائن. فجأة، انطفأ الضجيج، وتبخّر الجميع في القاعة الكبيرة. لم أعد أرى إلا إياها. كما لو أنّ شعاعا ضوئيا انبثق من مكان ما وسلّط نوره عليها، مهملا الباقي. تعرّفت عليها مباشرة، برغم هذا المكان الذي كنت على بعد أميال من تصوّرها بداخله. لم يظهر تجعّد واحد على جسدها، جسد مراهقة ملفوف بشال مثلّم، شعر فحمي يتدلى على صدرها والوجنتان الرائعتان على خدّيها: حدّة... حدَّة الجميلة؛ حبي السري السابق، هلوسة طفولتي الأولى... كيف رست في هذه القذارة القبيحة، هي التي كانت عند خروجها إلى الحَوْش تضيئه كالشمس؟
صُعقت، ذُهلت، تجمّدت من لا تصديقية ما أرى...
لفظني هذا الظهور غير المتوقع سنوات إلى الخلف، فسقطت في الفناء الداخلي لمسكننا في جنان جاتو، وسط الجارات المقهقهات بملء أفواههن وسط ضجيج ذريتهن الصاخب... حدّة لم تكن تضحك في تلك الصبيحة... كانت حزينة... رأيتها وهي تمدّ يدها فجأة فوق المائدة، راحته باتجاه السماء... "قلي لي يا جارتي العزيزة ماذا ترين... أريد أن أعرف. لم تعد لي طاقة على الصبر..." وباتول العرّافة: "أرى كثيرا من الرجال حولك، يا حدّة. ولكن فرحا قليلا... يشيه حلما ولكنه ليس بحلم..."
كانت باتول على صواب. يوجد عدد كبير من الرجال حول حدّة الجميلة وقليلا من الفرح. يشبه فناءها الجديد حلما، بشذَراته الرخيصة وأضوائه الخافتة، وديكوراته الشبحية، وسكراته، ولكنه ليس بحلم... تفاجأت بنفسي واقفا خلف المصرف، ذراعايّ متدليتان، فاتحا فمي من الذهول، عاجزا عن التلفظ بتلك اللفظة المرعبة التي تجتاحني مثل غيمة والتي تريد إخراجي من كياني.
في القاعة الكبيرة، أمسك شخص عملاق بجمجمة حليقة رجلين من الرقبة وسحقهما ضد الجدار، مهدّئا هكذا النفوس. أدار بصره المخيف على الحاضرين وهو يحرّك منخريه. حينما أدرك أنّ لا أحد يعارض غطرسة لعبه، أرخى قبضته على الرجلين

ومشى بشموخ باتجاه حدّة. أخذها من المرفق بفظاظة ودفعها قدّامه. كان الصمت الذي رافقهما طوال الرواق سيُقطّع بالخنجر.
أسرعت بالخروج إلى الزقاق، أسترجع أنفاسي بهواء أقل تلوّثا.

وجدني آندري وجان كريستوف وجُّو منهارا على الدرج. ظنوا أن السبب يعود إلى رفض صاحبة الماخور ولم يروا ضرورة لإبداء أي رأي. كان جان كريستوف يتلألأ من الخجل. من خلال هيأته، يبدو أن الأمر لم يمر بأحسن حال. أما آندري، فلا عيون له إلا لصديقه اليانكي، وبدا مستعدا لأن يلبي له جميع طلباته. اقترح علينا، جان كريستوف وأنا، أن نذهب للبحث عن فابريس وسيمون، ثم نلحق به في "الماجيستِك"، أحد أفخر الحانات في المدينة الأوربية.
أنهينا السهرة، نحن الستة، في مطعم رائع، على حساب آندري، البالغ السخاء. كان جُّو صعب المراس في شربه. بعد الأكل، أخرج لنا حماقاته. بدأ بإزعاج صحفي أمريكي كان يدبج مقالته الإخبارية هادئا في عمق القاعة. ذهب جُّو إليه وبدأ يحكي له بالتفصيل بطولته الحربية حيث خاطر بحياته مرارا. انتظر الصحفي، رجل متخلق، بلطف أن يستأنف عمله، منزعجا جدا ولكن خجله منعه من الجهر به. تنفس الصعداء عندما قام آندري لوضع حدّ لغطرسة صديقه. عاد جُّو إلينا، مهيجا وممتلئا مثل لجّة؛ بين الفينة والأخرى، يلتفت نحو الصحفي ويصرخ له من فوق الطاولات والرؤوس:
"جون، حاول أن تتحصّل لي على السبق الصحفي، أريد قصتي على الصفحة الأولى. وإذا أردت صورتي، سأعطيها لك، دون أي مشكل. أيــه، ماذا قلت يا جون؟ أعتمد عليك، أليس كذلك؟" أدرك الصحفي أنه لا يمكن إنهاء عمله بمثل هذا الشخص المتطفل؛ فلمّ أوراقه، ترك ورقة نقدية على الطاولة وغادر المطعم.
قال جون، الإبهام فوق الكتف:
- أتعرفون من هو؟ إنه جون شتاينبَك، الروائي. يقوم بتحقيق حرب لجريدة *Herard Tribune*. لقد نشر مقالا حول فيلقي.
بعد ذهاب الصحفي، بحث جُّو عن أشخاص آخرين للأذى. انقضّ على المصرف واشترط قطعة من غلين ميلر؛ ثمّ وقف في وضعية الاستعداد على الكرسي وغنى *Home on the rangers* ، وبعد ذلك أجبر نادلا أن يكرر خلفه أغنية *You'd Be So NiceTo Come HomeTo*، تحت تشجيع جنود أمريكيين كانوا يتناولون عشاءهم في الشرفة. شيئا فشيئا، تحوّلت الضحكات إلى ابتسامات، والابتسامات إلى تكشيرات، فطلب الناس المنزعجين من آندري أن يأخذ صديقه اليانكي إلى مكان آخر. لم يعد جُّو ذلك

الشخص المنشرح الذي عرفناه أثناء النهار. تعتعه السكر، احمرّت عيناه وامتلأت زوايا فمه بالزبد، فذهبت به الوقاحة بعيدا وصعد فوق الطاولة ليقوم باستعراض رقصة أقدام. طارت جزمته ووقعت على محتوى طاولة من صحون وكؤوس وقارورات، فتكسّرت وسط هلع مدوٍ للزبائن. جاء مسيّر الحانة إليه وطلب منه بأدب أن يكفّ عن تهريجه. لم يستسغ جُّو هذا التحذير فضرب المسيّر بقبضة قوية أرداه أرضا. أسرع نادلان لنجدة رئيسهما. فردّهما جُّو بضربات هائجة. طوّق آندري مَحميّه بالذراعين وتوسّله بأن يهدأ. لم يكن جّو باستطاعته أن يسمع أيّ شيء. كانت قبضاته تسري في جميع الاتجاهات. تدخّل بعض الزبائن في العراك، ثم جاء دور جنود الشرفة، فارتفعت الكراسي في السماء في اختلاط عصي الوصف.
وجب التدخل القوي للشرطة العسكرية كي تضع حدا لتهوّر جّو.
لم يسترجع المطعم نوعا من الهدوء إلا بعد أن اختفت سيارة الشرطة العسكرية في الليل وجّو مقيّد اليدين ومسمر إلى أرضيتها.
بعد العودة إلى غرفتنا بشارع الصيادين، لم يكن بمقدوري أن أنام. طوال الليل وأنا مضطرب البال تحت الغطاء، ورأسي يعجّ بصورة حدّة العاهرة. يرن صوت باتول الشبحي في صدغيّ، متكرّرا، قاضما أفكاري، مؤججا ضجري، مخرجا الصمت المدفون في عمق أعماق ذاتي. بدا لي أنني أحضر ميلاد شؤم سيء، وأنني سأصادفه عن قريب ليسُوطني بعنف. حاولت أن أختفي تحت الوسادة، أن أخنق نفسي بها، ولكن صورة حدّة العارية في عمق الرواق وهي تدور على نفسها، تذكّرني براقصة بالي للبيانو الميكانيكي، فيما كان صوت العرافة يصفّر عليها كما الريح المشئومة.
في الغد، طلبت من فابريس أن يمنحني سلفة نقود وذهبت بمفردي إلى جنان جاتو، أي الوجه النقيض للمدينة، حيث لا وجود لأي بذلة أمريكية، المكان الذي تتعفن فيه الأدعية والتنهدات. كنت أريد رؤية أمي وأختي، أن ألمسهما بيديّ، آملا في إبعاد الأفكار السوداء التي أبقتني ساهرا إلى غاية الصبح والتي لا تزال تضطهدني... لم يخني حدسي. لقد وقعت أشياء غريبة في جنان جاتو منذ زيارتي الأخيرة. كان الحَوْش فارغا. كما لو أنّ زوبعة جرّدته من ساكنيه. وضع سياج شوكي مكان الباب لمنع الدخول، ولكن أيادي متهورة نجحت في رسم ثقب انزلقت عبره إلى داخل المسكن القديم. كان الفناء يعجّ بالأنقاض المحروقة وزبل الحيوانات. وهناك في زاوية، بقي البئر بغطائه المعوج. اختفت أبواب ونوافذ الغرف. لقد حطّمت النيران الجناح الأيسر من الفناء بكامله. انهارت الجدران وتشبثّت بقايا الروافد الخشبية المحترقة بالسقف

المفتوح على سماء بزرقة شاحبة. لم تكن غرفتنا إلا خرابا تتناثر وسطها هنا وهناك آواني مطبخية بالية وصرر نصف محروقة. اصطفق صوت خلفي:
- لا يوجد أحد هنا.
إنه ساق الحطب. يتمايل خلفي، ملفوفا في غَنْدورَة قصيرة جدا، ويده متكئة على حائط. كان فمه الأدرد داخل وجهه المنهك، يحفر ثقبا ذميما، حاولت أن تخفيه لحية بيضاء، بلا جدوى. ذراعه يرتعد، وكان يجد صعوبة ليقف مستقيما على ساقه البيضاء المخرّقة بلطخات نحاسية اللون. سألته:
- ماذا حدث؟
- أشياء مرعبة...
تقدّم نحوي وهو يعرج، أخذ في طريقه دلوا، قلّبه لينظر إن لم يحوِ بداخله شيئا للاسترجاع، قبل أن يلفظه بحركة يأس. رسم ذراعه قوسا:
- أنظر إلى هذا الخراب... أليس مثيرا للحزن؟
وبما أنني بقيت بلا صوت، مترقبا شرح سبب هذه الكارثة، واصل قائلا:
- لقد حذّرت بْليس. قلت له أن هذا حَوْش محترم. لا تُسكِن هذه العاهرة مع هذه العائلات المحترمة. سينفجر الوضع. لم يرد بْليس أن يسمعني. ذات ليلة، جاء سكيران عند العاهرة، فكانت منشغلة مع زبون آخر، فعرّجا على غرفة بَدرة. لا أحكي لك ماذا وقَع. مَجزرة حقيقية. لم يفهم السكيران شيئا لشقائهما. لقد بقر ابنا بَدرة جسديهما بالخنجر. ثمّ جاء دور العاهرة. لقد دافعت عن نفسها أحسن مما فعله زبائنها، غير أنها لم تتمكن من فعل شيء. أسقط أحد قنديلها الزيتي على أمتعتها فاندلعت النيران أسرع من البرق. من حسن الحظ أن الحريق لم ينتشر إلى البيوت الأخرى، لكانت كارثة حقيقية. أوقفت الشرطة بَدرة وابنيها وأغلقت الحوش بصفة نهائية. إنه مغلق منذ سنتين. يعتقد البعض أنه مسكون بالعفاريت.
- وأمي؟
- لا أعرف. الشيء الأكيد أنها نجت من الحريق. رأيتها صباح الغد برفقة أختك الصغرى في طرف الزقاق. ولم تصيبا بجروح.
- وبْليس؟
- تبخّر.
- وبقية السكان؟ يمكن لأحدهما أن يرشدني.
- أجهل أين ذهبا. أنا آسف.

رجعت إلى شارع الصيادين، وقلبي يتمزّق. أزعجني أصدقائي بأسئلتهم. ضجرت، فخرجت ثانية إلى المدينة ومشيت، مشيت دون وجهة معينة. ألف مرّة، توقفت وسط القارعة لأشدّ رأسي بيديّ، ألف مرّة، حاولت التحكم في أعصابي بالقول أن أمي وأختي بخير وفي مكان آمن وربما أحسن من السابق. لم تخطئ باتول العرافة. كانت تملك سلطة غيبية رهيبة. ألم تقرأ مصير حدّة؟... إنّ أبي سيعود –هذا مكتوب في تموّجات الماء، وليس لأمي أن تنغّص أيامها بالشكوك. كنت أفكّر في هذه الأشياء حينما خُيّل إليّ أنني رأيته...

أبي...

أكيد أنه هو. كنت سأتعرّف عليه وسط مائة ألف شبح يزحفون في الليل، وسط مائة ألف شقي يجرون نحو حتفهم... أبي. لقد عاد... كان يعبر ساحة قرية الزنوج، وسط الحشد، يرزح تحت معطف ثقيل رغم القيظ. يمشي قدّامه مستقيما، يجرّ قدميه. ركضت خلفه، وسط أدغال من الأذرع والسيقان. لا أتقدّم خطوة حتى أُدفع إلى الوراء بخطوتين، مجهدا نفسي لأفسح ممرا لي، وعينايّ مثبتتان على شبحه الذي كان يبتعد بلا هوادة، منحنٍ تحت معطفه الأخضر. لم أكن أريد أن يغيب عن بصري، خوفا من عدم العثور على أثره ثانية... حينما تمكنت من التخلص من الحشد المزدحم والوصول إلى الطرف الآخر من المنبسط، كان أبي قد تبخّر.

بحثت عنه في المطابخ الشعبية، والمقاهي والحمامات العربية... بلا جدوى.

لم أر أمي وأختى مرة أخرى أبدا. أجهل مصيريهما، وإن كانتا على قيد الحياة أم أنهما تحوّلتا إلى رميم وسط الرميم. ولكنني رأيت أبي مرارا. تقريبا كل عشر سنوات. تارة وسط سوق أو بداخل ورشة؛ تارة بمفرده، في زاوية زقاق أو على عتبة مستودع مهمل... أبدا لم أتمكن من الاقتراب منه... ذات مرّة، اقتفيت أثره إلى غاية درب، متأكدا أنني سأحاصره هناك، وكم كانت دهشتي حينما وجدت المكان فارغا... انتهى بي المطاف إلى الاقتناع بأن أبي لم يكن من لحم ودم، ذلك أنه كان يرتدي دائما نفس المعطف الأخضر، المتملص من التمزّق وتقلبات المواسم...

إلى غاية هذا اليوم، وفي آخر أيام عمري، يحدث لي أن أراه من بعيد، مُقوّس الظهر تحت معطفه الأخضر الأبدي، يعرج ببطء نحو محوه الخاص.

.10

كان البحر مسطّحا إلى حدّ يمكننا المشي فوقه. لا وجود لأية مُوَيْجة تبقبق على الرمل، ولا ارتعاش يُخدِّد سطح الماء. كنا وسط الأسبوع، والشاطئ ملك لجماعتنا. يغفو فابريس إلى جانبي، ممددا على الظهر، رواية مفتوحة على وجهه. أما جان كريستوف فكان يستعرض عضلاته على طرف الماء، نرجسي إلى حدّ الغرق في كأس. نصّب آندري وابن عمّه جوزي خيمتهما وعتاد شوائهما على بعد مائة مترا من مكاننا؛ ينتظران بتعقّل زميلات لورمال. تتشمس عائلات قليلة في تكاسل، متناثرة بين طرفي الخليج الصغير. نخال أنفسنا في جزيرة تائهة لولا تهريج سيمون.

تسقط أشعة الشمس مستقيمة، أشبه بتدفق الرصاص. في السماء المطهّرة، تحلق النوارس، منتشية من سعة الفضاء والحرية. بين الفينة والأخرى، تنقض على الموج، يطارد بعضها بعضا على مقربة من سطح البحر، ثمّ تصعد كالسهم لتذوب في الشبكة الزرقاء. بعيدا، تلتحق سفينة صيد الميناء، مع سرب طيور في مَخرها؛ الصيد وافر.

كان يوما جميلا.

تتأمل سيّدة وحيدة الأفق الأزرق، وهي جالسة تحت واقية شمس. تحمل على رأسها قبّعة واسعة، مزيّنة بشرائط حمراء وعلى عينيها نظارات شمسية. يلتصق تبان السباحة الأبيض اللون على جسدها المُسفَّع بالشمس مثل بَشرة ثانية...

كانت الأمور ستتوقف عند هذا الحدّ لو لم تكن هبة الريح تلك.

لو قيل لي أن هبة ريح بسيطة يمكنها أن تغيّر مجرى حياة، ربّما لاتّخذت احتياطاتي مسبقا. ولكن في السابعة عشر من العمر، نعتقد أننا سنسقط واقفين على قدمينا مهما كان عنف السقوط...

في منتصف النهار، هبّت ريح مفاجئة، واستغلت النسمة الفرصة وانقضّت على الشاطئ. أحدثت بعض الزوابع الرملية، وقلعت في ركضها المظلة الواقية من الشمس للسيّدة التي لم تجد الوقت الكافي لتضع يدها على قبّعتها كي يقيها من التحليق. تدحرجت المظلة على الرمل، في دورات عديدة. حاول جان كريستوف أن

يمسكها، ولكنه فشل. لو نجح، لتواصل مسار حياتي عاديا. ولكن القدر قرّر غير ذلك: رسَت المظلة عند قدميّ ومددت يدي لالتقاطها.
ثمّنت السيّدة فعلي. نظرت إليّ وأنا أتوجّه نحوها، أتأبّط المظلة، فوقفت لاستقبالي. قالت:
- شكرا.
- لا شكر على واجب، سيّدتي.
انحنيت عند قدميها، وَسَّعْت الثقب الذي كان يشد المظلة قبل تحليقها، عمّقته بيدي القويتين، غرست المقبض وردمت الرمل حوله ورفسته جيدا بقدمي بحيث يصمد لهبة ريح أخرى. قالت:
- أنت لطيف جدا، سيّد جوناس... عفوا، سمعت أصدقاءك ينادونك هكذا.
سحبت نظاراتها؛ كانت عيناها إشراقا.
- أنت من قرية "ترغا"؟
- من ريو صالادو، سيّدتي.
أربكتني حدّة عينيها. كنت أرى أصدقائي يضحكون على ذقني وهم يراقبونني. أكيد أنهم يسخَرون مني. أسرعت بمغادرة السيّدة والتحقت بهم.
بادرني جان كريستوف مازحا:
- أنت أحمر كما الطماطم.
- من فضلك...
خرج سيمون من الماء، وبدأ يمسح جسده بخفة بمنشفة كبيرة، وتكشيرة خبث على شفتيه. تركني أرتمي على مقعدي ثم سألني:
- ماذا تريد منك السيّدة كازيناف؟
- أتعرفها؟
- وكيف لا؟ كان زوجها مديرا لسجن في غويان. يبدو أنه اختفى في الأدغال خلال مطاردة سجناء فارين. وبما أنه لم يظهر عنه خبر، عادت إلى مسقط رأسها. إنها صديقة عمّتي. وتظن عمتي أن السيد المدير يكون قد استسلم لمفاتن أمازونية جميلة وفرّ معها دون استئذان.
- لا أريد أن تكون عمتك صديقة لي.
انفجر سيمون بالضحك. رمى المنشفة على وجهي، وضرب على صدره بقبضتيه على طريقة الغوريلا وركض من جديد باتجاه البحر وهو يطلق صرخة حرب مرعبة. تنهّد فابريس وهو ينتصب قليلا على مرفقيه كي يراه ينفذ غطسا تهريجيا:

- إنه لجنون حقا.

وصلت زميلات آندري حوالي الساعة الثانية زوالا. أصغرهن تكبر أبكر القريبين بأربع أو خمس سنوات. بعد القبلات على الخدود، جلسن على كراسي الكتّان التي كانت بانتظارهن. انشغل الخادم جلول حول عتاد الشواء؛ أشعل النار وبدأ يحرك مروحة واسعة فوق الجمر، فيما ارتفع دخّان أبيض وانتشر على الكثبان المجاورة. أخرج جوزي صندوقا صغيرا وسط كوم من الأكياس الموضوعة عند قدم العمود المركزي الذي يشدّ الخيمة، تناول حبات مقانق وراح ينشرها على أسلاك الشواء. لم تتأخر رائحة الشحم المحترقة من تعطير الشاطئ.

أجهل لماذا وقفْت واتجهْت نحو خيمة آندري. ربما كنت أريد فقط جذب انتباه السيدة، ورؤية عينيها الرائعتين ثانية. كما لو أنها كانت تقرأ في أفكاري. عندما وصلت على مستواها، نزعت نظاراتها، فبدا لي فجأة أنني أمشي داخل الأوْعاس.

رأيتها مرة أخرى بعد أيام قليلة في شارع ريو الرئيسي. خرجَت من محل، وقبعتها البيضاء كتاج على وجهها الجميل. يلتفت الناس إلى الخلف عند مرورها؛ وهي لا تكترث بوجودهم. أنيقة في هيأتها وملبسها، لم تكن تمشي؛ كانت تنغِّم إيقاع الزمان.

كنت مسحورا.

ذكّرتني بتلك البطلات السريات اللائي يملأن قاعات السينما بهيبتهن، لهن من المصداقية ما يجعل واقعنا يبدو تافها في أعيننا.

كنت جالسا مع سيمون بن يامين في شرفة مقهى الساحة. مرّت بقربنا دون أن ترانا، تاركة عطرها الفوّاح كعزاء لنا. همس لي سيمون:

- خفف عن نفسك قليلا.
- ماذا تقول؟
- توجد مرآة داخل الحانة. اذهب والقِ نظرة على وجهك الأحمر مثل الشمَنْدر. ألا تكون متيّما بهذه الأمّ المحترمة؟
- ما هذه الحكايات؟
- ما أراه، أنك على قاب قوسين أو أدنى من الانفجار.

يبالغ سيمون. هذا ليس حبا؛ أحس بإعجاب كبير اتجاه السيّدة كازيناف. إن أفكاري اتجاهها لا تشوبها شائبة.

في نهاية الأسبوع، جاءت إلى صيدليتنا. كنت خلف المصرف، منشغلا بمساعدة جرمان للتخلص من الطلبات الكثيرة التي تلقتها منذ أن اندلع وباء معدي في القرية. كدت أسقط أرضا عندما رفعت رأسي ووجدتها قدّامي.
انتظرت أن تنزع نظاراتها الشمسية؛ أبقتها على أنفها الجميل، ولم أعرف إن كانت تتأملني خلف الزجاج السميك أو أنها تجاهلتني.
قدّمت وصفة لجرمان، في حركة ممشوقة كما تقدّم اليد للتقبيل.
قالت جرمان بعد أن فكّت خطّ الطبيب على الوصفة:
- يتطلب تحضير دوائك قليلا من الوقت. في هذه اللحظات، أنا مشغولة جدا.
ثمّ أشارت بيديها إلى العلب المتراكمة على المصرف.
- ومتى سيكون جاحزا؟
- بقليل من الحظ، في الظهيرة. على كل حال، ليس قبل الثالثة.
- لا عليه. غير أنني لا أستطيع أن أعود لأخذه. كنت غائبة عن البيت لمدّة طويلة ومنزلي بحاجة إلى تنظيف حقيقي. هل يمكنك تكليف حامل ليأتيني بالدواء إلى منزلي؟ سأدفع عمولة للحامل.
- لا يتعلّق الأمر بالنقود، سيدتي...
- كازيناف...
- متشرفة بمعرفتك... أتسكنين بعيدا؟
- خلف المقبرة اليهودية، المنزل المنزوي على درب المزار.
- أعرف المكان، سيّدتي... لا يوجد أي مشكل. ستستلمين دواءك هذه الظهيرة، بين الثالثة والرابعة.
- وقت يلائمني جيدا.
انسحبت بعد حركة خفيفة من الرأس باتجاهي.
ضاق عني المكان وأنا أراقب جرمان منشغلة وراء الباب الخفي المنفتح على المحل الخلفي الذي تستعمله مخبرا لها. رفضت عقارب الساعة الحائطية التقدّم؛ خشيت أن يسقط الليل قبل ساعة الخلاص. وحانت ساعة الخلاص أخيرا، أشبه بنفحة هواء بعد غطس طويل. عند الثالثة بالضبط، خرجت جرمان من مخبرها، وبيدها علبة ملفوفة بورق التغليف. لم تجد الوقت الكافي لتسلّم لي الدواء وتصف لي كيفية استعماله؛ نزعته لها من يديها وامتطيت دراجتي.

تشبثت بالمقود، قميصي تنفخه الريح، وأنا أركض بسرعة جنونية. كنت أطير. استدرت المقبرة اليهودية، قطعت عبر بستان وسلكت الدرب المؤدي إلى المزار، وأنا أتزَعرَج بين الحفرات.

يقع منزل كازيناف فوق مرتفع، على بعد ثلاثمائة مترا من القرية. منزل كبير ومصبوغ بالأبيض، يشرف على السهل الممتد جنوبا. على اليسار، كان الإسطبل فارغا، ومخربا قليلا، ولكن المنزل حافظ على أناقته كاملة. درب صغير يؤدي إليه، تحيطه أشجار الدوم. ينتصب السياج الحديدي المطرّق على جدار صغير من الحجر مقطع بعناية، يحاول كرْم مُعتَرش أن يلفه. على الواجهة المقوّسة فوق عمودين مبلطين، يمكننا أن نقرأ حرف C منقوشا على الصخرة، وتحته تاريخ 1912، سنة إنهاء أشغال البناء.

ترجّلت، تركت الدراجة عند مدخل الدار ودفعت السياج الذي صرّ بقوة. لا يوجد أحد في الفناء الصغير المزيّن بفوارة ماء. لقد ذبلت الحدائق المحيطة. ناديت:

- مدام كازيناف...

كانت النوافذ مغلقة؛ وكذلك الباب المؤدي إلى داخل المسكن. انتظرت بقرب الفوارة، تحت ظل سقيفة عريش، الدواء في اليد. لا حياة لمن تنادي. لا أسمع إلا حفيف الريح في عمق الكرم المتعرش.

بعد انتظار طويل لم أرَ مخرجه، اتّخَذت قرار الطرق على الباب. رنّ صدى طرقات قبضاتي داخل المنزل وإلى غاية عمق دهاليزه. الأكيد أن المنزل فارغ، إلا أنني رفضت قبول ذلك.

رجعت إلى مكاني على حافة الفوارة، أترقّب صريرا على الحصى، متلهفا لرؤيتها وهي تنبثق من العدم. في اللحظة التي بدأت أفقد الأمل، سمعت صوت "مساء الخير" في ظهري.

كانت ورائي، ترتدي فستانا أبيض اللون، وقبعتها المزّينة بالشرائط الحمراء مائلة برفق على رقبتها.

- كنت هناك في البستان. أحب المشي وسط صمت الأشجار... هل أنت هنا منذ مدّة طويلة؟

قلت كاذبا:

- لا، لا... وصلت التوّ.
- لم أرك في الدرب وأنت صاعد.
- ها هو دواؤك، سيّدتي.

ومددت لها العلبة. تردّدت قبل أن تأخذه، كما لو أنّها نسيت زيارتها لصيدليتنا، ثمّ، وبأناقة، أخرجت القنينة من غلافها، فتحت السدادة وشمّت المحتوى الذي يشبه مرهم التجميل.

- رائحته طيبة. أتمنى فقط أن يهدئ آلام مفاصلي. وجدت المنزل في فوضى عارمة بحيث أقضي معظم أوقاتي لأعيد له رونقه السابق.
- إذا كانت هناك أشياء للنقل أو للتصليح، أنا في الخدمة، سيّدتي.
- أنت لطيف جدا، سيّد جوناس.

أشارت إلى كرسي من السَوْخر قرب طاولة في الشرفة، انتظرت أن أتخذ مكاني، ثمّ احتلت المقعد الذي يقابلني. قالت مقترحة قارورة مليئة بعصير الليمون:

- أظن أنك تحس بالعطش، مع هذا القيظ.

سقَت لي كأسا كبيرة ودفعتها بلطف نحوي. أحدثت لها حركة ذراعها تكشيرة ألم؛ فعضّت شفتيها بمتعة.

- هل تشعرين بالوجع، سيّدتي؟
- أكون قد رفعت حملا ثقيلا جدا.

ثمّ نزعت نظاراتها.

أحسست بأحشائي تتميّع. سألتني وهي تغرق بصرها المهيمن إلى عمق أعماق كياني:

- كم عمرك، السيّد جوناس؟
- سبعة عشر سنة، سيّدتي.
- أظن أن قلبك قد هام بفتاة ما؟
- لا، سيّدتي.
- كيف هذا "لا سيّدتي"؟ وجه جميل وعينان بهذا الصفاء. أرفض الاعتقاد أنه لا يوجد حريم كامل متيّم بك في هذه الساعة بالذات.

أسكرني عطرها.

من جديد، عضت شفتيها ووضعت يدها على رقبتها.

- هل يوجعك كثيرا، سيّدتي؟
- ألم لا يحتمل.

تناولت يدها يدي.

- لك أصابع أمير.

خجلت من أن تدرك الاضطراب الذي بدأ ينتابني.

- ماذا تنوي أن تفعل في المستقبل السيّد جوناس؟
- صيدلي، سيّدتي.
تأملت اختياري قبل أن توافق:
- إنها مهنة نبيلة.
للمرة الثالثة، عاودها الألم، فتأوهّت.
- ينبغي أن أجرِّب المرهم حالا.
وقفت. بكثير من عزّة نفس.
- إذا أردت سيّدتي، أستطيع... أستطيع مسد كتفيك.
- هذا ما أنتظره منك السيّد جوناس.
لا أعرف لماذا فجأة، أوقف شيء ما هيبة الأماكن. ولكن لم يدم ذلك إلا طرفة عين. فعاد كل شيء إلى مكانه عندما حطّت عينيها ثانية عليّ.
بقينا واقفين على طرفي الطاولة. خفق قلبي بقوة، وتساءلت إن لم تكن تسمعه. نزعت قبعتها، فتدفق شعرها على كتفيها، وكادت تشلني.
- هيا معي يا فتى.
دفعت باب المنزل ودعتني لمتابعتها إلى الداخل. تغطي ظليلة خفيفة الرواق. بدا لي كما لو أنني عشت هذه اللحظة سابقا، وأن الرواق الممتد أمامي ليس غريبا عني. هل حلمت بذلك أم أنا الذي بدأت أفقد خيط القصة؟ سبقتني السيّدة كازيناف. في لحظة خاطفة، تداخلت مع قدري.
صعدنا السلّم. تعثرت قدماي على أدراجه. تشبثت على الدرابزين، ولا أرى أمامي إلا تموّج جسدها، يتمايل قدّامي، مهيبا، ساحرا، كأنه غير واقعي، ذلك أن تغنّجها تجاوز جميع الاحتمالات. عندما وصلنا إلى البهو العلوي، مرّت عبر نور كوة ساطع؛ حدث كما لو أن فستانها انسلخ بغتة، لتسلّم لي جسدها في أدنى تفاصيل تضاريسه.
التفتت فجأة، فوجدتني في حالة صدام. أدركت مباشرة أنني لست قادرا على متابعتها أبعد من ذلك، وأن ساقايّ ستتملصان تحت ثقل دواري، وأنني كنت مثل عصفور وقع في الفخ. أجهزت عليّ ابتسامتها. فعادت إليّ بخطوة خفيفة، محلقة، قالت شيئا لم أهضم معناه. يضرب دمي في صدغيّ بقوة تمنعني من استرجاعي صفاء ذهني. ماذا يحدث سيّد جوناس؟... مسكت يدها ذقني، رفعت لي رأسي... هل أنت بخير؟... تاه صدى صوتها في ضجيج صدغيّ. أنا التي أوقعتك في هذه الحالة؟... ربّما ليست هي التي تكلمني هكذا. ربما كنت أنا من أكلم نفسي، برغم

أن الصوت ليس صوتي. انتشرت أصابعها على وجهي. أحسست بالجدار يلامس ظهري مثل حاجز يمنع كل هروب. السيّد جوناس؟... لفتني عيناها، وأوقعت بي في لمح البصر. ذبت في نظرتها. حلّق نفَسها حول لهثي، امتصَّه؛ التحم وجهانا. حينما لمسَت شفتاها شفتيّ، بدا لي كما لو أنني تفتّت. كما لو أنها محتني لتعيد تشكيلي بأطراف أصابعها. لم تكن قبلة، ليسَت إلا لمسة خافتة، حذرة –هل هي بصدد جسّ النبض؟ تراجعت إلى الوراء. بالنسبة إليّ، كانت بمثابة موجة تنسحب لتكشف عريي واضطرابي. عاد فمها أكثر اطمئنانا، أكثر غزوة؛ لم تكن عين ماء بارد ستروي عطشي مثلما فعلت. سلّمت فمي لفمها، ذاب فمي في فمها، وأصبح ماء بدوره، فشربتني السيّدة كازيناف حتى الثمالة، في جرعة لم تنته من التجدّد. كان رأسي داخل غيمة وقدمايّ على سجاد طائر. ذهلت من مثل هذه السعادة، ربما حاولت الانجذاب من قبضتها، ذلك أنّ يدها شدّتني بقوة من الرقبة. عندَئذ، استسلمت لها كلية. دون أن أبذل أدنى جهد للمقاومة. سُررت بالوقوع في الفخ، محموما وراضيا، ومُنبَهرا من استسلامي، فالتحمت مع اللسان الذي يبتلع لساني. بلطف لا نهائي، فكَّت أزرار قميصي، تركتها تسقط في مكان ما. لم أعد أتنفس إلا من خلال نفَسها، ولا أحْيَ إلا من خلال نبضات قلبها. انتابَني إحساس مبهم أنني أُجرّد من ملابسي، وأُقاد برفق إلى غرفة، وأُلقى على سرير أعمق من نهر. انتَشرَت ألاف الأصابع على لحمي كما ألاف الشرارات النارية؛ كنت العرسَ، كنت الطربَ، كنت النشوة في أقصى سكرها؛ أحسست أنني أموت وأحْيَ في آن واحد.

- عد إلى الأرض قليلا. لقد كسّرت نصف الأواني في ظرف يومين.

هكذا صرَخَت جرمان مُوبِّخة إياي في المطبخ.

انتبهت أنّ الصحن الذي كنت بصدد غسله في حوض الماء انزلق من يديّ وتكسّر فوق البلاط.

- أصبحت شارد الذهن كثيرا.
- أنا آسف...

تفرّسَتني جرمان بفضول، مسحت يديها في مئزرها وحطّتهما على كتفيّ.

- ما هو الشيء الذي يُشغل بالك؟
- لا شيء. انزلق الصحن فقط.
- نعم... ولكن المشكلة أن الحدث تكرّر مرارا.

صاح عمّي من غرفته:
- جرمان !
أنقذني النداء. نَسيَتْني جرمان مباشرة وهرعت باتجاه الغرفة في عمق الرواق.
لم أعد أتعرّف على نفسي. فمنذ مغامرتي مع السيّدة كازيناف، أصبحت شارد الذهن طول الوقت، تائها عبر دهاليز نشوة ترفض السقوط. كانت تجربتي الأولى كرجل، اكتشافي الحميمي الأول، وذلك يسكرني. يكفي أن أنفرد بنفسي ثانية واحدة كي أجد نفسي ثانية في ألذ عاصفة الرغبة. يتمدّد جسدي كالقوس؛ أحسُّ بأصابع السيّدة كازيناف تسري على بشرتي، لمساتها أشبه بلسعات انبعاث تأخذ مكان أعصابي، تتحوّل إلى ارتعاشات، لتختلط بالدم الذي يضرب في صدغيّ.
عندما أغمض عينيّ، أستمع حتى إلى لهاثها، فيمتلئ كياني بنفسها المسكر. في الليل، استحال عليّ التصالح مع النوم. يبقيني سريري الغاص باللهو الأفلاطوني يقظا، هائجا، إلى غاية الصبح.
وجد سيمون سحنتي مضايقة. لم تعد تثيرني مزحه. يتلوى جان كريستوف وفابريس من الضحك عند كل نكتة، فيما أبقى أنا جامدا كالصخر. أنظر إليهما يبتهجان دون أن أدرك السبب. كم مرّة حرّك سيمون يده أمام عينيّ ليتأكّد إن كنت لا أزال من هذه الحياة؟ أستيقظ لنفسي لحظات ثم أغرق ثانية في نوع من التخشّب، فتنطفئ الأصوات حولي فجأة.
على الهضبة، عند قدم الزيتونة القرنية، كما في الشاطئ، لم أكن إلا غيابا بين أصدقائي.
انتظرت أسبوعين قبل أن أتشجع وأعود إلى المنزل الأبيض الكبير في الدرب المؤدي إلى المزار. كان الوقت متأخرا، والشمس على قاب قوسين أو أدنى من السقوط.
تركت دراجتي بجانب السياج ودخلت الفناء... وكانت هنا، مقرفصة تحت أجمة، مقص في اليد؛ كانت تعيد الحياة لحديقتها. وقفت وقالت:
- السيّد جوناس.
حطّت المقص فوق كومة من الحصى، ثمّ ضربت يديها لتنظفهما من الغبار. تحمل القبعة نفسها المزينة بشرائط حمراء، والفستان الأبيض نفسه والذي يظهر المفاتن الساحرة لجسدها بسخاء وفي وهو يلمع تحت نور الغروب.
تبادلنا النظرات دون أن ننبس ببنت شفة.
خيّم عليّ صمت مضجر، وكاد صرير أزيز الحصاد يشقق صدغيّ. فقلت:
- مساء الخير، سيّدتي.

ابتسمت، واتسعت عيناها أوسع من الأفق.
- هل تريدني في حاجة ما، السيد جوناس؟
جعلني شيء ما في صوتها أخشى الأسوأ. قلت كاذبا:
- كنت مارا من هنا. فأردت أن أحييك.
- مبادرة لطيفة.
سمّرني اقتضابها في مكاني.
نظرت إليّ بثبات. كما لو أنّ عليّ أن أبرّر حضوري في هذا المكان. بدا كما لو أنها لم تستسغ مجيئي. كما لو أنني أزعجها.
- ألست بحاجة إلى... فكّرت بأنّك... ربّما... أكيد أن هناك أشياء بحاجة إلى نقل أو تصليح؟...
- يوجد الخدم لمثل هذه الأشغال.
افتقرت إلى أعذار، فشعرت بنفسي أضحوكة، لمت نفسي بقسوة. ألست بصدد تدمير كل شيء؟ تقدّمت نحوي، توقفت على مستواي، ودون أن تفقد ابتسامتها، سحقتني بعينيها.
- السيد جوناس، لا ينبغي النزول عند الناس فجأة، هكذا، في ضربة رأس.
- فكّرت أنّ...
حطّت أصبعها على فمي لتوقفني.
- لا ينبغي أنْ تفكّر بعشوائية.
تحوّل ضجري إلى غضب غامض. لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟ كيف أصدق بأنه لم يحدث شيء بيننا؟ تكون قد أدركت لماذا جئت عندها.
قالت كما لو أنها قرأت في أفكاري:
- سأخبرك إذ احتجت إليك ثانية. يجب أن تترك الأمور تسير وفق طبيعتها، أتفهمني؟ إن استعجال بعض الأمور يؤدي إلى إفسادها.
تابع أصبعها بلطف خط شفتيّ، أبعدهما وانزلق بين أسناني. تأخّر على طرف لساني ثم انسحب ببطء وعاد يضغط على فمي.
- يجب أن تعرف هذا السيد جوناس: عند النساء، تحدث الأمور في الرأس. لا يكنّ مستعدات إلا عندما تنتظم الأمور في رؤوسهن. إنهن سيّدات عواطفهن.
لا تفارقني عيناها، صارمة، مهيبة. بدا لي أنني لم أكن إلا ثمرة خيالها، أداة ما بين يديها، جرو صغير لا تفتأ تُنيمه على ظهره كي تداعب بطنه بأطراف أصابعها.

لا أريد استعجال الأمور، وإفساد حظوظي بضربة رأس حمقاء. حينما سحبت يدها، أدركت أنه حان الوقت بالنسبة لي لأنسحب... وأنتظر إشارة منها. لم ترافقني إلى السياج.

انتظرت أسابيع. يوشك صيف 1944 على الانسحاب، ولم أتلق إشارة منها. لم تعد السيّدة كازيناف تنزل إلى القرية. حينما يجمعنا جان كريستوف على الهضبة، وفيما يقرأ علينا فابريس أشعاره، لا عيون لي إلا للمنزل الأبيض الكبير على درب المزار. أحيانا، يُخيّل إليّ أنني أراها تنشغل في الفناء، وأنني أتعرّف على فستانها الأبيض في انعكاسات السهل. في المساء، في منزلنا، أخرج إلى الشرفة وأسترق السمع إلى عواء بنات آوى آملا أن يهدأ صمتها هي.
كانت السيّدة اسكاماروني تقود جماعتنا باستمرار إلى وهران، شارع الصيادين، ومع ذلك لا أتذكر الأفلام التي رأيتها هناك والفتيات التي التقيت بها. طفق سيمون ينزعج من شرودي المتواصل. ذات يوم، في الشاطئ، دفّق دلو ماء على بدلتي كي يرجعني إلى الواقع. كادت المزحة تتحوّل إلى شجار لولا تدخل جان كريستوف.
قلق فابريس من عنادي المتواصل، فجاء إلى بيتنا يستقصي عمّا ينغص أيامي. فلم يتلق أي جواب.
نفد صبري من الانتظار، فأخذت دراجتي في منتصف يوم أحد وهبطت كالصاروخ على المنزل الأبيض الكبير. لقد وظّفت السيّدة كازيناف بستانيا عجوزا وخادمة، فاجأتهما تحت ظل شجرة خروب يتناولان غذاءهما. أسندت دراجتي إلى خصري وانتظرت. كنت أرتعد من الرأس إلى أخمص القدمين. اهتزت السيدة كازيناف عندما رأتني قرب الفوارة. بحثت ببصرها عن الخادمين، رأتهما في الطرف الآخر من الحديقة وأعادته إليّ. حدّقتني في صمت. أحسست بها ضجرة خلف ابتسامتها.
قلت معترفا:
- لم أعد أطيق.
هبطت الدرج الصغير ومشت بخطوة هادئة نحوي. قالت بنبرة صارمة:
- ومع ذلك، يجب أن تطيق.
دعتني لمتابعتها إلى غاية سياج المدخل. وهنا، دون اكتراث بالعيون الفضولية، كما لو كنا وحيدين على وجه الأرض،، مسكتني من العنق وقبلتني بقوة على الشفتين.

استقبلت شراهة قبلتها بمثابة شيء نهائي، كما لو كانت إشارة وداع لا تقبل النقض.

- لقد حلمت، جوناس. لم يكن إلا حلم مراهق.

ارتخت أصابعها، وتراجعت قليلا إلى الخلف.

- لم يحدث شيء بيننا أبدا... ولا حتى هذه القبلة.

هزمتني عيناها.

- هل تفهمني؟

سمعت نفسي أتلعثم:

- نعم، سيدتي.

- حسنا.

مسكتني من خدي، في حركة أمومية مفاجئة.

- كنت أعرف أنك طفل عاقل.

كان عليّ انتظار الليل كي أعود إلى بيتي.

.11

انتظرت معجزة؛ لكنها لم تأتِ.
كان الخريف يجرّد الأشجار من أوراقها؛ حان الوقت لأن أرضخ للأمر الواقع. لم يكن إلا استيهاما. لم يحدث شيء بيني وبين السيّدة كازيناف.
عثرت ثانية على أصدقائي، تهريج سيمون ورومانسية فابريس المحمومة. أما جان كريستوف، فإنه يتحمّل إيزابيل روسيليو بمهارة. يقول لنا أن المهم هو نيل قسطه في الممتلكات العائلية، وأن الحياة استثمار على المدى البعيد، وأن النجاح سيبتسم لا محالة لأولئك الذين يراهنون على الصبر. بدا أنه يعرف جيدا ماذا يريد، وإن كانت نظرياته لا تثقل كاهلها بالحجج، فإننا نمنح له كل تعاطفنا.
جاءت سنة 1945 بموجات أخبارها المتناقضة وهذياناتها. في ريو صالادو، يحب الناس الإفاضة في الحَكي وهم يتناولون كؤوس الأنيزات. يُضخِّمون أدنى مناوشة ويزيِّنونها بأفعال حربية خرافية ويُنسبون البُطولة لمتخاصمين عادة ما يكونون غائبين عن ميدان الصراع. على شرفات المقاهي، تتزاحم التشخيصات والتقديرات. ترن أسماء ستالين وروزفالت وتشرتشيل كما بوق الهجمات الأخيرة؛ أما بعض المستهزئين الذين يتحسّرون على القامة النحيفة لديغول، فيعدون بإيفاده بأفضل كسكسي البلد كي يكسب قليلا من السمنة التي بدونها لا يمكن لهيبته أن تكون لها المصداقية اللازمة في نظر الجزائريين الذين لا يفصلون السلطة عن بطن مهيب. استأنف الناس الضحك والسكر حتى يروا الديك حمارا. ساد الانشراح المتفائل. بدأت العائلات اليهودية، التي ذهبت تبحث عن الآمان تحت سماوات أرحم على إثر التهجيرات الحاشدة التي تعرّض لها اليهود عموما في فرنسا وأوربا، ترجع إلى ديارها. بدأت الأمور تعود إلى مسارها الطبيعي، تدريجيا، أكيدا. كان موسم قطف العنب رائعا، والحفلة الراقصة التي ختمت الموسم عظيمة. قام الجدّ روسيليو بتزويج أصغر أبنائه، فعاشت القرية سبعة أيام وليالٍ على وقع الآلات الموسيقية لفرقة مشهورة استقدمت من إسبانيا. كما حظينا بسباق خيالة جليل رأينا فيها فرسان منطقتنا الشجعان يتنافسون بلا عقدة مع فرسان أولاد النهار الخرافيين.

في أوربا، تسرّب الماء إلى امْبرطورية هتلر. إن الأخبار الآتية من جبهات القتال تعلن يوميا عن غرقها، ويوميا تزحف قوات التحالف باتجاه قلب ألمانيا.
اختفت مدن بأكملها تحت طوفان النيران والرماد. شوّهت المعارك الجوية وجه السماء، وانهارت الخنادق تحت عجلات الدبابات المزنجرة... في ريو صالادو، لا تفرغ قاعة السينما أبدا. لا يدخلها الأغلبية إلا من أجل الأخبار التي تُبث في بداية الحصة. لقد حرّر جيش الحلفاء قسما كبيرا من الأراضي المحتلة وهي تزحف بقوة باتجاه ألمانيا. لم تعد إيطاليا إلا ظلا لنفسها. كان المقاومون والأنصار يلحقون الهزائم الكبرى للعدو الذي حُصر بين الجيش الأحمر الزاحف والجيش الأمريكي المتدفق.
كان عمّي ملتصقا براديو TSF. يلتحم جسده الملفوف في قميصه الداخلي الذي يخون نحافته المفرطة مع الكرسي الذي يجلس عليه. من الصباح إلى سقوط الليل، يبقى منحنيا على الراديو، يحرّك الزر بأصابعه المرتجفة بحثا عن محطات أقل تشوّشا. إنّ صوت القلي والصفير الحاد للذبذبات يملآن البيت بإشاعات مجرية.
لقد استسلمت جرمان منذ فترة بعيدة. لا يعمل زوجها إلا بما في رأسه؛ يشترط أن تحضر له أكله في الصالون، قرب الراديو، كي لا يفوته أدنى تفصيل من الأخبار.
فجاء الثامن ماي 1945. في الوقت لذي كانت الأرض بأسرها تحتفل بنهاية الكابوس، ينفجر كابوس آخر في الجزائر، أكثر صاعقة من الوباء، أكثر وحشية من القيامة. تحوّلت الأفراح الشعبية إلى مآتم. قرب ريو صالادو، في عين تيموشَنت، قمعت الشرطة مسيرات من أجل استقلال الجزائر. في مستغانم، امتدّت المظاهرات إلى القرى المجاورة. ولكن الرعب وصل إلى ذروته في الأوراس والشمال القسنطيني حيث قتل آلاف المسلمين من قبل قوات الأمن المدعمة بالمليشيات التي شكلها المعمرون.
- مستحيل ! هذا غير ممكن !
كان عمّي يردّد هذه العبارات، مرتجفا بداخل منامة المريض التي تلازمه دوما.
- كيف تجرأوا بارتكاب مثل هذه المجزرة في حق شعب لا يزال يبكي أبناءه المتوفين لتحرير فرنسا؟ لماذا يقتلوننا كما القطيع لأننا طالبنا بحقنا في الحرية؟
كان مضطربا جدا وشاحبا. يلتصق بطنه مع عموده الفقري، يتعثر على خفيه وهو يذرع الصالون.
تحكي المحطة العربية لـTSF القمع الدموي الذي تعرّض له السكان المسلمون في كل من قالمة وخراطة وسطيف، والمدافن الجماعية حيث تتعفن الجثث بالآلاف،

صيد العرب عبر الحقول والبساتين، إطلاق الكلاب الشرسة عليهم، والرجم الجماعي في الساحات العمومية. كانت الأخبار مرعبة إلى حدّ أنّنا، عمّي وأنا، لم نجد القوة ولا الرغبة لنتضامن مع المسيرة السلمية التي جابت الشارع الرئيسي لريو صالادو.

كاد عمّي ينهار تحت سعة الكارثة التي أحزنت الشعب المسلم. ذات مساء، ضغط بيده على قلبه وسقط أرضا. ساعدتنا السيدة اسكاماروني على نقله إلى المستشفى وسلّمته إلى الرعاية الحسنة لطبيب من معارفها. وأمام الهلع المتنامي لجرمان، رأت أنه من الحذر أن تبقى بجانبها في قاعة الانتظار. في السهرة، جاء فابريس وجان كريستوف لمرافقتنا، كما اضطر سيمون إلى أخذ دراجة جاره النارية كي يلتحق بنا بدوره. شرح الطبيب لجرمان:

- تعرّض زوجك لنوبة قلبية، سيّدتي. ولم يستعد وعيه بعد.
- هل سيخرج منها سالما، دكتور؟
- لقد قمنا باللازم. أما الباقي فيتوقّف على المريض.

لم تعرف جرمان ماذا تقول. لم تتلفظ بأدنى كلمة منذ أن نقل زوجها إلى المستشفى. كانت عيناها الهلعتين تتدحرجان على وجهها الشاحب. ضمت يديها تحت ذقنها وحطّت عينيها لتتمتم بدعاء. استفاق عمّي من غيبوبته نهار الغد، عند الفجر. طالب كأس ماء، ثم اشترط أن يقاد إلى بيته في الحال. ولكن الطبيب أبقاه تحت المراقبة بضعة أيام قبل أن يأذن بتسريحه. اقترحت علينا السيدة اسكاماروني ممرضة من معارفها كي تهتم بالمريض كامل الوقت. رفضت جرمان بأدب، واعدة بأنها ستسهر شخصيا على صحة زوجها وشكرتها عن كل المساعدات التي قدّمتها لها في هذا الظرف الصعب.

يومان بعد ذلك، وفيما كنت بقرب عمي، سمعت شخصا يناديني. اقتربت من النافذة فرأيت شبحا مقرفصا خلف ترعة. وقف وأشار إليّ. إنه جلول، خادم آندري.

خرج من مخبئه في اللحظة التي وصلت إلى الدرب الفاصل بين منزلنا والكروم.

- إلهي، ماذا جرى لك؟

كان جلول يعرج ووجهه متورم وشفتاه مجروحتان وعين زرقاء. قميصه مخطّط بسطور حمراء، ربما آثار ضربات سوط.

- من وضعك في هذه الحالة؟

نظر جلول أوّلا حوله، كما أنه خشي أن يسمعه أحد؛ ثمّ ثبّت عينيه جيدا في عينيّ، وقال بنبرة قاطعة:

- آندري.
- لماذا؟ ماذا فعلت؟

ابتسم، معتبرا سؤالي عبثيا:

- لست بحاجة إلى أن أخطئ في شيء ما. يجد دائما أعذارا ليدوس عليّ. هذه المرة بسبب غضب المسلمين في الأوراس. آندري مرتاب من العرب، الآن. بالأمس جاء مخمورا من المدينة وضربني ضربا مبرّحا.

رفع قميصه واستدار كي يريني الخدوش على ظهره. لم يتوانَ آندري من استخدام السوط كي يؤدّب خادمه.

واجهني من جديد، أدخل ذيول قميصه تحت سرواله المغبّر، تنفس بقوة وأضاف:

- قال بأنه ليحذّرني من الأفكار الخاطئة، ليدخل في رأسي نهائيا بأنّه السيّد ولن يقبل أدنى تمرّد وسط خدمه.

انتظر مني جلول شيئا لم يرد الإعلان عن نفسه. نزع شاشيته وباشر بدعكها بين يديه السوداوين:

- لم آتِ لأحكي لك حياتي، جوناس. لقد طردني آندري دون أن يمنح لي فلسا واحدا. لا يمكن العودة إلى أهلي فارغ اليدين. لا تملك عائلتي شخصا آخر يعيلها غيري.
- أنت بحاجة إلى كم؟
- ما يسدّ رمقنا لثلاثة أو أربعة أيام.
- انتظرني دقيقتين.

صعدت إلى غرفتي ورجعت بورقتين من خمسين فرنكا. تناول جلول الورقتين بلا استعجال، قلّبهما بين أصابعه، متردّدا:

- مبلغ كبير جدا. لا أستطيع تسديده.
- ليس عليك أن تسدّده.

أربكه سخائي. هزّ رأسه قليلا، فكّر، ثمّ مطّ شفتيه في حيرة من أمره، وقال:

- في هذه الحالة، سأكتفي بأخذ ورقة واحدة فقط.
- خذهما معا، هدية عن طيّب خاطر، أؤكّد لك.
- لا أشك في الأمر، ولكن لا توجد ضرورة لذلك.
- هل لديك عمل في مكان آخر.

تحوّلت تكشيرته إلى ابتسامة سرية:

- لا، ولكن آندري لا يمكنه أن يستغني عن خدماتي. سيأتي للبحث عني قبل نهاية الأسبوع. سوف لن يجد كلبا أفضل مني في السوق.
- لماذا أنت قاسٍ مع نفسك إلى هذا الحدّ؟
- لا يمكنك أن تفهم هذه المسائل. أنت منا، ولكنك تعيش حياتهم. حينما تكون أنت العائل الوحيد لعائلة تتشكل من أمّ نصف مجنونة وأب بترت ذراعاه، ستة إخوة وأخوات، جدّة مريضة، عمتان مطلقتان بذريتهما، وعمّ يعذبك طوال النهار، تنتفي بشريتك... بين الكلب والذئب، تختار البهيمة الضعيفة أن يكون لها سيّد.

صعقت بعنف أقواله. لم يكن جلول إلا في العشرين من عمره، ولكن قوة سرية تنبعث من شخصيته، ونضج يبهرني. في تلك الصبيحة، توقف عن أن يكون ذلك الخادم الذليل الزاحف الذي تعوّدنا عليه. إن الفتى الذي يقف أمامي شخص آخر تماما. يا للغرابة، اكتشفت فيه تقاسيم لم أنتبه إليها سابقا. يملك وجها صلبا بوجنتين بارزتين ونظرة مزعجة، ويظهر عزّة نفس لم أتخيله قادرا عليه.

- شكرا جوناس. سأردّ لك هذا الجميل يوما.

استدار على عقبيه وابتعد وهو يعرج بألم. قلت له:

- انتظر... لا يمكنك أن تذهب بعيدا بقدم عرجاء.
- لا عليك... لقد تمكنت أن أجرّها إلى غاية هنا.
- ربّما، ولكنك قد تزيد جرحك خطورة... أين تسكن بالضبط؟
- ليس بعيدا، أؤكّد لك. خلف هضبة المزارَين. سأتدبّر أمري.
- لن أتركك تزيد جرحا لقدمك. أذهب للبحث عن دراجتي وأعود بسرعة.
- لا، جوناس... ربما لديك شغل أهم من مرافقتي إلى البيت.
- أصر على مرافقتك...

ظننت أنني لمست عمق البؤس في جنان جاتو؛ كنت مخطئا. إن بؤس الدوار الذي تسكن به عائلة جلول يتجاوز كل الحدود. يحوي التجمع السكاني حوالي عشرة أكواخ قبيحة، في عمق واد ناشف تحيطه زرائب بها بعض المعزاة الضامرة. تنبعث من المكان رائحة كريهة بحيث لم أصدّق أنّ بإمكان بشرا أن يعيشوا فيه ليومين متتاليين. لم أتمكن من الذهاب بعيدا، فأوقفت دراجتي على حافة الدرب وساعدت الخادم على الترجّل. تقع الهضبة ذات المزارَين على مسافة غير بعيدة عن ريو

صالادو. ومع ذلك، لا أتذكّر أنني مدّدت جولاتي إلى غاية هذه الأماكن. يتجنب الناس المغامرة إلى غاية هنا. كما لو تعلّق الأمر بإقليم ملعون. فجأة، انتابني خوف من تواجدي بهذا المكان، في الجهة الأخرى للهضبة؛ كنت خائفا من أن لا أعود إلى البيت سالما، متأكدا من أنه، لو حدث لي مكروه، لا أحد سيأتي للبحث عني هنا، حيث ليس لدي أي سبب للمجيء إليه. فكرة حمقاء، ولكن الخوف الذي سيطر علي بقوة كان حقيقيا. فجأة، أرعبتني تلك الأكواخ القبيحة، وتلك الرائحة النتنة القريبة من التعفن. قال جلول:

- تعالى، سأقدّمك لأبي.

صرخت، مرعوبا من الدعوة:

- لا... يجب أن أعود قرب عمّي، إنه مريض.

أطفال عراة يلعبون وسط الغبار، بطونهم منتفخة والمناخير يحاصرها الذباب – نعم، هذا هو؛ فزيادة إلى الرائحة العفنة، يوجد طنين الذباب، شَرِها، عنيدا؛ لا يتوقف عن تخصيب الجوّ الملوّث بأزيز مشئوم، كما النفس الشيطاني المحلق فوق الهلع البشري، قديم قدم العالم، وتعيس مثل تعاسته. عند أسفل جدار من الطوب، قرب حمار غافٍ، تتربع مجموعة من الشيوخ، الأفواه مفتوحة للغبار والذباب. غير بعيد عنهم، يقف مجنون، رافعا ذراعيه الضامرين إلى السماء، يتوسّل شجرة مقدّسة، مزينة بالشرائط المزركشة والتمائم وبقايا الشموع... ثمّ لا شيء؛ كما لو أنّ الأصحاء هاجروا الدوار، وسلّموه للمرضى والمعتوهين والأطفال المتوحشين.

انتبهت إلينا مجموعة كلاب فركضت باتجاهنا نابحة. طردها جلول بضربات أحجار. بعد أن عاد الصمت، التفت نحوي ووَجّه إلي ابتسامة غريبة.

- هكذا يعيش أهلنا، جوناس. أهلنا الذين هم أهلك أيضا. غير أنهم لا يعيشون في الجنة التي تعيش فيها أنت. ماذا أصابك؟ لماذا لا تقول شيئا؟ صعقك المشهد، ولا تصدّق عينيك، أليس كذلك؟ أتمنى أن تفهمني الآن حينما أحدّثك عن الكلب. البهائم نفسها لا تقبل السقوط إلى هذا الحضيض الأسفل.

كنت منذهلا. أثارت الروائح العفنة غثيانا في نفسي. وأعقد طنين الذباب تلابيب مخي. كنت على وشك القيء، ولكنني خشيت أن أهين جلول إن فعلت.

قهقه جلول، متسليا باضطرابي. أشار إلى الدوار:

- أنظر جيدا إلى هذا الثقب التائه. إنه مكانتنا في هذا البلد، بلد أجدادنا. أنظر جيدا جوناس. أالله لم يمر من هذا المكان أبدا.

- لماذا تقول مثل هذه الحماقات؟

- لأنها أفكاري حقا. لأنها الحقيقة.

تضاعف خوفي. هذه المرة، جلول هو الذي أخافني، بنظرته الحادة وتكشيرته الساخرة.

ركبت دراجتي وعدت قافلا أدراجي.

- هكذا يا يونس. أعطِ ظهرك لحقيقة ذويك واجرِ لتلتحق بأصدقائك... يونس... أتمنى أن تتذكّر اسمك الحقيقي... يونس... شكرا على النقود. أعدك أنني سأرجعها لك ذات يوم. ألم تلاحظ أنّ العالم بدأ يتغيّر؟

بدأت أركض كالمجنون، وصراخ جلول يطاردني مثل رصاصات التحذير، تصفّر في أذنيّ.

لم يكن جلول مخطئا. بدأت الأمور تتغيّر، ولكنها بالنسبة لي كانت تحدث في عالم متوازٍ. كنت منقسما بين الوفاء لأصدقائي والتضامن مع أهلي، فسوَّفت. أكيد أنه بعد الذي حدث في الشمال القسنطيني واكتساب الوعي عند الجماهير المسلمة، سأكون مضطرا، إنْ عاجلا أو آجلا، إلى اختيار جهة ما. حتى وإنْ رفضت اتخاذ القرار، ستنتهي الأحداث إلى الاختيار في مكاني. كان الغضب زاحفا؛ لقد تسرّب من الأماكن السرية التي احتوت المناقشات النضالية وهو الآن يتدفق على الشوارع، وينتشر وسط الفئات الاجتماعية المظلومة ويتسلل نحو القرى الزنجية والدواوير المنعزلة.

بقيت جماعة جان كريستوف على هامش هذه التحولات. كنا شبانا، مُغترين بسنواتنا العشرين. إن كان الزغب المتنامي على شفاهنا لا يرقى لأن يكون في صف "الشلاغم"، إلا أنه يؤكد على إرادتنا في أن نكون ناضجين وأسياد اختياراتنا. لا نفترق كما أصابع المذراة، نعيش لأنفسنا، ونشكل نحن الأربعة عالما بأكمله.

تحصّل فابريس على الجائزة الوطنية الأولى للشعر. قادتنا السيّدة اسكاماروني، أربعتنا، إلى الجزائر العاصمة لحضور حفل تسليم الجائزة. كان الفائز سعيدا جدا. زيادة إلى مبلغ مالي معتبر، ستتكفل اللجنة بنشر الديوان الحائز على الجائزة عند إدمون شارلو، ناشر جزائري مهم. أسكنتنا السيدة اسكاماروني في فندق صغير نظيف، غير بعيد عن شارع إزلي. لقد تسلّم فابريس الجائزة من أيدي ماكس بول فوشي شخصيا. وبعد ذلك دعتنا أمّ الفائز إلى عشاء فاخر، يتشكل من أسماك طازجة وفواكه البحر، في مطهم رائع بساحل "لامَدراق". في الغد،

استعجلنا الرجوع إلى ريو صالادو العزيزة حيث ينتظرنا رئيس البلدية ليقيم حفلا تكريميا على شرف فتى القرية النابغة، فاستأنفنا رحلتنا الطويلة، مع وقفة قصيرة في أورليانفيل لأكل خفيف وثانية في باريغو حيث اشترينا كمية لا بأس بها من البرتقال –أجمل برتقال في العالم.

بعد شهور قليلة، دعانا فابريس إلى مكتبة بلورمال، قرية صغيرة غير بعيدة عن ريو صالادو. وجدنا أمّه في المكتبة، رائعة في بذلة نسائية، عنابية اللون. تحمل قبعة مزيّنة بالريش، زادتها أبّهة. وقَف المكتبي وبعض الشخصيات المحلية في طرف طاولة كبيرة من خشب الآبنوس، اتخذوا هيأة شبه رسمية، والابتسامات عطوفة. على الطاولة، حزم من الكتب الجديدة، أخرجت للتوّ من علبها الكرتونية. على الغلاف، وفوق عنوان جميل، نقرأ "فابريس اسكاماروني".

- ما هذا السيرك؟

صاح سيمون، وهو دائما على وشك إفساد الطابع الجاد للاحتفالات.

مباشرة بعد انتهاء مراسيم التقديم والخطب، هجمنا، سيمون، جان كريستوف وأنا، على ديوان الشعر، وبدأنا نتصفحه، نتلمسه، نقلبه بأيدينا بمتعة لا حصر لها، معجبين إلى حدّ أن السيّدة اسكاماروني لم تتمكن من إيقاف الدمعة الصغيرة التي تدحرجت على خدها في خيط امتزج بخِضاب الجفون. قال رجل في الستِّين من العمر:

- قرأت بمتعة كبيرة ديوانك الشعري، السيّد اسكاماروني. تمتلك موهبة حقيقية وكل الحظوظ لإعادة نبل وشرف الشعر الذي كان دوما الروح السرية لمنطقتنا العزيزة.

مدّ المكتبي لمؤلفنا رسالة تهنئة وقّعها غابريال أوديزيو شخصيا، مؤسس مجلة "Rivages"، يدعوه فيها إلى مساهمة جميلة.

في ريو صالادو، وعد رئيس البلدية بفتح مكتبة في الشارع الرئيسي، أما الجدّ روسيليو، فاشترى لوحده مائة نسخة من ديوان فابريس ليبعثها لمعارفه في وهران –الذين يشك أنهم يعتبرونه فلاحا أجلف بجرد أن يدير لهم ظهره- كي يؤكّد لهم أن قريته لا تحوي فقط مزارعي كروم أثرياء وعُنُد، وسكارى.

انسحب الشتاء ذات مساء على أطراف الأصابع كي يترك المجال شاغرا للربيع. في الصباح، انتشرت السنونوات فوق خيوط الكهرباء وازدهرت شوارع ريو صالادو بألف عطر. عاد عمي تدريجيا إلى الحياة. استرجع قليلا من حيويته وجزءا من عاداته: هوسه الكبير للكتب. يستهلكها بلا توقف، بشراهة لا حد لها، فلا

ينتهي من رواية إلا ليفتح كتاب فكر. يقرأ في اللغتين، مارا من العقاد إلى فلوبير بلا إخبار. لا يخرج من المنزل بعد، ولكنه أصبح يحلق لحيته يوميا ويرتدي لباسا محترما. يقتسم غذاءه معنا في قاعة الأكل، يبادل مع جرمان أحيانا بعض الكلمات اللطيفة. تعقّلت طلباته، ولم يعد صراخه يرتفع من أجل أمور تافهة. كان منضبطا كالساعة، يستيقظ عند الفجر، يؤدي صلاته، يتناول فطوره الصباحي على السابعة تماما، ثمّ ينسحب إلى مكتبه إلى غاية الوقت الذي آتيه بالجريدة. بعد الأخبار، يفتح دفترا من دفاتره الكثيرة، يغطس ريشته في المحبرة ويكتب إلى غاية منتصف النهار. على الساعة الواحدة، يهب لنفسه قيلولة؛ بعد ذلك، يتناول كتابا ويستغرق فيه إلى غاية سقوط الليل.

ذات يوم، جاء إلى غرفتي.

- يجب أن تقرأ هذا المؤلف. اسمه مالك بن نبي. كشخص ليس واضحا، ولكن فكره حاد ودقيق.

حطّ الكتاب فوق الطاولة الصغيرة وانتظر أن آخذه بنفسي؛ وهو ما فعلت. إنه كتاب من حوالي مائة صفحة، عنوانه: شروط النهضة الجزائرية.

قبل أن ينسحب، قال:

- لا تنسى ما يقوله القرآن: من قتل نفسا بغير حق كأنما قتل الناس جميعا.

لم يعد ليسألني إن قرأت كتاب مالك بن نبي، ولا ليعرف رأيي فيه. عند الطاولة، لا يخاطب إلا جرمان.

استرجع المنزل شبه توازن. لم يعمّ الفرح بعد؛ ومع ذلك، كان يسعدني أن أرى عمّي يسوّي رباطة عنقه بمفرده أمام مرآة الخزانة. كنا نأمل أن يعتِّب باب المنزل ويعود إلى عالم الأحياء. إنه بحاجة إلى استرجاع علاقته مع ضجيج الشارع، والذهاب إلى مقهى أو الجلوس على مقعد في ساحة عمومية. تتعمّد جرمان بفتح أبواب الشرفات على مصراعيها. كانت تحلم برؤيته يسوي طربوشه، يمسد مقدمة صداره، يلقي نظرة على ساعة جيبه ويسرع للالتحاق بمجموعة أصدقاء كي يغيّر الجوّ والأفكار. ولكن عمّي يخشى الحشد. يتملكه خوف كئيب من الاختلاط وينتابه الهلع إن صادف الناس في طريقه. لا يشعر بنفسه محتميا إلا في منزله.

كانت جرمان مقتنعة أن زوجها يبذل جهودا جبارة كي يستعيد طبيعته المفقودة.

واحَسْرَتاه ! ذات أحد، وفيما كنا ننهي أكلنا، ضرب عمّي فجأة بقبضته على الطاولة وبيده أسقط الصُحون والكؤوس لتتكسّر على الأرض. خشينا نوبة قلبية

جديدة؛ ولكنها لم تكن كذلك. وقف عمّي مسقطا الكرسي خلفه، تراجع إلى غاية الجدار، أشار بأصبعه نحونا وصرخ:

- ليس لأحد الحق في الحكم عليّ !

نظرت إليّ جرمان منذهلة. قالت لي:

- هل قلت له شيئا؟

- لا.

تفحّصت زوجها كما لو تعلّق الأمر بغريب.

- لم يحكم عليك أحد، ماحي.

لم يكن عمّي يخاطبنا. لم يكن يرانا برغم أنّ بصره مصوَّب إلينا. قطّب حاجبيه، كما لو أنه خرج بغتة من حلم سيّء، أعاد الكرسي إلى مكانه، جلس فوقه، شدّ رأسه بيديه ولم يتحرك.

في الليل، على حوالي الثالثة صباحا، أخرجَنا، جرمان وأنا، شجارٌ من سَريرينا. كان عمّي يتخاصم مع غريب في مكتبه المغلق بالقفل من الداخل. هبطت بسرعة لأرى إن كان الباب الخارجي مفتوحا، إن كان شخص ما في الزقاق. كان الباب مغلقا، وبالأقفال. صعدت ثانية إلى الطابق العلوي. حاولت جرمان أن تعرف ماذا يحدث داخل المكتب، ولكن مفتاح القفل يمنع رؤية أي شيء.

كان عمي يستشيط غضبا. يصرخ:

- لست جبانا. لم أخن أحدا، أتسمع؟ لا تنظر إلي هكذا. أمنعك من الاستهزاء بي. لم أبع أحدا... أتسمع؟ أحدا، أحدا...

انفتح باب المكتب. خرج عمّي شاحبا من الغضب، يرغى فمه زبدا. دفعنا ومشى باتجاه غرفته دون أن ينتبه لوجودنا.

دخلت جرمان إلى مكتبه؛ تبعتها... لا يوجد أحد.

رأيت السيّدة كازيناف ثانية في بداية الخريف. كان المطر يسقط وريو لا تشبه شيئا. تذكّر المقاهي التي رفعت كراسيها من الشرفات بدور العجزة. لا تزال السيّدة كازيناف تحافظ على رشاقة الفراشات، ومع ذلك لم يخفق قلبي في صدري. هل المطر هو الذي يخفف من الأهواء أم أن الجوّ الكئيب هو الذي يطفئ أجيج الذكريات؟ لم أجهد نفسي لمعرفة السبب. قطعت القارعة كي لا ألتقي بها. الخريف في ريو صالادو موسم ميت، ذلك أن القرية لا تعيش إلا بشمسها. تسقط الأقنعة كما أوراق الشجر، ويكشف الحب عن تهيّب مضايق. دفع جان كريستوف

ثمنه. وجدني عند فابريس حيث كنا ننتظر عودة سيمون من وهران. دون أن ينبس ببنت شفة، احتل مَقعَدا في الشرفة وواصل اجترار كآبته.
عاد سيمون بخُفَي حنين من وهران حيث ذهب لإبراز موهبته في التمثيل الفكاهي. قرأ في جريدة إعلان توظيف مُمثلين فكاهيين شباب، فراح يجرب حظه. الإعلان في الجيب، قفز في أول حافلة ذاهبة إلى وهران بعد أن ارتدى أجمل ثياب له. من خلال شفتيه المتدفقتين على ذقنه، فهمنا أن الأمور لم تسر مثلما أرادها. قال فابريس:
- ما هي النتيجة؟
ارتمى سيمون على كرسي من السوخر وشبّك ذراعيه على بطنه، المزاج مُكْفَهِر.
- ماذا حدث؟
- لا شيء. لم يحدث شيء. لم يتركوا لي أي فرصة، الملاعين... منذ البداية، عرفت أنه ليس يوم حظي. انتظرت أربع ساعات في الكواليس قبل أن أمر على الخشبة. المفاجأة الأولى، كانت قاعة المسرح خاوية على عروشها. كان هناك شيخ عجوز يجلس في الصف الأول، وإلى جانبه شمطاء جافّة، تشبه البومة خلف نظاراتها الدائرية. ومصباح ضخم على وجهي. كما لو أنني في جلسة استنطاق. قال الشيخ العجوز: "إليك السيّد بن يامين". أقسم لكم أنه خيّل إلي أنني أسمع جدي الأول يناديني من عمق قبره. كان باردا، مغلقا، عديم التأثر؛ لم أكد أبدأ حتى أوقفني. وبصق قائلا: "ما الفرق بين الممثل الفكاهي والمهرّج، سيّد بن يامين؟ طيّب، سأوضّح لك الفرق. يُضحك الممثل جمهوره لأنه مؤثر وطريف؛ أما المهرّج فلأنه سُخْرة." ثم أشار بالمرور إلى اللاحق.
انفجر فابريس من الضحك.
- قضيت ساعتين داخل قاعة الملابس لأهدِّئ نفسي. لو جاء ذلك الشيخ العجوز للاعتذار لالتهمته حيا... كان عليكما أن تشاهدا هذين الوجهين الكئيبين داخل تلك الصالة الكبيرة الخالية على عروشها...
غضب جان كريستوف وهو يرانا نقهقه. سأله فابريس:
- عندك مشكل؟
أحنى جان كريستوف رقبته وقال في تنهّد:
- بدأت إيزابيل تثير أعصابي.
قال سيمون:
- ولم تنتبه إلا الآن؟ لقد سبق أن قلت لك بأن هذه الفتاة لا تليق بك.

قال فابريس بحكمة:
- الحب أعمى.
قال سيمون مصحِّحا:
- الحب يعمي.
سألت جان كريستوف:
- الأمر جاد؟
- لماذا؟ هل لا زلت متيما بها؟
حدّقني بنظرة غريبة وأضاف:
- لم ينقطع التيار بينكما، جوناس، أليس كذلك؟... طيّب... لقد أخذت حقي من الأذى من هذه الحمقاء، أتركها لك...
- ومن قال لك أنها لا تزال تهمني؟
صرخ وهو يضرب الطاولة بقبضته.
خيّم صمت في القاعة. نظر إلينا فابريس وسيمون الواحد بعد الآخر. كان جان كريستوف يضمر لي حقدا كبيرا. سألته:
- ما هذه التُرَّهات؟
- الحقيقة... كلما عرفَت أنك في الضواحي، إلا وفقدَت التمسك في أعصابها. تبحث عنك بعيونها، وتهدأ بمجرّد رؤيتك... لو رأيتها في حفلة الرقص الأخيرة. كانت ملتصقة بذراعي، ثم وصلت أنت، فبدأ تهريجها فقط لتثير انتباهك. كدت أصفعها كي أعيدها إلى رشدها.
قلت:
- إذا كان الحب يُعمي، كريس، فإن الغيرة جعلتك تهذي.
- أنا غيور، هذا صحيح، ولكنني لا أهذي.
تدخل فابريس الذي أحسّ بتوتر الجوّ:
- اوولا... إيزابيل تحب التلاعب بمحيطها، كريس. إنها تختبرك، هذا كل ما في الأمر. لو لم تكن تحبك، لفارقتك دون إخبار.
- على كل حال، نلت قسطي من الأذى. إذا كانت حبيبة قلبي قادرة على النظر من فوق كتفيّ، فالأفضل بالنسبة لي أن أختفي عن عيونها. ثمّ وبكل صراحة، لا أعتقد أنني أحسّ إزاءها بعاطفة حب قوية.
كنت منزعجا. إنها المرة الأولى التي يحدث سوء تفاهم انشقاقا داخل جماعتنا. فجأة، صَوّبني جان كريستوف بأصبعه وقال:

- بَـمٌّ ! صدّقت كلامي، أليس كذلك؟ انخدعت إلى آخر نقطة.
لم يجد أحد المزحة طريفة. كنا مقتنعين أنّ جان كريستوف صادق فيما يقول.
في الغد، وأنا أصعد الشارع برفقة سيمون لألتحق بالساحة العمومية، رأينا إيزابيل في ذراع جان كريستوف. كانا يقصدان السينما. لا أعرف لماذا، اختفيت فجأة خلف باب سقيفة كي لا يراني جان كريستوف. اندهش سيمون من ردّ فعلي، ولكنه فهمني.

III

إيميلي

.12

دعا آندري كامل شباب ريو صالادو إلى تدشين حانته. لم يكن أحد ينتظر ابن جيم ج. صوزا في هذا المكان. نتخيّله مستقيما في جزم إقطاعي، السوط إزاء الفخذ والصرخة قاصمة، يركل مؤخرات العمال الموسميين، طامعا في الأولب لنفسه فقط... أن نراه صاحب حانة، ينزع سدادات قنينات البيرة، أبقانا بلا صوت. في حقيقة الأمر، منذ عودته من الولايات المتحدة الأمريكية حيث قام بجولة كبيرة برفقة صديقه جّو، تغيّر آندري كلية. تركته أمريكا يعي واقعا يَتملص منا والذي يسميه بحماس صوفي غامض الحلم الأمريكي. حينما نسأله ماذا يقصد بالضبط بـ"الحلم الأمريكي"، ينفخ خديه، يتمايل في مكانه ويجيب باعوجاج فمه جانبا: أن يعيش الفرد حياته مثلما يراها، حتى وإن تطلّب منه اختراق الطابوهات وضرب العادات عرض الحائط. كان لآندري فكرة واضحة عما يريد أن يوصله لنا، غير أنّ بيداغوجيته يرثى لها. ما كان واضحا في نهاية المطاف هي إرادته في تطوير عاداتنا الصغيرة لقرويين تربينا تحت ظل أبكارنا. إن الطاعة العمياء، وعدم التحرك إلا بالإذن، وانتظار الحفلات للخروج من جحورنا، سلوكات غير مقبولة لدى آندري الجديد. بالنسبة إليه، لا يتميّز المجتمع إلا بحماس شبابه، ولا يتجدّد إلا بفضل طراوة ووقاحة الشباب؛ غير أن شبابنا ما هو إلا قطيع وديع مقيّد بلطف لآليات عهد ولى وغير منسجم مع الحداثة الزاحفة والجرأة المندفعة التي تشترط إشعال النار وإطلاق البارود –مثلما يحدث في لوس أنجلس وسان فرانسيسكو ونيويورك، حيث بدأ الشباب منذ نهاية الحرب اختراق الممنوعات وكسر طابوهات الطاعة العائلية المقدّسة للتحرّر منها بشكل نهائي والتحليق بعيدا حتى إن وقع لهم ما وقع لإيكار من انكسارات.

آندري مقتنع بأن الريح تجري الآن في الوجهة التي يمنحها الأمريكيون للكائنات والأشياء. بالنسبة إليه، ترتكز الصحة الجيدة لبلد ما في عطشه للغزوات والثورات. في ريو صالادو، تتتابع الأجيال وتتشابه. ينبغي إدخال الإصلاحات الاستعجالية إلى الذهنيات. لم يجد آندري وسيلة أفضل كنقطة انطلاق من "*snack*" من النوع الكاليفوني ليسلينا عن البطلان الأحمق الذي تمثله طاعتنا العمياء ونلقي بأنفسنا، روحا وجسدا، في صخب الحياة.

يقع "اسنايك" خارج القرية، خلف مخازن الخمور للسيّد كراوس، على الميدان الشاغر الذي كنا نلعب فيه كرة القدم أيام طفولتنا. نصِّبت حوالي عشرون طاولة، تحيطها كراسي بيضاء ومظلات شمسية. ارتحنا قليلا عندما رأينا صناديق الخمر والليمونادة وسلل الفواكه وعتاد الشواء الموضوع في زوايا الساحة الأربعة. قال سيمون متحمسا:

- سنأكل هذا المساء إلى حدّ التخمة.

كان جلول وبعض المشغِّلين ينشطون حول الطاولات، يغطونها بأسْمِطة ويجهّزونها بقوارير الماء ومنافض السجائر. بينما يقف آندري وابن عمه جوزي على عتبة السنايك المرتفعة قليلا، وقبعة رعاة البقر الأمريكيين على رأسيهما، السيقان مشرّعة قليلا، وأصابع اليد تحت إبزيم الحزام. قال سيمون لآندري:

- ينبغي عليك أن تشتري قطيع أبقار.
- هل أعجبك "اسْنايكي"؟
- بما أن فيه ما يؤكل ويشرب...
- إذا، كل واشرب ولا تثرثر كثيرا.

هبط الأدراج كي يسلّم علينا، منتهزا فرصة ضم سيمون إلى صدره كي يرمي يده بين فخذيه. احتج سيمون متراجعا إلى الوراء:

- من فضلك، كل شيء إلا مجوهرات العائلة.

قال آندري وهو يدفعنا، ثلاثتنا، نحو مصرف الحانة:

- عن أي كنز تتحدّث؟ أراهن أنها لا تساوي أكثر من مزلاج معوج في سوق الخردة.
- ماذا تراهن؟
- ما تريده... طيّب، ستنزل عندي هذا المساء فتيات من الطراز العالي. فإذا نجحت في استمالة قلب واحدة فقط، أنا الذي سأدفع ثمن غرفة الفندق. وبالمارتيناز، يا سيدي الفاضل.
- شيش، أنا موافق.

قال جوزي مذكرا بلهجة مهيبة:

- دادي مثل الخرطوشة... عندما يلتزم، لا يعود إلى الوراء.

بالنسبة لجوزي، كان ابن عمه دادي مثالا للاستقامة والشهامة.

بعد هذا، ابتعد ليفسح لنا المرور، مدركا بأنه مدح الجانب الحساس عند بكره.

قادنا آندري لزيارة "ثورته". لا يوجد شبه مع مقاهي المنطقة. كانت الصالة ملوّنة، وخلف المصرف مرآة كبيرة تعكس الصورة الشبحية لـGolden Gate Bridge، وأمامه، عبر صف طويل، تتراصف الكراسي المرتفعة المبطنة. كانت الرفوف المزينة بالشبهان معبأة بالقوارير والأواني المزخرفة، مرصعة بمصابيح جميلة مضيئة وبعض الأدوات المساعدة. على الجدران، تمّ إلصاق بورتريهات كبيرة لممثلين وممثلات من هوليوود. ينبعث نور خافت من مصابيح سقفية، تضفي عليه الستائر المتدلية على النوافذ ظليلة لطيفة، فيما كانت بعض الزخارف الحمراء في الزوايا تزيّن الصالة الجميلة بخيالات شبحية غريبة. كانت المقاعد مثبتة على الأرضية ومرتبة على شكل مقاعد القطار، وفي وسطها طاولات مستطيلات رسمت فوقها مناظر أمريكا المتوحشة.

في قاعة مجاورة، وفي وسطها تماما، تتصدّر طاولة لعبة البَليار. لا يوجد مقهى في ريو، ولا في لورمال، مجهّزا بلعبة البليار. إنّ ما حضّره آندري لزبائنه كان تحفة فنية حقيقية، تضيئها مصابيح سقفية هابطة تخالها ستلمس الطاولة.

أمسك آندري بالعصا الطويلة، حكّ طرفها بقطعة طبشور، سوّاها على قبضته كركيزة، سدّد مثلثا من الكريات المتنوعة الألوان المجمّعة وسط السجاد الأخضر وضرب ضربة حادة في الكوم. انفجر المثلث وتبعثرت الكريات في جميع الجهات مندفعة باتجاه جوانب الطاولة. صرّح مزهوا:

- ابتداء من اليوم، لا يذهب الناس إلى الحانة للسكر. عندي، يأتون أولا للعب البليار. انتبهوا، ليس هذا إلا الدفعة الأولى، ستصل ثلاث طاولات أخرى قبل نهاية الشهر. أنوي تنظيم بطولة جهوية.

قدّم جوزي قنينات بيرة لأصدقائي وليمونادة لي. ثمّ اقترح علينا احتلال طاولة في الساحة في انتظار وصول الضيوف. كانت الساعة حوالي الخامسة زوالا. تنزلق الشمس بيسر خلف التلال، ناشرة أشعتها الدافئة على الكروم. في الساحة، المنظر منفتح على السهل وعلى الطريق المنسابة زاحفة باتجاه لورمال. تدفِّق حافلة مسافريها عند مدخل القرية: إنهم سكان ريو يعودون من وهران، وقرويون عرب يعودون من وُرَش المدينة، يتأبطون صررهم، متعبين، مما يضطرهم إلى المشي عبر الحقول للالتحاق بالدروب الموصلة إلى دواويرهم.

كان جلول يتابع بصري؛ حينما اختفى آخر عامل عند نهاية الدرب، التفت إليّ وحدّقني بحدّة أضجرتني.

احتل أفراد عرش روسيليو المكان في اللحظة التي توارت فيها الشمس خلف التلال. تتكوّن المجموعة من اثنين من أصغر أبناء الجدّ روسيليو، من اثنين من أبناء عمّهما وزوج أختهما، أونطونيو، مغني الكباري في سيدي بلعباس. وصلوا في سيارة ضخمة من نوع سيتروان، خرجت للتو من المصنع، وأوقفوها عند مدخل الساحة بحيث يمكن للجميع رؤيتها.

استقبلهم آندري بضربات ابتهاج على الأكتاف وقهقهات ثري قبل أن يجلسهم في الصفوف الأولى. غمغم سيمون الذي انزعج من كونهم مروا قربنا دون أن يحيّونا:

- صحيح أنهم أثرياء وبألبسة فخمة، ولكن رائحة روث البغال لاصقة بهم أينما ذهبوا.

قلت لتهدئته:

- أنت تعرف كيف هم.

- ومع ذلك، كان بإمكانهم أن يقولوا "مساء الخير". ماذا سيخسرون إن كانوا لطفاء؟ لسنا أقل منهم. أنت صيدلي، فابريس شاعر، وأنا موظف في الإدارة.

لم يخيّم الليل تماما حتى أضحت الساحة تعجّ بفتيات فاتنات وبفتيان في آخر أناقة. وصل أزواج آخرون، فارقوا الشباب منذ زمان، على متن سيارات لامعة، السيّدات في فساتين الملكات، والسادة في بدلات مطرقة بعقد الفراشات كما السكّين عبر العنق. لقد دعا آندري خيرة ناس ريو وأشهر البورجوازيين في المنطقة. في خضم الحشد الملوّن، تعرّفنا على أكبر ثري لحمام بوحْجَر –يملك أبوه طائرة خاصة- وفي ذراعه نجمة صاعدة للأغنية اليهودية الوهرانية، يحاصرها حشد من المُعجبين، يمطرونها بتهاني مادحة ويتحينون الفرصة المناسبة لخدمتها بتقديم شعلة قداحة أو سيجارة.

أضيئت المصابيح المحلقة فوق الساحة. ضرب جوزي بين يديه كي يطالب بالصمت؛ تعثر الضجيج قليلا، ثم، خفتت الطاولات الواحدة بعد الأخرى. صعد آندري فوق مسطبة كي يشكر الضيوف بتلبية الدعوة للاحتفال معه بتدشين "السنايك". بدأها بنكتة شبقة أحرجت جمهورا متعوّدا على التحفظ، وتأسف لكون الذهنيات لا تزال متحجرة ولم تشجعه على مواصلة مزاحه إلى آخر مطافه، فاختصر تدخله وفسح المجال لفرقة موسيقية.

بدأت السهرة بباقة من الموسيقى، غير معروفة في المنطقة، تعتمد على آلة البوق، فلم تنل إعجاب الجمهور. صرخ آندري:

- إنه الجاز، يا ناس. كيف يمكن البقاء كالصخور أمام مثل هذه الموسيقى الرائعة، الآتية مباشرة من أمريكا.

انتهى الأمر بالموسيقيين إلى الاعتراف بالحقيقية: صحيح أن ريو صالادو لا تبعد عن وهران إلا بحوالي ستين كيلومترا فقط، ومع ذلك فإن المسافة التي تفصل ذهنيات المنطقتين مذهلة. واصلوا العمل في احترافية ظاهرة وهم يدركون عبثية جدواهم، ثمّ، أنجزوا قطعتهم المفضلة في دورة وداع وسط لامبالاة شاملة نزلت عليهم كشتيمة وقحة.

انسحبوا دون أن ينتبه إليهم أحد.

كان يتوقع مثل هذا الاستقبال الجاف لمعرفته بأذواق أهل ريو صالادو. ومع ذلك، تمنى من ضيوفه قليلا من اللباقة وحسن المعاملة اتجاه فرقة جاز يُحتفى بها في جميع مناطق البلد. رأيناه يقدّم اعتذاراته لرئيس الفرقة، المُبوِّق، الذي بدا ساخطا، مقسما أنه لن يضع قدميه ثانية في قرية معزولة ثقافيا كما زريبة البهائم.

وفيما كانت الأمور تتعفن في الكواليس، دعا جوزي فرقة ثانية، محلية هذه المرة، للصعود إلى الخشبة. كعصا موسى، بمجرد انطلاق الموسيقى، انفجر الحضور في صيحات الانشراح والانبساط، فغرقت حلبة الرقص تحت اهتزازات الخصور المتهيجة.

طلب فابريس اسكاماروني من حفيدة رئيس البلدية أن تمنح له رقصة، فجرها بسرور نحو الحلبة. من جهتي، تلقيت رفضا لطيفا من قبل آنسة شلها الخجل، قبل أن أقنع رفيقتها بقبولي فارسا لها. أما سيمون، فكان فوق غيمة. أسند خديه كخدي رضيع سمين براحتي يديه، وسرح بعينيه اتجاه طاولة في طرف الساحة.

توقفت الموسيقى لفترة راحة، رافقت فارستي إلى مكانها وعدت رفقة سيمون. كان يبتسم بغموض، وجهه دائما بين يديه، مقطبا حاجبيه، فلم ينتبه إليّ. حركت يدي أمام عينيه؛ فلم يتحرك. تابعت بصره و... رأيتها.

كانت جالسة بمفردها، في طاولة منعزلة نوعا ما –وضعت على عجل لأنها لا تحوي بساطا ولا أواني-، تخفيها من حين لآخر حركة الراقصين الهائجة... فهمت سبب هدوء سيمون، هو الذي يحوّل الحفلات الراقصة إلى سيرك يقطر ضحكا: كانت الفتاة ذات جمال يخنق الأنفاس.

جسدها مُقوْلب في فستان حليباني، الشعر الأسود ملفوف في عُقيْصة، الابتسامة أخف من نفحة دخان، تتأمل الراقصين دون أن تراهم. بدت غارقة في أفكارها، ذقنها موضوع بلطف على طرف يديها المغطيتين بقفازات بيضاء إلى غاية المرفق.

بين الفينة والأخرى، تختفي وراء الظلال التي تتمايل حولها قبل أن تظهر ثانية في كامل جلالها، كما الحورية الخارجة من بحيرة.
قال سيموت، لاهثا، مبهورا:
- أليست رائعة حقا؟
- إنها فاتنة.
- أنظر إلى هاتين العينين المليئتين بالسر. أُراهِن أنهما بسواد شعرها. وأنفها، يا إلهي ! تأمّل ذلك الأنف. كأن نحاتا هو الذي صقله.
- اذهب رويدا رويدا، يا صديقي.
- وفمها، جوناس. أرأيت وردة أجمل من هذا الفم؟ كيف تفعل لتناول الطعام؟
- حذار، سيمون، إنك تحلّق. عد إلى الأرض يا صديقي.
- لماذا؟
- توجد ثقوب هواء في الغيوم.
- لا أكترث. ألا تستحق فاتنة كهذه أن نكسّر وجهنا من أجلها؟
- وبماذا تريد إغواءها بعد ذلك؟
أخيرا، حرّك بصره اتجاهي، وقال فيما غضَّن تعبير حزن تقاسيم وجهه:
- أنت تعرف أنني لا أملك أي حظ.
أحزنني انهيار حماسه المفاجئ. تماسك بغتة.
- أتعتقد أنها من ريو؟
- نكون قد لاحظنا وجودها منذ فترة.
ابتسم سيمون.
- أنت على حق. نكون قد لاحظنا وجودها منذ فترة طويلة.
أمسكنا، نحن الاثنان، تنفسنا واشرأبت عنوقنا حينما اقترب شاب من الفتاة المعزولة كي يدعوها إلى الرقص. وكم انبسطنا عندما رفضت اقتراحه بلطف.
رجع فابريس من حلبة الرقص يقطر عرقا، اتّخذ مكانه في طاولتنا، وبدأ يجفف وجهه بمنديل، قبل أن ينحني باتجاهنا ويقول هامسا:
- أرأيتم البهاء المنفرد، على اليمين، في طرف الساحة؟
ردّ سيمون:
- مع من تتحدّث؟ الظاهر أن الجميع هنا لا عيون لهم إلا هذه الروعة.
أسرّ لنا فابريس:

- أُخرِجت من الحلبة بسببها. كادَت مراقصتي أن تثقب عينيّ عندما انتبهت أنّ بالي مشغول في مكان آخر... ألديكم فكرة عمن تكون؟

قلت:

- أكيد أنها حضرية جاءت ضيفة عند أقرباء لها في ريو. على حسب طريقة لباسها وسلوكها، يبدو أنها فتاة من المدينة. لم أر أبدا فتاة من عندنا تجلس إلى الطاولة بهذه الكيفية.

فجأة، نظرت إلينا الغريبة، شلّت حركاتنا كما لو أنها فاجأتنا متلبسين بسرقة. تبخّرت ابتسامتها بغتة، فبدت القلادة التي تزيّن فتحة صدرها كمنار في طرف الليل. قال جان كريستوف، لا ندري من أين خرج:

- إنها مذهلة.

أدار كرسيا شاغرا وجلس عليه مُفرشحا. قال فابريس:

- أخيرا جئت. أين كنت طوال هذه المدّة؟
- حسبك أنت، أين كنت؟
- لقد تخاصمت مرة أخرى مع إيزابيل؟
- أقول بأنني للمرة الأولى فارقتها بجد. تصوروا؟ لم تقرّر أي المجوهرات تضع على رقبتها. انتظرت في الصالون، انتظرت في البهو، انتظرت في الساحة، والآنسة لا تريد أن تخرج لأنها لم تفصل في اختيار الخردة التي ستتزين بها.

قال سيموت، غير مصدّق:

- وتركتها في بيتها؟
- أتظن أنني سأتردّد !

وقف سيمون، ضرب بقدمه على الأرض، ورفع يده إلى صدغه في تحية عسكرية:

- تحية صادقة يا رجل. لقد قذفت هذه الحمقاء إلى المرعى، وعلى هذا السلوك فقط، لك مني كامل الاحترام والتبجيل. أنا فخور بك، يا صديقي.

جذب جان كريستوف سيمون من الذراع ليجبره على الجلوس. قال مشيرا إلى الغريبة الجميلة:

- إنك تحجب عني وردة الفرجة، أيها البدين. من هي؟
- ما عليك إلا أن تذهب لتسألها.
- مع عرش روسيليو في الضواحي؟ أنا شجاع، ولكنني لست مجنونا.

دعك فابريس منشفته، تنفس الصعداء، دفع كرسيه، وقال:

- طيّب، سأذهب أنا.

لم يجد الوقت الكافي لمغادرة طاولتنا. توقفت سيارة عند مدخل الساحة، وقفت الفتاة واتجهت نحوها. رأيناها تتخذ مكانها بقرب السائق وارتعدنا جميعا، أربعتنا، عندما صفقت الباب خلفها. قال سيمون:

- أعرف أنّ لا حظ لي، ومع ذلك تستحق أن يبذل المرء جميع جهوده للظفر بها. غدا، عند أول ساعة، سآخذ حذائي لجميع فتيات القرية كي أحصل على واحدة في مقاس قدمي.

انفجرنا ضاحكين.

التقط سيمون المغرفة المهملة فوق الطاولة وبدأ يخلط قهوته بحركة آلية. إنها المرّة الثالثة التي يحرك فيها مشروبه دون أن يذوقه. كنا جالسَين في شرفة مقهى الساحة، نستمتع بالجوّ الجميل. السماء صافية، وشمس مارس تنثر أضواءها الفضية على الشارع. لا توجد أدنى نسمة ريح لتهزّ أوراق الأشجار. في السكون الصباحي الذي لا يكاد يعكّر صفوه إلا خرير مياه الفوّارة العمومية أو صرير عربة، كانت القرية تستمع إلى خفقات حياتها.

كان رئيس البلدية يراقب مجموعة من العمال يقومون بصبغ جوانب الأرصفة بالأبيض والأحمر، وقد شمر على سواعد قميصه إلى غاية الكتفين. أمام الكنيسة، يساعد القس صاحب عربة في تفريغ أكياس الفحم، فيما كان طفل يراكمها بقرب الجدار الداخلي للفناء. في الجهة الأخرى من الساحة العمومية، تتبادل سيّدات أطراف الحديث حول رفوف تاجر خضر، تحت عين "بْرينو" الماكرة، شرطي لم يكد يخرج من المراهقة.

حطّ سيمون المغرفة. قال:

- لم يغمض لي جفن منذ تلك الأمسية، عند دادي.
- أبسبَب تلك الفتاة؟
- لا يمكن أن أخفي عنك شيئا... أظن أنني متيم بها فعلا.
- أحقا ما تقول؟
- كيف أفسر لك الأمر؟ لم أشعر أبدا بما أحسّ به هذه الأيام اتجاه هذه السمراء بعيونها المليئة بالسر.
- هل وجدت أثرها؟
- وكيف لا؟ ابتداء من اليوم الموالي، انطلقت في البحث عنها. المشكلة أنني لاحظت بسرعة أنني لست الوحيد الذي يركض خلفها. حتى جوزي، ذاك

الغبي، دخل في اللعبة. تصوّر؟ لا يمكن أن تحلم بطرف لحم دون أن تجد كوما من الحمقى في الظهر.

طرد ذبابة غير مرئية؛ كانت حركته مثقلة بعدوانية باردة. من جديد، أمسك المغرفة وطفق يحرك مقهاه.

- آه، جوناس ! لو كنت أملك زرقة عينيك ووجهك الملائكي !...
- ماذا ستفعل بهما؟
- كي أجرّب حظي. أنظر إلى وجهي الشبيه بقرمة الخشب؛ وبطني المتدفق على ركبتي ككتلة من الجيلاتين. وهذه السيقان القصيرة التي لا تعرف حتى كيف تمشي باستقامة، والأقدام الفطحاء...
- إن الفتيات لا ينظرن فقط إلى هذه المظاهر...
- ممكن، ولكنني لا أملك الشيء الكثير أقترحه عليهن. لا أملك كروما، ولا خزانات خمر ولا حسابا بنكيا.
- لك خصال أخرى. مزاجك الفكاهي مثلا. إن الفتيات يحبّذن كثيرا من يضحكهن. ثمّ إنك شخص مستقيم. لست سكيرا ولست بطالا. وهذا يحسب لك.

لفظ سيمون أقوالي بحركة يد.

بعد صمت طويل، مطّ شفتيه كعلامة انزعاج قبل أن يهمس:

- أتظن أن الحب يطغى على الصداقة؟
- كيف ذلك؟
- رأيت فابريس يغازل عذراء أول أمس... أؤكّد لك أنها الحقيقة. رأيته كما أراك الآن، بقرب خزان خمر كوردونا. لم يكن الأمر مجرد لقاء عابر. كان فابريس متكئا على سيارة أمها، مشبكا ذراعيه على صدره، منشرحا... والفتاة لم تكن مستعجلة لتلتحق ببيتها.
- إن فابريس ذائع الصيت في ريو. يوقفه الجميع في الشارع، الفتيان والفتيات. وكذا الأشخاص المسنون. طبيعي، إنه شاعرنا.
- نعم، غير أنه ليس هذا الإحساس الذي انتابني عندما رأتهما معا. أنا متأكد أنه ليس حديثا عابرا بلا غد.

صاح آندري وهو يوقف سيارته إزاء الرصيف المقابل:

- إيه، أيها الفلاحون... لماذا لستم في "اسنايكي" تتعلمون فضائل البليار؟
- ننتظر فابريس.

- أنا ذاهب غدا.
- سنصل.
- أنتظركم، لا تتأخّروا؟
- سُوَيعة ونكون عندك.

رفع آندري أصبعين إلى صدغه وانطلق في هدير مُدوٍّ، أرعش كلب عجوز منكمش عند عتبة باب حانوت.

أمسكني سيمون بطرف أصابعه:

- لم أنسَ سوء التفاهم الذي حدث بينك وبين كريس بسبب إيزابيل. ولا أريد أن يحدث لي نفس الشيء مع فابريس. إنّ صداقتنا أساسية بالنسبة إليّ...
- لا تستعجل الأمور.
- بمجرد التفكير فقط، أشعر بالخجل من عواطفي اتجاه هذه الفتاة.
- لا ينبغي أن تخجل من عواطفك حينما تكون جميلة، حتى وإن بدت لك ظالمة.
- أتفكر بجدّ؟
- في الحب تتساوى جميع الحظوظ، وينبغي لكل واحد أن يجرب حظه.
- أتعتقد أن لي حظ أمام فابريس؟ إنه ثري ومشهور.
- أتعتقد... أتعتقد... أتعتقد... ليس لديك إلا هذه العبارة في الفم... أتريد أن تعرف ماذا أعتقد: أنت جبان. تدور حول الإناء وتظن أنك تتقدّم... ثمّ لنغيّر الموضوع. ها هو فابريس يصل.

وجدنا حشدا كبيرا عند آندري، ومنعنا الضجيج من التلذّذ بطبق الحلازن بالمرق الحار. ثمّ هناك سيمون. لم يكن في يومه، سيمون. مرات عديدة، أحسست أنه على وشك أن يفتح قلبه لفابريس؛ يتراجع في اللحظة التي تنفتح شفتاه. لم ينتبه فابريس لشيء. أخرج كناشه، غضّن عينيه، وراح يخط قصيدة، مصححا، مشطبا. تتدلى خصلة شعره الأشقر على طرف أنفه، أشبه بحجاز نصّبه بين أفكاره هو وهلوسات سيمون.

جاء آندري ليرى إن كان ينقصنا شيء. انحنى فوق كتف الشاعر ليقرأ ما كان يكتبه.

قال فابريس منزعجا:

- من فضلك، آندري، لا تفسد علينا لحظة الإلهام.
- قصيدة حبّ ! هل يمكن معرفة صاحبة هذا الإلهام العظيم؟

أغلق فابريس كناشه، وضع يديه فوقه وحدّق آندري الذي قال مغمغما:

- هل أفهم من هذا أنني أقف سدا منيعا ضد تحرير تحليقاتك الغنائية؟
قال سيمون ساخطا:
- كم أنت مزعج آندري؟ دعه يكتب وانصرف من فضلك.
دفع آندري قبعة رعاة البقر إلى ذروة جمجمته ووضع يديه على خصره:
- ما بك هذا الصباح، سيمون؟ هل ابتلعت لحم بقرة مسعورة؟ هل لك حاجة عندي؟
- ألا ترى بأنه في أوج إلهامه؟
- بلاغة فارغة !... لا نستولي على قلب فتاة بالكلام الخلاب. الدليل، يكفي أن أشير بالأصبع كي تأتيني أي فتاة أريد.
انزعج فابريس من نذالة آندري، فلمّ كناشه وغادر "السنايك" بخطى ساخطة.
نظر إليه آندري مندهشا؛ ثمّ، قال يستنجد بشهادتنا:
- لم أقل له شيئا مشينا... هل أصبح لا يطيق مزحي، أم ماذا؟
فاجأنا ذهاب فابريس المستعجل. لم يكن من عادته صفق الباب في وجوه الناس.
من بين أربعتنا، كان أكثرنا لباقة وأقلنا نزوقا. قال سيمون بمرارة:
- ربما هي آثار الحب الثانوية.
فعلا، لقد أدرك أن بين صديقه وبين "صاحبة العيون السرية" التي هام بها، لا يتعلق الأمر بحديث بسيط بلا غد.

في المساء، دعانا جان كريستوف إلى بيته. قال أنّ له أشياء مهمة يبوح بها لنا وهو بحاجة إلى نصائحنا. جمعنا، فابريس، سيمون وأنا في ورشة أبيه، قاعة صغيرة في الطابق الأرضي من البناية العائلية القديمة، وبعد أن تركنا نشرب عصير الفواكه الذي قدّمه لنا مرفوقا ببعض حلويات البسكوي، صرح قائلا:
- ها هو الخبر... لقد قطعت علاقتي مع إيزابيل !
انتظرنا أن يقفز سيمون ابتهاجا بهذا الخبر؛ ولكنه لم يفعل.
- أتظنون أنني ارتكبت حماقة؟
وضع فابريس ذقنه في تجويف يده استعدادا للتفكير. تفاجأت وأنا أسأله في حين عهدت على نفسي أن لا أتدخل ثانية في حكاياتهما:
- ماذا حدث؟
لم يكن جان كريستوف ينتظر إلا إشارة كي يفرغ جعبته. شرّع ذراعيه علامة القرف:

- إنها معقّدة جدا، باحثة دوما عن القمل في رأس الفرطاس. توبخني لأتفه الأسباب، تذكرني دوما بأنني لست إلا ابن فقير وهي التي تجذبني نحو الأعلى... كم مرّة هدّدتها بالانفصال؟... ودائما تقول: شيش، كن رجل واعملها... وهذا الصباح، كانت القطرة التي أفاضت الكأس. كادت ترجمني. وفي الشارع. على مرأى ومسمع الناس جميعا... فقط لأنني ألقيت نظرة على فتاة تلك الأمسية وهي تخرج من محل ملابس...

وقعت هزّة أرضية قوية بداخل المكتب؛ ارتعدت الطاولة التي كنا نجلس حولها. رأيت جوزة عنق فابريس تكشط حلقه وأصابع سيمون تبيض في الأطراف.

- ماذا حدث؟ تساءل جان كريستوف، منتبها إلى الصمت الثقيل الذي سحق القاعة فجأة.

اختلس سيمون نظرة باتجاه فابريس. سعل هذا الأخير في قبضة يده، وأغرق بصره في عيني جان كريستوف، ثمّ سأله:

- هل صادفتك إيزابيل مع هذه الفتاة؟
- لا. إنها المرة الأولى التي أراها منذ تلك الأمسية. كنت أرافق إيزابيل عند الخياطة، وخرجت الفتاة من عند حانوت بن حمّو.

بدا الانبساط ظاهرا على وجه فابريس. ارتخى قليلا وقال:

- أنت تعرف، كريس، بأنّ لا أحد هنا يستطيع أن يقول لك ماذا ينبغي أن تفعله بالضبط. نحن أصدقاؤك، ولكننا نجهل الطبيعة الحقيقية لعلاقاتكما. أنت لا تتوقف عن الإعلان جهارا نهارا بأنك ستغادرها، وفي نهار الغد نراك معلقا بذراعها. مع طول الوقت، أصبحنا لا نصدّق أقوالك. ثمّ إن الأمر يخصك وحدك. هي قضيتك وحلها بيديك. أنت تعرفها منذ سنوات طويلة، منذ أيام المتوسطة. أنت في موقع أحسن منا لتعرف بالضبط أين يقع الخلل وما هو القرار الذي يجب عليك اتخاذه.
- بالضبط، أنا أعرفها منذ المتوسطة وأقسم لكم بأنني لا أستطيع تحديد قسطي من السعادة في هذه الحكاية. يبدو أن إيزابيل سكنت روحي. ومرارا، وبرغم طبعها السيّء وأوامرها الشبيهة بأوامر عريف الثكنة، أحيانا، وبشكل غريب... أقول بأنني لا أستطيع التخلي عنها... أقسم لكم أنها الحقيقة. أحيانا، هكذا، تزيدها جميع هذه العيوب روعة في عينيّ وأجد نفسي متيّما بها كالمجنون...

قال سيمون، وعيناه تلمعان:

- انسَ هذه الحمقاء. ليست لك. ستقضي حياتك وأنت تحملها كمرض مزمن. إن الذي يملك رشاقة كرشاقتك لا ينبغي أن ييأس من الحياة... ثمّ، وبكل صراحة، بدأت مشاجراتكما الغرامية تزعجنا أيما إزعاج.

بعد هذا، وقف –مثلما وقف فابريس في الصباح عند آندري- وغادرنا ساخطا.

قال جان كريستوف منذهلا:

- هل تلفظت بحماقة؟

قال فابريس:

- إنه ليس في حالة جيدة هذه الأيام.

سألني جان كريستوف:

- ماذا حدث له بالضبط؟ أنت تلازمه طول الوقت. ماذا جرى له؟

هززت كتفيّ:

- لا أعرف.

كان سيمون في حالة نفسية سيئة. تغلب كبته على مزاجه المنشرح، وأضحى يدعكه كما تدعك الخرقة. بدأت العقد الكثيرة التي ردمها تحت أطنان من التهريجات تصعد إلى السطح. إن البديهيات التي يرفض رؤيتها، والسخرية الذاتية التي يتخندق وراءها ليخفي بعض الجروح، وأخيرا كل هذه الأشياء الصغيرة التي تنغّص حياته في سرية –بسبب بطن منتفخ جدا، وسيقان قصيرة جدا، أو تلك القدرات الضئيلة في إغواء الفتيات، أحيانا سخيفة ومثيرة للشفقة- تعكس له صورة عن نفسه يكرهها. إن تسرّب هذه السمراء في حياته، وإن بقيت على الحافة فقط، زعزعت استقراره النفسي.

صادفته في طريقي بعد أسبوع. كان ذاهبا إلى البريد ليستخرج بعض الوثائق، ولم يرَ عائقا في مرافقتي له. كانت آثار حزنه تشوّش قسمات وجهه؛ بدت نظرته الدكناء حاقدة على العالم بأسره.

قطعنا نصف القرية في صمت، أشبه بظلين صينيين ينزلقان على الجدران. بعد أن استخرج الوثائق، لم يعرف سيمون ماذا يفعل بنهاره. كان ضائعا نوعا ما. عند خروجنا من البريد، وقعنا وجها لوجه مع فابريس... لم يكن فابريس بمفرده... كانت برفقته وتمسكه من الذراع. أقنعنا المشهد الذي قدماه لنا، هو في بدلته "التويد" وهي في فستانها العريض المغضّن. في لمح البصر، تبخّرت المرارة التي

كانت على وجه سيمون... كيف لا يمكن الاعتراف بالأمر الواقع؟ كان جمالهما مُبهرا.
قدّمنا فابريس باستعجال:
- ها هما سيمون وجوناس اللذين حدّثتك عنهما. إنهما أعز أصدقائي.
كانت الفتاة أكثر جمالا الآن تحت ضوء الشمس الذي يبرزها. لم تكن من لحم ودم، وإنما لطخة من الشمس.
- سيمون، جوناس، أقدّم لكما إيميلي، ابنة السيّدة كازيناف.
سوطني شلال ماء بارد من الرأس إلى القدمين.
عجزنا عن التلفظ بأدنى كلمة، سيمون وأنا، كل واحد لسببه الخاص، فاكتفينا بالابتسام.
حينما استرجعنا صفاءنا الذهني، كانا قد ذهبا.
بقينا لمدة يسيرة جامدين، سارحين، على رصيف البريد. لماذا نلومهما؟ كيف نحتج على تكامل بهذه الوداعة وهذا الجمال دون أن نُعتبر متوحشين أو أغبياء بلا أدنى إحساس؟
كان واجبا على سيمون أن يلفظ المنشفة –وهو ما فعله بلباقة كبيرة.

.13

زحف الربيع بسرعة. تلألأت التلال المكسوة بالحشيش عند الفجر كما بحر من الندى. انتابتنا رغبة في التعري والغطس بكامل أجسادنا والعوم في العشب إلى غاية الإرهاق، والذهاب بعد ذلك للتمدّد عند أسفل شجرة والحلم بجميع الأشياء الجميلة التي خلقها الله. الجوّ مُسكر. كان كل صباح عبارة عن مسحة إعجاز؛ تمنحنا كل لحظة نخطفها من الزمان قسطا من الأبدية. ريو تحت الشمس خبز مبارك. حيثما وضعنا أيدينا، ينبثق حلم؛ لم تكن روحي في أي مكان أقرب من السكينة مثلما هي في ربيع ريو. تصلنا ضوضاء العالم وقد تخلّصت من الضجيج الذي بإمكانه التشويش على حفيف كرومنا المداوي. كنا على علم بأن الوضع في البلاد يتأزّم، وأن الضغائن تتأجّج لدى الفئات الشعبية المسحوقة؛ ومع ذلك، لم يكترث أهل القرية. يشيّدون حول سعادتهم أسوارا عصية الهدم، ويمنعون أنفسهم من حفر النوافذ. لم يريدوا معرفة أيّ شيء آخر غير الانعكاس الجميل لصورهم في المرآة وهم يغمزون بطرف العين قبل أن يلتحقوا ببساتينهم لقطف الشموس بسلال كاملة.

لم يندلع الحريق بعد. يعد العنب بخمور ولائمية وحفلات رقص مدوّخة وتحالفات مَسقية جيدا. تحافظ السماء على زرقتها الساطعة سليمة، ولا تسمح لأي سواد أن يلوّثها. بعد فطور الصباح، أخرج إلى الشرفة وأستلقي لمدة نصف ساعة على الأريكة العريضة وأنسى نفسي في تأمل الأخضر المزركش الذي يغطي السهل، واللون الأمْغَر للأراضي الملتهبة التي تشقّه والسراب المزيّن الذي يتمايل بعيدا. كان منظرا ساحرا، بسكينة فلكية؛ يكفي أن أترك بصري يسرح على هواه كي أغفو. كم مرّة وجدتني جَرْمان فاتحا فمي وراميا عنقي على ظهر المقعد؛ تعود أدراجها على أطراف الأصابع كي لا توقظني.

في ريو صالادو، نترقّب الصيف، مطمئنين. نعرف أنّ الوقت حليفنا، وأنّه، في القريب العاجل، سيُحيي موسم قطف العنب وشاطئ البحر لدينا أرواحا إضافية

كي نتمتّع كلية بالحفلات والسكرات الهوميروسية. بدأت العلاقات الغرامية تتفتح كما الأزهار عند الفجر. ترفع الفتيات أصواتها في الشارع الرئيسي، أنيقات في فساتينها الخفيفة التي تعري أذرعهن كأذرع عرائس البحر، وجزءا من ظهورهن المُسفّعة بالشمس؛ أصبح الفتيان يسرحون في شرفات المقاهي ويشتعلون كأعواد الكبريت عندما نبحث في أسرارهم الصغيرة المتشكلة من التنهدات والأحلام القائظة.

ولكن الشيء الذي يؤجّج خفقان قلب البعض يخنق نفوس البعض الآخر: قطع جان كريستوف علاقته مع إيزابيل. تحت أبواب السقائف، لا حديث إلا عن غرامهم العاصف. ضمر صديقي بسرعة ملحوظة. في العادة، عندما يكون في الشارع، يجد دائما وسيلة ليجلب الأنظار إلى شخصه. يحب مناداة أحد معارفه من بعيد، واضعا يده حول فمه على شكل قِمع، أو إيقاف سائق سيارة وسط القارعة أو طلب قنينة بيرة قبل أن يصل إلى الحانة، نرجسيا وحاضرا دوما، فخورا بأن يكون بمفرده محور اهتمام الجميع. وها هو الآن لا يتحمل نظرة الناس، متظاهرا بعدم السماع حينما يناديه شخص من حانوت أو من الرصيف المقابل. تقلقه الابتسامة الأكثر براءة؛ فيروح يقلّب في جميع الاتجاهات كل قول ليتأكّد إن لم يكن يخفي تلميحات مشينة تخصّه. أضحى ساخطا، منعزلا ويكاد يقتله شجن العشق.

خشيت على صحته العقلية. ذات مساء، بعد أن هام على نفسه خلف التلال، بعيدا عن الثرثرة، ذهب إلى حانة آندري وشرب إلى حدّ السكر التام. بعد قنينات قليلة ابتلعها بسرعة، أصبح لا يقدر على الوقوف. حينما اقترح عليه جوزي أن يرافقه إلى المنزل، لكمه جان كريستوف بقبضته على الوجه؛ وبعد ذلك، تناول عمودا حديديا وبدأ يطرد الزبائن خارج الحانة. بعدما بقي وحيدا، واقفا وسط الكراسي والطاولات المهجورة، تسلّق جان كريستوف فوق المصرف، ثمّ سقى الأرضية ببول مدرار وهو يترنّح ويصرخ بأنه سيُغرق في بوله كل "القذرين الذين يؤلفون الأكاذيب خلف ظهره"... تطلب من الحاضرين كثير من الحذر والحيلة كي يتمكنوا من إيقافه وينزعوا منه القضيب الحديدي، ويقيّدوه ويرجعوه إلى أهله فوق نقالة. أثار هذا الحدث سخطا كبيرا في ريو صالادو؛ لم يرَ أهلها أبدا فضيحة بهذا القدر. احْشومة ! لا يغفر الناس لمثل هذه الفضائح في القرى الجزائرية. نتسامح مع تعثرات بسيطة وسقطات خفيفة وتعطى الفرصة لصاحبها كي يتراجع ويتوب، أما مثل هذه السقطة الدنيئة، فيفقد صاحبها احترام الجميع وفي أغلب الأحيان يفقد صداقتهم أيضا. أدرك جان كريستوف أنه تجاوز المعقول. ليس من صالحه أنْ

يظهر وجهه ثانية في القرية. التحق بوهران حيث أضاع أيامه في التسكع بين الحانات.
أما سيمون، فبدأ يسترجع مصيره بين يديه ببراغماتية كبيرة. لقد أضجره وضعه المهني: مرؤوس معاون يقبع في عمق مكتب يعبق بروائح الرطوبة والملفات المكدّسة التي تنتظر المعالجة. لا يتلاءم طبعه الفكاهي مع مثل هذه الوظيفة. لا يتصوّر نفسه يقضي كامل حياته في تصنيف الأرشيف وتنفس رطوبة الأوراق وأعقاب السجائر المسحوقة. إن مهنة المحاسب الفقير، النصف سجنية، ليست له. لا يملك المظهر ولا الصبر. وإذا كان طول الأسبوع عكر المزاج، فبسبب تلك الجدران العديمة الطعم التي تحاصره عن قرب، لتختزل حقل حركته إلى مساحة الورقة الصفراء الخشنة الملمس. كان سيمون يختنق في مكتبه الضيق؛ يرفض أن يشبه طاولته وكرسيه وخزانته الحديدية، أن ينتظر الرخصة كي يخرج من قفصه كما الحيوان المتوحش الذي بلّده الخمول، أن يمارس عليه الضغط ليتذكّر أنه من لحم ودم ويمكنه الشعور بالضجر، خلافا للأثاث الجامدة الساهرة على سخطه.
استقال ذات صباح، بعد مشاجرة مع مديره، فوعد نفسه بالانطلاق في الأعمال الحرّة، ليكون مدير نفسه.
لم أعد أراه تقريبا.
كما أهملني فابريس من جهته قليلا، وله أعذاره. يبدو أنّ غرامياته مع إيميلي بدأت تأتي بثمارها. يلتقيان يوميا وراء الكنيسة، وأراهما يوم الأحد من شرفتنا، يتجولان على طول الكروم، تارة راجلين، وتارة على دراجتيهما، هو بقميصه الفضفاض، وهي بشعرها المكثف الذي تعبث به الريح. كنت أشعر بمتعة وأنا أشاهدهما يصعدان اتجاه الهضبة، يبتعدان عن القرية، وأتصور التعليقات المثارة حولهما، وعادة ما كنت أقتفي أثرهما بأفكاري.
ذات صباح، حدثت معجزة. كنت بصدد تنظيم رفوف صيدليتنا حينما رأيت عمّي ينزل أدراج السلم بخطوات ثابتة، عبر قاعة الطابق الأرضي الواسعة، مرّ قربي، وبمبْذَله... خرج إلى الزقاق. لم تصدّق جرمان عينيها وهي التي كانت تتبعه خطوة بعد خطوة، في يقظة كبيرة. لم يغادر عمّي المنزل مرة واحدة بإرادته منذ سنوات عديدة. وقف على العتبة، اليدان بداخل الجيبين الكبيرين للمبْذَل، وترك بصره يسري في نور النهار، يلامس الكروم قبل أن يرتفع باتجاه التلال بعيدا في الأفق.
قال:
- يا له من يوم جميل !

ثمّ ابتسم. كادت زاويتا فمه تتفتتان من فرط فقد شفتيه لمطاطيتهما في مثل هذه الحركة، فرأينا أخاديد كثيرة تغضن خديه، أشبه بدوائر متتالية يحدثها حجر صغير على سطح الماء.

اقترحت جرمان التي يكاد تأثرها يفجّر دموعها:

- هل تريد أن آتيك بكرسي.
- وماذا أفعل به؟
- كي تتمتع بالشمس. أضعه هنا، تحت النافذة، مع طاولة صغيرة وإبريق شاي. هكذا، يمكنك شرب الشاي والنظر إلى حركة الزقاق.
- لا. الكرسي ليس لمثل هذا اليوم. أريد أن أمشي قليلا.
- وفي مبذلك؟
- لو كان الأمر يتوقف عليّ فقط لمشيت عاريا.

قال عمّي مبتعدا.

لم يكن نبي يمشي على سطح الماء ليثير إعجابنا، جرمان وأنا، مثلما فعله مشي عمي.

التحق عمّي بدرب، يداه دائما في جيبيه وصدره مرفوع. كانت خطواته مستقيمة، عسكرية تقريبا. توجّه نحو بستان صغير، تجوّل بين أشجاره، عاد أدراجه، ثمّ جلب نظره تحليق حجلة مفاجئ، تبع توّجه الطائر وتاه وسط الكروم. بقينا، جرمان وأنا، واقفَين عند مدخل المنزل، اليد في اليد، إلى أن عاد.

بعد أسابيع قليلة، اشترينا سيارة قديمة، دبّرها لنا برتران، حفيد جرمان، الذي أصبح يشتغل ميكانيكيا، وجاءنا بها إلى غاية البيت. إنها سيارة صغيرة بلون أخضر داكن، دائرية الشكل كظهر سلحفاة، بمقاعد صلبة ومقوّد شاحنات. دعانا برتران جرمان وأنا ودار بنا بعض الوقت ليرينا متانة المحرّك. حسبنا أنفسنا داخل دبابة. بعد مدّة، أصبح أهل ريو يتعرفون عليها من بعيد. بمجرّد سماع هديرها المدوي، يصيحون: "احذروا ! ها هي المدفعية"، ويصطفون على الرصيف ليحيوا مرورها بتحية عسكرية.

تطوّع آندري ليعلّمني السياقة. كان يرافقني إلى ميدان خالٍ ولا يتوانى من وصفي بجميع أنواع الطيور إن قمت بأدنى مناورة خاطئة. أربكتني توبيخاته مرارا وكدنا نتخاصم بجد. حينما تعلمت كيف أستدير شجرة دون أن أخدشها وأنطلق في صعود دون أن ينطفئ المحرك، التحق آندري بحانته بسرعة، مسرورا لأنه خرج من العملية دون جرح ولو طفيف.

ذات أحد، بعد القدّاس، اقترح عليّ سيمون أن نقوم بدورة إلى البحر. لقد قضى أسبوعا مُضنيا وكان بحاجة إلى تغيير. اخترنا ميناء بوزَجّار وانطلقنا بعد الغذاء مباشرة.

- أين اشتريت هذه المركبة؟ من الثكنة؟
- صحيح أنّ شكل سيارتي لا يُعجب، ولكنها تقودني أين أريد وإلى حدّ الساعة لم تتعطّل مرة واحدة أثناء الطريق.
- ألم توجعك أذنيك؟... كما لو أنها بمحرك باخرة على وشك الغرق.
- تعوّدت عليه مع الأيام.

أنزل سيمون زجاج الباب وسلّم وجهه للريح. تشابك شعره على جبهته، فكشف بداية صلع خفيف. لاحظت فجأة أن صديقي قد تقدّم في العمر فاختلست نظرة في المرآة الارتدادية لأرى إن شخت أنا أيضا. قطعنا لورمال كعصف ريح وتدحرجنا مسرعين باتجاه البحر. عند بعض الأماكن، تلتحق الطريق بذروة التلال وتجعل السماء في متناول أيدينا. كان يوما جميلا أراده شهر أفريل الذي يقضي أيامه الأخيرة بشفافية بلورية، بآفاق أولمبية وشعور بسكينة لا مثيل لها. هكذا دائما يسحب الربيع نفسه من منطقتنا؛ إنّ النهاية الجميلة عنده مسألة شرف. تستغرق البساتين في اللحن المبكّر لزيزان الحصاد والحشرات المتلألئة فوق أحواض المياه، شبيهة بحفنات الغبار الذهبي. لولا الأكواخ الخربة القابعة هنا وهناك، لخلنا أنفسنا في جنة النعيم.

- أليسَت سيارة اسكاماروني؟

قال سيمون وهو يشير إلى سيارة متوقفة تحت شجرة أوكالبتوس وحيدة، في عمق طرف دغل.

توقفت بدوري على طرف الطريق ورأيت فابريس وفتاتين جالسين على الحشيش. أقلقه حضورنا فوقف ووضع يديه على خصره في هيأة دفا ع ظاهرة. قال لي سيمون وهو يهيم بفتح باب السيارة للنزول:

- قلت لك بأنه حسير النظر.

مشى فابريس باتجاهنا حوالي مائة مترا قبل أن يتعرّف على سيارتي. تنفس الصعداء، وقف وأشار إلينا بالالتحاق به. قال له سيمون بعد عناق قوي:

- أرعبناك فابريس، أليس كذلك؟
- ماذا تفعلون في هذه الجهة؟
- نتجوّل. هل أنت متأكّد أننا لا نزعجك؟

- المشكل أنني لم أحضر إلا عددا محدودا من الحلويات. ولكن إذا قبلتم الجلوس معنا هادئين بينما ننهي، صديقاتي وأنا، التهام كعكاتنا بالتفاح، فليس لديّ أي انزعاج.

سوّت الفتاتان قميصيهما وأنزلتا فستانهما على الركبتين لاستقبالنا بشكل لائق. أهدت لنا إيميلي كازيناف ابتسامة لطيفة؛ فيما فضّلت الثانية أن تسأل فابريس بالنظر، فتسارع إلى طمأنتها:

- جوناس وسيمون، أعزّ أصدقائي...

ثمّ قدّم لنا الغريبة:

- هيلان لوفابر، صحفية في "صدى وهران". تنجز تحقيقا حول المنطقة.

مدّت لنا هيلان يدا معطّرة، سارع سيمون إلى الإمساك بها. حطّت ابنة السيّدة كازيناف عليّ عينيها السوداوين والحادتين، فأرغمتني على تحويل نظري.

رجع فابريس إلى سيارته، أحضَر حصير شاطئ وحطّه على ترعة، فجلسنا.

قرفص سيمون قرب سلة من السرخس، بحث بداخلها، فوجد قطعة خبز؛ بعد ذلك، وبموسى صغيرة أخرجها من جيبه الخلفي، قطّع دوائر ووضع عليه قطعة مقانق جافة. تبادلت الفتاتان نظرات سريعة، وقد سلّتهما حركة صديقي العفوية. سأل فابريس:

- أين ستذهبان؟

- إلى الميناء نشاهد الصيادين ينزلون صناديق السمك، ردّ سيمون، بخديه المفككين. وأنت، ماذا تفعل في هذا القفار مع فتاتين جميلتين؟

من جديد، تفرّستني إيميلي بإلحاح. هل كانت تقرأ في أفكاري؟ إذا كان الجواب بنعم، ماذا تقرأ بالضبط؟ هل حدّثتها أمها عني؟ هل عثرت على عطري في غرفة أمها، هل اكتشفت شيئا لم أتمكن من محوه في الوقت المناسب، أثر قبلة معلقة أو ذكرى عناق غير منتهية؟ لماذا ينتابني هذا الإحساس بأنها تقرأ في أفكاري مثلما نقرأ في كتاب مفتوح؟ وعيناها، يا إلهي ! من يقاومهما؟ كيف تعملان لإغراق عينيّ، لتأخذان مكانتهما، خرق جميع أفكاري، خطف أدنى تساؤل يعبر ذهني؟... ومع ذلك، وبرغم فضولهما، لا يمكنني إلا القبول بأنهما أجمل ما توصل إليه الجمال من إبداع. في لحظة ضعف، رأيت عيني أمها، في ذلك المنزل الكبير على درب المزار –عينان مشعتان بحيث لا نكون بحاجة إلى إشعال الضوء في الغرفة كي نرى جيدا في عمق أشيائنا المسكوت عنها، إلى أعمق أسرار حماقاتنا المكبوتة... كنت مضطربا جدا.

- بدا لي كما لو أننا التقينا في مكان ما، منذ زمن طويل.
- لا أظن، آنستي، وإلا أكيد أنني سأتذكّر.
- شيء غريب، وجهك ليس غريبا عني.

وبعد ذلك أضافت:

- ماذا تفعل في الحياة، السيّد جوناس؟

لصوتها عذوبة عين جبلية. تلفّظت "السيّد جوناس" تماما مثلما كانت تفعل أمها، تشدّ على "س"، محدثة في نفسي الأثر نفسه، محركة الأوتار نفسها...

قال سيمون، غيورا من الاهتمام الذي أثيره إزاء أول عصفة حب له:

- إنه قابع في ركن. أما أنا، فأشتغل في الأعمال الحرة. أسست شركة تصدير واستيراد، وفي ظرف سنتين أو ثلاثة سيلمع نجمي في السماء.

لم تنتبه إيميلي لمزح سيمون. أحسست نظرتها المعدنية مثبتة عليّ، تترقّب إجابتي. كانت جميلة بحيث يستحيل رفع عينيّ على عينيها أكثر من خمس ثواني دون أن أحمر.

- أنا صيدلي، أنيستي.

ارتعدت خصلة شعر على جبينها؛ رفعتها بيد أنيقة، كما لو أنها ترفع ستارا عن إشراقها الخاص.

- صيدلي أين؟
- في ريو، أنيستي.

اندفع شيء ما على وجهها، فقطّبت حاجبيها إلى الأعلى. تكسّر طرف التورتة الذي كانت تمسكه بين أصابعها. لم يخفَ اضطرابها عن فابريس، الذي سارع إلى سكب كأس نبيذ لي، لإخفاء إحراجه. ذكّره سيمون قائلا:

- أنت تعرف جيدا أنه لا يشرب.
- آه، آسف.

تناولت الصحفية الكأس وأخذته لشفتيها.

أما إيميلي، فلم تنزع عينيها عني.

جاءت مرتين لزيارتي في الصيدلية. وفي كل مرة، كنت أتحايل لإبقاء جرمان برفقتي. إنّ ما ألمحه في عينيها يقلقني؛ لم أرد خلق ضرر لفابريس.

بدأت أتجنبها، أقول لجرمان بأن تقول لها أنني غائب حينما تهتف لي، بأنها لا تعرف متى سأعود. أدركت إيميلي أنني أعيش سيئا اهتمامها بي، وأن نوع الصداقة الذي تقترحها عليّ لا يلائمني. فتوقفت عن إزعاجي.

نزل علينا صيف 1950 يتبختر كما عملاق السيرك. غصت الطرق بالمصطفين وكانت الشواطئ في حفل بهيج. استطاع سيمون أن يبرم عقدا تجاريا مهما، فدعانا لعشاء في أحد أفخم مطاعم وهران. في تلك الأمسية، كان سيمون في انبساط ومرح لا حدّ لهما. وقد لوّث مزاجه البهيج زبائن القاعة، وكانت النساء المحيطات ينشرحن اهتزازا وضحكا كلما رفع كأسه لينطلق في دعابات فكاهية مضحكة... كانت سهرة رائعة. كان هناك فابريس وإيميلي، وجان كريستوف الذي لم يتوقف من دعوة هيلان للرقص. أن نراه يتسلى بكامل طاقته بعد أسابيع وأسابيع من الحزن أضاف على الحفل نكهة ابتهاج خاصة. من جديد، كنا معا، ملتحمين كما أصابع المذراة، مسرورين بالحفاظ على حياتنا المرحة، بنفس الحماس السابق. كان كل شيء سيمر في أفضل العوالم لو لم تحدث تلك الحركة غير المتوقعة، في غير مكانها، والتي كادت تصرعني حينما انزلقت يد إيميلي تحت الطاولة وجاءت تنحط على فخذي. ابتلعت جرعة الليمونادة بفظاظة فكادت تخنقني وأنا على أربعة أقدام فوق الأرض فيما كان الأصدقاء يضربون ظهري بقوة كي يسرّحوا صدري... حينما استرجعت صفاء ذهني، وجدت جزءًا كبيرا من الزبائن تنحني فوقي؛ أطلق سيمون صيحة اطمئنان حينما رآني أتشبث بطرف طاولة كي أقف. أما عينا إيميلي، فلم تكونا أكثر سوادا بسبب شحوبهما المفرط.

في الغد، وبعد دقائق قليلة بعد خروج عمي وجرمان –اللذان تعوّدا على أداء نزهة صباحية عبر البساتين- فاجأتني السيّدة كازيناف في الصيدلية. برغم الشمس، تعرفت على شبحها الكثباني، ومشيتها الأنيقة، وطريقتها الخاصة في الاستقامة، الذقن مرتفع والكتفان مضمومان.
تردّدت قليلا عند المدخل، ربما لتتأكّد أنني بمفردي؛ ثمّ احتلت القاعة في مزيج من الظلال والحفيف. هيمن عطرها واضحا على روائح الرفوف.
تلبس بذلة نسائية رمادية اللون تشدّها مثل قميص جبري، كما لو أنها تمنع جسدها المغتبط من الارتماء إلى الشارع، وقبعة مزينة بأزهار الترنجان الزرقاء اللون، أبقتها منحنية قليلا على نظرتها العاصفة.
- صباح الخير، السيّد جوناس.
- صباح الخير، سيّدتي.
نزعت نظاراتها الشمسية... لم يفعل السحر مفعوله. بقيت كالصخرة الصماء. لم تكن إلا زبونة كبقية الزبائن، وأنا لم أعد ذلك الفتى السابق الذي يقع في أحبالها

عند أولى ابتساماتها. زعزعتها هذه المعاينة قليلا لأنها طفقت تدق بأصابعها على المصرف الذي يفصلنا.

- أنا تحت الخدمة، سيّدتي؟

لم يعجبها حياد لهجتي.

ترنح اللمعان في عمق عينيها.

حافظت السيّدة كازيناف على رزانتها. لم تكن كاملة إلا حينما تفرض قواعد لعبتها. إنها من الأشخاص الذين يحضّرون جيدا ضرباتهم باختيار المكان ولحظة بداية المشهد. مثلما أعرفها، تكون قد قضت الليلة وهي يبني، حركة بعد حركة، كلمة بعد كلمة، تفاصيل لقائها معي، غير أنها راهنت على فتى لم يعد من هذا العالم. أربكها جمودي. لم تكن تنتظره. فسارعت إلى إعادة النظر في خطّتها ولكن هناك معطيات خاطئة والارتجال لا يليق بطبيعتها.

عضت غصن نظاراتها كي تخفي ارتعاد شفتيها. لم يكن هناك شيء كبير تخفيه. امتدّ الارتعاد إلى غاية الخدين، فبدا كامل وجهها يتفتّت كما قطعة طبشور.

غامرت قائلة:

- إذا كنت مشغولا، سأعود مرة أخرى.

هل تريد ربح الوقت؟ هل تنسحب كي تعود إلى الهجوم وهي مسلحة أفضل؟

- ليس لديّ شغل خصوصي، سيّدتي. ما هو الموضوع؟

تضاعف ضيقها. مما تخاف؟ فهمت أنها لم تأتِ لشراء الدواء؛ ومع ذلك، لم أدرك سبب فقدان الثقة في نفسها. قالت كما لو أنها تقرأ في أفكاري:

- لا يذهب خيالك بعيدا السيّد جوناس. أنا أعرف جيدا الموضوع الذي جئت من أجله. فقط أجهل من أين أبدأ.

- نعم؟...

- أجدك متعجرفا... حسب رأيك، لماذا أنا موجودة هنا؟

- أنتظر أن تقولي لماذا.

- وليست لديك أدنى فكرة؟

- لا.

- حقا؟

- حقا.

ارتفع صدرها إلى الأعلى؛ أمسكت تنفسها لثوانٍ عديدة. ثمّ استعادت رباطة جأشها، وقالت بدفعة واحدة، كما لو أنها خشيت أن يوقفها أحد أو ينقصها الهواء:

- أنا هنا من أجل إيميلي...

بدت مثل كرة ممرغية تُفرَغ من هوائها فجأة. رأيت حلقها يتحرك ثم ابتلعت ريقها بتشنج. تنفست الصعداء بعد أن تخلصت من حمل ثقيل، كما انتابها شعور بأنها أعطت آخر طاقتها في معركة لم تبدأ بعد. قالت موضحة:

- إيميلي، ابنتي.
- فهمت. ولكن ما دخلي أنا بالموضوع، سيّدتي.
- لا تلعب هذه اللعبة الصغيرة معي، أيها الشاب. أنت تَعْرف جيدا عما أتكلم... ما هي طبيعة علاقتك مع ابنتي؟...
- أنت مخطئة في الشخص، سيّدتي. أنا لا أقيم أية علاقة مع ابنتك.

اعوج غصن نظاراتها بين أصابعها؛ لم تنتبه. عسّت نظرتها نظرتي، تترقب سقطة مني. لم أخفض بصري. لم تعد تبهرني. لم تكد شكوكها تلمسني؛ ومع ذلك أيقظت فضولي. ريو قرية صغيرة، لجدرانها آذان صاغية ولبيوتها أبواب هشة. لا تصمد الأسرار الأكثر حراسة طويلا أمام نداء المُسارّات، والأقاويل هي الغذاء اليومي للسكان. ماذا يقال بشأني، أنا الذي أعيش بلا مشاكل تُذكر ولا أثير اهتمام أحد؟

- لا تتحدّث إلا عنك، السيّد جوناس.
- جماعتنا...
- لا أتحدث عن جماعتكم. أتحدّث عنك وعن ابنتي. أريد أن أعرف طبيعة العلاقة التي تجمعك مع ابنتي ولأي غرض؟ أريد أن أعرف إن كان لكما مشاريع مشتركة، نيات جادة... إذا حدث شيء بينكما.
- لم يحدث بيننا شيء، السيّدة كازيناف. إيميلي تحب فابريس، وفابريس من أعز أصدقائي. ولا يخطر ببالي أبدا أن أعكّر سعادته.
- أنت فتى عاقل. أظن أنه سبق وقلت لك هذا الكلام.

ضمت يديها حول أرنبة أنفها، دون أن يفارقني بصرها. بعد تأمل قصير، رفعت ذقنها:

- سأكون صريحة معك، السيّد جوناس... أنت مسلم، مسلم مستقيم حسب معلوماتي، وأنا كاثوليكية. لقد رضخنا للحظة ضعف في حياة سابقة. أتمنى

من المولى أن يغفر لنا زلتنا. إنها سقطة يتيمة، بلا مستقبل... ومع ذلك يوجد ذنب لا يغتفر ولا يحتمل: زنى المحارم !...

عندما تلفّظت بالكلمة، تلألأ شرر سُمّ في عينيها.

- إنها من أبشع المعاصي.
- لا أرى أين تريدين أن تصلي؟
- ولكننا غارقون بداخل الموضوع، السيد جوناس. لا ننام مع الأم وابنتها دون إهانة الله وملائكته وأوليائه الصالحين بل وحتى شياطينه.

احمرّ وجهها، وابيّضت عيناها كالحليب.

تحوّل أصبعها إلى سيف عندما صاحت:

- أمنعك من الاقتراب من ابنتي...
- هذا لم يخطر ببالي أبدا...
- أظن أنك لم تفهمني جيدا، السيّد جوناس. لا يهمني ماذا يدور في رأسك. أنت حرّ بأن تتخيل ما تريد. أما ما أريده أنا هو أن تبقى بعيدا جدا عن ابنتي. وستقسم لي الآن وفورا...
- سيدتي...
- أقسم لي !

خرجت عن طورها. كم أرادت أن تحافظ على هدوئها، أن تظهر لي أنها سيّدة الموقف. منذ أن دخلت الصيدلية، لم تفعل إلا كبت غضبها والخوف المتنامي بداخلها، ولا تستخدم كلمة إلا بعد أن تتأكّد من أنها لن تتلقاها على الوجه مثل آلة مرتدّة. وها هي تفقد السيطرة على نفسها في اللحظة التي كان عليها أن تربح الوقت مهما كان الثمن. حاولت استرجاع رباطة جأشها؛ طاف الكيل، إنها على قاب قوسين أو أدنى من الانفجار بالدموع.

رفعت يديها على مستوى صدغيها، وباشرت بإدخال تنظيم على أفكارها، وهي تركز على نقطة ثابتة، انتظرت انسجام تنفسها ثمّ قالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- آسفة. ليس من عادتي أن أرفع صوتي أمام الناس... إن هذه الحكاية ترعبني. إلى الجحيم النفاق. تنتهي الأقنعة دائما إلى السقوط، ولا أتمنى أن يحدث لي ذلك بعد الذي وقع بيننا. أنا ضائعة تماما. لم يعد يُغمض لي جفن... فضلت أن أظهر حازمة، قوية، ولكن المسألة تتعلق بعائلتي، بابنتي، بإيماني وبضميري. هذا كثير جدا بالنسبة لامرأة كانت على بعد أميال من تصوّر الهاوية عند قدميها... لو تعلق الأمر فقط بالهاوية، لقفزت دون تردّد في الفراغ

لإنقاذ روحي. ولكن هذا لا يحل المشكلة... هذه الحكاية لا ينبغي أن تحدث، السيّد جوناس. إن حكاية ابنتي معك لا ينبغي أن تحدث. ليس لها الحق ولا أي منطق للوجود. ينبغي أن تعرف ذلك بشكل قطعي، نهائي. أريد أن أرجع إلى بيتي هادئة مطمئنة، السيّد جوناس. أريد استرجاع سكينتي. ليست إيميلي إلا طفلة صغيرة. يخفق قلبها حسب تغير مزاجها. إنها قادرة على الهيام بأية ضحكة، أتفهم هذا؟ ولا أريد أن تهيم بضحكتك. لهذا السبب، أتوسّل إليك، بربّ العالمين، رب عيسى ومحمد، أقسم لي بأنك لن تشجّعها. إن هذا يكون بشعا، لا أخلاقيا، وقحا بشكل لا يصدّق، غير مقبول إطلاقا.

انحطّت يداها على يديّ وسحقتهما. لم تكن تلك السيّدة التي حلمت بها سابقا. تخلّت السيّدة كازيناف عن مغرياتها، عن لذة تعاويذها، عن تاجها الجوي. لم تكن أمامي إلا أمّ مرعوبة لفكرة إغضاب المولى، والتعفن في الخزْي إلى آخر الدهر. تشبّثت عيناها بعينيّ؛ كان يكفي أن أحرك الأهداب كي أبعثها إلى جهنم. خجلت من امتلاكي لهذا النفوذ إلى حدّ القدرة على لعن شخص أحببته ذات يوم، دون أن أجمع أبدا بين نبل سخائها ومعصية بشعة تسمى الزنى.

- لن يحدث شيء بيني وبين ابنتك، سيّدتي.
- أعدني بذلك.
- أعدك.
- أقسم لي.
- أقسم لك.

عندئذ فقط، انهارت على المصرف، محرّرة ومسحوقة في آن، شدّت رأسها بيديها وانفجرت بالبكاء.

.14

- المكالمة لك.

قالت جرمان وهي تحرك مقبض الهاتف.

على طرف الخط، قال فابريس موبِّخا:

- أتلومني على شيء، جوناس؟
- لا...
- هل أزعجك سيمون في الأيام الأخيرة؟
- لا.
- هل لك شيء ضد جان كريستوف؟
- طبعا لا.
- لماذا تتجنبنا إذن؟ أيام عديدة ولم تتحرّك من مكانك. انتظرناك بالأمس. لقد وعدتنا بالمجيء، وأُجْبِرنا على تناول عشاءنا باردا.
- ليس لديّ وقت شاغر أبدا.
- توقف... لا يوجد وباء في القرية كي تتدفق الطلبات على صيدليتك. ومن فضلك، لا تختفي وراء مرض أبيك لأنني رأيته مرارا يتجوّل في البساتين. إنه في صحة جيدة.

سعل في الميكرو؛ هدأت نبرته:

- وحشتني يا صديقي. لا تعيش إلا على بعد خطوتين من منزلي ومع ذلك بدا لي أنك اختفيت من وجه الأرض.
- إنني بصدد إعادة تنظيم المحل. لدي دفاتر أستحدثها وإحصاء أنهيه.
- هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟
- شكرا، أتدبّر أمري جيدا.
- إذن، اخرج من غارك... أنتظرك هذا المساء في البيت... للعشاء.

لم أجد الوقت الكافي لرفض الدعوة؛ لقد أغلق الهاتف.

مرّ سيمون ليأخذني على السابعة زوالا.

كان مزاجه سيئا للغاية.

- تصوّر؟ لقد اشتغلت كالثور من أجل خردة لا تساوي بصلة. ولا يحدث مثل هذا إلا معي. تدفقت عليّ الأشياء خاطئة، ولم أنتبه لها كما الغبي. نظريا، كانت العملية ناجحة على طول الخط. عند الوصول، كان عليّ أن أدفع من جيبي مبلغ الخسارة. لم أفهم كيف خدعت بهذه البلادة.
- إنه عالم الأعمال، سيمون.

انتظرنا جان كريستوف في الشارع الكبير، على بعد منازل قليلة من بيتنا. كان يرتدي لباسا أنيقا، وقد حلّق لحيته، وألصق شعره إلى الوراء بطبقة كثيفة من المرهم اللامع، محموما كمراهق غض، وباقة أزهار ضخمة في يده. قال سيمون بنبرة لوم:

- أنت تحرجنا بهذه الباقة. ماذا سيكون موقفنا، جوناس وأنا، ونحن ندخل عليهم بأيادي فارغة؟

قال جان كريستوف معترفا:

- هذه الباقة لإيميلي.

صرخت منزعجا:

- هل هي مدعوة أيضا؟

ردّ سيمون:

- وكيف لا؟ لا يكاد يفترق العصفوران أبدا... بعد هذا، لا أرى لماذا تهدي لها هذه الأزهار، كريس. قلب هذه الفتاة عند رجل آخر، وهذا الرجل هو فابريس، أنسيت؟
- في العشق، كل الحظوظ مباركَة.

قطّب سيمون حاجبيه، مصدوما من أقوال جان كريستوف.

- هل أنت جاد فيما تقول؟

رمى جان كريستوف رأسه إلى الخلف في قهقهة مضللة:

- هذا غير صحيح... إنني أمزح.

ردّ سيمون وهو المذكر دوما ببعض المبادئ التي لا يتنازل عنها:

- ضحكتك لا تعجبني، وكذلك مبادرة باقة الأزهار هذه.

نصّبت السيدة اسكاماروني الطاولة في الشرفة الخارجية. هي التي فتحت لنا الباب. كان فابريس ومعشوقته يسترخيان على كراسي من السرخس وسط الحديقة، تحت عريش دالية. كانت إيميلي رائعة في فستانها الغجري البسيط.

شعرها منطلق إلى الوراء، الكتفان عاريان، فكانت لذيذة الالتهام. خجلت من فكرتي وطردتها من رأسي.
كادت جوزة عنق جان كريستوف ترتعد؛ ربطة عنقه على وشك الانفكاك. أهدى باقة الأزهار التي أثقلته إلى السيدة اسكاماروني:
- لك، سيّدتي.
- أوو... شكرا كريس، أنت ملك.
كذب سيمون، غيورا:
- دفعنا ثمنها جميعا.
احتج جان كريستوف:
- هذا غير صحيح.
انفجرنا ضاحكين.
غلق فابريس المخطوط الذي كان يقرأ منه لإيميلي وجاء يستقبلنا. أخذني بين ذراعيه وضمني أكثر من الآخرين. من خلال كتفه، تفاجأت بنظرة إيميلي تطارد نظرتي. رنّ صوت السيدة كازيناف في صدغيّ: " ليست إيميلي إلا طفلة صغيرة. يخفق قلبها حسب تغير مزاجها. إنها قادرة على الهيام بأية ضحكة، أتفهم هذا؟ ولا أريد أن تهيم بضحكتك". انتابني ضيق فظيع، مخيف أكثر من سابقيه، ومنعني من سماع ما كان يهمس لي فابريس في أذني.
خلال كامل السهرة، وفيما كان سيمون يجعل الجميع يتضوّرون ضحكا بحكاياته المعوجة، استسلمت أمام هجومات إيميلي المتكرّرة. لم تكن تحدّثني ولم تكن يدها تبحث عني تحت الطاولة؛ كانت تقابلني وتحجب عني بقية العالم.
بقيت هادئة، تظاهرت بالاهتمام بالسخافات المحيطة بها، ولكن ضحكتها كانت متصنّعة. تضحك شكليا، تأدبا. أراها تشبّك أصابعها، تسحقها، عصبية وتائهة نوعا ما، أشبه بتلميذة قلقة تنتظر دورها للمرور إلى السبورة. بين الفينة والأخرى، ترفع عينيها وسط قهقهة لترى إن كنت أتسلى كالآخرين. لم أكن أسمع أصدقائي يقهقهون إلا بأذن واحدة. كما إيميلي، كنت أضحك شكليا. كما إيميلي، كنت شارد الذهن، ولكنني منزعج من وضعي. لا أحب ما يدور بخلدي، ولا الأفكار التي تبرعم مثل أزهار سامة... لقد وعدت؛ لقد أقسمت. الغرابة أن الوساوس تأخذ بتلابيبي ولكنها لا تخنقني. تركت نفسي تنساق خلف الغواية تحت تأثير متعة ماكرة أجهل طبيعتها. ما نوعية وكر الزنابير الذي أتدحرج بداخله؟ لماذا فجأة لم يعد القَسَم يعني شيئا كثيرا بالنسبة لي؟ تماسكت؛ أحضرت حكايات سيمون،

ركّزت ذهني حولها –بلا جدوى. بعد مقتطفات قليلة وبضعة تنهدات، أفقد الخيط وأجد نفسي أطارد عيني إيميلي. يُخرجني صمت فلكي من ضوضاء الليل والشرفة؛ كنت معلقا في عدم سديمي وعينا إيميلي الكبيرتان مَعْلمي الوحيد. لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر. كنت بصدد الغش، بصدد الخيانة، على وشك أن ينتن جسدي برائحة عفنة إلى غاية أطراف الأظافر، إلى غاية جذور الشعر. كان عليّ أن أغادر الطاولة، أن أعود إلى البيت بأسرع ما يمكن؛ خفت أن يشك فابريس في شيء ما. وهذا لن أتحمله. كما لن أتحمّل نظرة إيميلي. كلما انحطّت عليّ، إلا وجرّدتني من جزء من كياني –أسوار قلاع قديمة تتفتّت تحت ضربات الساعة الحائطية.

انتهزت فرصة لحظة عدم الانتباه وذهبت إلى الصالون، هتفت لجرمان وأوصيتها بأن تتصل بي بعد قليل؛ وهي ما فعلت بعد عشر دقائق. عند عودتي، سألني سيمون قلقا من تجهّم وجهي:

- من اتصل بك؟
- جرمان... عمّي في صحة غير جيدة.

اقترح فابريس:

- هل تريد أن أوصلك بسيارتي؟
- الأمر لا يستدعي العجلة.
- إذا تأزمت حالته، اتصل بي.

حرّكت رأسي موافقا وهربت.

في تلك السنة، كان الصيف قائظا. وموسم قطف العنب رائعا. انتشرت حفلات الرقص. في النهار، نتدفق على الشواطئ. وفي الليل، نشعل المصابيح بالمئات، نشكل منها أكاليل وننفجر في رقصات جنونية. تتتابع الفرق الموسيقية تحت الخيّم ونرقص إلى غاية لا تقوى سيقاننا على حملنا. تستخلف حفلات الزواج الاحتفال بأعياد الميلاد، الحفلات البلدية بحفلات الخطوبة؛ في ريو صالادو، كنا قادرين على بناء ولائم حول عتاد شواء تقليدي، تجاوز حفلة أميرية بتشغيل الغراموفون فقط.

لا أحب الذهاب إلى الحفلات، وإن حدث وذهبت، لا أبقى إلا وقتا قصيرا؛ أصل متأخرا، وأنسحب بسرعة بحيث لا ينتبه إليّ أحد. في حقيقة الأمر، الكل يدعو الكل، وباستمرار تجد جماعتنا نفسها في حلبة الرقص وخشيت أن أزيّف رقصة

فابريس وإيميلي؛ كانا جميلين، حتى وإن بدا مؤكدا أن سعادتهما تعرج من جانب. يمكن للعينين أن تكذبا، ولكن النظرة لا؛ ونظرة إيميلي ظهر عليها التعب. يكفي أن أكون قربها كي ترمي لي إشارات الإغاثة. حاولت التملّص ولكن ذبذباتها القوية تلحقني، تحاصرني. أصرخ بداخلي: لماذا أنا بالذات؟ لماذا تراودني هكذا، من بعيد، بلا أدنى كلمة؟... تتحرّك إيميلي في ميدان تجهل تضاريسه، هذا مما لا شك فيه. تذكّر بسوء تفاهم. لا يساوي جمالها إلا الحزن الذي تخفيه خلف إشعاع عينيها وتمدّد ابتسامتها المثيرة للشفقة. صحيح أنها لا تظهر شيئا من هذا، تريد أن تكون مرحة، سعيدة بين ذراعي فابريس، غير أنها تفتقد إلى السكينة. في المساء، عندما يجلسان معا فوق كثب، ويريها فابريس السماء، فهي لا ترى النجوم... رأيتهما مرّتين في الشاطئ، في ساعة متأخرة من الليل، وهما يجلسان إلى بعضهما البعض، لا يكادان يظهران في جنح الظلام؛ رغم أنني لا أرى وجهيهما بوضوح، إلا أنني كنت مقتنعا أنه حينما يعانق أحدهما الآخر بشدّة، يغيّب وجه صاحبه...

ثم هناك جان كريستوف بباقات أزهاره. لم يحدث له أن اشترى أبدا مثل هذه الكمية. كل يوم، يمر عبر بائع الأزهار في ساحة القرية قبل أن يتوجّه مباشرة إلى منزل اسكاماروني. لم يرَ سيمون هذه الملاطفة المريبة بعين الرضا، ولكن جان كريستوف لم يكترث للأمر؛ يبدو كما لو أنه فقد كل تمييز، كل مفهوم للتصحيح. مع طول الوقت، انتبه فابريس إلى أنّ غزلياته مع إيميلي يتمّ إزعاجها باستمرار، وأن جان كريستوف يبدو أكثر مبادرة، أكثر دورانا حولهما. في البداية، لم يعطِ للأمر أهمية تذكر. وبعد ذلك، ولأنه يضطر في كل مرة إلى تأجيل لحظاته الحميمية مع إيميلي، بدأ يطرح الأسئلة على نفسه. لا يفارقهما جان كريستوف لحظة؛ كما لو أنه يراقب أدنى حركاتهما...

وحدث الذي كان ينبغي أن يحدث.

كنا في شاطئ تارغَة ذات زوال يوم أحد. يقفز المصطافون كما الجراد فوق الرمال الساخنة قبل أن يركضوا للارتماء في الماء. غرق سيمون في قيلولته التي لا مفر منها، قيلولة ما بعد الهضم، يقطر بطنه عرقا؛ لقد ابتلع عددا لا يحصى من حبات المرقاز وشرب قنينة من النبيذ. تُذكِّر كرشه الكبيرة المشعرة بزقّ الحدّاد. أما فابريس، فأبقى عينيه مفتوحتين على اتساعهما، وكتابه المفتوح عند قدميه. لم يكن يقرأ كي لا يسهى. كان يحرس تماما مثل فريسة. شيء ما سيدقّ في الجوّ المكهرب... ينظر إلى جان كريستوف وإيميلي يتقاذفان بباقات المياه وهما يضحكان، يتنافسان على من يبقى

تحت الماء أطول مدّة ممكنة، ثم السباحة باتجاه عرض البحر إلى أن يكادا يختفيان عن الأنظار؛ ينظر إليهما ينقلبان وسط الأمواج، يقفان على أيديهما، الأصابع فوق الرمل والسيقان خارج الماء؛ خلال هذه التدريبات، ترفرف ابتسامة حزينة على شفتيه وتتلألأ عيناه من التساؤلات... وحينما رآهما ينبثقان فجأة من تحت الماء ويمسكان بعضهما بعضا من الخصر في اندفاع فاجأتهما عفويته، شوّه أخدود جبهته: أدرك أنّ المشاريع الجميلة التي كان يشيّدها ستنزلق لا محالة بين أصابعه مثل حبات الزمان في الساعة الرملية...

لم أحب ذلك الصيف. كان صيف سوء التفاهم والأشجان السرية والانسحابات؛ صيف قائظ يحدث قشعريرة برد في الظهر لأنه يكذب على هؤلاء وأولئك. واصلت جماعتنا الذهاب إلى الشاطئ، ولكن القلب كان غائبا، والنظر أيضا. لا أعرف لماذا سميت هذا الصيف "الموسم الميت". ربما بسبب العنوان الذي أعطاه فابريس لروايته الأولى التي تبدأ هكذا: حينما يطعنك الحب في الظهر، إنه الدليل على أنك لا تستحقه؛ يتمثل النبل أن ترجع له حريته –لا نحب فعلا إلا بدفع مثل هذا الثمن. حافظ فابريس على ابتسامته برغم أن قلبه يعرج داخل صدره، أشقى من عصفور في القفص، شهم كعادته، نبيل حتى في لحظة رمي المنشفة.

أبدى سيمون سخطه على الخاتمة التي اتخذتها الأمور عند نهاية الصيف. هناك نفاق كبير، زوابع كثيرة مكبوتة. قدّر بأنّ تلاعب إيميلي كان قذرا. على ماذا يلوم إيميلي؟ لطفها؟ تأدبها المفرط، لا يستحق الشاعر أن يُرمى عند دورة غطس. لقد استثمر جسدا وروحا في هذه العلاقة، ويتفق الجميع في القرية على الاعتراف بأنهما يشكلان زوج حلم، وأنهما يملكان كل ما يمكن أن يجعلهما سعيدين. تأثر سيمون لحال فابريس، دون أن يجرّم صراحة جان كريستوف الذي يملك عذر إصابته بانهيار عصبي منذ افتراقه مع إيزابيل التي لا يبدو أنها تدرك الضرر الذي سبّبته لأعز صديقها. بالنسبة لسيمون، الأمور واضحة وضوح الشمس: يعود الخطأ إلى تلك "السرعوفة" التي تربّت في مكان آخر، جاهلة بالقيم والتقاليد التي تنظّم الحياة في ريو صالادو.

حرصت على البقاء خارج هذه الحكاية. أربع مرات على خمسة، كنت أجد العذر كي لا ألتحق بالجماعة، وأتخلف عن وليمة وإن كانت فاخرة، وأغيب عن سهرة.

طفق سيمون هو أيضا يلتمس الأعذار لعدم الحضور لأنه لم يعد يطق رؤية إيميلي؛ يُفضل رفقتي ويأخذني إلى 'سْنايك' آندري، نلعب البليار إلى أن تتقطّع سيقاننا.

هجر فابريس إلى وهران. انعزل في شقة أمه بشارع الصيادين، وانكب على كتابة مقالاته للجريدة التي يتعامل معها ويخط المحاور الكبرى لروايته القادمة. لم يعد يأتي إلى القرية. ذهبت عنده مرّة؛ بدا لي مستسلما.

دعانا جان كريستوف، سيمون وأنا، إلى منزله. كما في كل مرة يريد اتخاذ قرار مهم. اعترف لنا أنه غرق فعلا في حب إيميلي وينوي طلب يدها. لاحظ سحنة سيمون الحائرة وتحمس ليقنعنا بعدم معارضة تحقيق سعادته. قال ملمحا إلى نتائج انفصاله مع إيزابيل:

- إنني أولَد من جديد... بعد ما عشته من ظروف صعبة، أنا بحاجة حتمية إلى معجزة كي أخرج نهائيا من تلك الحالة. وها قد حدثت المعجزة. إن الله هو الذي بعث لي هذه الفتاة.

فلتت من سيمون ابتسامة عدم الرضا انتبه لها جان كريستوف:

- ماذا يحدث؟ يبدو أنك غير مقتنع.
- لست مجبرا على ذلك.
- لماذا هذه الابتسامة الساخرة، سيمون؟
- كي لا أبكي، إذا أردت الحقيقة... نعم ! لقد سمعت جيدا: كي لا أبكي، كي لا أنتف شعري، كي لا أتعرى وأخرج إلى الشارع.

كان سيمون واقفا تقريبا، رقبته تتجعّد في أخاديد بارزة. قال جان كريستوف:

- هيا، تفضل، افْرِغ ما في جعبتك.
- إن ما في جعبتي قد فاض منذ أيام. سأكون صريحا معك. ليس فقط أنني غير مقتنع، وإنما غير راضٍ أبدا. إنّ ما فعلته لفابريس لا يُغتَفر.

استقبل جان كريستوف الضربة بهدوء. أدرك أننا ننتظر منه شروحا، ويبدو أنه أعدّ حججه. كنا داخل الصالون، نجلس حول طاولة، فوقها قارورة عصير ليمون وأخرى على صينية مليئة بالماء، بلون جوزة الهند. النافذة مفتوحة على الزقاق، والستار منتفخ من الريح. من بعيد، أتانا نباح كلاب، تواصل عبر صمت الليل.

انتظر جان كريستوف أن يعود سيمون إلى جلوسه الطبيعي قبل أن يرفع كأس ماء إلى فمه. ارتعدت يده، فشرب بفظاظة. صرّت الجرعات في حلقه كما بَكَرة بئر.

حطّ الكأس، مسح شفتيه بطرف منديل ثم ملّسه بعناية قبل أن يمدّده على الطاولة.
ودون أن يرفع عينيه علينا، قال بصوت ثقيل، متمعن:
- يتعلق الأمر بالحب. لم أسرق شيئا، ولم أحوّل شيئا. صعقة الحب مثلما يحدث بالآلاف عبر العالم. إن صعقة الحب نعمة من الله؛ اللحظة المفضلة عند الآلهة. لا أظن أنني لا أستحق هذه النعمة. كما لا أخجل منها أيضا. أحببت إيميلي من النظرة الأولى. ليس ما هو دنيء في هذا. فابريس يبقى صديقي دائما. لا أعرف كيف أشرح لكم القضية. آخذ الأشياء كما تأتي.
ارتطمت قبضته فجأة على الطاولة، وهزّتنا من الرأس إلى القدمين.
- إنني سعيد يا ناس ! هل السعادة جريمة؟
رفع عينين ملتهبتين على سيمون:
- ما الضرر في أنني أحب إيميلي وهي تحبني؟ إيميلي ليست شيئا، ليست تحفة فنية نشتريها من محل أو ملكية نتفاوض حولها. لا تنتمي إلا لنفسها. إنها حرّة في اختيارها كما هي حرّة في تخليها عمن تريد. يتعلق الأمر بتقاسم حياة، سيمون. حدث أن أعجبتها مشاعري وبادلتني نفس المشاعر. أين الخزي في كل هذا؟
لم يستسلم سيمون. أبقى قبضتيه متشنجتين فوق الطاولة، ومنخراه يرتعدان غضبا. نظر إلى جان كريستوف في العينين ثمّ قال ضاغطا على كل مقطع صوتي:
- لماذا أتيت بنا إلى هنا إذاً، بما أنك مقتنع بقرارك؟ لماذا نوجد هنا، جوناس وأنا، نتلقى مرافعتك إن كنت تقدّر أن ليس لديك شيء تلام عليه؟ هل تظن أنك ستخفّف عن ضميرك إن أنت أشركتنا في خطتك الدنيئة؟
- خارج الموضوع، سيمون. أنت خارج الموضوع. لم أدعوكما كي أتلقى بركتكما، ولا كي أقنعكما بصحة ما أفعل. يتعلق الأمر بحياتي وأنا كبير وأعرف ماذا أريد وكيف سأتحصل عليه... إنني أرغب في اتخاذ إيميلي زوجة لي قبل حفلة نوال. وأنا بحاجة إليكما وليس إلى نصائحكما.
أدرك سيمون أنه ذهب بعيدا، وأنه ليس من حقه أن يحتج على قرار جان كريستوف. ارتخت قبضتاه. تراجع إلى الخلف نحو ظهر الكرسي، مطّ شفتيه في تكشيرات متسلسلة وهو ينظر إلى السقف. يرن نفَسه في القاعة.
- ألا ترى أنك تستعجل الأمر؟

التفت جان كريستوف نحوي:
- هل ترى فعلا أنني أستعجل الأمر، جوناس؟
لم أجبه. سأله سيمون:
- هل أنت متأكّد أنها متعلقة بك فعلا؟
- لماذا؟ هل هناك ما يجعلك تشك في الأمر؟
- إنها فتاة من المدينة، كريس. لا تشبه فتياتنا. عندما أرى الطريقة التي قطعت بها علاقتها مع فابريس...
صرخ جان كريستوف منزعجا:
- لم تقطع علاقتها مع فابريس.
رفع سيمون يديه لتهدئة جان كريستوف.
- طيّب، أسحب ما قلته... هل حدّثت هذه الفتاة بما تنوي فعله؟
- ليس بعد، ولكنني سوف لن أتأخّر. المشكلة أنني مفلس الآن. المبلغ الصغير الذي ادّخرته، أحرقته في مواخير وحانات وهران. بسبب ما جرى بيني وبين إيزابيل.
قال سيمون:
- هنا يكمن بيت القصيد. أنت لم تشفَ بعد من تلك القطيعة. أنا مقتنع من أنك لم تسترجع كامل صفاء ذهنك، وأن هيامك بهذه الحضرية ليس إلا شعلة تبن. ينبغي عليك التريّث، ولا تضع الحبل حول رقبتك قبل أن تتأكد من متانته.
أتساءل أحيانا إن لم يكن غرضك هو إثارة الغيرة في قلب إيزابيل؟
- إيزابيل، حكاية قديمة.
- لا يمكن أن نصفق الباب على وجه حب الطفولة بهذه السهولة، مثلما نغلق الباب لصد الريح، كريس.
جُرح جان كريستوف من أقوال سيمون، وانزعج من صمتي، فقام ومشى نحو باب الصالون الذي فتحه بحركة حادة. قال سيمون مستنكرا:
- أتطردنا كريس؟
- لنقل أنني تعبت من لقائكما. أما أنت سيمون، إذا لم ترد أن تسلف لي بعض المال، لا عليك. ولكن من فضلك، لا تختفي وراء اعتبارات لا تعرف جميع خلفياتها، وبالأخص، لا تزدني لوما واتهاما.

يعرف جان كريستوف أن الأمر ليس كذلك، وأن سيمون سيعطيه آخر قميص له؛ يريد أن يكون مقزّزا ومنكدا، فنجح، لأن سيمون غادر الصالون كما الزوبعة؛ كان عليّ الركض في الشارع كي ألتحق به.

استدعاني عمّي إلى مكتبه وطلب مني الجلوس على السرير المقابل حيث يفضل التمدّد للقراءة. استرجعت سحنته بعض ألوانها، زاد وزنه قليلا، وبدا كما لو أنه استعاد شبابه. حافظت شدّة أصابعه على ارتعاد خفيف، ولكن بصره كان يقظا. على كل حال، سررت بالعثور على عمّي، الرجل الذي سحرني في وهران، قبل يوم النحس الذي اعتقلته فيه الشرطة. يقرأ، يكتب، يخرج باستمرار للتجوّل، برفقة جرمان. أحب أن أراهما يمشيان جنبا إلى جنب، وسط البساتين، ملتحمَين إلى حدّ لا يعيران إلا اهتماما خفيفا للعالم المحيط بهما. يوجد، في بساطة علاقتهما، في سيولة وحدة شعورهما لطف وعمق وأصالة تحوّلهما إلى قديسين تقريبا. يشكلان الزوج الأكثر احتراما رأيته في حياتي. عندما أشاهدهما وهما يتجولان، مكتفيين بنفسيهما، تنتابني سكينة لا حدّ لها وتملأني بفرح جميل كجمال سعادتهما الخجولة. كانا يمثلان الحب بلا تنازل، الحب الكامل. في الشريعة، تُجبر المرأة غير المسلمة على إعلان إسلامها قبل أن تتزوّج مسلما. لم يكن عمّي بهذا الرأي. لا يَهمّه أن تكون زوجته مسيحية أم وثنية. يقول بأن شخصين عندما يحبان بعضهما بعضا لا يتحرران من الضغوطات والمحرمات؛ وبأن الحبّ يهدّئ الآلهة ولا يجري التفاوض بشأنه لأنّ أي اتفاق أو تنازل يمسّ بقداسته.
أعاد ريشته إلى المحبرة وتأملني بذهن شارد:

- يبدو أنّ أمورك ليست على ما يرام، يا ولدي؟
- أنا؟ لماذا؟
- جرمان تظن أنّ لديك مشكلة.
- مشكلة؟ لا أرى ما هي. هل اشتكيت إليها من شيء؟
- ليس ضروريا لشخص يعتقد أن مشاكله لا تخصّه إلا هو... اعلم أنك لست وحيدا، يونس. ولا تظن أبدا أنك تزعجني. أنت الشخص الذي أعزه أكثر من أي شخص آخر في هذا العلم. أنت ما بقي لي من قصتي... سنّك سن الهموم الكبرى، الآن. من العادي جدا أن تفكّر في إقامة عش زوجي، في امتلاك سكن خاص بك، في خط حياتك على هواك.

على كل طائر أن يطير يوما بجناحيه.

- جرمان تحكي أشياء تدور برأسها فقط.
- هذا ليس عيبا. أنت تعرف كم تحبك وتعزك. تدعو لك كثيرا وباستمرار. لذلك، لا تخفي عنها شيئا. إذا كنت بحاجة إلى مال أو إلى أي شيء آخر، نحن في خدمتك الكاملة.
- لا أشك في هذا لحظة.
- هذا يطمئنني.

وقبل أن أنصرف، أخذ ريشته وخطّ شيئا على طرف ورقة سلّمها لي:

- من فضلك، يمكن أن تمر على المكتبة وتأتيني بهذا الكتاب.
- طبعا، وبسرعة.

وضعت الورقة في جيبي والتحقت بالشارع متسائلا عن الشيء الذي جعل جرمان تفكر بأن لدي مشكلا.

هدأت رمضاء الأيام الأخيرة. في السماء التي أتعبها القيظ، تنسج غيمة غليظة صوفها، والشمس بمثابة دولاب المغزل؛ ينزلق ظلها على الكروم كما السفينة الشبح. طفق الشيوخ يخرجون من مخابئهم، مسرورين لكونهم نجوا من موجة الحرارة. يجلسون على الكراسي الواطئة، بسراويل قصيرة وقمصان خفيفة تسيل عرقا، يتلذّذون بشراب الأنيزات عند عتبات أبوابهم، الرؤوس نصف مخفية تحت قبعات واسعة. المساء ليس بعيدا. ترطّب النسمة الآتية من الشاطئ حتى أمزجتنا... ورقة عمّي في الجيب، اتجهت نحو المكتبة بواجهتها الغاصة بالكتب ولوحات تشكيلية وقّعها رسامون محليون مبتدئون؛ وكم كانت مفاجأتي عندما فتحت الباب، فوجدت إيميلي خلف المصرف. قالت وقد ظهرت المفاجأة على محياها هي أيضا:

- مساء الخير.

خلال ثوانٍ، نسيت السبب الذي جئت من أجله. يخفق قلبي مثل حدّد على سندانه.

- السيّدة لامبير أحسّت بالتعب منذ أيام قليلة، فطلبت مني أن أستخلفها.

عاودت يدي الكرة مرارا قبل أن تخرج الورقة من عمق حيبي.

- هل أستطيع مساعدتك؟

كنت بلا صوت، فاكتفيت بمدّ الورقة لإيميلي. قرأت:

- الطاعون، ألبير كمو. دار غاليمار...

وافقت بحركة من رأسها ثم أسرعت في الاختفاء خلف الرفوف، ربّما لتسترجع توازنها النفسي هي أيضا. انتهزت الفرصة بدوري للتنهد واستعادة توازني. سمعتها تدفع سلما وتبحث بين الرفوف، مردّدة "كامو... كامو..."، ثم نزلت من السلم، مشت قليلا بين الرفوف، قبل أن تصيح:

- آه... ها هو...

عادت بعينين أوسع من المروج. أضافت في نوع من الخجل:

- كان هنا تحت أنفي...

لامست يدي يدها عندما أخذت الكتاب. أحسست بالصعقة نفسها التي كهربتني في مطعم وهران عندما نادتني تحت الطاولة، فشلّت حركتي. تبادلنا النظرات للتأكد إن كنا معا تحت تأثير العناصر المتشابهة. كانت مشعّة بشكل مفرط. أفترض أنها لم تفعل إلا أن عكست لي لمعاني. قالت لتتجاوز ضيقها:

- كيف حال عمّك؟

لم أدرك بسرعة قصدها.

- كنت قلقا ذلك المساء...
- آه... نعم، نعم، إنه في صحة جيدة الآن.
- أتمنى أن لا يكون وضعه خطيرا.
- لا، ليس خطيرا بالمرة.
- قلقت كثيرا بعد ذهابك.
- كان الخوف أكبر من الضرر.
- قلقت على حالك، السيّد جوناس. كنتَ شاحب الوجه...
- آه... أنا... تعرفين...

خف احمرارها. تجاوزت ارتباكها. قبضت عيناها على عينيّ، مصرة أن لا تطلقني.

- تمنيت أن لا يحدث ذلك الطارئ. بدأت أتعوّد عليك. لم نسمعك كثيرا.
- أنا خجول بطبعي.
- أنا أيضا خجولة. مع طول الوقت، يصبح الخجل معذبا جدا. ونخسر أمورا كثيرة تكون في صالحنا... بعد ذهابك، شعرت بالضجر ولم أعرف ماذا أفعل.
- مع أنّ سيمون كان ملهما في تلك السهرة.
- أما أنا فلا.

انزلقت يدها من الكتاب وغامرت فوق معصمي؛ سحبت ذراعي بخفة.

- مما تخاف السيّد جوناس؟
هذا الصوت !... وقد تخلّص من ارتعاشاته، واستعاد ثباته، تصلّب، واضحا، قويا، مهيبا كما صوت أمها.
عادت يدها تستولي على يدي؛ لم أدفعها.
- كنت أريد أن أحدّثك منذ زمن طويل، السيّد جوناس. ولكنك تتملّص مني كالسراب... لماذا تتهرّب مني؟
- أنا لا أتهرّب منك...
- تكذب... هناك من الأشياء من تخونك من الحركة الأولى. مهما أخفيت لعبتك، تظهر رغما عنك. سأكون مسرورة جدا إن استطعنا أن نجد لحظة للكلام. أنا متأكّدة أنه توجد أشياء كثيرة مشتركة، ألا تصدّقني؟
- ...
- يمكن أن نتفق على موعد، إن أردت؟
- أنا مشغول جدا هذه الأيام.
- أريد أن أحدّثك عن موضوع يخصنا.
- ما هو هذا الموضوع؟
- ليس هذا مكانه ولا وقته... سأكون مبتهجة أن أستقبلك في بيتنا. يقع في درب المزار... لن يستغرق الوقت مدّة طويلة، أعدك...
- نعم، ولكن لا أرى أي موضوع يمكن أن نتحدّث فيه. ثمّ، جان كريستوف...
- وما له جان كريستوف؟
- نحن في قرية صغيرة، آنستي. الناس فضوليون. وجان كريستوف قد لا يعجبه لقاؤنا...
- لماذا لا يعجبه؟ لا نقوم بشيء مقيت. ثمّ إن الأمر لا يهمه. إنه مجرد صديق. لا يوجد شيء مجسّد بيني وبينه.
- لا تقولي هذا الكلام من فضلك. جان كريستوف سيجّن من أجلك.
- جان كريستوف شاب رائع. أعزّه كثيرا... ولكن ليس لدرجة أن أقتسم حياتي معه.
صعقتني أقوالها.
في عينيها لمعان شفرة سيف.
- لا تنظر إليّ هكذا، السيّد جوناس. إنها الحقيقة. لا يوجد شيء بيننا.
- كل القرية تعتبركما مَخطوبَين.

- إنهم مخطئون... جان كريستوف صديق، ليس غير. إن قلبي ينتمي إلى شخص آخر.

أوضحت وهي تشدّ يدها ضد صدرها بلطف...

- مَرحى !

كانت الصرخة بمثابة تفجير، وقد شلّتنا، إيميلي وأنا: كان جان كريستوف واقفا على عتبة الباب، وفي يده باقة أزهار. دمّرتني الضغينة التي تنبعث من عينيه كحمى بركان على وشك الطفح. ارتعد على عتبة المكتبة، ساخطا، غير مصدِّق، مشمئزا، مردوما تحت السماء التي سقطت فوق رأسه، تقاسيم وجهه متشنِّجة، وفمه يهيج بغيظ عظيم. قال:

- مرحى !

رمى الباقة أرضا وسحقها تحت حذائه:

- نويت إهداء هذه الورود إلى عشق عمري، ولكنها لا تصلح إلا لإزهار قبر أحلامي... ما أحمقني !... ما أبلدني !... وأنت جوناس، ما أقذرك !

عاد إلى الشارع مصفقا خلفه الباب الزجاجي بفظاظة جعلته يتشقّق.

ركضْت وراءه. قطع عبر أزقة فرعية، لافظا بقدمه كل الأشياء التي تعيق سيره. حينما انتبه إلا أنني أتبعه، واجهني وهدّدني بأصبعه:

- ابق حيث أنت، جوناس... لا تقترب مني إذا أردت أن لا أسحقك مثل ذبابة.

- إنه سوء فهم. أقسم لك أنه لا يوجد شيء بيني وبين إيميلي.

- اذهَب إلى الجحيم أيها القذر ! اذهب معها إلى جهنم ! لستَ إلا حقيرا، منافقا وسخا، مزبلة خراء !

انتابه هيجان رهيب، فانقضّ عليّ، رفعني في اندفاعه وألصقني بسياج. كان يصرخ شاتما، فبللني بريقه. ضربني بعنف شديد إلى البطن. انقطع نفسي فوضعت ركبة على الأرض. صرخ بصوت باكٍ، عيناه جاحظتان، وفمه يرغي زبدا:

- لماذا أجدك دائما عقبة بين قدميّ عندما أكون على وشك تحقيق سعادتي؟ لماذا يا ربّ العالمين؟ لماذا تنتصب في طريقي كنذير شؤم؟

ضربني بركلة في الخصر. وهرب صارخا:

- ألعنك ! ألعنك وألعن اليوم الذي وضعك في طريقي ! لا أريد أن أراك ولا أن أسمع صوتك إلى يوم الدين، يا منافق، يا حقير، يا جحود !

بقيت ممدَّدا على الأرض، عاجزا عن معرفة إن كان الحزن أو عنف صديقي هو الذي يؤلمني أكثر.

لم يذهب جان كريستوف إلى منزله. روى آندري أنه رآه يجري وسط الحقول، أشبه بالمجنون؛ ثمّ انقطعت أخباره. انتظرناه يومين، أسبوعا؛ ولكن لا خبر. كان والداه جدّ قلقين. لم يكن من عادة جان كريستوف أن يترك أهله بلا أخبار. عندما فارق إيزابيل، اختفى في الطبيعة بنفس الطريقة ولكنه لم يكن ينسى أن يهتف لأمّه كل مساء لطمأنتها عن أحواله. جاء سيمون عندي مرات عديدة ليتقصى الوضع. لم يكن هادئا ولم يخفِ خوفه. لم يشفَ جان كريستوف تماما من انهياره العصبي الأول. سوف لن يتحمّل سقطة ثانية. خشيت الأسوأ أنا أيضا. كنت خائفا جدا بحيث أبعدت افتراضات سيمون النوم عن جفوني. أقضي الليالي متخيلا جميع أنواع السيناريوهات المأساوية وعادة ما كنت أنهض لأخذ قارورة ماء أفرغها وأنا أذرع الشرفة ذهابا وإيابا. لم أرد قول أي شيء مما حدث في المكتبة. خجلت من نفسي؛ أحاول إقناع نفسي أن سوء التفاهم هذا لم يحدث أبدا. غمغم سيمون ملمحا إلى إيميلي:

- تكون هذه العاهرة قد قالت له كلاما جارحا. أضع يدي في النار. إن هذه الغاوية هي السبب.

لم أجرؤ على النظر في عينيه.

في اليوم الثامن، وبعد أن اتصل بجميع معارفه بوهران وباشر بحوثا كتومة كي لا يثير ضجة في القرية، اتصل والد جان كريستوف بالشرطة.

رجع فابريس إلى ريو مستعجلا بمجرد أن وصله خبر اختفاء جان كريستوف.

- بربِّكم، قولوا لي ماذا حدث؟

ردّ سيمون بغيظ:

- لا أعرف شيئا.

ذهبنا نحن الثلاثة إلى وهران وبحثنا عن صديقنا في المواخير والحانات والفنادق الرخيصة في حي اسكاليرا حيث يمكن ومقابل بضعة أوراق نقدية أن يختفي امرؤ أياما وليالٍ برفقة عاهرة عجوز، واحتساء نبيذ سيء وتدخين سجائر الحشيش؛ لم نعثر على بصيص أمل في العثور عليه. أظهرنا صورة جان كريستوف لصاحبات المواخير وطرّاد الحانات وأطفال الحمامات؛ لم يره أحد في الضواحي. لا في المستشفيات ولا في مراكز الشرطة.

زارتني إيميلي في الصيدلية. أردْت طردها في الحين. أمّها على حقّ؛ بمجرّد أن تلتقي عيوننا تنفجر تأثيرات مضرّة، عناصر شيطانية كثيرة. الغريب في الأمر أنها

عندما دخلت العيادة خانتني قواي. كنت ساخطا عليها، واعتبرتها مسئولة عن هروب جان كريستوف وما يمكن أن يحدث له؛ ومع ذلك، لم أقرأ في وجهها إلا حزنا كبيرا لم يتأخر عن إثارة شفقة عليها بداخلي. كانت أصابعها تدعك منديلا صغيرا، شفتاها تنفجران احمرارا، توقفت إزاء المصرف، متأسفة، عاجزة ويائسة.

- أنا آسفة جدا جدا.
- وأنا ماذا أقول؟
- آسفة أيضا على أنني جرجرتك في هذه الحكاية.
- طفح الكيل.
- أدعو الله طوال الليل كي لا يحدث مكروها لجان كريستوف.
- لو نعرف فقط أين يوجد...
- ألا تعرفون عنه أي خبر؟
- لا.

تأمّلت أصابعها المقيّدة.

- حسب رأيك، جوناس، ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ كنت نزيهة جدا معه. منذ البداية، اعترفت له أن قلبي ملك لشخص آخر. لم يرد تصديقي. أو ربما ظن أن له حظ معي؟ هل أنا المسئولة إن لم يكن له أي حظ؟
- لا أرى عما تتحدثين آنستي. المكان ليس مناسبا، ولا الوقت...

قاطعتني قائلة:

- بالعكس. هذه هي اللحظة التي يجب قول الأشياء على حقيقتها. منعني خجلي من الذهاب إلى أبعد قناعاتي، فتسببت في جرح قلبين. لست جارحة قلوب. لم يكن في نيتي أن أحدث ضررا لأي كان.
- لا أصدِّقك.
- يجب أن تصدقني، جوناس.
- لا، مستحيل. لم تحترمي فابريس؛ بل تجرّأتِ على لمسي تحت الطاولة في اللحظة التي كنت تبتسمين له. وبعد ذلك، جرحت جان كريستوف بإشراكي في لعبتك الماكرة...
- ليست لعبة.
- ماذا تريدين مني في نهاية المطاف؟
- لأقول لك... أنني أحبك أنت.

اضطرب المكان ضربة واحدة. أحسست بالغرفة والرفوف ورائي والمصرف والجدران تتفتّت.
لم تتحرّك إيميلي. تفرّستني بعينيها الواسعتين، أصابعها تتشبّث بطرف المنديل.
- من فضلك، آنستي، عودي من حيث أتيت.
- لم تفهمني؟... لم أكن أرتمي في حضن هذا وذاك إلا لتراني، لم أكن أضحك بملء شدقيّ إلا لتسمعني... لم أعرف كيف أتصرف معك، كيف أقول لك بأنني أحبك.
- لا ينبغي أن تقوليه.
- كيف يمكن إسكات أجمل نداء القلب؟
- لا أعرف، آنستي. ولا أريد أن أسمعه.
- لماذا؟
- من فضلك؟
- لا جوناس. ليس من حقك أن تشترط مني مثل هذا الأمر. أحبك. ومن الحتمي أن تعرف أنني أحبك. لا يمكنك أن تقدّر عذابي، أن تعرف مدى حيائي وأنا أتعرى أمامك، إلحاحي في الكفاح من أجل عاطفة لا تمسك فيما تكاد تقتلني، أنا، ومع ذلك سيزيد شقائي شجنا إن واصلت كبت ما لم تتوقف عينايّ عن صراخه: أحبك، أحبك، أحبك. أحبك في كل المرات التي أتنفس فيها. أحببتك بمجرد أن رأيتك أوّل مرة... منذ أزيد من عشر سنوات... في نفس هذه الصيدلية. أجهل إن كنت لا تزال تتذكّر، ولكنني أنا لم أنسَ. كان المطر يسقط في ذلك الصباح، وتبللت قفازاتا يديّ. كنت آتي، كل يوم أربعاء آخذ حقنتي هنا. وفي ذلك اليوم، كنتَ راجعا من المدرسة. أتذكر لون محفظتك بأحزمة مسمرة، وقياس معطفك ذات قلنسوة، وإلى غاية خيوط حذائك البني اللون المفككة. كان في عمرك ثلاثة عشر سنة... تحدّثنا عن الكراييب... وفيما كانت أمّك تداويني في الغرفة الخلفية، قطفتَ وردة ودسستها في كتابي لمادة الجغرافيا.

خطّ بريق مخي، ودار سرب من الذكريات دورانا عنيفا في ذهني. تدفق عليّ المشهد في شلال واحد: إيميلي !... التي كان يرافقها رجل طويل القامة، منحوتا في صخر عملاق. أخيرا أدركت لماذا ارتسم ذلك البريق في وجهها عندما قلت لها بأنني أشتغل صيدليا عند لقائنا بها برفقة فابريس وهيلان، أنا وسيمون، في

الطريق المؤدية إلى وهران. لقد كانت على صواب: التقينا حقا في مكان ما، ومنذ فترة طويلة.

- أتتذكّر؟
- نعم.
- سألتني عن "الغوادالوب"، فأجبتك أنها جريدة فرنسية في منطقة الكراييب... عندما وجدت الوردة في كتابي للجغرافيا، اهتزّ قلبي وضممت الكتاب إلى صدري. أتذكّر ذلك اليوم كما لو أنه بالأمس فقط. كان هناك إناء أزهار في هذا المكان فوق خزانة صغيرة. وخلف المصرف، على يسار هذا الرف، يوجد تمثال صغير لمريم العذراء، تمثال بالجبس بألوان زاهية...

وفيما كانت تستحضر تلك الذكريات التي عادت إليّ بتفاصيل عجيبة، شلّني صوتها الوديع الملهم. بدا لي كما لو أن فيضانا يجرفني برفق. ولكن صوت السيّدة كازيناف ارتفع ضد صوت ابنتها وانتشر برأسي، متوسلا، خائرا، أشبه بصلاة. برغم كثافته والضوضاء التي يحدثها، توصل صوت إيميلي بسهولة إليّ، واضحا، شفافا، بحدّة سمك الأنقليس. قالت:

- يونس، أليس كذلك؟ أتذكّر كل شيء.
- أنا...

وضعت أصبعا على فمي:

- من فضلك، لا تقل شيئا الآن. أخاف مما ستقوله لي. يجب أن أسترجع أنفاسي، أظن أنّك تفهمني؟

أخذت يدي ووضعتها على نهدها:

- أتسمع كيف يخفق قلبي، جوناس... يونس...

قلت دون أن أجرؤ على سحب يدي، مشلولا بنظرتها:

- إن ما نفعله شرّ.
- أيّ شر هذا الذي تقصده؟
- جان كريستوف يحبّك. يكاد يجنّ من أجلك. يحكي في كل مكان أنكما ستتزوجان...

حاولت رفع صوتي للتغلب على صوتي الأم والبيت وهما يخوضان معركة عملاقة في رأسي.

- لماذا تتحدّث عنه؟ يتعلّق الأمر بنا نحن.
- آنا آسفة آنستي. جان كريستوف أغلى عندي من ذكرى طفولة عابرة.

تلقّت الضربة. بصبر ونبل. قلت في محاولة لاستدراك حماقتي:

- لم أقصد الإساءة إليك.

حطّت أصبعها ثانية على فمي.

- لا تعتذر عن شيء، يونس. أفهمك. ربما كان الحق معك، لم يحن الوقت بعد. ولكنني كنت مصرة على أن تعرف مشاعري نحوك. أنت بالنسبة لي أغلى بكثير من ذكرى طفولة عابرة. ومن حقي أن أفكر هكذا. لا يوجد عيب ولا جريمة عندما نحب، إلا إذا ضحينا به، حتى وإن كانت التضحية من أجل أهداف نبيلة.

وبعد هذا انسحبت. بلا ضجيج. دون أن تلتفت. أبدا، لم أشعر بعزلة تنتابني مثل اللحظة التي التحقت بضوضاء الزقاق.

.15

جان كريستوف على قيد الحياة.
تنفست ريو صالادو الصعداء.
ذات مساء، ودون أن ينتظره أحد، كلّم أمه عبر الهاتف ليقول لها أنه بخير. حسب السيّدة لامي، فإنّ ابنه كان صافي الذهن. يتكلّم بهدوء، بكلمات بسيطة ومستقيمة، وتنفسه كان عاديا. سألته لماذا ذهب ومن أين يكلمها. اكتفى جان كريستوف بعبارات عامة، جاهزة، من مثل أنّ ريو صالادو ليست مركز العالم وأنّ هناك طرقا أخرى عليه أن يسلكها، متجنبا السؤال الحرج حول مكان تواجده وكيف يتدبّر أمره يوميا كي يعيش لأنه ذهب بلا مال ولا أمتعة. لم تلح السيّدة لامي؛ اتصل بها فلذة كبدها ليخبرها بأنه في صحة جيدة، وهذا يكفي لإزالة قلقها. لقد أدركت أن الصدمة كانت عميقة، وأنّ "الصفاء" الذي تظاهر به ابنها ليس إلا طريقة لإخفائها، وخشيت إنْ هي تمادت في الأسئلة الحرجة أن تدمي الجرح من جديد.
بعد ذلك، كتب جان كريستوف رسالة طويلة لإيزابيل اعترف لها فيها بحبه الكبير وندمه على عدم معرفة كيفية تنميته. كانت نوعا من الرسالة/الوصية؛ فبكت إيزابيل روسيليو وذرفت دموعا حارة، مقتنعة بأنّ "خطيبها" السابق يكون قد رمى نفسه من فوق شاطئ صخري أو تحت عجلات قطار مباشرة بعد إيداع رسالته في البريد – كانت الكتابة على الطابع غير واضحة تماما، وبالتالي لم نعرف من أين بُعثت الرسالة.
ثلاثة أشهر بعد ذلك، تلقى فابريس رسالته مليئة بالاعتذار والندم. اعترف جان كريستوف أنه كان أنانيا، وضرب عرض الحائط القوانين الأساسية للمعاملات والواجبات التي كان عليه أن يتخذها اتجاه شخص يعزّه منذ المدرسة والذي يبقى صديقه الكبير، ذلك بسبب انسياقه خلف نشوة التملك ورغبة التفوّق... لم يترك عنوانه.
ثمانية أشهر بعد حادثة المكتبة، اكتشف سيمون –الذي تعاقد خلال هذه الفترة مع السيّدة كازيناف لإطلاق ورشة للخياطة الراقية في وهران-، ضمن بريده، رسالة كريستوف الموجّهة إليه؛ مع صورة حديثة لصديقنا المختفي بلباس عسكري، الرأس

حليق، شاهرا بندقيته، مع كلمات قليلة في الظهر: إنها حياة القصر، شكرا أيها الرقيب.على الظرف، يشير طابع البريد إلى مدينة خميس مليانة. قرّر فابريس الذهاب إلى هناك. رافقناه، سيمون وأنا، إلى غاية ثكنة المدينة المذكورة، فقيل لنا أن المدرسة لم تعد تستقبل "الأهالي" منذ ثلاث أو أربع سنوات؛ وجّهونا باتجاه شرشال. لم يكن كريستوف في مدرسة شرشال العسكرية ولا في القليعة. طرقنا أبوابا عديدة، تأكّدنا قرب ثكنات الجزائر والبليدة؛ بلا جدوى. كنا نتابع شبحا... عدنا إلى ريو بخفي حنين يسحقنا التعب. لم يجد فابريس وسيمون شرحا لسبب هجرة بكر جماعتنا. شكوا في شجن العشق ولكنهما لم يكونا متأكدين. لم يظهر على إيميلي أنها تلوم نفسها على شيء ما. كنا نراها تارة في المكتبة تساعد السيّدة لامبير، وتارة أخرى في الشارع الرئيسي تتجوّل قرب واجهات الحوانيت في سوداوية لطيفة. على كل حال كان قرار جان كريستوف يربك الجميع. إن الانخراط في الجيش لم يكن من عادة شبان ريو صالادو؛ ليس كونا لائقا لنا ولم نكن نفصل اختيار جان كريستوف من إرادة عبثية وعصية الاحتمال لتعذيب النفس. في رسائله، لم يشر ولو مرة واحدة، إلى الإرهاصات التي قادته إلى التخلي عن حريته، عن عائلته، عن قريته، كي يسلّم نفسه، مقيّد اليدين والقدمين، إلى قوانين العسكرية والعمل الإرادي على نزع شخصيته والخضوع. كانت الرسالة التي وجّهها إلى سيمون هي الأخيرة.

لم أتلقَ رسالتي أبدا.

واصلت إيميلي زياراتها لي. أحيانا، نمكث متقابلين دون أن نتبادل ولو كلمة، ولو عبارة مجاملة. هل لدينا ما نضيفه؟ لقد قلنا الأهم مما كان سيقال. بالنسبة إليها، كنت بحاجة إلى وقت، فتسلّحت بالصبر؛ بالنسبة لي، ما تقترحه كان مستحيل التحقيق، ولكن كيف أفهمها دون إهانتها وإحداث كارثة في القرية بأكملها. كانت علاقة مستحيلة، ضد الطبيعة. كنت مضطربا، لا أعرف ماذا أفعل. لذلك سكتت.

احتملت إيميلي سكوتي؛ لم تبحث عن تكسير النظام المستتب، وفي نفس الوقت، تعمل المستحيل لإبقاء رابط العلاقة بيننا. فكّرت بأنني عرضة تأنيب للضمير بسبب ما وقع لجان كريستوف، وأنه سينتهي بي الأمر إلى تجاوز حالة تأنيب الضمير هذه، بأن عينيها الواسعتين ستتغلبان، مع طول الوقت، على وساوسي. منذ أن عرفنا في القرية أن جان كريستوف لا يزال على قيد الحياة، خف الضغط بيننا فجأة... دون أن تتصالح علاقتنا. جان كريستوف غائب، ولكن غيابه يحفر الساقية التي تفصلنا، يلقي ظلاله على تفكيرنا، يظلم مشاريعنا. تقرأ إيميلي ذلك على تقاسيم وجهي. تصل

حازمة، تشدّ في ذراعيها ما قضت تنسج من كلمات طوال الليل، ثمّ تنهار لحظة الحقيقة؛ لا تجرؤ على أخذ يدي أو وضع أصبعها على فمي.
تخترع مرضا خياليا، تطلب دواء لتبرّر وجودها في عيادتي. أسجّل في دفتري طلبها، أخدمها عندما يكون الدواء موجودا، وينتهي كل شيء. تمنح لنفسها بعض دقائق للتفكير، تغامر بفكرة أو اثنتين، بسؤال عملي أو اثنين حول كيفية استخدام الدواء، وبعد ذلك تغادر الصيدلية. في حقيقة الأمر، كانت تتمنى أن تجد عندي إشارة ما فتئت تترقبها يائسة كي تفتح لي قلبها؛ لم أشجعها. أتظاهر بعدم الانتباه إلى إلحاحها الصامت، المقيّد بمأساوية جلية، ولكنني أقاوم من أجل أن لا أستسلم، مقتنعا بأنني لو أظهرت علامة ضعف، ستستغل الفرصة لاستئناف ما اجتهدت في طمسه.
خلال هذه المناورة الوقحة التي أتقزّز من ممارستها، وفيما كنت ألعب دور الذي لا يكترث بشيء، كنت أتعذّب. من زيارة إلى أخرى –وفي حقيقة الأمر من فراق إلى آخر-انتبهت إلى أن إيميلي تستحوذ على انشغالاتي، تحتل مساحات جديدة، تتحوّل إلى مركز اهتمامي الرئيسي. لا يمكنني أن أنام ليلا بدون أن أستَحضر جميع حركاتها وسكوتها. نهارا، خلف المصرف، أنتظر قدومها؛ يأتيني كل زبون يدخل العيادة بشبر من غيابها، بحيث أصبحت أهيم بها، أرتجف حينما يدق جرس الباب وأفقد أعصابي حينما أدرك أنها ليست هي التي تدفع الباب. ما التحوّل الذي يتحرّك بداخلي؟ لماذا تلومني لأنني شخص عاقل؟ هل ينبغي للتصحيح أن يتغلب على الإخلاص؟ ما فائدة الحب إنْ لم يتغلب على السحر وانتهاك الحرمات، إنْ خضع للممنوعات، إنْ لم يطع هواجسه الخاصة، مبالغاته الخاصة؟... لم أعرف أين أوجّه تفكيري. وبدا لي شجن إيميلي أسوأ من جميع الجحود، جميع المدنسات والكفريات مجتمعة.
سألتني في يأس:
- سيدوم هذا الوضع إلى متى، يونس؟
- لا أرى عما تتحدثين.
- الأمر واضح وضوح الشمس. أتحدّث عنا، نحن الاثنين... كيف يمكنك أن تعاملني بهذه الطريقة؟ أجيء مرارا إلى هذه الصيدلية التعيسة، وتتظاهر بجهل حزني، وصبري وانتظاري. يبدو أنك تتعمّد إذلالي. لماذا؟ ما هو اللوم الذي توجّهه إليّ؟
- ...
- هل بسبب الدين؟ لأنني مسيحية وأنت مسلم، هذا هو، أليس كذلك؟

- لا.
- ما الأمر إذاً؟ لا تقل لي فقط أنك غير مبالٍ بي، بأنك لا تحس بشيء ناحيتي. أنا امرأة، وحدسي قوي. أعرف أن المشكلة لا تنحصر في هذه الناحية. لا أرى حتى نوعية المشكلة التي يمكنها أن تكون بيننا. لقد أخبرتك بشعوري ناحيتك. ماذا تريدني أن أفعل أكثر من هذا؟
كانت ساخطة وعصبية في آن واحد، على شفى حفرة من الانفجار بالبكاء. أرادت قبضتاها المتشنجتان على مستوى صدرها أن تمسكني من الرقبة وتهزني إلى غاية تفكيكي.
- آنا آسف.
- بمعنى؟
- لا أستطيع.
- لا تستطيع ماذا؟
كنت متضايقا، شقيا، بلا أدنى شك، ساخطا أنا أيضا بسبب غموض موقفي، وجبني وعجزي عن اتخاذ قرار نهائي لأرجع لهذه الفتاة حريتها وكرامتها، وقد أبقيتها رهينة تردّدي وأنا أعلم علم اليقين أن حكايتنا ليس لها مستقبل. ألم أكن أكذب على نفسي، أمتحن نفسي في موضوع ليس لدي شيء أؤكده ولا حاجز أخترقه؟ هل يُعد هذا تعذيبا للنفس أيضا؟ كيف أفصل في الأمر دون أن أقضي على نفسي، دون أن أفقد صواب عقلي؟ لم تخطئ إيميلي؛ كانت عواطفي ناحيتها قوية. في كل مرة أحاول أن أجد تبريرا عقليا، ينتفض قلبي؛ يلومني على إرادتي في بتره. ما العمل؟ ما هذا الحب الذي ينبني على انتهاك الحرمات، بلا نبل ولا تبريك؟ كيف يفعل ليعيش وسط النذالة التي تسقيه مثل مياة ملوّثة؟
- أحبك، يونس... هل تسمعني؟
- ...
- سأذهب. ولن أعود إلى هذا المكان. إذا أحسست بشعور مماثل اتجاهي، تعرف أين ستجدني.
فلتت منها دمعة؛ لم تمسحها. أغرقتني عيناها الواسعتان. ببطء، جمعت حولها يديها الصغيرتين اللتين شدّتهما إلى بطنها وخرجت.
- للأسف الشديد...
وقف عمّي ورائي. قضيت وقتا معتبرا وأنا أتساءل عما يلمّح. هل استمع إلى حديثنا؟ سيلوم نفسه إن اختلس السمع خلف الأبواب. ليس مثل هذا السلوك من عاداته. كنا

نتحدّث عن كل شيء باستثناء النساء. إنها من الموضوعات المحرمة. برغم ثقافته وتفتحه، كان حياء وراثي يمنعه من مباشرة هذه المسألة بشكل صريح معي. في تقاليد مجتمعنا، نتطرق إلى هذا الموضوع بالتلميح أو بالتوكيل، أي بتكليف شخص وسيط –كان سيَحمل جرمان بتلقيني الدرس.

- كنت في الغرفة الخلفية، والباب لم يكن مغلقا.

- ليس في الأمر شيء.

- ربما كان الوضع هكذا أحسن؟ يمكن للفضول اللاإرادي أن ينفع. من يعرف؟... استمعت إلى حديثك مع هذه الفتاة. قلت مع نفسي: اغْلَق الباب. ولكنني لم أغلقه. ليس بسبب فضول غير سوي، وإنما أحببت دائما سماع خطاب القلوب. بالنسبة إليّ، لا توجد أروع سمفونية... أتسمح؟

- طبعا.

- يمكنك إيقافي متى شئت، يا ولدي.

جلس على المقعد وبدأ بتأمل أصابعه الواحدة وراء الآخرة، ثمّ أحنى رقبته وقال بصوت بعيد:

- إن الرجل ليس إلا رعونة وحماقات، أخطاء في الحساب ومناورات مزيفة، تهور غير محسوب وموضوع إخفاق حينما يظن أنه يتقدّم نحو مصيره وهو يبعد المرأة... صَحيح أن المرأة ليست كل شيء، ولكن كل شيء يرتكز على المرأة... انْظُر حولك، تفحص التاريخ، تأمل المعمورة بأسرها وقل لي ما مكانة الرجال بلا نساء، ما هي أمنياتهم ودعاواهم حينما لا تكون النساء موضوعها... أن تكون غنيا مثل قارون أو فقيرا مثل أيوب، مقموعا أو طاغيا، لا يكفي أي أفق لملء رؤيتك إن أدارت لك المرأة ظهرها.

ابتسم كما لو أنه يكلم ذكرى مبهمة:

- حينما لا تكون المرأة الطموح الأسمى للرجل، حينما لا تشكل نهاية كل مبادرة في هذا العالم، لا تستحق الحياة أفراحَها ولا أتراحَها.

ضرب فخذيه بيديه ووقف:

- في صغري، كنت أذهب باستمرار إلى الصخرة الكبيرة وأتأمل غروب الشمس. كان المنظر رائعا. تصوّرت أن ذلك هو الوجه الحقيقي للجمال. ثمّ رأيت الثلج يكسو السهول والغابات ببياض ساطع وبسكينة، والقصور وسط حدائق غناء خلابة، وأشياء أخرى من روائع الكون، وتساءلت كيف يكون جمال الفردوس إذا...

اتكأت يده على كتفي:

- الجنة بدون حوريات ليست إلا طبيعة ميتة، بلا أدنى مذاق...

انغَرَزت أصابعه في لحمي وبعثت ذبذباتها عبر كياني. يعود عمّي إلى الحياة ثانية مثل السَّمنْدَر. يريد أن يرسل إليّ معجزة عودته إلى الحياة. كانت عيناه على وشك الانبثاق خارج رأسه من فرط الجهود التي يبذلها لإخراج كل كلمة يتلفظ بها:
- غروب الشمس، الربيع، زرقة البحر، كل هذه الأشياء التي نقول عنها ساحرة ليست كذلك إلا إذا دارت حول امرأة، يا ولدي. لأن الجمال، الحقيقي، الوحيد، الجمال الساطع، الجمال المطلق هو المرأة. أما الباقي، كل الباقي ما هو إلا متاع الزينة.
استولت يده الأخرى على كتفي الشاغر. طارد شيئا ما في عمق عينيّ. كاد أنفانا أن يتلامسا، واختلطت أنفاسنا. لم أره أبدا في هذه الحالة، سوى ذلك اليوم الذي ذهب عند جرمان ليخبرها بأن حفيدها أصبح ابنهما.
- إذا كانت امرأة تحبك، يونس، إذا أحبتك امرأة بعمق وصدق، وإذا كانت لديك نفاد البصيرة لقياس مدى هذه الحظوة، لا يمكن لأية آلهة أن تصل إلى وتدك.
وقبل أن يصعد الدرج باتجاه مكتبه، يده على العمود الخشبي الصاعد، قال لي:
- اجرِ، التحق بها... ذات يوم، يمكن أن نركض بأسرع من نيزك، ولكن الذي يترك فرصة عمره تضيع من بين أصابعه، لا تواسيه جميع أمجاد الأرض.
لم أسمع إلى نصيحته.

تزوّج فابريس اسكاماروني هيلان لوفابر في جويلية 1951. كان حفلا رائعا؛ كان عدد المدعوين كبيرا جدا، بحيث تمّ العرس في شوطين. الأول لضيوف المدينة والمهنة – فريق من الصحفيين وضمنهم كامل طاقم التحرير لجريدة "صدى وهران"، فنانون، رياضيون، وقسم كبير من أعيان مدينة وهران ومن بينهم الكاتب إيمانويل روبليس. أقيم هذا الشوط الأول من العرس في عين الترك، عند صناعي ثري من أصدقاء السيدة اسكاماروني، في ملكية شاسعة مطلة على البحر. كنت ضجرا في تلك السَهرة. حضرت إيميلي، لاصقة في ذراع سيمون. كما حضرت أيضا السيّدة كازيناف، تائهة نوعا ما. ازدهرت تجارتها مع سيمون؛ كانت دار خياطتهما تلبس أثرياء ريو صالادو وحمام بوحْجَر، وفرضت نفسها في أسواق وهران الأنيقة برغم المنافسة الشرسة. خلال ازدحام خفيف حول وليمة الأكل، رفسني سيمون على القدم، فلم يعتذر. بل واصل البحث عن إيميلي وسط الحشد واتّجه صوبا نحوها، وصينيته بين ذراعيه. ماذا روت له بشأني؟ لماذا يتصرف صَديقي الدائم كما لو أنني غير موجود؟
كنت مُتعبا جدا ولم أسأله.

أما الشوط الثاني، فخُصّ لسكان القرية. أصرّت ريو صالادو أن تحتفل بزواج ابنها العبقري في حميمية خالصة. أهدى الجدّ روسيليو خمسين كبشا واستقدم من منطقة سَبْدو أحسن الاختصاصيين في تحضير المشوي. كما وضع والد آندري، جيم جيميناز صوزا، تحت تصرّف عائلة اسكاماروني جناحا واسعا من مزرعته المسيّجة بالنخيل والتي زيِّنَت بستائر حريرية ومصابيح ومقاعد مبطنة ومأدُبة كبرى تكاد تخر تحت ثقل ما لذّ وطاب من المأكولات وباقات الأزهار. في وسط الساحة، نصِّبَت خيمة كبرى بها زرابي ووسائد. أما الخدم، وهم من العرب والسود، فيرتدون بذلا تقليدية بصدائر مطرّزة وسراويل فضفاضة ترتفع إلى غاية منتصف السيقان، وعمائم صفراء اللون متلألئة. بدا الديكور مستوحى من حكايات ألف ليلة وليلة. هنا أيضا لم أكن مرتاح البال. لم تترك إيميلي ذراع سيمون، أما السيّدة كازيناف، فكانت تراقبني بلا هوادة، خائفة من نوبة غيرة محتملة. في السهرة، أمتعت فرقة مشهورة في الموسيقى العربية اليهودية، جاءَت خصيصا من قسنطينة، المدينة الأسطورية، الحضور بأغاني رائعة. لم أكن أسمع إلا بأذن واحدة، جالسا على صندوق في آخر طرف الساحة، تحت مصباح شاحب. حينما قدّم لي جلول صحنا من اللحم المشوي، همس في أذني أن سحنتي المتجهمة قد تفسد كل أفراح الأرض. انتبهت فعلا أنني لم أكن في حالة شخص جاء يحتفل بعرس زواج أعز أصدقائه، وعوض أن أبقى هنا أنغص فرح مئات الضيوف، من الأفضل لي أن أغادر الحفل إلى البيت. ما كان موقفي ليظهر معقولا: سيغضب فابريس، ولا أريد أن أفقده هو أيضا.

بدأ عالمي يتقلّص بعد أن اختفى جان كريستوف وتزوّج فابريس وغاب سيمون منذ أن أصبح شريك السيّدة كازيناف في الأعمال. كنت أستيقظ باكرا وأنغلق في الصيدلية طوال النهار؛ وبعد إسدال الستار في نهاية الظهيرة، لا أعرف ماذا أفعل بسهرتي. في البداية كنت أختلف إلى حانة آندري ألعب بضعة مقابلات البليار مع جوزي، ثم أعود إلى المنزل ولا أغامر بالخروج ثانية بعد سقوط الليل. أصعد إلى غرفتي، أتناول كتابا وأقرأ مرات عديدة فصلا دون أن أستوعبه. لا أستطيع التركيز. ولا حتى مع زبائني. كم مرة قرأت وصفة الطبيب خطأ وقدّمت دواءً مكان آخر، ونسيت نفسي بين الرفوف لدقائق طويلة، عاجزا عن التذكر أين وضعت هذا الدواء أو ذاك؟ عند الطاولة، كانت جرمان تقرصني باستمرار كي أستيقظ لنفسي. أسرح دوما وأنسى تناول أكلي. كان عمّي حزينا لحالي ولكنه لم يقل شيئا.

ثمّ تدحرجت الأحداث بسرعة. وبما أنني كنت رخوا ولم أستطع متابعتها، فتضاعفت المسافة بيني وبينها، وبقيت على الهامش. رُزِق فابريس بطفل جميل، وردي الوجه،

ممتلئ الخدود، واستقر مع هيلان في وهران. لم تتأخر أمه في بيع أملاكها في ريو كي ترحل إلى عين الترك. حينما أمر بقرب منزلهم الساكت والمغلقة أبوابه، ينتابني الغثيان. إنه جزء من حياتي يتبخّر في الهواء، جزيرة تختفي من أرخبيلي. فأصبحت أتجنب المرور بقربها وأسلك أزقة أخرى، أستدير كامل ذلك المجمع السكني. أتصرف كما لو أن هذا الجزء من القرية لم يوجد أبدا... من جهته تزوّج آندري قريبة له تكبره بثلاث سنوات وطار إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كان من المفروض أن يقضي هناك شهْر العسل ويعود، ولكن إقامته استمرت طويلا... لم يبق في "السنايك" إلا جوزي، ولم تعد الحانة تعرف الحشد السابق، لقد تعب الناس من اللعب بالبليار صباحا ومساءً.

ضجرت.

لم يعد الشاطئ يجذبني. بعد افتراق أصدقائي، لم تعرف الرمال الساخنة كيف تقص عليّ لذّة التمدّد فوقها وتطفئ الأمواج أحلامي، الواحد بعد الآخر، الآن بعد أن أصبحت لا أملك شخصا أقاسمه إياها. غالبا ما كنت لا أشعر برغبة في الخروج من السيارة. أفضل البقاء خلف المقود، أوقف السيارة على مرتفع جرف وأتأمل الصخور الصامتة التي ترتطم عليها الأمواج بضعف مياه بحيرة. أحب أن أنسى نفسي لساعات طويلة، تحت ظل شجرة، اليدان على المقود أو الذراعان مرميان فوق ظهر مقعدي. تحلق زقزقات النوارس وصراخ الأطفال فوق همومي ويجلب لي نوعا من السكينة الداخلية التي لا أتخلى عنها إلا عندما يخيّم الظلام ولا تتأجج أي سيجارة على الشاطئ.

فكرت في العودة إلى وهران. ضاقت بي ريو صالادو. لم أعد أتعرف على معالمها ولا تسحرني نزواتها. أعيش على الهامش. أرى بأن الناس لم يتغيّروا، وأن الوجوه أليفة عندي، غير أنني كنت أخاف أن لا ألقى إلا الريح إنْ أنا مددت يدي لأصافحهم. لقد انتهى عهد. انقلبت الصفحة وكنت أمام الصفحة الجديدة، بيضاء، كابتة، خشنة الملمس. يجب أن أبتعد عنها بعض الوقت، أن أغيّر السماء والأفق. ولما لا، قطع الحبال التي لا تشدّني إلى أي مكان.

كنت أشعر بنفسي وحيدا.

فكّرت جديا بأن أستأنف البحث للعثور على أمّي وأختي. إلهي ! كم أشتاق إلى رؤيتهما. كنت معاقا بدونهما، لا يطفئ حزني أي شيء آخر. لقد حدث لي، تباعا للظروف، أن عدت إلى جنان جاتو آملا في التقاط أخبار من شأنها أن توجّهني. هنا أيضا، أخطأت التقدير. كانت الساعة للبقاء على قيد الحياة. للأولويات. للاستعجالات.

للهيجانات المتأجّجة في السرّ. من يتذكّر امرأة بائسة مرافقة بطفلة معاقة؟ للناس أشغال أهم من هذا بكثير. يوجد كثير من الناس يتدفقون ليل نهار على جنان جاتو. لقد تغيّر الحي الخطير القابع خلف الأدغال والأكواخ إلى حيّ حقيقي، بأزقته الصاخبة وأصحاب العربات المشاكسين والبقالين الحذرين والحمامات الغاصة بالناس والطرق المعبّدة وأكشاك السجائر. كان ساق الحطب في مكانه دائما، مركونا وسط منافسيه. أما الحلاق، فلم يعد يحلق شعر الشيوخ الجالسين أرضا، بل أصبح يملك صالون حلاقة حديث بكرسي متحرك ومرايا لاصقة في الجدار، وحوض ماء ورف خشبي لعتاد عمله. أعيد إصلاح حوشنا كاملا؛ استعاد بْليس السمسار سيطرته عليه. صرّح لي بأنه سوف لن يتعرّف على أمي حتى وإن التقاها وجها لوجه لأنه لم يقترب منها أبدا. لا أحد يعرف أين توجد أمي وأختي، لا أحد رآهما بعد حادثة الحريق والمأساة التي تلت. استطعت أن أعرف عنوان باتول العرّافة؛ لقد استبدلت أوراقها وقدرها السحري مقابل سجلات تجارية وتسيّر أعمالها أفضل من شقاء الناس؛ على كل، لا تفرغ حماماتها أبدا، فوعدتني أن تتصل بي إن عثرت على خيط يوصلني إليهما –ولكنها لم تبعث لي أيّ خبر منذ عامين تقريبا.
فكرت إذا بأنّ استئناف البحث قد يخلصني من الهم الذي يقض مضجعي بعد الذي حدث مع جان كريستوف، ومن الدعوات التي أتغيب عنها باستمرار، ومن العذاب العميق الذي يرهقني كلما فكّرت في إيميلي. لم أعد أطيق العيش في نفس القرية التي تتنفس فيها، ومصادفتها في الشارع والمرور كأن شيئا لم يحدث بينما كانت تسيطر على ليالي وأيامي بلا اقتسام. الآن وبعد أن انقطعت عني زياراتها، قدّرت هول عزلتي. أعرف أن جرحي سوف لن يبرأ بسرعة، ولكن ما العمل؟ سوف لن تسمح لي إيميلي، في جميع الحالات. إنها حاقدة عليّ بشكل رهيب. وأظن أنها تكرهني. حينما تلتقي عيوننا ولو صدفة، أرى العدوانية اللامعة في بصرها وأحس بها تلدغني إلى عمق كياني. ليست بحاجة إلى أن ترفع بصرها نحوي. في غالب الأحيان، تتجنبني. ومع ذلك، ومهما اهتمت بأشياء أخرى، كأن تتأمل الأرض أو تنظر إلى السماء، فأدرك بوضوح الجمرة المتأججة التي تقبع في عمق عينيها، الشبيهة بحمى بركانية التي لا تستطيع ملايير الأطنان من المياه ولا ظلمات أعماق البحار إطفاءها.

كنت أتناول غذائي في مطعم صغير على جبهة البحر في وهران حينما دقّ أحد على زجاج الواجهة. كان سيمون بن يامين ملفوفا في معطف وعنُقية على الذقن وأعلى جبينه يغزوه الصلع.

يكاد يطير فرحا.
رأيته يجري باتجاه باب الدخول، ثمّ ينقضّ عليّ، جارّا معه موجة برد. قال:
- تعالَ. آخذك إلى مطعم حقيقي حيث السمك ألين من نهد مراهقة.
قلت له بأنني على وشك إنهاء غذائي. مطّ شفتيه بانزعاج، فنزع معطفه وعنقيته واتخذ مكانه مقابلا لي.
- ما نوع المأكولات المقدّمة في هذا الغار؟
نادى النادل، طلب كُفتَة خروف وسلاطة ونصف قنينة نبيذ؛ ثمّ حكّ يديه بحماسة وقال:
- هل تتدلّل علينا أم أنك غاضب عنا؟... قبل أيام قليلة، حييتك بيدي في لورمال ولم تجبني.
- في لورمال؟
- نعم، الخميس الماضي. كنتَ خارجا من محل لتنظيف الملابس.
- أيوجد منظف ملابس في لورمال؟
لا أتذكّر. منذ فترة، كثيرا ما يحدث لي أن أستقل سيارتي وأسير دون هدف. وجدت نفسي مرتين في تلمسان، وسط سوق يغلي بالناس والضجيج، دون أن أعرف لماذا أو كيف نزلت في الضواحي. أصبت بسرنمة نهارية عادة ما تقودني إلى أماكن مجهولة. تسألني جرمان أي كنت وكما لو أنها تخرجني من بئر عميقة وبلا ذاكرة.
- زيادة على هذا، إنك ضعفت كثيرا. ماذا أصابك؟
- أنا بدوري أتساءل، سيمون، أتساءل... وأنت؟ كيف هي أحوالك؟
- أحوالي على أحسن ما يرام.
- لماذا إذاً تدير لي رأسك حينما تصادفني في الطريق؟
- أنا؟... لماذا تريدني أن أدير رأسي لأعز صديق لي؟
- مزاج متقلب الأطوار. منذ أكثر من سنة تقريبا، لم تمرّ علي بالبيت.
- بسبب أعمالي. أنا في أوج الازدهار، والمنافسة شرسة. نترك جزءًا من جلدنا عند كل شبر منتزع. أتواجد باستمرار في وهران، أتصارع ضد النهاشين والمنافسين، ولا أزور ريو إلا لماما. ماذا تصوّرت؟ بأنني خاصمتك؟
مسحت فمي. أزعجني الحديث. تشوّهه ألحان مزيفة كثيرة. لا يعجبني سيمون الذي يعنّفني بأسئلته. لم يعد سيمون الذي أعرفه، حليفي ومؤمن على أسراري والمتحمل لجميع حماقاتي. لقد أبعده وضعه الاجتماعي الجديد عني. ربما كنت

غيورا من نجاحه، من سيارته الجديدة اللامعة التي يتعمّد على نسيانها في الساحة العمومية كي يلتف الأطفال حولها كسرب الذباب، من سحنته التي فقدت قليلا من سمرتها، وبطنه الذي فقد هو أيضا قليلا من شحمه؟ ربما ألومه على شراكته مع السيّدة كازيناف؟... خطأ ! أنا الذي تغيّرت. جوناس يتوارى خلف يونس. تغلبّت مرارتي على طبيعتي. أصبحت شريرا. شريرا جدا. شرّ مكبوت، لم أجهر به أبدا، ولكنه يسري بداخلي كهضم عسير. لم أعد أتحمل الحفلات وأعراس الزواج وحفلات الرقص ورؤية الناس وهم يجلسون إلى طاولة في شرفات المقاهي. كنت حسّاسا لانشراحهم. فكرهتهم !... كرهت السيّدة كازيناف. كرهتها من جميع قواي... الضغينة تملأني، إنها سمّ قاضم: تخرق الأحشاء، تستولي على الرأس، تسكنك كما العفريت. كيف تدهورت بي الأمور إلى هذا الحدّ؟ ما هي الأسباب التي دفعتني إلى تنمية كراهية إزاء سيّدة لم تعد تهمُّني؟ حينما لا نجد حلا لشقائنا، نبحث له عن مذنب. بالنسبة لي، كانت السيدة كازيناف هي المذنبة المثالية. أليست هي التي أغوتني ثم تركني؟ أليست تلك المغامرة العابرة هي التي أجبرتني على التخلي عن إيميلي؟

إيميلي !

بمجرّد التفكير في الموضوع، يلتهب كياني سخطا وعجزا.

أتى النادل بسلة صغيرة من الخبز الأبيض، وسلاطة مزينة بزيتون أسود وخيّار مخلل. شكره سيمون، وألحّ عليه كي يقدّم له الكفتة بأسرع ما يمكن لأنّ أشغالا مهمة تنتظره. بعد مُضغ قليلة مصطفقة، انحنى على صحنه وهمس لي، كما لو أنه خاف أن يسمعه أحد:

- ربما تساءلت لماذا أوجد في حالة هيجان قصوى؟... هل يمكنك حفاظ السر الذي سأبوح به لك؟ أنت تعرف الناس عندنا وعيونهم الحاسدة...

اصطدم حماسه بلامبالاتي. قطّب حاجبيه:

- أنت تخفي عني شيئا، جوناس، شيئا خطيرا؟
- الحقيقة أن حالة عمّي تقلقني...
- هل أنت متأكّد أنّك لا تخفي حسابا قديما ضدي؟
- لماذا تريدني أن أخفي حسابا قديما ضدك؟
- لماذا هذه الكآبة إذا؟ أنا أستعد لأزُفّ لك خبرا رائعا، وأنت تقابلني بسحنة تهدّ دبابة...
- هيا، احكِ. ربما أخرجني خبرك من كآبتي.

- وهذا ما أريده فعلا. طيّب، ها هو الخبر الخام: اقترحت عليّ السيّدة كازيناف يد ابنتها ووافقت... ولكن مهلا، ليس الأمر رسميا بعد.

طفَح الكيْل.

بدا انعكاس صورتي في الواجهة الزجاجية مقاوما، ولكن كياني تفتّت من الداخل. يترنّح سيمون سعادة –هو الذي وصف إيميلي بالسرعوفة والغاوية ! لم أعد أسمع ما يحكيه لي، لا أرى إلا عينيه المبتهجتين وفمه الضاحك اللامع بزيت الزيتون، ويديه اللتين تقطعان الخبز وتدعكان المنديل، تترددان بين الفرشاة والملعقة، ومنكبيه اللذين يَهتَزّان في ابتهاج مرح... التهم كُفتَته، ابتلع قهوته، دخّن سيجارة، دون أن يتوقف عن الكلام... بعد ذلك وقف، قال لي شيئا لم أسمعه في خضم الصفير المتواصل الذي يصمّ أذنيّ... خرج إلى الشارع وهو يرتدي معطفه، أشار لي بيده خلف الواجهة الزجاجية واختفى...

بقيت في طاولتي، ملتصقا بكرسيّي، سارحا في الفراغ. لم أخرج رأسي من تحت الماء إلا بعد أن جاء النادل ليخبرني بأنه قد حان وقت إغلاق المطبخ.

لم يحافظ مشروع سيمون على سريته. بعد أسابيع قليلة، نجحت مناورات سيمون السرية. في ريو صالادو، حينما يمر في سيارته، يحيّيه الناس. يصرخون باتجاهه في جو مرح: "أيها المحظوظ !" تهنئ الفتيات إيميلي جهرا. أشاعت الألسنة المغرضة أن السيدة كازيناف باعت ابنتها بثمن زهيد؛ أما الأقل عقلنة فإن ريقهم يسيل وهم يتخيلون الوليمة التي سيقيمها صاحب الحظ في نيل قلب المعشوقة. توارى الخريف على أطراف الأصابع، متبوعا بشتاء قاسٍ. أعلن الربيع صيفا قائظا، وكسى السهول بأخضر متألّق. قرّرت عائلتا كازيناف وبن يامين الاحتفال بالخطوبة في شهر ماي، والزواج عند بداية موسم قطف العنب.

قبل أيام من الخطوبة، في الوقت الذي كنت أستعد فيه لإنزال الستار الحديدي، دفعتني إيميلي إلى داخل الصيدلية. لقد اختلست الطريق كسارقة كي لا تلفت إليها الانتباه. كما لبست منديل فلاحة وفستانا حقيرا رمادي اللون وأحذية بلا أعقاب، بمثابة قناع.

قالت دون مقدمات:

- أتصوّر أنّك على علم. ألحَّت عليّ أمّي. تريد أن أتزوّج سيمون. أجهل كيف تمكنت من إقناعي على الموافقة. ولكن لا شيء قد تمّ رسميا بعد... لأن كل شيء يرتبط بك، يونس.

كانت شاحبة.
ضمُرت بشكل لافت، ولم تعد عيناها البيضاوان تتسيّدان على شيء.
خطفت معصميّ، جذبتني إليها بقوة وهي ترتعد من الرأس إلى القدمين. قالت مُختنقة:
- قل نعم... وأقوم فورا بإلغاء كل شيء.
قبّح الذعر وجهها. أقسم أنها خرجت للتوّ من السرير بعد نقاهة مضنية. يفيض شعرها غير الممشوط من المنديل. ترتعد وجنتاها بتشنج ولم يعرف بصرها الهلع إن كان سيَحرسني أو يحرس الشارع. من أين أتت؟ حذاؤها ملطّخ بالغبار؛ يعبق فستانها بروائح أوراق الكروم؛ تلمع رقبتها من العرق. تكون قد استدارت القرية، وقطعت وسط الحقول كي تصل إلى حدّ منزلنا دون أن تلفت انتباه السكان.
- قل نعم، يونس. قل بأنك تحبني مثلما أحبك، وأنني غالية عندك مثلما أنت غالٍ عندي، خذني بين ذراعيك واحتفظ بي إلى الأبد... يونس، أنت القدر الذي أحبّ أن أعيشه، الخطر الذي أحب أن أخوضه، وأنا مستعدة لأتبعك إلى طرف الدنيا... أحبّك... لا يوجد في عينيّ شيء ولا إنسان أغلى منك... بربّ السماء قل نعم...
لم أتلفظ بكلمة. ذُهلت، صُعقت، أصبت بخرس مرعب.
- لماذا لا تقول شيئا؟...
- ...
- بربّك، قل شيئا ! تكلّم... قل نعم، قل لا، ولكن لا تبقى هكذا... ماذا حدث لك؟ هل فقدت صوتك؟... لا تعذّبني، قل شيئا، بربّ السماء !
ارتفع صوتها. لا تستقر في مكان. ترسل عيناها لهيبا مذعورا.
- ماذا ينبغي لي أن أفهم من صمتك، يونس؟ ماذا يعني سكوتك؟ أنني حمقاء؟... أنت وحش، أنت وحش...
ارتطمت قبضتاها على صدري، في سخط بائس.
- لا تملك مثقال ذرة من الإنسانية، يونس. أنت أسوأ شيء حدث لي في حياتي.
ضربتني في وجهي، هزّت كتفيّ وهي تصرخ كي تغطي شهيقها. ذُهلت ولم أعرف ماذا أقول. خجلت لما أسبب لها من عذاب، كما خجلت لكوني لست إلا فزاعة مغروسة وسط العيادة.
- ألعنك، يونس. لن أغفر لك أبدا، أبدا...
وهربت.

في الغد، أتاني طفل بعلبة. لم يقل لي مَن المرسل. فككت ورق التغليف بحذر مفكك ألغام. حذّرني شيء ما ضد ما سأعثر عليه. بداخل العلبة، يوجد كتاب الجغرافيا مخصص لجزر الكراييب الفرنسية. رفعت الغلاف فوقعت على بقايا وردة قديمة مثل قدم الأرض؛ الوردة التي دسستها في هذا الكتاب منذ ملايين السنين فيما كانت جرمان تداوي إيميلي في الغرفة الخلفية للعيادة.

مساء الاحتفال بالخطوبة، كنت في وهران، عند عائلة جرمان. تحجّجت لسيمون الذي حرس على أن أكون بجانبه مع فابريس بحدوث وفاة عند عائلة زوجة عمّي.

تمّ الزواج مثلما كان مبرمجا في بداية موسم قطف العنب. هذه المرّة، أصرّ سيمون كي لا أغادر ريو صالادو مهما كانت الأعذار. كلّف فابريس بمراقبتي. لم يكن في نيتي الهروب. كان وضعي سيكون سخيفا لو فعلت. ماذا سيفكّر ناس القرية، والأصدقاء والغيورون؟ كيف أتملص دون خلق الشكوك؟ ليس لسيمون دخل في القضية. كان سيبذل جهودا كبيرة من أجلي، مثلما فعل خلال زواج فابريس. كيف يكون موقفي لو تملّصت من أسعد أيامه؟...
اشتريت بدلة وحذاء للمناسبة.
حينما عبر موكب الزفاف القرية في ضجيج منبهات السيارات، ارتديت بدلتي وذهبت راجلا إلى المنزل الأبيض الكبير الواقع على درب المزار. اقترح جار أن يأخذني معه في سيارته؛ ولكنني رفضت شاكرا. كنت بحاجة إلى المشي، إلى تنظيم إيقاع خطواتي حسب إيقاع أفكاري، إلى مواجهة الأمور، واحدة بعد أخرى، في صفاء تام. كانت السماء غائمة، وساطتني ريح خفيفة منعشة في الوجه. خرجت من القرية، مشيت بمحاذاة المقبرة المسيحية، وعندما وصلت إلى الدرب المؤدي إلى المزار، توقفت لأتأمل أضواء الحفل. طفق رذاذ مطر خفيف يسقط، كما لو أنه يوقظني من سباتي.
لا نعي جيدا بالمحتوم إلا عند وقوعه. أبدا، لم أعتبر ليلة نذير شؤم مثل تلك الليلة؛ أبدا لم أحسّ بعرس قاسٍ وظالم مثل ذلك العرس. كانت الموسيقى تصلني في نبرة تعزيمية؛ وتتآمر عليّ تآمر عفريت. يطردني الناس الذين يتسلون حول الفرقة الموسيقية من ابتهاجهم. قدّرت الخسارة العظيمة التي أجسّدها... لماذا؟ لماذا كنت مجبرا على المرور بشفى السعادة دون أن أجرؤ على الاستيلاء عليها؟ ما الجريمة التي اقترفت كي أرى أجمل الحكايات تتملّص بين أصابعي كما دم جرح ساخن؟ ما الحب إن اكتفى بملاحظة خرابه فقط؟ ما قيمة أساطيره وخرافاته، انتصاراته

ومعجزاته، إذا كان عشاقه عاجزين عن الذهاب إلى أبعد من قدراتهم، إذا لم يتحدوا صواعق السماء، والتخلي عن الأفراح الأبدية من أجل قبلة، ضمّة، لحظة قرب الشخص المحبوب؟... تنفخ خيبة الأمل شراييني بنُسْغ سام، تعبئ قلبي بغضب بشع... سَخطت على نفسي لأنني أشبه ثقلا بلا فائدة، مهملا على جانب الطريق.

رجعت إلى منزلي سكرانا بالشجن، أتكئ على لجدران كي لا أسقط. وجدت غرفتي صعوبة في هضمي. انْهوَيْت قرب الباب، العينان مغمضتان، ذقني موجه نحو السقف، وأسترق السمع إلى شراييني لحمي تصطدم في عنفوان شرس، ثمّ ترنحت إلى غاية النافذة؛ لم أكن أعبر غرفتي، وإنما صحراء.

أضاء بريق العتمة. يسقط مطر خفيف. ذرفت واجهات الزجاج دموعا. لم أتعوّد على رؤية الزجاج يبكي. إنه نذير شؤم، أسوأهم جميعا. حينئذ، فكّرت: احذر، يونس، إنك تشفق على نفسك. وماذا بعد؟ أليس هو ما أراه بالضبط: الزجاج يبكي؟ كنت أريد رؤية الدموع على الزجاج، أشفق على نفسي، أعذّب نفسي، أغرق روحا وجسدا في مشقّتي.

ربما كان هذا أفضل لي، كرّرت مع نفسي. لم تكن إيميلي من نصيبي. ليس الأمر أبسَط من هذا. لا نغيِّر مجرى المكتوب على الجبين... ترهات ! بعد ذلك بسنوات، أصل إلى هذه الحقيقة: لا شيء مكتوب سلفا. وإلا لما كان معنى للمحاكمات؛ ولا تكون الأخلاق إلا عجوزا شمطاء، ولا يحمر عيب أمام الاستحقاق. طبعا، هناك أمور تتجاوزنا، ولكن في أغلب الحالات نبقى الفاعلين الحقيقيين لشقاواتنا. نَصْنَع عيوبنا بأيدينا، ولا يمكن لأحد أن يتبجح بأنه أقل جدارة بالشفقة من جاره. أما ما نسميه بالمكتوب، فما هو إلا عنادنا بعدم تحمل نتائج إخفاقاتنا الصغيرة والكبيرة. وجدَتْني جرمان ضد النافذة، أنفي على الزجاج. لأول مرّة، لم تعكّر صفو شجني. خرجت على أطراف الأصابع وأغلقت الباب خلفها دون ضجيج.

.16

فكّرت بالجزائر العاصمة. ثمّ بجاية، وتميمون. أستقل قطارا وأتركه يقودني بعيدا عن ريو صالادو. تخيّلت نفسي في الجزائر، في بجاية، في تميمون. لم أرَ نفسي ولو مرّة واحدة أتجول في الشوارع، أشاهد البحر وأنا جالس على صخرة، أتأمل داخل مغارة، عند أسفل جبل... كان لدي حساب أحله مع نفسي. يستحيل أن يهرب المرء من جلده. يمكنني السفر عبر جميع قطارات الدنيا، وجميع طائراتها، وجميع سفنها، سأجرّ معي أينما ذهبت هذا الشيء غير القابل للترويض الذي يفرز مرارته بداخلي. تعبت من اجترار شقائي في ركن من غرفتي. كان عليّ لزاما أن أرْحَل. إلى أيِّ مكان. بعيدا. أو قريبا، إلى القرية المجاورة. الأمر سيان. يجب أن أبتعد عن ريو صالادو التي أصبحت لا أطيق العيش بها منذ أن تزوّج سيمون إيميلي.

أتذكّر مجنونا كان يأتي يوميا إلى سوق جنان جاتو ويقرأ مصائر الناس. كان طويل القامة، نحيفا كقصبة، يرتدي عباءة بالية يشدّها من الحزام بحبل رث.

يصعد فوق صخرة ويصرخ: "الشقاء درب بلا منفذ. يقود مباشرة إلى الجدار. إذا أردت التخلّص منه، عد أدراجك وأنت تمشي القهقري. بهذه الطريقة، يُخَيَّل إليك أنه يبتعد عنك وأنت تواجهه".

عدت إلى وهران. إلى حي عمي الراقي. ربما بحثت عن الصعود إلى غاية زمن المدرسة، ثمّ العودة محترسا، مجرّبا، إلى الوقت الراهن فارغ الجسد والروح، محافظا على حظوظي سالمة ومع ألف يقظة كي لا أضيّعها... لم تخفّف دار عمّي عن جرحي. دهنت بالأخضر، فأضحت غريبة عني، بسياجها المقوي، وسورها اليتيم من نبات الجهنمية والنوافذ المغلقة؛ لم أسمع صدى لصراخي وأنا طفل في أي مكان...

طرقت باب المنزل المقابل؛ لم تفتح لي لوسات. قالت لي امرأة لا أعرفها: "لقد رحلت". "لا، لم تترك عنوانا".

يا له من سوء حظ !

مشيت طويلا في المدينة. ارتفَعت ضوضاء من ملعب كرة القدم. ولكنها لم تتغلّب على الجلبة التي تصرخ بداخلي. في المدينة الجديدة –أصبحت القرية الزنجية التي يتعاشر فيها العرب والبربر في أكواخ بائسة بيضاء أكثر من البيض أنفسهم- جلست في شرفة مقهى وتابعت بلا كلل حركة الحشود على منبسط "الطحْطاحة"، متأكدا أنني سأميّز حتما شبح أبي تحت معطفه الأخضر الثقيل... تمتزج البرانيس البيضاء بأسمال المتسوّلين. إنّه عالم جديد بصدد التشكل في أصالته العتيقة وأسواقه وحماماته وحوانيته ومحلاته الصغيرة من الصائغين والإسكافيين والخياطين الضامرين. لم تستسلم المدينة الجديدة. لقد قاومت وباء الكوليرا والجحود والإفساد والتهجين، مسلمة وعربية وبربرية إلى النخاع. تخندقت خلف متاريسها العربية ومساجدها، تتجاوز بؤسها وإهانتها، تريد لنفسها مظهرا شهما وفخورا، جميلة برغم الغضب المتنامي، معتزة بحرفييها، وفرقها الفلكلورية مثل فرقة "أصحاب البارود"، و"رقابها"، أولئك الأذرع القوية المبجلة أو قطاع الطرق بشخصياتهم المهيبة، الذين يثيرون إعجاب الأطفال والنساء ذوات الأخلاق المشبوهة ويحمون ضعفاء الحي. كيف استطعت أن أتخلى عن هذا الجزء الثمين من كياني؟ كان عليّ الإتيان باستمرار إلى هنا لسدّ ثغراتي، وصقل قناعاتي. الآن وبعد أن أصبحت ريو صالادو لا تحدّثني بنفس اللغة، ما هي اللغة التي سأتخذها؟ أدركت أنني كذبت على نفسي على طول الخط. من كنت في ريو؟ جوناس أم يونس؟ لماذا كان ضحكي يتأخّر عندما ينفجر أصدقائي ضاحكين؟ لماذا ينتابني شعور بأنني أبحث دوما عن مكانة بين أصدقائي، أحسّ بذنب ما عندما يلتقي بصري ببصر جلول؟ هل كنت فقط شخصا مروّضا، مدرجا ومسموحا به عند الغير؟ ما الذي منعني من أن أكون أنا كاملا، وأجسد العالم الذي أتحرك بداخله، وأندمج فيه كلية في الوقت الذي كنت أدير فيه ظهري لأهلي؟ ظل أنا. كنت ظلا، متردّدا، مرتابا، أترقب لوما أو تلميحا، عادة ما كنت أختلقه، شبيها بيتيم عند عائلة متكفلة به، أكثر إنصاتا لرعونة والديه المتبنيين من رعايتهما الوفية. في الوقت نفسه، وأنا أحاول التكفير عن ذنوبي في نظر المدينة الجديدة، أتساؤل إن لم أكن أواصل الكذب على نفسي، الهروب من مسئولياتي في محاولة لإلصاق التهمة لغيري؟ لمَن الخطأ يا تُرى في تملّص إيميلي من يديّ؟ لريو صالادو، للسيدة كازيناف، لجان كريستوف، لسيمون؟ في نهاية المطاف، أظن أن عيبي هو أنني لم أجد الشجاعة الكافية لتطبيق قناعاتي على أرض الواقع. يمكنني العثور على جميع اعتذارات العالم، لا تمنحني واحدة منها الحق. في

واقع الأمر، الآن وقد خسرت مكانتي وتزعزع كياني، أبحت لنفسي عن قناع. أشبه بمشوِّه، أختفي خلف الضمادات التي تلعب دور المشربية. أنظر في الخفاء إلى حقائق الآخرين، بإفراط كي أبعد حقيقتي. خففت الطحطاحة القيود التي تعصرني. سلتني حشودها. أشفى رقص بائعي المياه صداع رأسي. إنّ تجار الماء أشخاص رائعون، لا يتعبون ويجلبون إليهم المشاهدين بلا كلل. بأجراسهم الرنانة وقربتهم تحت الإبط، وقبعة المظل العريضة المتعددة الألوان، المواجهة للريح، يدورون في عباءاتهم بأذيالها الكثيرة وهم يسقون الماء المنعش الممزوج بقطران العَرْعَر في أقداح نحاسية، يبتلعها المتجولون مثل مشروب سحري. تفاجأت بنفسي أقوم بحركة ابتلاع، مقلدا العَطش الذي كان يروي ضمَأه، أبتسم حينما يقوم تاجر الماء بحركات راقصة، أقطّب حاجبيّ عندما ينغّص زبون سيّء المعاملة ابتهاج مزاج التاجر... أيقظني النادل:

- أنت متأكّد أنك في حالة جيدة؟

لست متأكدا من شيء.

ثمّ، لماذا لا يتركني في حالي؟

تفرّسني النادل باندهاش حينما وقفت ساخطا وغادرت الشرفة. لم أدرك السبب إلا عندما وصلت إلى المدينة الأوربية: غادرت دون أن أدفع ثمن مشروبي...

في حانة ضبّبتها أعقاب السجائر التي تُهمَل في المنافض دون إطفاء، أنظر إلى كأسي التي تسخر مني على المصرف. أردت القيام بسكرة تفقد لي عقلي. لم أرَ نفسي جديرا بمقاومة المغريات. عشر مرات، عشرون مرة، ثلاثون مرة، مسكت يدي الكأس دون أن تجرؤ على إيصاله إلى شفتيّ. "ألك سيجارة؟"، سألتني جارتي في المصرف. "عفواً، لم أسمع؟". – غير مقبول أن يكون شخص يملك وجها كوجهك ويغرق في حزن كئيب". صرعني نفَسها المخمور. كنت مرهقا، نظرتي مشوّشة. كانت امرأة بلا وجه، من فرط المساحيق اللاصقة به. تختفي عيونها خلف أهداب اصطناعية مثيرة للسخرية. لها فم كبير مبالغ في الحمرة وأسنان نخرتها النيكوتين. "لك مشاكل، يا عزيزي؟ طيّب، ليس لوقت طويل. سأداويك بالتي هي أحسن. الله هو الذي بعثني لإنقاذك." انزلق ذراعها تحت ذراعي. بهزة واحدة، قلعتني من المصرف. "تعالى.. ليس لديك ما تفعله هنا..."

خطفتني سبعة أيام وسبع ليالٍ. في غرفة ضيّقة عفنة في آخر طابق فندق حقير يعبق بالحشيش والبيرة. أنا عاجز عن القول إن كانت شقراء أو سمراء، شابة أم عجوز، بدينة أم نحيفة. لا أتذكّر إلا فمها العريض الأحمر وصوتها الذي أنهكه

التبغ والنبيذ الرخيص. ذات مساء، قالت لي بأنني استهلكت جميع نقودي، فدفعتني نحو الباب، قبلتني من الفم –هدية من الدار !"- وقبل أن تفارقني، قالت: "استرجع ثقتك بنفسك أيها الشاب. لا يوجد إلا رب واحد على وجه الأرض، وهو أنت. إذا لم يعجبك العالم، اخلق لنفسك عالما يناسبك، ولا تترك أي حزن ينزلك من غيمتك. ابتسم للحياة، حتما ستبتسم لك".

من الغريب فعلا أن تلتحق بنا بعض الحقائق التي تنقصنا في أماكن لا تبدو ملائمة لذلك أبدا. كنت على قاب قوسين أو أدنى من السقوط، وتأتي عاهرة منتشية تعيدني إلى صوابي، بفضل بضع كلمات أطلقتها وسط نفثات دخان سيجارة، على عتبة غرفة كئيبة منفتحة على بهو مظلم ومتسخ، في فندق عهر يترنح تحت صيحات العربدة والمشاجرات الجبارة... قبل أن أصل إلى صالة استقبال الفندق، طار السكر عني. أيقظتني الريح المسائية المنعشة وأعادتني إلى نفسي. ذرعت واجهة البحر ذهابا وإيابا وأنا أتأمل السفن في الميناء، والرافعات، والأرصفة تحت الأضواء الكاشفة، وفي عمق الليل بواخر الصيد تمخر عباب البحر، شبيهة بالقطارب التي تحاكي النجوم؛ بعد ذلك ذهبت إلى حمام أنظف جسدي وأنام نوم عادل؛ في فجر يوم الغد، أخذت الحافلة ورجعت إلى ريو، مُصرا على قلع قلبي بيدي إن أنا أشفقت ثانية على نفسي.

استأنفت عملي في الصيدلية. تغيّرت نوعا ما ولكنني حافظت على وقاري. يَحدُث لي أن يعيل صبري عندما لا أتمكن من فك خربشة الأطباء على وصفات الدواء. كما أنني لا أتحمّل أن تسألني جرمان الأسئلة نفسها، وتجد أنّ الازرقاق الدائري حول عينيّ لا يزال ماثلا، وأنّني لا أتخلى عن عنادي؛ ومع ذلك، أستعيد رشدي مباشرة بعد حركات التذمّر الأولى، وأطلب العفو. في المساء، بعد الغلق، أخرج لتسريح ساقيّ. أذهب إلى الساحة لأرى الشرطي الشاب يتعجرف بلف وفك خيط صفارته حول أصبعه. أحبّ اندفاعه الهادئ وطريقته في إمالة قبعته جانبا والملاطفة المسرحية التي يظهرها عند مرور الفتيات. أجلس في شرفة المقهى وأحتسي عصيري المليء بقطع الجليد في انتظار الليل كي أعود إلى المنزل. أحيانا، أتجول في البساتين وأنسى نفسي. لم أكن شقيا: أفتقر إلى رفقة. عاد آندري وأعطى انبعاثا لحانته، غير أنّ مقابلات البليار تتعبني؛ يغلبني جوزي باستمرار... فكّرت جرمان في تزويجي. فقامت بدعوة جميع حفيداتها إلى ريو صالادو آملة أن تعجبني واحدة منهن؛ لا أنتبه إلى وجودهن حتى تكون فترة إقامتهن قد انتهت.

كنت أرى سيمون من حين لآخر. نتبادل التحية، نجلس أحيانا لبضعة دقائق حول مشروب بارد ونتحدّث عن أشياء عامة وبلا أدنى فائدة. في البداية، لامني على غيابي عن عرسه كما يغيب التلميذ عن درس منفر، ثمّ غضّ النظر، ربما لأنه كان منشغلا بقضايا أهم. يعيش سيمون عند إيميلي، في المنزل الكبير على درب المزار. لقد ألحّت السيّدة كازيناف كثيرا على هذه النقطة. زيادة إلى أنه لا توجد دار شاغرة في القرية وتلك التي تعيش فيها عائلة بن يامين صغيرة وبلا جاذبية. رُزق فابريس بطفل ثانٍ. جمعنا هذا الحدث السار –باستثناء جان كريستوف الذي لم يظهر عنه أي خبر منذ الرسالة التي بعثها لسيمون- في فيلّة جميلة على الكورنيش الوهراني. استغل آندري المناسبة ليقدّم لنا زوجته وقريبته، أندلسية صلبة من غرناطة، طويلة مثل برج، بوجه قوي وجميل تزينه عينان كبيرتان بأخضر رائع. كانت غريبة نوعا ما، ولكنها صارمة حينما يتعلق الأمر بتعليم زوجها السلوك القويم. خلال هذه السهرة، انتبهت إلى أن إيميلي تنتظر طفلا.
بعد شهور قليلة، سافرت السيّدة كازيناف إلى "الغويان" حيث وجد تجار الممنوعات رفات زوجها –مدير السجن في سان لوران دي ماروني، اختفى في الغابة الأمازونية خلال مطاردته لمساجين فارين- وتعرفوا عليه بفضل ممتلكاته الخاصة. لم تعد لريو أبدا. ولا حتى عند ولادة مِشال، حفيدها.
في صائفة 1953، تعرّفت على جميلة، ابنة محامٍ يعرفه عمي منذ أيام الجامعة. التقينا صدفة في مطعم بنمُّور. لم تكن جميلة ذات جمال خارق، ولكنها تذكرني بلوسات. أحببت نظرتها الهادئة ويديها الرقيقتين البيضاوين اللتين تمسكان الأشياء –المنديل، المغرفة، المنشفة، الحقيبة اليدوية، الفاكهة- بعناية كبيرة كما لو تعلّق الأمر بتحف فنية. لها عينان سوداوان وذكيتان، الفم صغير ودائري، وجدية تظهر تربية صارمة ولكنها حديثة، منفتحة نحو العالم وتحدياته؛ تدرس الحقوق وتطمح إلى ممارسة مهنة المحاماة مثل أبيها. هي التي راسلتني أوّلا؛ تحية في سطور قليلة على ظهر بطاقة بريدية تمدح فضائل واحة بوسعادة حيث يعمل أبوها. بقيت شهورا قبل أن أردّ عليها. تبادلنا الرسائل وبطاقات التهنئة خلال سنوات طويلة، دون أن يجرؤ أحدنا على تجاوز إطار الملاطفات العادية أو يعلن للآخر ما يطمسه الحياء والحذر المفرط.

في أوّل صباح لربيع 1954، طلب مني عمّي إخراج السيارة من المستودع. ارتدي بذلته الخضراء التي لم يلبسها منذ العشاء الذي أقامه على شرف مصالي

الحاج ثلاث عشرة سنة قبل ذلك في وهران، وقميصا أبيض اللون مزينا بعقدة فراشة، وساعته المذهبة معلقة على صداره، وحذاءً أسودَ مقرّنا وطربوشه الذي اشتراه مؤخرا من محل تركي قديم بتلمسان. قال معلنا:

- سأذهب للترحم على قبر جدي رحمة الله.

وبما أنني أجهل مكان قبر الجدّ، قادني عمّي إليه عبر المداشر والدروب. سرنا طوال الصباح، دون أن نتوقف للراحة أو للأكل. جرمان التي لا تحتمل انبعاث البنزين أصيبت بدوار، وكادت الدورات المتواصلة الهابطة الصاعدة أن تقضي عليها. عند الظهيرة، وصلنا إلى أعلى قمة جبل صخري. في الأسفل، يقاوم السهل المسيّج بأشجار الزيتون الجفاف باستبسال. في بعض الأماكن، تشقّقت الأرض تحت هجمات الانجراف، وتصحّرت المناطق الغابية. تحاول بعض عيون الماء إنقاذ المظهر، ولكن الجفاف الزاحف سيشربها إلى الثمالة. ترعى قطعان الماشية عند سفح التلال، متباعدة الواحدة عن الأخرى، تماما مثل المداشر المغبرة التي تسحقها الشمس. وضَع عمّي يده فوق عينيه وسرح ببصره بعيدا. يبدو أنه لم يكتشف شيئا مما جاء يبحث عنه. تسلق دربا ضيقا حجريا إلى غاية ما يشبه أجمة حيث يتفتت وسطها خراب آثار. إنه بقية مزار، ضريح عتيق، أنهكته الشتاءات القارسة والأصياف القائظة. بقرب سور مهدّم لم تبق إلا أحجاره، ظهر قبر فقد جلاله، يرزح تحت تشققات كثيرة. إنه قبر الجدّ. تأسف عمّي للحالة المزرية التي وجد فيها قبر جدّه الأول. رفع لوحة، أسندها إلى ترعة تراب وتأملها بحزن عميق، وبعد ذلك، أزاح بخشوع بابا خشبيا منخورا ودخل إلى الضريح. انتظرنا، جرمان وأنا، في بطحاء مغطاة بأدغال شوكية. في صمت مطبق. نسى عمّي نفسه داخل الضريح، جلست جرمان فوق صخرة وأخذت رأسها بكلتا يديها. لم تقل شيئا منذ أن غادرنا ريو صالادو. تخيفني جرمان حينما تصمت بهذه الطريقة.

التحق بنا عمّي عندما بدأت الشمس تميل نحو المغيب. امتدّ ظل الضريح بشكل مفرط وطفقت نسمة منعشة تصفر وسط الأجمات. قال عمّي وهو يتوجّه نحو السيارة:

- حان وقت الرجوع.

توقّعت أن يقصّ عليّ حكاية هذا الجدّ والقبيلة ولالّة فاطنة، وعن الأسباب التي أدت به فجأة إلى المجيء إلى هذا الجبل الذي تقطّعه الرياح؛ لا شيء من هذا حدث. جلس على المقعد بجانبي، ولم يغادر بصره قارعة الطريق. خيّم الليل

بسرعة، فواصلنا السير وسط الظلمة. في المقعد الخلفي، نامت جرمان. أما عمّي فلم يتحرّك. كان سارحا، تائها في أفكاره. لم نذق طعم الأكل منذ الصباح؛ لم ينتبه لذلك. لاحظت أن وجهه شحب، وأن خديه انحفرتا، وذكّرتني نظرته بتلك النظرة السابقة التي يتخندق خلفها حينما يسقط دون سابق إنذار في العالم المتوازي الذي شكّل سجنه وملجأه خلال سنوات.

بعد أسابيع، أسرّت لي جرمان بأنها خائفة عليه.

لا يبدو عمّي أنّه مريض. واصل القراءة والكتابة، وتناول أكله معنا والخروج للتجوال في البساتين، غير أنه لا يكلّمنا. يحرّك رأسه، يبتسم أحيانا ليشكر جرمان عندما تأتيه بالشاي، أو تنفض غيارا عن سترته، ولكنه لا ينبس ببنت شفة. كان يجلس على الكرسي المتحرّك في الشرفة ويغرق في تأمل التلال؛ وبعد ذلك، عند حلول المساء، يلتحق بغرفته، يرتدي منامته وخفيه وينغلق بداخل مكتبه.

ذات ليلة، تمدّد على سريره وطلب رؤيتي. تضاعف شحوبه وحينما أمسك بمعصمي أحسست يده باردة، مجمّدة تقريبا.

- وددت لو أعرف أبناءك، يا ولدي. أكيد أنهم كانوا سيملئونني سعادة. لم يقفز طفل على ركبتي أبدا.

تلألأت عيناه بالدموع.

- تزوّج، يونس. الحب وحده قادر على أن يثأر لنا من نوائب الدهر. تذكّر هذا جيدا: إذا أحبّتك امرأة، لا تحيد نجمة عن طريقك، تصبح محل عبودية كما الآلهة.

أحسَست بالبرد الذي يسري في جسده وينتقل إلى جسدي، يتسرّب عبر الارتعاشات التي تنطلق من معصمي وتتدحرج عبر كامل كياني. حدّثني عمّي طويلا؛ وكان كل قول له يزيده بعدا عن عالمنا. كان يستعد للرحيل. بكت جرمان، منهارة على طرف السرير. غطت شهقاتها أقوال عمّي. كانت ليلة غريبة، عميقة وغير واقعية، في آن واحد. في الخارج، عوى ذئب مثلما لم أسمَع بهيمة تعوي أبدا. طبعت أصابع عمّي على معصمي دمغة بنفسجية؛ مثل مكربة، منعت الدم من السيلان؛ يكاد ذراعي يتجمّد. لم أقتنع بأنّ شخصا عزيزا عليّ يملك حق الانطفاء كما الشمس عند سقوط الليل، كما الشمعة تحت نسمة ريح وأن الألم الذي نحسّ به لحظة الفراق الأبدي جزء لا يتجزأ من الحياة التي نعيشها، إلا حينما قامت جرمان بإغلاق عيني زوجها وهي ترسم إشارة الصليب.

لا يرى عمّي بلده يرفع السلاح ضد المستعمِر. لم يره القدر جديرا بذلك. وإلا كيف نفسّر وفاته قبل خمسة أشهر من لهب التحرير المنتظر والذي أجّل مرارا؟ فاجأنا يوم أوّل نوفمبر 1954. مدّد صاحب المقهى الجريدة على المصرف ساخطا. انطلقت حرب الاستقلال، ولكن عند عامة الناس، وباستثناء سَوْرة نقمة تجاوزتها ضوضاء الحياة بسرعة، ليس احتراق بعض المزارع في سهل المتيجة هو الذي سيبعد عنهم النوم بملء جفونهم. ومع ذلك، قُتِل أشخاص في مستغانَم: رجال الدرك وقعوا في كمين نصّبه رجال مسلحون. وماذا بعد؟ ردّ آخرون. الطريق تقتل أكثر. وكذلك الأحياء الشعبية الفقيرة. ما يجهلونه هو أنّ هذه المرة انطلقت القافلة في رحلة لا رجعة فيها. قرّرت حفنة من الثوريين المرور إلى العمل المسلح، ليهزوا شعبا غارقا في سبات عظيم بعد أزيد من قرن من الاستعمار، أتعبته المقاومات الشعبية التي حركتها القبائل المعزولة عبر الأجيال، قمعها الجيش الاستعماري القوي المدجّج بالسلاح، أسكتها بعد معارك قليلة وبعض الحملات العقابية، وسنوات من حرب الاستنزاف. وحتى المنظمة السرية المشهورة التي انطلقت في نهاية سنوات الأربعين لم تجلب إلا اهتمام بعض المناضلين المسلمين الباحثين عن المواجهات الصاخبة. إنّ الدويّ الذي انفجر في تلك الليلة، في ربوع شمال الجزائر، في منتصف الليل تدقيقا، عند الدقيقة الأولى لأوّل نوفمبر، هل يكون عبارة عن حريق تبن، شعلة عابرة في نفَس السكان المحليين، المفككين، العاجزين عن التجنيد حول مشروع مشترك؟... ليس هذه المرّة. تعدّدت عمليات الاعتداء عبر البلد، متباعدة أوّل الأمر، ثمّ تقاربت بتكثيف وتهور مذهل. تحدّثت الجرائد عن "إرهابيين"، عن "متمردين"، عن "خارجين عن القانون". نصِّبت الكمائن هنا وهناك في المناطق الجبلية خاصة، وحدث أن جرِّد عساكر الجيش الفرنسي من أسلحتهم وأمتعتهم. في الجزائر العاصمة، استولت جماعة مسلحة على مركز للشرطة في لمح البصر؛ يتم قتل رجال الشرطة والموظفين عند كل دورة؛ يُذبح الخونة. في منطقة القبائل، تحدثت الجرائد عن تحركات مشبوهة، عن جماعات ببذل عسكرية وأسلحة بدائية تنصِّب الكمائن لدوريات الدرك قبل أن تتبخّر في الطبيعة. في الأوراس، دار الحديث حول عقداء وفيالق كاملة، جيش من المتمردين لا يمسك بهم أحد، وعن مناطق محرّمة. ليس بعيدا عن قريتنا، في فلاوسَن، أفرغت المداشر من رجالها؛ يلتحق هؤلاء ليلا بالجبال الوعرة ليشكلوا وحدات جديدة من المجاهدين. أقرب من هنا، على بعد بضعة كيلومترات، سجلت عين تموشَنت اعتداءات في قلب المدينة. تغطي ثلاثة حروف جميع الجدران: FLN. جبهة التحرير الوطني. برنامج بأكمله.

بقوانينه، وتعليماته، ونداءاته للتمرّد الشامل، وحظر التجوّل الذي يفرضه، والممنوعات التي يقرّها والمحاكم التي ينصّبها، وتقسيمه الإداري لمناطق الجزائر، وشبكاته العنكبوتية الفاعلة. وأخيرا جيشه (جيش التحرير الوطني)، وإذاعاته السرية التي تغزو البيوت المغلقة يوميا... أما في ريو صالادو، فكنا في كوكب آخر. تصلنا الأصداء بعد أن خفّفتها المرشّحات الكثيرة المتتالية. إن العرب الذين يشتغلون في مزارع المعمرين لم يغيّروا من عاداتهم إلا أنّ بريقا غريبا طفق يلمع في عيونهم. يلتحقون بعملهم مع الفجر ولا يرفعون رؤوسهم إلا مع غروب الشمس. من جهة أخرى، واصل السكان الجلوس في المقاهي يثرثرون حول كؤوس الأنيزات. حتى برينو، الشرطي، لم يرَ ضرورة لنزع صمام الأمان لمسدّسه؛ كان يقول بأنه لم يحدث شيء خطير، وأنها أحداث عابرة وستعود الأمور إلى مجراها الطبيعي قريبا. كان علينا أن ننتظر شهورا كثيرة لنرى لطخات التمرّد ترشّ سكينتنا. أحرق مجهولون مزرعة معزولة؛ ثمّ أضرموا النار في الكروم لثلاث مرات على التوالي قبل أن يدمروا بالديناميت خزان خمر. طفح الكيل. شكّل جيم جيميناز صوزا فرقة ميليشيات وأقام حول كرومه حراسة مشدّدة. حاولت الشرطة أن تطمئنه شارحة له بأنها اتخذت التدابير اللازمة لإعادة الأمن إلى القرية؛ بلا جدوى. نهارا، نرى المزارعين يمشطون الضواحي، شاهرين بنادقهم نحو الأمام؛ وفي الليل، تنظّم دوريات حسب القوانين العسكرية، مع كلمات السر وإطلاق رصاصات تحذيرية.

باستثناء بعض الخنازير التي قتلها ميليشيون يستعجلون إطلاق النار، لم يوقفوا أي مشبوه.

مع الأيام، ارتخت اليقظة وتجرأ الناس من جديد على الخروج ليلا دون خوف. احتفلت ريو صالادو بموسم قطف العنب المقبل كما ينبغي. في الحفلة الراقصة، استقدموا ثلاث فرق موسيقية ضربة واحدة، ورقصت ريو إلى حدّ الإعياء. انتهز الجدّ روسيليو مناسبة الموسم الجميل ليقيم حفل زفاف مع مغنية من نمّور تصغره بأربعين سنة. احتج ورثته في البداية، ثمّ أدركوا أنّ ثروة جدّهم هائلة، يصعب حصرها، فاستمتعوا بالوليمة كالغيلان وطلبوا المزيد. وقفت وجها لوجه مع إيميلي في ذلك العرس. كانت نازلة من سيارة زوجها والطفل بين ذراعيها؛ فيما كنت أنا خارجا من قاعة الحفلات، أتأبّط ذراع جرمان. لفترة قصيرة، شحُب وجهها. مباشرة، التفتت إلى سيمون الذي ابتسم لي قبل أن يدفع زوجته وسط الضيوف.

رجعت إلى المنزل راجلا، ناسيا أن سيارتي كانت مركونة إلى جانب سيارة صديقي.
وحدثت المأساة.
لا أحد كان ينتظرها. تباشر الحرب سنتها الثانية، وباستثناء بعض أعمال التخريب المسجلة أعلاه، لم يحدث شيء في ريو. واصل الناس الذهاب إلى انشغالاتهم كما لو أن الحرب لم تكن، إلى غاية صبيحة فيفري 1956. سقطت المصيبة على القرية. صُعق الناس؛ يتبادلون النظرات دون أن يروا فعلا، لقد تجاوزتهم الأحداث العنيفة التي حلّت بريو. بمجرّد أن رأيت التجمع حول "سْنايك" آندري، أدركت السبب.
كان الجسد ممددا على الأرض، عند عتبة باب الحانة، الساقان في الفناء وبقية الجسم داخل الصالة. ينقص حذاء لرجليه؛ يكون قد فقدها وهو يتصارع مع المعتدي أو في محاولة للهروب. ينطلق جرح من مولد العقب ويصعد إلى غاية رَبْلة الساق، مشطوبا بخطوط دموية رقيقة... جوزي !... لقد زحف على مسافة حوالي عشرين مترا قبل أن يلفظ أنفاسه. انطبعت آثار زحفه اليائس على الغبار. تشبثت يده اليُسرَى بطرف الباب، أظافره مقلوبة. تلقى ضربات عديدة بالخنجر، بعضها مرئية في الجانب العاري من ظهره لأنّ قميصه ممزق من طرف إلى آخر؛ إن بركة الدم التي يسبح بداخلها تجاوزت عتبة الحانة، ثخينة، متخثّرة. تخطّيت الجسد كي أدخل. ينير ضوء النهار جزءًا من وجه جوزي؛ بدا كما لو أنه يسمع الأرض، مثلما كنا نفعل سابقا حينما نلصق أذننا إلى السكة الحديدية لنعرف إن كان القطار قريب الوصول. يذكّر بصره الزجاجي بصر مدخّن الحشيش؛ كان منفتحا على العالم ولكنه لا يدرك أدنى إشارة منه.
انهار آندري عند أسفل المصرف، ذقنه على قمة ركبتيه، يضم ساقيه بذراعيه. قال متنهدا:
- كان يقول بأنه الروث المقدّس الذي مشى الرب فوقه.
لا نكاد نراه في الظلمة الشفافة.
كان يبكي.
- أردت له حياة رغدة مثل أي قريب من عائلة صوزا ، وعند كل وليمة أقدّمها له، يكتفي بالقشور. كان يخاف أن أتهمه باستغلال طيبتي.

كان سيمون هنا أيضا، منهارا. وضع مرفقيه على المصرف والرأس بين يديه. يحتل برينو الشرطي كرسيا، عند عمق القاعة؛ يحاول تجاوز الصدمة. يقف رجلان قرب البليار، منذهلان. تأوّه آندري في عمق حزنه:

- لماذا هو بالذات؟ إنه جوزي يا ناس ! كان سيمنح قميصه الوحيد لو طلب منه.

قال أحد في ظهري:

- هذا ظلم.

وصل رئيس البلدية راكضا. حينما تعرّف على جسد جوزي، رفع يده إلى فمه كي يكتم صراخا. احتلت سيارات فناء الحانة. سمعت اصطفاق الأبواب. كان الوافدون يسألون: ماذا حدث؟ لا أحد يجيبهم. في دقائق قليلة، حضر جميع أهل القرية. تمت تغطية جسد جوزي بغطاء. طفقت امرأة تصرخ، في الخارج. إنها والدة جوزي. منعها أقرباء من الاقتراب من جثمان ابنها. انطلقت ضوضاء خافتة حينما وقف آندري وخرج إلى الفناء. اخْضرّ وجهه من الغيظ. تلألأت عيناه بشرارات الحقد. صرخ بكامل قوة جسده الساخط:

- أين جلول؟ أين جلول، هذا الأحمق؟

قطع جلول التجمع ووقف أمام مستخدمه. كان مصعوقا ولم يعرف ماذا يفعل بيديه.

- ماذا كنت تفعل حينما كان جوزي يُقتَل؟

خفض جلول رأسه وحدّق في طرفي حذائه. رفع آندري رأس جلول بطرف سوطه.

- أين كنت أيها القذر؟ لقد سبق أن حذّرتك من مغادرة الحانة تحت أي عذر.
- كان أبي مريضا.
- أبوك دوما مريض. لماذا لم تقل لي أنك ذاهب إلى دشرتك؟ لم يكن جوزي ليستخلفك، وكان سيكون حيا في هذه اللحظة. ثمّ... كيف تحدث هذه المصيبة في الليلة التي تغيب فيها؟

أحنى جلول رقبته، فاضطر آندري إلى أن يرفع له رأسه من جديد، وبطرف سوطه.

- انظُر إليّ في العينين حينما أحدّثك... من هو الجبان الذي قتل جوزي؟... إنك تعرفه، أليس كذلك؟ اتفقت معه. لهذا ذهبت إلى بيتكم، كي تسلّم جوزي إلى شريكك، أليس كذلك؟ كي تخلق لنفسك حجة، يا ابن الكلب... انظُر إليّ جيدا، أقول لك. ربّما أنت الذي قتلته... منذ فترة طويلة وأنت تجتر أحقادك. هل أنا مخطئ أيها القذر؟ لماذا تنظر إلى الأرض؟ ها هو جوزي، صرخ وهو يشير بأصبعه إلى الجسد الممدّد على عتبة الحانة. ربما أنت الذي قتلته... لا يمكن

لغريب أن يفاجئ جوزي دون أن يتصدى له. وحده شخص يثق فيه يمكن الاقتراب منه. اظهِر يديك.

تفقّد آندري يدي وملابس جلول، باحثا عن قطرة دم، فتّشه وحينما لم يجد شيئا، بدأ يضربه بالسوط.

- تحسب نفسك ذكيا؟ تقتل جوزي ثمّ تذهب إلى منزلك لتغيّر ملابسك وتعود إلينا كأن شيئا لم يكن. أضع يدي في النار بأنّ الحادثة وقعت هكذا. أنا أعرفك جيدا.

لقد أعماه الحزن وأخرجته أقواله عن جادة الصواب، فرمى جلول أرضا وبدأ يضربه بعنف. لم يحرّك أحد من الحاضرين أصبعا. يبدو أنّ ألم آندري كان قويا جدا بحيث يصعب معارضته. رجعت إلى البيت، مُنجذبا بين الغضب والسخط، مذلولا وخجولا، يمزقني الوجع مرتين، موت جوزي وتعذيب جلول. "هكذا دائما، فكرت من أجل التملص: حينما لا نجد معنى لشقائنا، نبحث له عن مذنب، وليس أفضل من كبش فداء هذه الصبيحة على ساحة المأساة أفضل من جلول.

تمّ وقف جلول، واقتيد إلى مركز الشرطة مكبل اليدين. أشيع خبر أنه اعترف باقتراف الجريمة، وأنّ الاغتيال ليس له علاقة بما يجري في البلد من أحداث. ومع ذلك، لقد ضرب الموت في عقر دارنا ولا أحد يستطيع القول أنه لا تليه أحداث عنف أخرى. دعّم المزارعون ميليشياتهم، وكنا نسمع من حين لآخر طلقات رصاص ترن في الليل وسط عواء الذئاب. في الغد، يتحدّث السكان عن اقتراب مشبوه تمّ إبعاده، عن لصوص تمّ صيدهم كما تُصاد الطرائد، عن حرائق تمّ إخمادها. ذات صباح، وأنا ذاهب إلى لورمال، رأيت مزارعين مسلحين على طرف الطريق. كانوا هائجين. عند أقدامهم، يرقد جسد مخضّب بالدماء لشاب مسلم رث الثياب. كان معروضا كتذكار صيد، وإلى جانبه بندقية صيد رديئة كدليل إثبات.

بعد أسابيع قليلة، زارني في الصيدلية فتى ضامر، مسقام. طلب مني أن أتبعه إلى الخارج. كانت تنتظرنا على الرصيف المقابل امرأة باكية، يحيطها أطفال خائفون. قال الفتى:

- إنها والدة جلول.

أسرعت إليّ وارتمت إلى قدميّ. لم أفهم ما كانت تحاول أن تقوله لي. غرقت أقوالها في نحيبها وأربكتني حركاتها الضائعة. قدتها إلى داخل العيادة لتهدئتها وفك ما كانت تتلفظ به من أقوال. تتكلّم بسرعة، تخلط كل شيء، لا تنهي جملة حتى تنطلق في النحيب. كان خداها مجروحين بخدوش، ما يعني أنها ندبت

وجهها بأظافرها علامة على أن مصيبة عظيمة ألمت بها. أخيرا، ومن فرط الإرهاق، قبلت شرب كأس الماء الذي قدّمته لها ورضيت بالجلوس على المقعد. فحكت لي مصائب عائلتها، مرض زوجها بذراعين مبتورين، زياراتها المتكرّرة لأضرحة الأولياء الصالحين للمنطقة، قبل أن ترتمي من جديد إلى قدميّ وتتوسّل إليّ لإنقاذ جلول. "ليس له أي دخل في القضية. كل الناس في الدوار يقولون لك بأن جلول كان بيننا في الليلة التي قتل فيها ذلك الرومي. أقسم لك. ذهبت لرؤية رئيس البلدية، الشرطة، القاضي؛ لم يسمعني أحد. أنت أملنا الأخير. تتفاهم جيدا مع السيّد آندري. سيستمع إليك. جلول ليس مجرما. في ذلك المساء، أصيب أبوه بنوبة جديدة، فبعثت حفيدي للبحث عنه. إنه ظلم كبير. سيُشنق من أجل جريمة لم يقترفها". الفتى هو الحفيد المذكور. أكّد لي بأنها الحقيقة، وأنّ جلول لا يحمل معه الخنجر أبدا وأنه يحب جوزي.

لم أعرف ما يمكنني أن أفعله، ولكنني وعدتهم بأنني سأتصل بآندري وأخبره بما حكوه لي بالتفصيل. بعد ذهابهم، لم أشعر بالشجاعة الكافية فقرّرت التخلي عن القضية. كنت أعرف بأن قرار المحكمة لا رجعة فيه، وأنّ آندري سوف لن يسمع لي. منذ موت جوزي، كان دائم الغيظ، متهجما على العرب في الحقول من أجل أمور تافهة. قضيت ليلة مضطربة. تخلّل نومي كوابيس مرعبة أجبرتني مرارا على إضاءة نور مصباح السرير. ملأني بؤس هذه المرأة النصف مجنونة وذريتها بضيق مدوِّخ. يطن رأسي بالنحيب والصراخ المبهم. في الغد، لم أجد الطاقة اللازمة لاستئناف العمل في الصيدلة. كنت أزن الإيجابي والسلبي، مع ميل إلى الامتناع. لا أتصوّر نفسي مرافعا عن قضية جلول أمام آندري الذي شوّهته الضغينة والفظاظة. إنه قادر أن يرى في مبادرتي مساندة مسلم يتضامن مع قاتل من قومه. ألم يدفعني حينما حاولت مواساته في المقبرة عند دفن جوزي؟ ألمْ يغمغم بأنّ جميع العرب جبناء وجحودون، في نية ظاهرة لجرح مشاعري؟ لماذا تلفّظ بتلك الأقوال في مقبرة مسيحية حيث كنت المسلم الوحيد، إن لم يكن يقصد إيلامي؟

بعد يومين، أتفاجأ بنفسي أركن سيارتي في الساحة الكبيرة لمزرعة جيم جيميناز صوزا. لم يكن آندري في البيت. طلبت رؤية أبيه. قال لي خادم بأن أنتظر داخل سيارتي وذهب ليرى إن كان سيّده سيرضى باستقبالي. رجع بعد بضع دقائق وقادني إلى التلّة المشرفة على السهل. كان جيم جيميناز صوزا راجعا للتوّ من نزهة على ظهر حصان. وجدته يقدّم مطيته إلى سائس خيوله. نظر إليّ لحظة،

حائرا من زيارتي، ثمّ اتجه نحوي بعد أن أعطى ضربة على ردف الحصان. صاح من بعيد، كما لو أنه أراد اختصار الزيارة:

- ما هي الحاجة التي أتت بك عندي، جوناس؟ أنت لا تشرب الخمر، وموسم قطف العنب لا يزال بعيدا.

أسرع خادم ليخلّصه من خوذته الكولونيالية ومن سوطه؛ صرفه جيم صوزا بحركة ازدراء دون أن يترك له فرصة الاقتراب منه.

مرّ أمامي دون أن يتوقّف ودون أن يقدّم لي يده للمصافحة.

تبعته.

- ما هو المشكل، جوناس؟
- وضع مُعقّد.
- إذا، هات من الآخر.
- إنك لا تسهّل لي المهمة بخطواتك السريعة.

خفف من سرعة مشيه، أدخل يدا تحت خوذته، ثم واجهني.

- إني أسمعك...
- المسألة تخص جلول.

اهتزّ قليلا. تشنّجت تقاسيم وجهه. رفع خوذته كلية عن رأسه ومسح جبينه بمنديل.

- خيّبت أملي، أيها الشاب. لست من نفس العجينة، وأنت أفضل حيث أنت.
- أكيد أن هناك سوء فهم.
- نعم؟ وما هو؟
- ربما يكون جلول بريئا.
- أي كلام هذا ! أنا أشغِّل العرب منذ أجيال، وأعرف طينتهم. جميعهم أفاعي، وبلا استثناء... اعترف هذا القذر، وقد صدر الحكم بالإعدام. وسأسهر شخصيا كي يسقط رأسه في السلّة.

عاد إليّ، أخذني من المرفق ودعاني للمشي معه.

- المسألة في غاية الجدية، جوناس. لا يتعلّق الأمر بصرخة في واد، وإنما بحَرب حقيقية. البلد يهتز، وليس لدينا الوقت للتردّد. يجب أن نضرب بقوة وفي الصميم. لا يُسمَح بأي رخاء. يجب على هؤلاء القتلة المجانين أن يفهموا أننا لن نتنازل. على كل قذر يسقط بين أيدينا أن يدفع الثمن من أجل الآخرين...
- جاءت عائلته عندي و...

أوقفني قائلا:

- جوناس، يا جوناس المسكين، أنت لا تعرف عمّا تتحدّث. أنت شاب متخلِّق، نزيه وذكي. ابقَ خارج حكايات هؤلاء الصعاليك. ستجد نفسك في وضع أحسن.

انزعج من إلحاحي. بدا ساخطا من افتراض النزول إلى صف قيّم منزل لا يستحق أن يكون له مصير لأنّ مصيرا، مهما كان افتراضيا، يكفيه باتساع. أرخى قبضته، مطّ شفتيه متردّدا، أعاد منديله إلى جيبه، ثمّ، بحركة رأس، طلب مني أن أتبعه.

- تعالى، جوناس.

مشى أمامي، خاطفا كأس عصير برتقال من صينية قدّمها له خادم انبثق من العدم. كان جيم جيميناز صوزا قصيرا وسمينا، مكوّما كجذع شجرة؛ ومع ذلك بدا كما لو أنه كبر ببضع سنتيمترات. تفور لطخة عرق كبيرة على قميصه الذي تنفخه الريح على الجانبين. بسروال الخيالة والخوذة الكولونيالية على الرقبة، بدا كما لو أنه يغزو العالم عند كل خطوة.

عندما وصلنا إلى أعلى الهضبة، شرّع رجليه، وقام بحركة واسعة من ذراعيه، القبضة إلى الأمام كالصولجان. في الأسفل، يدحرج السهل بكرومه على مدى البصر. بعيدا، وسط الضباب الرمادي، تبدو الجبال ككائنات نائمة من عهد ما قبل التاريخ. ترك جيم جيميناز صوزا بصره يمسح المناظر. كان يهزّ رأسه في كل مرة يجلبه معلم.

كان ملهما كما ربّ يتأمل كونه.

- انظُر، جوناس... أليس المنظر خلابا؟

ارتعدت كأسه في طرف ذراعه.

التفت نحوي ببطء، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

- إنه أجمل منظر في العالم.

وعندما لم أجبه، هزّ رأسه وعاد إلى تأمل الكروم التي تترامى إلى غاية أسفل الأفق. قال:

- عادة، عندما آتي إلى هذا المكان لأتأمل كل هذا، أفكّر في الرجال الذين كانوا هنا قبلي، منذ زمن بعيد، وأتساءل عما كانوا يشاهدون حقا. أحاول أن أتخيّل هذه المناظر عبر العصور وأضع نفسي مكان ذلك الراعي البربري، والمغامر الفينيقي، والغازي الوندالي، والفاتح المسلم –أي كل الرجال الذين قادهم القدر إلى هذه الأرض وتوقفوا عند ذروة هذه الهضبة، تماما في المكان الذي أقف فيه الآن...

عادت عيونه إلى مطاردة عيوني.

- ماذا كان بإمكانهم أن يروا في مختلف تلك العصور؟ لا شيء... لم يكن هنا شيء، سوى مرجة متوحشة تعجّ بالزواحف والجرذان، بعض التلال المكسوة بالحشائش البرية، وربما بركة ماء اندثرت اليوم أو درب معوج ينفتح على جميع الأخطار...

فجأة، مسح ذراعه المنظر، وتلألأت قطرات العصير في الهواء. تراجع قليلا إلى الوراء ليكون في مستواي، وقال:

- عندما اختار أحد أجدادي أن يستقر في هذا المكان الخالي، كان متأكدا أنه سيموت قبل أن يخرج منه أي نفع... عندي بعض الصور في البيت. لم يكن هناك كوخ على بعد أميال من هنا، لا شجرة، ولا هيكل بهيمة جَمّده الانجراف. ومع ذلك، لم يواصل جدي سيره بحثا عن أماكن أكثر رحمة. بل شمّر على ذراعيه وصنع بأصابعه العشرة الأدوات التي كان يحتاج إليها للحرث والزرع والبذر، نقش وحفر هذه الأرض بيديه إلى حدّ صعب إليه استخدامها في قطع رغيف خبز... شقاء في النهار، سجن في الليل، وجحيم في جميع المواسم. ولكن جدي لم ينهزم ولم يستسلم؛ لا مرة، ولا لحظة. ترك بعضهم أرواحهم من كثرة الأشغال الشاقة، سقط آخرون ضحية أمراض وأوبئة، ومع ذلك لم يشك أحد في المهمة النبيلة التي هو بصدد إنجازها. وبفضل عائلتي، جوناس، بفضل تضحياتها وإيمانها بهذه الأرض، استطاعت أن تروِّض هذه الأرض المتوحِّشة. من جيل لجيل، تحوّلت إلى حقول وبساتين. جميع هذه الأشجار التي تراها حولك تَحكي لك قسطا من تاريخ عائلتي. كل برتقالة تعصرها تُعطيك قليلا من عرقهم، ويخفي كل رحيق طعم حماسهم.

بحركة مسرحية، أراني مسكنه:

- انظر إلى هذه البناية الكبيرة التي هي قلعتي الآن، هذه الدار الكبيرة البيضاء التي ولدت فيها، وركضت فيها وأنا طفل كالمجنون، بناها أبي بيديه، مثلما يُبنى نصب على شرف الأبطال... يدين لنا هذا البلد بكل شيء. لقد شققنا الطرق، وضعنا السكك الحديدية إلى غاية أبواب الصحراء، بنينا جسورا فوق مجاري المياه، شيّدنا مدنا جميلة وقرى أجمل عند منعطف الأدغال... حوّلنا قفارا أبديا إلى بلد رائع ومزدهر وطموح، وأراض حجرية إلى جنات عدن... وتُريدون أن تقنعوننا بأننا بنينا كل هذه المعجزات من أجل لا شيء؟

كان صوته مُدوِّيا بحيث تلقيت رشاش ريقه على الوجه.

تكدّرت عيناه حينما حرك أصبعه تحت أنفي محذرا.

- أنا غير موافق، جوناس. لم نبلِ أذرعنا وقلوبنا من أجل نفثات دخان... إن هذه الأرض تتعرف على أصحابها، ونَحْن هم أصحابها الذين خدمناها مثلما نخدم أمهاتنا. إنها سخية معنا لأنها تدرك بأننا نحبها. إن الخمْر الذي تمنحه لنا، تشربه معنا. استَرق السمع إليها، ستقول لك أننا نساوي كل شبر من حقولنا وكل فاكهة من أشجارنا. وجدنا أرضا قفارا ميّتة فنفثنا فيها روح الحياة. دَمُنا وعرقنا هما اللذان يسقيان هذه الأودية. لا أحد، السيّد جوناس، لا أحد يستطيع إنكار حقنا في مواصلة خدمة هذه الأرض إلى الأبد.. وبالأخص، ليس هؤلاء المُقمَّلون، الكسالى الذين يعتقدون جذب البساط من تحت أقدامنا باغتيال مساكين من أهلنا.

ارتَجفت الكأس في قبضته. تشنّجت قسمات وجهه، وحاولت نظرته اختراقي من جهة إلى أخرى.

- هذه الأراضي ليست لهم. حتَّى وإن كانت لهم، ستلعنهم مثلما ألعنهم كل مرة أرى فيها النيران المجرمة تحوِّل بناية مزرعة إلى رماد. لوْ فكّروا أنهم سيخيفوننا بهذه الطريقة، فإنهم يضيّعون وقتهم ووقتنا معا. سوف لنْ نستسلم. إن الجزائر اختراعنا. إنها أحسَن نجاحاتنا، ولن نترك يدا دنيئة تدنّس حبوبنا ومحاصيلنا.

فجأة، انبثقت من ركن منسي بداخل شعوري الباطن صورة عبد القادر وهو واقف على مسطبة قسمي بالمدرسة الابتدائية، يلمع وجهه من الخجل، صورة ظننت أنني دفنتها إلى الأبد، مما أجّج غيظي. رأيته بوضوح، مكشّرا من الألم في الوقت الذي كانت أصابع المعلّم تلوي أذنيه. انفجر صوت موريس الصارف في رأسي:

"سيّدي، سيّدي، لأنّ العرب كسالى !" تسرّبت ذبذباته الصادمة عبر كامل جسدي كانفجار تحتأرضي عبر خنادق قلعة. غرقني غضب دفين كما في ذلك اليوم في المدرسة. وبالطريقة نفسها. كما حمم تطفح من عمق أحشائي. في لمح البصر، غاب عني هدف زيارتي، والأخطار التي سيتعرض لها جلول، وقلق والدته، وبدأت أرى في السيّد صوزا الواقف على هرم عجرفته اللمعان المضر لغطرسته المتضخمة التي تمنح للون النهار شيئا متقيِّحا.

دون وعي مني، وعاجزا عن التحكم في أعصابي، انتصبت أمامه، وبصوت تخلّص من حشرجاته، حازما واضحا كما شفرة سيف، قلت له:

- منذ زمن طويل، السيّد صوزا، قبلك وقبل جدّك الذي تتحدّث عنه، كان رجل يقف في المكان الذي تتواجد فيه. عندما يرفع عينيه على هذا السهل، لا يتوانى عن رؤية نفسه مالكا لها. لم تكن هناك طرق معبّدة ولا سكك حديدية، ولم تكن أحراش الديس والأشواك تزعجه. كان كل وادٍ، يزأر بمياهه الجارفة أم يئن تحت الجفاف، كل شبر ظل، كل حجرة، تعكس له صورة خشوعه. كان هذا الرجل مطمئنا، واثقا من نفسه، لأنه كان حرّا طليقا. لم يكن يملك إلا نايا كي يطمئن معزه وعصا لردع الذئاب. حينما كان يتمدّد تحت ظل هذه الشجرة، يكفيه أن يغمض عينيه كي يسمع كيانه ينبض بالحياة. يُساوي رغيفه والبصلة التي يأكلهما ألف وليمة. كان له الحظ في إيجاد الراحة حتى في بساطة الحياة. يعيش على إيقاع الفصول، مقتنعا بأن جوهر السكينة يكمن في بساطة الأشياء. كان يرى نفسه في آمان لأنه لا يضمر الشر لأحد، إلى غاية اليوم الذي رأى الهمّ آتيا من الأفق الذي يؤثّث أحلامه. سُلب منه نايه وعصاه، أراضيه وقطعان غنمه، وكل ما يعطّر روحه. واليوم، نريد أن نقنعه بأنه غريب في هذه الأرض وأن وجوده كان عرضا، ونندهش وننتفض حينما نجده يطالب بمثقال ذرة من الاحترام والحقوق... لست موافقا معك، السيّد صوزا، هذه الأرض ليست ملك لكم. إنّها ملك الراعي الذي عاش هنا في الأزمنة الغابرة والذي يوجد شبحه على مقربة منكم ولكنكم ترفضون رؤيته. وبما أنكم لا تعرفون الاقتسام، خذوا بساتينكم وجسوركم وأسْفَلتكم وسككم الحديدية، ومدنكم وحدائقكم، وأرجعوا الباقي إلى ملاكه الشرعيين.

ردّ السيد صوزا دون أن يتأثر بأقوالي:

- أنت فتى ذكي، جوناس. تربيت في المكان الملائم، ابقَ فيه. "الفلاقة"، هؤلاء المتمردون ليسوا بُناة. تمنح لهم الجنة فيحوّلونها إلى خراب. سوف لن يَجلبوا لشعبك إلا الشقاء وخيبة الأمل.
- عليك أن تلقي نظرة على المداشر المجاورة، السيّد صوزا. إنها ترزح تحت الشقاء والبؤس مُنذ أن حوّلتم رجالها الأحرار إلى صف البهائم.

بَعد ذلك، تركته واقفا والتحقت بسيارتي، رأسي يغلي مثل خلية نحل مفتوحة للرياح من جميع الجهات.

.17

رجع جان كريستوف في ربيع 1957. بلا سابق إعلام. أخبرني الشرطي برينو عند عتبة البريد:

- هاه... كيف كان اللقاء؟
- أي لقاء؟
- كيف؟ ألست على علم؟ عاد كريس إلى البيت، منذ يومين...

يومان؟... رجع جان كريستوف إلى ريو صالادو منذ يومين ولم يخبرني أحد... لقد التقيت بسيمون بالأمس فقط. تبادلنا بضع كلمات. لماذا لم يخبرني؟

بعد عودتي إلى الصيدلية، هتفت لسيمون إلى مكتبه الذي لا يبعد عن البريد إلا بخطوات قليلة. لا أعرف لماذا فضلت مهاتفته عوّض زيارته في مكتبه. ربّما خشيت أن أحرجه، أو أن أقرأ في عينيه ما أتوقعه: أنّ كريستوف لا يزال يحقد عليّ ولا يريد رؤيتي.

ارتج صوت سيمون على طرف الخيط:

- اعتقدت أنك على علم.
- أنت تمزح !
- أقسم لك أنها الحقيقة.
- هل قال لك شيئا؟

تنحنح سيمون. كان محرجا. قال:

- لا أفهم قصدك.
- طيّب، فهمت.

أغلقت السماعة.

عادت جرمان للتوّ من السوق، حطّت قُفّتها على الأرض ونظرت إليّ بريب.

- من كان على الخط؟

طمأنتها قائلا:

- زبون يحتج.

أخذت قفتها وصعدت الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي. عندما وصلت إلى مدخل البهو، توقفت لحظة، ثمّ هبطت بعض الدرجات كي تتفرّسني.

- ماذا تخفي عني يا ولد؟
- لا شيء.
- هذا ما يقال... بالمناسبة، أخبرك أنني دعوت برناديت إلى حفلة الرقص. أتمنى أن لا تخيّب أملها، هي أيضا. إنها طفلة كما يحبها القلب. صحيح أنها لا توحي بذلك عند الرؤية الأولى، ولكنها تدبّر أمرها جيدا. هي ليست متعلمة كثيرا، ومع ذلك سوف لن تجد أحسن شغالة منها. زيادة إلى أنها جميلة ! برناديت... عرفتها صغيرة جدا، عند جنازة أبيها الذي قتل في قصف القاعدة البحرية لمرسى الكبير في 1940. طفلة ضامرة بضفيرتين فضفاضتين تنزوي جانبا فيما كانت قريباتها يلعبن بالدولاب.
- تعرفين جيدا أنني لا أذهب إلى حفلات الرقص.
- إنها مناسبة للذهاب.

وعادت أدراجها نحو المطبخ.

كلّمني سيمون بعد قليل. أعطى لنفسه الوقت كي يدخل تنظيما على أفكاره.

- ماذا فهمت، جوناس؟
- وجَدت موقفك غريبا نوعا ما. فكيف تخفي عني عودة كريستوف؟ ظننت أن صداقتنا لا تُمحى.
- بل لم تأخذ تجعدا واحدا. أعزّك دائما مثل السابق. صحيح أنّ الشغل لا يترك لي وقتا شاغرا أبدا، ولكنك في أفكاري دوما. أنت الذي أصبحت تتجنبنا. لم تأتِ يوما لتزورني في بيتي منذ زواجي. تتذرّع دوما بانشغالات تنتظرك حينما نلتقي. لا أعرف ماذا عشّش في مخك، ولكنني لم أتغيّر قيد أنملة. أما بالنسبة لكريس، أقسم لك أنني اعتقدت فعلا أنك كنت على علم. على كل، لم أطل جلوسي معه. تركته لعائلته. ولطمأنتك، أقول لك أنني لم أتصل بعد بفابريس لأزفه الخبر الجميل. سأتصل به اليوم. ويمكن أن نلتقي نحن الأربعة، كما في العهد السابق. فكّرت في عشاء على الكورنيش. أعرف مطعما جيدا في عين الترك. هل يليق بك؟...

كان يكذب. يتكلم بسرعة، كما لو أنه يتلو درسا حفظه عن ظهر قلب. ومع ذلك، أوجدت له الظروف المخففة... ولكي يؤكّد على حسن نواياه، وعدني بالمرور عليّ بعد العمل كي نذهب سويا إلى عائلة لامي.

انتظرته في النهار؛ فلم يأتِ. أغلقت العيادة وانتظرت قليلا. سقط الليل عليّ وأنا جالس عند مدخل المنزل أترقب الأشباح المارة بعيدا في أمل أن أتعرّف عليه. ولكنه لم يأتِ. قرّرت أن أذهب وحدي عند جان كريستوف... يا ليتني ما فعلت. لأن سيارة سيمون كانت مركونة تحت سلسلة أشجار الميموزا، قرب منزل عائلة لامي، إلى جانب سيارات أخرى، منها سيارة آندري ورئيس البلدية والبقال، وأخريات لا أعرف أصحابها. امتلكني سعار ساخط. انبثقت فكرة تقول لي: ارجَع من حيث أتيت؛ لم أستمع إليها. ضربت دقات خفيفة على الباب. انفتحت نافذة في مكان ما ثم انغلقت. انتظرت طويلا قبل أن يأذنوا بفتح الباب. طلبت مني غريبة، ربما قريبة جاءت من مدينة أخرى، ماذا أريد.

- أنا جوناس، صديق كريس.
- آسفة، إنه نائم.

أردت إبعادها جانبا والدخول بلا إذن، والتوجه صوبا إلى الصالون حيث يجلس الضيوف كاتمين أنفاسهم ومفاجأة كريستوف وسط أفراد عائلته وأصدقائه. لم أفعل شيئا من هذا. لم يكن هناك شيء يقال. كان كل شيء واضحا وضوح الشمس. وافقت بحركة من الرأس، تراجعت خطوة إلى الوراء، انتظرت أن تغلق الغريبة الباب فرجعت إلى المنزل... امتنعت جرمان من الحديث معي؛ إنه لطف من جانبها.

في الغد، جاء سيمون بسحنة متجهمة. تلعثم:

- أؤكد لك أنني لا أفهم شيئا.
- لا يوجد شيء يستحق الفهم. لا يريد رؤيتي، هذا كل ما في الأمر. كنتَ تعرف هذا منذ البداية. لهذا لم تقل لي شيئا حينما التقينا أول أمس.
- صحيح، كنت أعرف. إنه الشرط الأول الذي طرحه عليّ. منعني من ذكر اسمك. بل كلّفني بإبلاغك أنه لا يرغب في لقائك ولا يريد تحيتك. رفضت طبعا.

رفع اللوحة الصغيرة التي على طرف المصرف واقترب مني وهو يدعك أصابعه. كان جبينه يتلألأ عرقا وصلعته تلمع تحت انعكاس ضوء النافذة.

- لا ينبغي أن تلومه. كانت الأيام صعبة بالنسبة إليه. كان في الأندوشين، في الخطوط الأولى. جُرح مرتين، سجن، ثمّ سرّح من الجيش عند خروجه من المستشفى. اترُك له قليلا من الوقت.
- ليس في الأمر خطورة، سيمون.
- كان عليّ أن أمر عليك، بالأمس، مثلما اتفقنا.

- انتظرتك.
- أعرف. ذهبت إليه أوّلا... لتعقيله، لإقناعه باستقبالك. مثلما تعرف، لا يمكن أخذك معي هكذا. ربّما أساء فهم موقفي وتطورت الأمور إلى ما لا تحمد عقباها.
- الحق معك، لا ينبغي الضغط عليه الآن.
- ليس هذا فقط. أصبح مزاجه متقلبا. لقد تغيّر كلية. ومعي أيضا. عندما دعوته إلى عشاء في منزلي، لأقدّم له الطفل والزوجة، انفجر غاضبا كما لو أنني كفرت. أبدا ! صرخ في وجهي... أبدا ! أتتصوّر هول الموقف؟ لو اقترحت عليه العودة إلى الجحيم لما كان ردّ فعله بهذه الفظاظة. لم أدرك سبب هذا الرفض. ربما بسبب الحرب التي عاشها هناك. إنّ الحرب قذارة حقيقية. أحيانا، حينما أنظر إليه، يبدو لي كما لو أن كريس مخبول قليلا. لو رأيت عَينيه، إنهما فارغتان مثل فوهة بندقية ذات ثقبين. يثير شفقتي. لا ينبغي لومه، جوناس. علينا التسلح بالصبر.

وبما أنني لم أجبه، حاول شق درب آخر:

- كلّمت فابريس. قالت لي هيلان بأنه في الجزائر العاصمة لتغطية ما يحدث في القصبة. لا تعرف متى سيعود. إلى ذلك الوقت، يكون كريس قد غيّر رأيه.

لم أستسغ تملّصه، فعدت إلى صلب الموضوع، يؤججني نوع من الحقد، حتمي وجارح مثل حكّة.

- بالأمس، كنتم معه هناك جميعا.

ردّ في تنهد رخو:

- نعم.

انحنى عليّ كي يمسك بأدنى ارتجاف على وجهي:

- ماذا حدث بينك وبينه؟
- لا أعرف.
- مهلا، يا صديقي. لا تتصوّر أنني سأصدّق جوابك هذا؟ لقد غادر القرية بسببك، أليس كذلك؟ تجنّد في الجيش، وقبل بالذهاب إلى أقاصي الدنيا لخوض حرب ضروس بسببك أنت؟... ماذا يمكن أن يكون قد جرى بينكم؟... لم يغمض لي جفن في الليلة الماضية وأنا أقلب الأمور من جميع وجوهها. سلكت جميع الدروب المفترضة، ولكن لم تفدني واحدة منها...

- الحق معك، سيمون. لنترك الوقت يسري طبيعيا. لا يعرف الوقت كتمان الأسرار أبدا. سيأتي يوم، تنكشف فيه جميع الأمور.
- أبسبب إيزابيل؟...
- من فضلك سيمون، لنبقي المسألة هنا.

رأيت جان كريستوف في نهاية الأسبوع. من بعيد. كنت خارجا من الإسكافي، وهو من البلدية. كان ضامرا جدا بحيث يعطي الانطباع بأنه قد زاد طوله بحوالي عشرين سنتيمترا. شعره حليق إلى غاية الجلد على مستوى الصدغين، فيما كانت خصلة شقراء تسقط على أرنبة أنفه. يرتدي معطفا لا يتلاءم مع الموسم، ويعرج قليلا متكئا على عصا. كانت إيزابيل ترافقه، تتأبط ذراعه. أبدا، لم أرَ إيزابيل جميلة ووقارة. كان خشوعها رائعا. يمشيان ببطء وهما يتحدثان؛ إيزابيل هي التي تتكلم؛ وهو يكتفي بهز الرأس موافقا. يشعان بسعادة هادئة، تعود من بعيد، ومُصرَّة على عدم مفارقتهما هذه المرة. أحبَبت الزوج الذي شكلوه في ذلك اليوم؛ زوج نضج مع طول الانتظار والتساؤل، واعٍ بنفسه جيدا وثري بعقباته. لا أعرف لماذا رقّ قلبي على حالهما، مثل دعاء، ليرافقهما نحو ما يمكن ربط لقائهما إلى الأبد. ربّما ذكرتني صورتهما بصورة عمي وجرمان وهما يتجوّلان في البساتين. كنتُ مسرورا لرؤيتهما معا ثانية، كما لو أن ما حدث لم يحدث أبدا. أدرَكْت أنه لا يمكنني أن لا أشعر بالتعاطف اتجاه أحدهما والحنان اتجاه ثانيهما. وفي نفس الوقت، انتابني حزن كبير كالحزن الذي غمرني في وفاة عمّي، فشوّش بصري بدمعة كثيفة ولعنت جان كريستوف لأنه استعاد قطار الحياة من جديد وأنكرني على الرصيف. بدا لي أنني سوف لن أعيش بكامل قواي بعد هذا الحكم التعسفي عليّ، وأنني سأحقد عليه طويلا، ولا أرى نفسي قادرا مرة أخرى على فتح ذراعيّ له إن جاء يطلب مني العفو... أي عَفو هذا؟... ما هو الذنب الذي اقترفته؟ أظن أنني دفعت الكثير لأجل وفائي، وأن الضرر الذي ارتكبته، عشته في لحمي قبل الآخرين، أكثر من الآخرين، في شموليته. شيء غريب حقا. كنت الحب والكراهية مربوطين في حزمة واحدة، سجينين في قميص جبري واحد. كنت أنزلق نحو شيء أنا عاجز عن تعريفه وهو يتمدّد في جميع الاتجاهات مشوّها تمييزي، شراييني، معالمي، أفكاري، أشبه بذآبة تستغل العتمة لتولد إلى وحشيتها؛ كنت غاضبا؛ غضب داخلي، صامت، جارف. كنت غيورا لرؤية عالمي يتفكّك حولي؛ غيورا حينما يتجول سيمون وإيميلي في الشارع الرئيسي، وطفلهما يركض أمامهما؛ غيورا من

النظرة المتواطئة التي يتبادلانها والتي أعتبرها تسخر مني؛ غيورا من هذه الهيبة التي تلف زوج جان كريستوف وإيزابيل وهما يمشيان نحو خلاصهما؛ كنت حقودا على جميع الأزواج الذين أصادفهم في ريو ولورمال ووهران، وعلى الطرق التي أسلكها صدفة، أشبه بإله مخلوع يبحث عن كون والذي ينتبه أنه غير قادر على خلق واحد حسب قدّه. خلسة مني، كنت أجد نفسي أتجوّل في الأحياء المسلمة بوهران، أيام العطل، أجلس في المقاهي مع أشخاص لا أعرفهم ومع ذلك يخرج قربهم كياني من العزلة. ها أنا ثانية في المدينة الجديدة، أرتوي بالماء الممزوج بالقطران، أقيم ألفة مع مكتبي، موزابي بسرواله الفضفاض، أتعلّم قرب إمام شاب صاحب معرفة مذهلة، مستمعا إلى الأولاد الفقراء يعلقون على الحرب التي تبقر البلد –كانوا أكثر اطّلاعا مني، أنا، المتعلّم، الصيدلي. طفقت أحفظ أسماء غريبة عني والتي ترن في أفواه أهلي مثل أذان الصلاة: بن مهيدي، زبانة، بوضياف، عبان رمضان، حمّو بوتليليس، الصومام، الونشريس، جبل لوح، عليّ لابوانت، أسماء أبطال وأماكن لا تنفصل عن انضمام شعبي لم أتصوّر أبدا أنها مجسّدة ومصممة بهذا القدر.

هل كنت أبحث عن تعويض لتخلّي أصدقائي عني؟...

قمت بزيارة إلى فابريس، في بيته على الكورنيش. كان سعيدا برؤيتي، ولكنني لم أهضم برودة هيلان، زوجته. لم أضع قدميّ عندهم ثانية. حينما ألتقي به في طريقي، أقبل بكل سرور دعوته إلى مقهى أو مطعم، ولكنني أرفض قطعيا دعواته إلى البيت. لا أريد أن أجد نفسي ثانية أمام موقف زوجته الحرد. صارحته بالأمر مرّة. ردّ مستاءً: "خيالك يوهم لك أشياء لا أساس لها من الصحة. من أين أتيت بهذا؟ هيلان ابنة المدينة، هذا كل ما في الأمر. هي ليست مثل فتياتنا. صحيح أنا متفق معك بأنها متصنّعة نوعا ما، ولكن من طبعها الحضري..." ومع ذلك لم أعد إلى بيته ثانية. فضّلت نسيان نفسي في وهران العتيقة، حول مسجد باشا أو قرب قصر الباي، أشاهد الأطفال وهم يتشاجرون حول حنفيات راس العين... أنا الذي لا أحب الضجيج، وجدت نفسي أصفّر ضد الحكم في ملاعب كرة القدم، أشتري في السوق السوداء تذاكر الكوريدا للذهاب إلى مدرجات مصارعة الثيران "إيكموحل" لمساندة ميغال دومينغو وهو يسقط ثوره تحت تصفيقات جمهور هستيري. لا توجد أفضل من ضجة صاخبة كي تطرد التساؤلات التي أرفض البحث فيها. لهذا، تجدني باستمرار لاهثا وراء مثل هذه التجمعات. أصبحت مناصرا متحمسا لاتحاد مولودية وهران، فريق كرة القدم المسلم، وأتسابق لحضور

مقابلات الملاكمة. حينما يُسقط الملاكمون المسلمون خصومَهم أرضا، أشعر بجسدي يولّد عنفوانا لم أكن أتصوّره قادرا على ذلك. كانت أسماء الملاكمين – غوديح، خالفي، شرّاكة، الإخوة صابان، المغربي الرائع عبد السلام...- تبعث في نفسي نشوة مثلما تفعله نفثات الحشيش. لم أعد أتعرّف على نفسي. كان يجذبني العُنف والحشود الهاذية مثلما تجذب شعلة الشمعة فراشة الليل. لا شك في الأمر: لقد أعلنت حربا ضروسا ضد نفسي.

تزوّج جان كريستوف إيزابيل مع نهاية السنة. علمت بالخبر بعد يوم من العرس. لم يتجرّأ أحد على إخباري قبل ذلك. ولا حتى سيمون، الذي اندهش وغضب لأنه لم يُدعَ إلى الحفل هو أيضا. ولا فابريس الذي التحق بوهران عند الفجر كي لا يضطر إلى إيجاد أعذار واهية. مما زاد في إبعادي بميل إضافي من عالمهم. كان ذلك مؤلما جدا...
قرّر جان كريستوف الاستقرار بعيدا عن ريو صالادو. لم تعد القرية كافية له كي يسترجع الوقت الضائع ويثأر لبعض ذكرياته. أهدى لهم الجدّ روسيليو منزلا جميلا في أحد أجمل أحياء وهران. كنت في الساحة العمومية عندما رحل الزوجان. قاد آندري العريسين في سيارته، فيما كانت الشاحنة المقلة للأثاث والهدايا تتبعهم. يحدث لي الآن وأنا في آخر عمري سماع منبهات الموكب وهو يغادر القرية وأحس بداخلي نفس الحزن الذي أحدثته لي في ذلك اليوم. ومع ذلك، ويا للغرابة، تنفّست الصعداء لرؤيتهما يغادران ريو؛ كما لو أن وريدا من جسدي كان مسدودا لمدّة طويلة وها هو ينفتح.
تتجرّد ريو من سكانها؛ أضحت آفاقي شبيهة بآفاق غارق في عرض البحر. لم تعد الأزقة والبساتين وضوضاء المقاهي، ونكت الفلاحين المتأخرة دوما، تثير شيئا في نفسي. في كل صباح، أستعجل وصول الليل كي أهرب من فراغ النهار؛ كل مساء، وأنا في سريري، ينتابني الخوف من الاستيقاظ في قلب الغيابات.
أصبحت أترك العيادة لجرمان وألتحق بمواخير وهران دون المساس بالعاهرات. أكتفي بالسماع لحكايات حياتهن المضطربة وعدم الاكتراث بأحلامهن المتبخّرة. يريحني ازدراؤهن للأوهام. في حقيقة الأمر، كنت أبحث عن حدّة. هكذا، فجأة، أصبحت تهمّني. أردت العثور عليها، معرفة إن كانت تتذكرني، ربما أفادتني في شيء ما، أو قادتني إلى أمّي –هنا أيضا لم أكن نزيها مع نفسي: لقد غادرت حدّة جنان جاتو قبل المأساة التي أفجعت حوشنا؛ لا يمكنها أن تفيدني في شيء

في هذا الموضوع. وهذا ما كنت أستعد قوله لها لتلطيفها. كنت بحاجة إلى شخص أبوح له بهمي أو بمعرفة قديمة يمكنني أن أغرف عندها نوعا من التواطئ، وإعادة إقامة علاقة ثقة لأنّ ثقة أصدقائي في ريو تفكّكت... قالت لي صاحبة الماخور أن حدّة خرجت ذات ليلة مع قوّاد ولم تعد أبدا. كان القوّاد رجلا فظا بأذرع موشومة بقلوب مطعونة بالخناجر وشتائم مكتوبة على جلده المشعر؛ فنصحتني بالابتعاد عنه وعن حدّة إن أردت أن لا أجد ملامحي في صفحة الوفيات لجريدة محلية...
في نفس اليوم، عند نزولي من الترامواي، بدا لي أنني أرى لوسات، صديقة طفولتي، وهي تقود مركبة رضيع أمامها. كانت سيّدة شابة ممتلئة، في قدّ ممشوق، ترتدي بذلة نسائية وعلى رأسها قبعة من الكتان الأبيض. أكيد أنها ليست لوسات؛ كانت ستتعرف على ابتسامتي، وستدرك في زرقة عينيّ شاطئا يذكرها بلحظة ما من طفولتها. برغم لامبالاتها الصريحة، تبعتها على طول الشارع؛ ثمّ عدت القهقري لأنني أدركت الطابع الوقح لمتابعتي.
ثمّ التقيت الحرب... الحرب بجلالها؛ سَقوبة الموت؛ عاشقة الشقاء الخصبة؛ الواقع الآخر الذي رفضت أن أراه وجها لوجه. تتحدّث الجرائد بإسهاب عن الاعتداءات التي تهزّ المدن والقرى، عن قصف المداشر المشبوهة، والهجرة الجماعية لسكان الجبال والأرياف، والكمائن المدمّرة، وتمشيط الجيش، والمجازر؛ كانت هذه الأخبار بالنسبة لي كما علم الخيال، مسلسلا غامضا يكرّر نفسه بلا كلل... ذات يوم، فيما كنت أحتسي عصير برتقال في واجهة البحر، توقفت سيارة سوداء فجأة قرب بناية، وانبثقت فوهات بنادق الرشاش من نوافذ الأبواب. دام دوي طلقات الرصاص بضعة ثوانٍ قبل أن يُعوّض بصرير العجلات: بقي يطنّ في رأسي طويلا. تناثرت أجساد فوق الرصيف، فيما كان المارون يتفرقون راكضين. خيّم صمت مطبق بحيث نزل علي صراخ النوارس كضربة حادة على الصدغين. حسبت نفسي في كابوس. بدأت أرتجف، أرتجف وبصري ملتصق على الأجساد المخرّقة بالرصاص. اضطربت يدي كما مصراع نافذة تحت الريح، ورشتني بعصير البرتقال؛ انفلتت الكأس بدورها وتحطّمت عند قدميّ. تعالت صرخة مفزعة من زبون قريب. خرج الناس من داخل العمارة والمحلات والسيارت، مصعوقين، منذهلين، يقتربون بحذر من مكان المأساة. أغمي على امرأة وهي في ذراع مرافقها. لم أجرؤ على تحريك أصبع؛ بقيت مشلولا على كرسيي، فاغر الفم، خافق القلب. أعلنت صفارات إنذار وصول الشرطة. بعد قليل، تجمع الناس حول الضحايا: ثلاثة أموات، من بينهم فتاة، وخمسة جرحى في حالة خطيرة.

عدت إلى ريو وأغلقت على نفسي في غرفتي طيلة يومين متتاليين.

أصبت بسهاد مزمن. بمجرّد الدخول تحت الفراش، يجذبني رعب مهول إلى العمق. كنت كمن يغرق في هاوية بلا قاع. لم يعد نومي يجد مكانا في جسدي. تقذفني الكوابيس عبر آلاف الأوضاع المرعبة. عندما أتعب من مشاهدة السقف، أجلس، أشدّ رأسي بيديّ وأثبّت بصري بالأرض. تترك قدماي لطخات طرية على الأرضية. كانت الرصاصات على واجهة البحر ترن في أفكاري. حاولت سدّ أذنيّ ولكنها تعود إلى الاندفاع، صامة، مهلكة. يرتجف جسدي تحت دوي الطلقات. أترك المصباح مضيئا إلى غاية الصبح، كي أبعد الأشباح إلى ما وراء الباب والتي تنتظر أدنى إغفاءة لي كي تنقضّ عليّ من جديد. أتشبث بأدنى خشخشة، بأدنى نباح يرتفع في الليل الدامس كي أبقى يقظا. حينما تحرك الريح الخشب ويطلق صريره، تنفجر جمجمتي، تتشقّق. قال لي الطبيب ببلادة: "إنها الصدمة"... لم يفدني بشيء. إنّ ما يهمني هو كيف أتجاوز محنتي. وليس لدى الطبيب وصفة معجزة. كتب لي مهدئات وأقراصا ضد الأرق لم تغيّر من وضعي شيئا. كنت منهارا عصبيا، واعيا بسقوطي، غير أنني أجهل كيفية العلاج. بدا لي كما لو أنني كنت شخصا آخر، شخصا مقرفا، مخيبا للأمل، ومع ذلك ضروريا: إنه ملجئي الوحيد.
ينتابني رُهاب الانغلاق فجأة، فأركض إلى الشرفة للتهوية. عادة ما تأتي جرمان لمرافقتي. تحدّثني، فلا أسمعها. يتعبني كلامها، يثير أعصابي. أريد أن أبقى وَحْدي. فأخرج إلى الزقاق. ليلة بعد ليلة، أسبوع بعد أسبوع، كان سكون القرية يريحني. أحب المشي على الساحة العمومية وهي فارغة، أذرع الشارع الرئيسي ذهابا وإيابا، أجلس على مقعد ولا أفكّر في شيء.
ذات ليلة غير مقمرة، وفيما كنت أناجي نفسي على الرصيف، رأيت درّاجة تتقدّم نحوي. كان نور مصباحها يتمايل ويرن صرير سلسلتها على الجدران في أَنّات مُتعدِّدة حادة. إنه بستاني السيّدة كازيناف. توقف على مستواي، كاد أن يسقط من فوق مقوده، شاحبا، مختل الهندام. أراني شيئا خلفه، عاجزا عن النطق بأدنى كلمة، امتطى دراجته ثانية؛ في تسرّعه، اصطدم بالرصيف وسقط بطوله على الأرض.
- ماذا حدث؟ هل رأيت عفريتا؟
وقف مرتعشا، صعد ثانية فوق دراجته، وتلعثم بعد جهود مضنية:

- أنا ذاهب لأُخبر الشرطة... حدثت مصيبة في منزل السيّدة كازيناف.
لحظتها، رأيت شعلة حمراء واسعة ترتفع من وراء المقبرة اليهودية. صرخت: "يا إلهي !". وبدأت أجري كالمجنون.
كان منزل عائلة كازيناف يشتعل نارا. يضيء حريق عملاق البساتين المجاورة. قطعت عبر المقبرة. كلما اقتربت من المكان، كلما أدركت أكثر هول الكارثة. التهمت النيران الطابق الأرضي وطفقت تتهجم على الطابق العلوي في هدير شره. تحترق سيارة سيمون في الفناء، ولكنني لا أرى ملمحا له ولا لإيميلي وسط الخراب. كان السياج الخارجي مفتوحا. يطقطق العريش على الواجهة، يتلوى وسط مجموعة من الشعل الزاحفة. أجبرت على حماية وجهي خلف ذراعي كي أجتاز سور النيران والاقتراب من الفوّارة. يتمدّد كلبان مَيِّتان في طرف الفناء. الآن، يستحيل الاقتراب من المنزل الذي لم يعد إلا حريقا غاضبا يرسل مسجاته الهائجة في جميع الاتجاهات. أردت أن أنادي سيمون؛ لم يخرج أي صوت من حلقي الناشف. كانت امرأة مقرفصة تحت شجرة. إنها زوجة البستاني. خدّاها في يديها، تنظر بعين شاردة إلى المنزل الذي يتحوّل إلى دخان ورماد.
- أين سيمون؟
أدارت برأسها باتجاه الإسطبل القديم. ركضت وسط السعير، يدوّخني هدير النيران وطقطقات الزجاج. يحجب دخان حاد، لولبي، الهضبة. يغرق الإسطبل القديم في هدوء بدا لي أكثر رعبا من الكارثة خلفي. كان هناك جسد ممدّد على العشب، منكب على بطنه، ذراعاه على شكل صليب؛ تسوطه أضواء النيران بين الحين والحين. شلت ركبتاي. أدركت أنني وحدي، وحدي تماما، ولم أحس بنفسي قادرا على مواجهة هذا الخطر الداهم دون أن يكون بقربي أحد. انتظرت آملا أن تلحق بي زوجة البستاني. ولكنها لم تأتِ. لم أرَ شيئا سوى هدير الحريق والجسد الجامد على العشب. لم يتحرّك الجسد. كان عاريا، بسروال داخلي عند أسفل الفخذين فقط؛ بدت بركة الدم التي يتمرغ فوقها مثل ثقب. تعرّفت عليه من صلعته: سيمون !... هل أعيش كابوسا؟ هل أنا نائم في غرفة؟... يؤلمني حرق ذراعي الذي أخفيت به وجهي عند الدخول؛ كنت يقظا بحق. يتلألأ جسد سيمون في انعكاس الكارثة. يذكّر وجهه المستدير نحوي بكتلة طبشور؛ إن اللمعان الذي استقر في حدقتي عينيه يعلن عن المصيبة. كان ميتا.

قرفصت قرب جسد صديقي وأنا في وضع يرثى له. لم أكن متأكّدا من دقة حركاتي ولا صفاء أفكاري. انطلقت يدي من تلقاء نفسها لتنحط على ظهر الميت كما لو أنها تحاول إيقاظه... صرخ صوت في العتمة:

- لا تلمسه !

كانت إيميلي هناك، قابعة في ركن الإسطبل. بدا شحوب وجهها فوسفوريا. تشع عيناها بنار أوسع من النيران الهادرة خلف ظهري. شعرها مسترسل، حافية القدمين، ترتدي قميصا ليليا حريريا تعري جسمها تقريبا وتضم إلى خصرها ابنها مِشال المرعوب. قالت بصوت كما لو أنه يخرج من تحت الأرض:

- أمنعك من وضع يدك عليه.

انبثق رجل مسلح ببندقية خلفها. إنه كريمو، سائق سيمون، عربي من وهران كان يشتغل في مطعم بالكورنيش ووظّفه صديقي قبل زواجه. انفصلت قامته الطويلة وسط الإسطبل فتقدّم نحوي بحذر.

- لقد أصبت أحدهم. سمعته يصرخ.
- ماذا حدث؟
- الفلاقة. ذبحوا سيمون وأشعلوا النار في كل مكان. ما إن وصلت حتى لاذوا بالفرار. رأيتهم يتسللون في المنحدر. أطلقت النار. فلم يردّ علي أحد من هؤلاء القذرين. ولكنني سمعت أحدهم يصرخ. خيّم قربي. ضاعفت ضياء النيران من قرافة وجهه. سألني قائلا:
- لماذا سيمون؟ ماذا فعل لهم؟

صرخت إيميلي:

- أخرج ! أتركنا لشقائنا... اخفِ وجهك عني... كريمو، أطرده من هنا.

سدّد كريمو بندقيته باتجاهي.

- أسمعت؟ طر من هنا.

هززت رأسي وعدت القهقري. بدا لي أنني لا ألمس الأرض، أنني أزلج في الفراغ. مشيت إلى غاية المنزل المحترق، قطعت عبر البساتين والتحقت بالقرية. كانت مصابيح سيارات تستدير المقبرة وتصعد عبر درب المزار. خلف الموكب، تركض أشباح باتجاه مكان الكارثة؛ كانت تصلني أصواتهم اللاهثة المتقطعة، ولكن صوت إيميلي تسبقهم جميعا، عظيمة كما الهاوية التي هي بصدد التهامي.

دُفن سيمون في المقبرة اليهودية. أصرّ جميع سكان القرية على حضور جنازته. تزاحم كثير من الناس لشدّ أزر إيميلي وابنها. كانت إيميلي بلباس أسود ووجهها

تحت حجاب شفاف. أظهرت وقارا وعزّة نفس في حزنها. إلى جانبها، وقف أفراد عائلة بن يامين من ريو ومن مناطق أخرى خاشعين. كانت والدة سيمون منهارة جدا، تجلس على كرسي، باكية وغير منتبهة لهمسات زوجها، شيخ سقيم، هدّه المرض. في صف خلفي، وقف فابريس مع زوجته، يشدّ يدها صامتا. أما جان كريستوف، فانضمّ إلى عشيرة روسيليو، بجانب إيزابيل. بقيت في الخلف تماما، في عمق المقبرة، كما لو أنني أقصيت عمدا.
بعد الدفن، تفرّق الجمع في صمت. أركب كريمو إيميلي وابنها في سيارة صغيرة وضعها رئيس البلدية تحت تصرفها. ذهب آل روسيليو من جهتهم. حيّ جان ككريستوف فابريس أوّلا ثمّ أسرع للالتحاق بالعشيرة. صفقت الأبواب، شخرت المحركات؛ أُفرغ المكان رويدا رويدا. لم يبقَ حول القبر إلا عنقودا من رجال المليشية والأمن الرسمي، يبدو التأثر عميقا على وجوههم، ربما أحسوا بالذنب لأنهم تركوا مصيبة مهولة تضرب المنطقة. حياني فابريس من بعيد، بحركة خفيفة من اليد. انتظرت أن يأتي لمواساتي؛ ساعد زوجته على الركوب داخل السيارة، وبلا نظرة اتجاهي، اتخذ مكانه وانطلق. حينما اختفَت سيارته خلف بناية، انتبهت إلى أنني بقيت وحدي بين الأموات.

غادرت إيميلي ريو باتجاه وهران.
ولكنها تجذّرت بعمق في أفكاري. حزنت لحالها. لم تظهر السيّدة كازيناف، فأدركت أكثر سعة عزلتها، ألم ترملها المبكّر. كيف يكون مصيرها؟ كيف تستطيع إعادة بناء حياتها في مدينة ضاجة مثل وهران، وسط ناس لا تعرفهم لا من آدم ولا من حوّاء، حيث تلغي الحياة المدينية التعاطف الاعتيادي بين الناس في القرى، وتشترط علاقات نفعية صارمة، واجتهادات خطيرة وتنازلات كثيرة قبل أن يطمح الوافد إليها الاندماج فيها. وبالأخص مع هذه الحرب التي تتسمّم يوما بعد يوم، بقسطها من الاعتداءات العمياء، والانتقامات الصاعقة، والاختطافات، واكتشاف الجثث الملقاة في الطرقات عند كل مطلع الشمس، والأزقة الغاصة بالفخاخ القاتلة. أكيد أنها ستجد صعوبة كبيرة لتستعيد حياة هانئة بمفردها وسط مدينة هدّها الجنون، في قلب حلبة تنضح دما ودموعا، بمعية ابنها المصدوم وبلا أدنى معلم مُقنع.
في القرية، لم تعد الأمور على عهدها السابق. ألغيت الحفلة الراقصة التي تقام في نهاية موسم قطف العنب خوفا من تحوِّل قنبلة الفرح إلى مأساة. لم يعد

المسلمون يُقبَلون في الشوارع؛ ليس لهم الحق في مغادرة الكروم والبساتين دون ترخيص. بعد يوم من مقتل سيمون، باشر الجيش عملية تمشيط واسعة في المنطقة، فتشوا جبل ظهر المنجل والأحراش المجاورة. قصفت الطائرات الحربية والهليكوبترات الأماكن المشبوهة. بعد أربعة أيام وليالٍ من المطاردة، عاد العساكر إلى ثكناتهم بخفي حنين، وقد أنهكهم التعب. مشطت مليشيات جيم جيميناز صوزا هي أيضا أماكن عديدة، وأقامت الكمائن في محيط ريو أتت بنتيجة. في المرة الأولى، أوقفت مجموعة من الفدائيين المكلفين بتموين المجاهدين في الجبال؛ قتلوا البهائم في نفس المكان وأحرقوا المؤن وطافوا بأجساد الفدائيين الثلاثة المخرقة بالرصاص عبر شوارع القرية وهي مرمية على عربة. بعد حوالي عشرة أيام، فاجأ كريمو الذي انضم إلى وحدة من الحَرْكى إحدى عشر مجاهدا داخل مغارة فشعل النار في مدخلها وقتلهم خنقا. منتشيا بانتصاره، واصل تمشيطه فتمكنت فرقته من قتل سبعة مجاهدين في كمين وألقى القبض على جريحين قام بعرضهما في الساحة العمومية وكاد الحشد أن يرجمهما.

لم أعد أخرج من منزلي.

تالتها فترة هدوء.

عاد تفكيري إلى إيميلي. اشتقت إلى رؤيتها. أحيانا، أتخيّلها قبالتي وأنا أحدّثها لساعات. يعذّبني الجهل بمصيرها. بنفاد صبر، ذهبت إلى كريمو لعلّه يرشدني على العثور عليها. كنت مستعدا على فعل أي شيء لاسترجاعها. استقبلني كريمو ببردة. كان جالسا على كرسي متحرك يتمايل به يمينا وشمالا عند باب منزله، بندقيته على الفخذين وجعبة الخرطوش تتدلى على صدره. قال:

- آكل الجيفة ! تريد امتلاكها ودموعها لم تجف بعد.
- يجب أن أكلّمها.
- عن ماذا؟ كانت واضحة معها تلك الليلة. لا تريد أن تراك ولا أن تحدّثك.
- هذه ليست مشكلتك.
- أنت مخطئ على طول الخط. إيميلي هي مشكلتي. وإن حاولت أن تزعجها، سأقلع حنجرتك بأسناني.
- هل قالت لك شيئا يخصني؟
- ليست بحاجة إلى أن تحكي لي شيئا. كنت حاضرا حينما طردتك وهذا يكفيني.

ليس لديّ ما أنتظره من هذا الرجل.

وخلال شهور وشهور ذرعت شوارع وهران جيئة وذهابا أملا في العثور على إيميلي. ذهبت بقرب المدارس، عند خروج التلاميذ؛ لم أصادف مِشال ولا أمّه في أي مكان من بين أولياء التلاميذ. طفت حول الأسواق، ومحلات "بريزونيك، والحدائق العمومية؛ لا أثر لها. في الوقت الذي بدأ ينتابني اليأس، عام بالتمام والكمال بعد موت سيمون، وفيما كنت أمر قرب مكتبة، بدا لي أنني رأيتها خلف الواجهة الزجاجية. انقطع نفَسي. لجأت إلى المقهى المقابل وانتظرت متخفيا خلف عمود. في ساعة الغلق، غادرت إيميلي المكتبة واستقلت حافلة عند زاوية الشارع. لم أجرؤ على الركوب معها. كان ذلك يوم سبت، فانتظرت بفارغ الصبر الاثنين صباحا، وقضيت يوم الأحد في ضيق عظيم، بدا كما لو أنه تمدّد إلى دهر بكامله. عند الساعات الأولى من يوم الاثنين، كنت في المقهى المقابل، خلف العمود. وصلت إيميلي عند التاسعة صباحا، في بذلة نسائية رمادية داكنة، والرأس بداخل خمار من نفس اللون. انضغط قلبي داخل صدري مثل ليمونة تُعصَر. تشجّعت ألف مرة واتّخذت قرار الوقوف والدخول إلى المكتبة والتحدّث معها، ولكن القرار بقي مجرد فكرة وكلمات مجترة لأنني في كل مرة أجد المبادرة حمقاء وغير مناسبة.

أجهل كم مرة مشيت قرب المكتبة لأراها تخدم زبونا، تصعد فوق السلم الصغير، تفتح وتغلق درج النقود، ترتّب الكتب في الرفوف، دون أن أجرؤ على دفع الباب والدخول. إن الاطمئنان على وجودها هنا يملؤني سعادة غامضة ولكنها حقيقية. اكتفيت بالعيش على مسافة من وجودها؛ بدت لي كما السراب، ستختفي عن النظر إنْ أنا حاولت الاقتراب منها. دامت هذه الحالة أكثر من شهر. لقد تركت الصيدلية لجرمان بل ونسيت حتى مهاتفتها وقضيت ليالي في فنادق رخيصة كي أكون يوميا في موعدي بالمقهى لمراقبة إيميلي.

ذات مساء، قبل غلق المكتبة، وكما المتسرنم، خرجت من مخبئي، قطعت القارعة وتفاجأت بنفسي أدفع باب المحل الزجاجي.

لم يكن أحد بداخل المكتبة التي غادرها ضوء النهار. يخيم بها صمت هش ينثر سكينة لطيفة على الرفوف المعبأة بالكتب. كان قلبي يخفق إلى حدّ الانفجار؛ أتصبّب عرقا كما المحموم. يذكّر المصباح السقفي المطفئ فوق رأسي مقصلة على وشك السقوط. وَمض الشك في ذهني: ماذا أفعل؟ أيّ جرح أريد تأجيجه من جديد؟ ضغطت على فكيّ كي أسحقه. ما كان عليّ اجتياز العتبة. لم أتحمّل أن أطرح على نفسي نفس الأسئلة وأن أجتر نفس الضجر. أخرج عرقي مخالبه وطفق يخدش لحمي. أتنفس بقوة كي أطرد هذا السمّ الذي ينتن داخلي. في

الشارع، اختلطت السيارات بالمتسكعين في رقصة فقدت انضباطها. تطعنني المنبهات من الجهتين، كما ضربات السيف. طال الانتظار، طال... أتفتّت. يهمس لي صوت: عد أدراجك. أهز رأسي لأسكته. انتشر الظلام بداخل المكتبة، مسطرا بلطف هياكل الرفوف التي تتراصف حسب أحزمة الكتب...

- تبحث عن كتاب؟

كانت ورائي، نحيفة، شبحية. بدا لي كما لو أنها خرجت من العتمة، تماما مثل ليلة المأساة، تسيل بعرق تلك الليلة نفسها طالما أن فستانها الأسود وشعرها الأسود وعينيها السوداوين يواصلون حدادا لم تخفف منه سنة كاملة قيد أنملة. قطّبت عيني كي أميّزها. الآن وهي تقف على بعد متر مني، ألاحظ أنها تغيّرت، وأن جمالها السابق توارى قليلا، وأنها ليست إلا ظل عهد، أرملة يسكنها حزن أبدي، قرّرت أن تترك نفسها لأمواج الأيام تقودها على هواها، لأن الحياة أخذت منها شيئا يستحيل استرداده. فجأة، أدركت هول خطئي. لم أكن ضيفا مرغوبا فيه. لم أكن إلا خنجرا داخل جرح. أربكتني برودتها، أو بالأحرى جمودها الجليدي، فقِست سعة الضرر الذي كنت أسببه لها في وقت اعتقدت أنني سأصلّح ما دمّرته بيديّ. ثمّ قِست تلك اللهجة التي تخاطب غريبا، صارمة، مربكة، عصية الاحتمال، والتي تلفظني بعيدا، بعيدا جدا، تكاد تمحيني تقريبا، وترميني إلى الجحيم. لا تزال إيميلي حاقدة عليّ. أعتقد أنها تجاوزت شقاءها بفضل تغذية ضغينتها ضدي. لم تكن بحاجة إلى أي قول. تكفلت نظرتها بالمهمة. نظرة هامدة، بدت كما لو أنها انبثقت من الأعماق وهي تبقيني بعيدا، مستعدة لدفعي إلى أقاصي الدنيا إن أنا حاولت مقاومتها.

- ماذا تريد؟
- أنا؟ قلت في بلادة.
- ومن غيرك؟... جئت الأسبوع الماضي، وأسبوع ما قبل الماضي، وتقريبا كل الأيام. ماذا تريد ني؟

انغلقت حنجرتي. استحال عليّ بلع ريقي.

- أنا... كنت... كنت مارا من هنا... صدفة... اعتقدت أنني رأيتك خلف الزجاج، ولكنني لم أكن متأكّدا. لهذا جئت أتأكّد أنك أنت...
- وماذا بعد؟...
- قلت... فكرت مع نفسي... لا أعرف... أردت أن أحيّيك... معرف إن كنت على خير... أكلّمك قليلا. ولكنني لم أجرؤ.

- هل امتلكت الجرأة مرّة واحدة في حياتك فقط.

أحسّت أنها جرحتني. تحرّك شيء ما في عمق عينيها المعبأتين بالليل. كما النيزك الذي ينطفئ في اللحظة التي يشتعل فيها.

- هكذا، استرجعت قدرتك على الكلام. منذ الفترة الطويلة التي لم تعرف ماذا تقول... تريد أن تحدّثني عن ماذا؟

وحدهما الشفتان تتحركان. أما باقي جسدها، الوجه واليدان النحيفتان الشاحبتان، فبقي جامدا بكامله. لم تكن كلمات بأتم معنى الكلمة، عبارة عن نفَس يخرج من فمها، شبيها بعُوذَة متنامية.

- أظن أنني لم أختر الوقت المناسب.
- لا أحب أن يكون بيننا وَقْت آخر. لننهي المسألة بأسرع ما يمكن. ما الموضوع الذي تريد أن تحدّثني عنه؟

قلت كما لو أنّ أفكاري قرّرت أن تعبّر عن نفسها مستغنية عني:

- عنّا نحن الاثنين.

لامست ابتسامة خفيفة شفتيها.

- نحن الاثنان؟ وهل كنا يوما اثنَين؟
- لا أعرف من أين أبدأ.
- أتصوّر ذلك.
- لا يمكنك أنْ تعرفي كم أنا نادم. أنا... أحسّ بذنب كبير... هل يمكنك أن تسمحي لي يوما؟
- وماذا يغيّر في القضية؟
- إيميلي... أنا آسف جدا عما سببته لك.
- ليست إلا كلمات، يونس. صحيح أنني كنت في عهد تكفي منك كلمة واحدة كي تغيّر مجرى مصيرنا. ولكن لم تتجرّأ على التلفظ بها. لذلك يجب عليك أن تفهم الآن بأن كل شيء بيننا قد انتهى وإلى الأبد.
- ما هو الشيء الذي انتهى إيميلي؟
- الشيء الذي كان جنينا ولم يولد.

صُعقت. لم أصدّق أنني لا أزال واقفا على ساقيّ المقطوعتين ورأسي الذي تمزّق إربا إربا؛ لم أعد أسمع خفقان قلبي ولا اندفاع دمي في صدغيّ.

تقدّمت بخطوة. بدَت كما لو أنها تخرج من الجدار الذي كان خلفها.

- ماذا كنت تنتظر، يونس؟ أن أصرخ للمعجزة، أن أقفز على السقف؟... لماذا؟ هل انتظرتك؟ طبعا لا. لم تترك لي حتى وقتا لأحلم بك. أمسكت تحليقي من تلابيبه ولويت رقبته. هكذا !... لقد مات حبي لك قبل أن يسقط أرضا.

التزمت الصمت. كنت خائفا إن أنا فتحت فمي سأنفجر بكاءً. أدركت الضرر الذي سببتها لها، الخراب الذي صنعت بآمالها، بأحلامها وهي فتاة، بسعادتها الخالصة السليمة، المندفعة، المشروعة، الطبيعية، المطمئنة، التي كانت تمنح لعينيها في ذلك العهد إشعاع جميع المغريات المبتهجة، لجميع الأوهام الجميلة.

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالا واحدا، يونس؟

اكتفيت بهز الرأس لأن حلقي كان مخنوقا.

- لماذا؟... لماذا رفضت حبي؟... لو كان من أجل امرأة أخرى، كنت تزوّجتها وأكون قد فهمت. ولكنك لم تتزوّج بعد...

انتهزت دمعة فرصة عدم انتباه وتمكنت من التسلل عبر أهدابي وتتدحرج على خدي. لم أجد الشجاعة ولا القوة لإيقافها. لا تطيع لي أي عضلة. واصلت إيميلي في نبرة رتيبة:

- شغلني الأمر ليل نهار. ماذا يوجد بي من قبح؟ ما الخطأ الذي ارتكبت؟ فكرت: إنه لا يحبني؛ ليس أبسط من هذا. ليس مجبرا بأن يجد لك عيوبا. لا يشعر بعاطفة نحوك... ولم أتمكن من إقناع نفسي. أصبحت شقيا جدا بعد زواجي. وهنا فكّرت: يخفي عني يونس شيئا...
- ...
- ماذا تخفي عني، يونس؟ ماذا تريد أن تقول لي؟

انهار الحاجز؛ فتدفقت دموعي مدرارة، متدحرجة على خديّ، مبللة ذقني ورقبتي. بكيت وشعرت بنفسي أُفرَغ من همومي، من وساوسي، من حنثي، مثل ورم يحرّر مرضه. بكيت كما مجموعة من الأطفال لأنني لم أرغب في التوقف عن البكاء. قالت:

- أترى؟ لا تريد أن تقول لي شيئا.

حينما رفعت رأسي، كانت إيميلي قد ذهبت. كما لو أنّ الجدار الذي كان خلفها، أو العتمة التي كانت تحجبها ابتلعتها. لم تعد بالمحل إلا رائحتها المحلقة وسط روائح الكتب، فيما كانت ثلاثة نساء عجائز واقفات خلف الرف الثالث ينظرن إليّ بعطف. مسحت وجهي وغادرت المكتبة بإحساس أنّ غيمة جاءت من لا مكان تستعد لاستخلاف ضوء النهار المتضائل.

.18

كانت الساعة السابعة مساءً في هذ اليوم من نهاية أفريل 1959. كانت نيران الغروب تلحس السماء بينما تتأوّه غيمة، يتيمة قطيعها، فوق القرية، جامدة، تنتظر قدوم ريح عابرة تأخذها في طريقها. كنت أنظّم صناديق الدواء في الغرفة الخلفية مُستعدا لغلق الصيدلية. حينما عدت إلى القاعة، وجدت شابا واقفا عند عتبة الباب. بدا عصبيا، لافا أسفل سترته كما لو أنه يخفي شيئا. قال بالعربية متلعثما:

- لا أريد لك شرا.

يكون في حوالي السابعة عشر من عمره. كان وجهه شاحبا إلى حدّ كنت ألمح بوضوح الزغب على شفته العليا. بدا كما الهارب من خطر ما. نحيف كمسمار، يرتدي سروالا ممزقا في الركبتين، أحذية خشنة ملطّخة بالتراب ووشاحا مدعوكا حول رقبة اسودّت من الازرقاق.

- إنها ساعة الغلق، أليس كذلك؟

- ماذا تريد؟

بحركة فظّة، أزاح ذيل سترته لحظة قبل أن يعيده إلى مكانه: يوجد مسدس ضخم تحت الحزام. شلّت رؤية المسدس دمي.

- الجبهة هي التي بعثتني. ستنزل الستار وتغلق الباب. لن يحدث لك مكروه إن أنت خضعت للأوامر.

- ما هذه القصة؟

- قصة الوطن، دكتور.

تردّدت قليلا فأخرج مسدّسه، ثمّ أمرني بالتنفيذ، دون أن يسدّد فوهة السلاح باتجاهي. أنزلت الستار الحديدي، عيناي لاصقتان في المسدّس.

- الآن، ارجع إلى الخلف.

كان خوفه ينافس خوفي. خشيت أن تسبق عصبيته نواياه، فرفعت يديّ لتهدئته.

- اشعل الضوء ثمّ اغلق مصراعي النافذة.

أطعت. في صمت الغرفة، تسارعت خفقات قلبي مثل دولاب آلة جنونية.

- أعرف أن أمّك في الطابق العلوي. هل يوجد شخص آخر في المنزل؟
قلت كاذبا:
- أنتظر ضيوفا.
- سننتظرهم سويا.
تمخّط في كم يده المسلحة، ثمّ أشار لي بالرأس أن أصعد إلى الطابق الأول. ما أن تسلقت بضعة درجات حتى غرس فوهة المسدس في جانبي:
- أذكّرك أنه لن يحدث لك مكروه إن طبقت ما أقوله لك.
- اخفِ سلاحك. أعدك بأنني...
- هذا ليس شغلك. ولا تغلط في سنّي. آخرون لم يجدوا الوقت الكافي لإدراك خطئهم. أنا مبعوث جبهة التحرير الوطني. تظن الجبهة أنّك رجل ثقة، فلا تخيّب ظنها.
- هل باستطاعتي معرفة ماذا تريد الجبهة مني؟
- أذكّرك بأننا في حرب.
ألصقني ضد الجدار، عند المدخل واسترق السمع. وصلتنا رنات الأواني من المطبخ، ففجّرت حركات لا إرادية عل خدّه الأيسر.
- نادِيها.
- إنها مسنّة ومريضة. من الأفضل أن تخفي سلاحك.
- قلت لك ناديها.
- نادَيت جرمان. انتظرت أن تندهش برفع يديها إلى فمها أو أن تصرخ؛ تصرّفت برباطة جأش تركتني بلا صوت. لم تثر فيها رؤية المسدس إلا تقطيب الحاجبين. قالت:
- رأيته يخرج من الحقول.
اعترف الفتى بنوع من الافتخار ولكن الاعتراف جاء مهددا على لسانه:
- أتيت من الجبل. ستجلسان بهدوء على المقعد هنا في هذه القاعة الكبرى. إذا رنّ الهاتف أو دقّ أحد على الباب، لا تردوا. ولا تخشوا شيئا.
بطرف مسدسه، أشار لنا إلى الأريكة. جلست جرمان الأولى وشبّكت ذراعيها على بطنها. شلّني هدوؤها. اجتهدت أن لا تنظر باتجاهي، آملة أن أفعل مثلها. قرفص المراهق قبالتنا وثبّت نظره علينا كما لو كنا أثاثَين بين مجموعة أثاث أخرى. بدا كما لو أنه منع نفسه من التنفس. لم أدرك ماذا يدور بخلده؛ ومع ذلك، تنفست الصعداء وأنا أراه أقل قلقا من لحظة وصوله.

أغرق الليل الصالون في الظلمة. لم يتحرّك الفتى، المسدس على فخذ واليد فوقه. وحدهما عيناه تلمعان في العتمة. اقترحت عليه إنارة الغرفة. لم يجب. بعد ساعات قليلة، بدأت جرمان تتحرّك في مكانها. لم تكن علامات قلق أو إعياء؛ يجب عليها أن تذهب إلى المرحاض ولم تجرؤ طلب الإذن من الغريب. فعلت ذلك في مكانها. تلفّظ بصوت "تَسْسْس" مرتين. سألته:

- ماذا ننتظر؟

لكزتني جرمان بحركة خفيفة من منكبها كي أبقى هادئا. أضاء بريق العتمة قبل أن ينسحب فجأة، مغرقا القرية في ظلام بدا لي أكثر كثافة. أحسست بعرقي يبرد في ظهري؛ انتابتني رغبة شديدة في فصل قميصي عن جلدي؛ ثنّ عزمي جمودُ الغريب.

تباعدت ضوضاء القرية. دوى هدير في مكان ما وابتعد، ثمّ استولى صمت أصم على الأزقة والحقول. عند منتصف الليل، ارتطم حصى على مصراع النافذة. وقف الفتى وجرى ينظر إلى الظلام الخارجي عبر الزجاج؛ التفت نحو جرمان وأمرها بأن تفتح الباب الأرضي. وفيما كانت تهبط الأدراج المؤدية إلى العيادة، حطّ فوهة مسدّسه على رقبتي وأجبرني على التقدّم إلى غاية الدرج.

- سيّدتي، إذا صرخت سأفجّر رأسه.

ردّت جرمان:

- لقد فهمت.

سحبت المغلاق من باب الدخول؛ مباشرة ارتفعت جلبة في الطابق الأرضي. أردت أن أعرف ماذا يجري، سحق المسدّس رأسي ضد الجدار.

صعدت جرمان. رأيت أشباحا تتمايل في حائط السلالم. غمغم صوت أبح: "اشعَل الضوء يا غبي! " ضغطت جرمان على الزر؛ فأضاء مصباح المدخل أربعة رجال مسلحين يحاولون حمل جريح على نقالة مرتجلة. تعرّفت على جلول، خادم آندري السابق. يرتدي بذلة عسكرية بالية، على كتفه بندقية صيد رشاش وأحذية تقطر وحلا. دفعني جانبا وساعد الثلاثة الآخرين لتسلق السلالم وحطّ النقالة عند قدم الأريكة في الصالون. دون أن يهتم بنا، نصح أصدقاءه برفع الجريح وحطّه على طاولة الأكل. ثم أمرهم قائلا:

- انصرفوا. التحقوا بالفرقة. أبقى مع العوفي. ولا داعي للعودة إلينا. إذا حصل مكروه، سأتدبّر أمري.

هبط ثلاثة رجال عبر السلالم واختفوا في الظلام. بصمت. ودون أدنى نظرة إلينا. أبعد الفتى فوهة مسدسه ودفعني إلى داخل الصالون. قال له جلول:

- شكرا، صغيري. لقد قمت بالمهمة على أحسن وجه. انصرف الآن.
- أبقى في الضواحي؟
- لا. اذهب حيث كنا.

حيّاه الفتى تحية عسكرية وانسحب.

غمز لي جلول:

- هل أنت بخير؟

لم أعرف بماذا أجيب.

- كن نافعا. اذهب واغلق الباب.

تَوَسّلتني جرمان بعينيها. هذه المرّة، كانت شاحبة، لقد تجمّع وجهها حول ذهول متأخر ولكنه عميق جدا. نزلت وأرجعت المغلاق إلى مكانه. عند عودتي، كان جلول يُعرّي صدر الجريح الممدّد فوق الطاولة من سترة عسكرية مدماة. قال مهدّدا بهدوء:

- إذا مات، ستلتحق به إلى العالم الآخر. حياة هذا الرجل أغلى من حياتي. تلقى رصاصة في الصدر خلال اشتباك مع الدرك. اطمئن. في مكان بعيد جدا من هنا. أتيت به هنا كي تخلّصه من هذه القذارة التي لصقت بجسده.
- بماذا؟ لست جراحا.
- أنت دكتور، أليس كذلك؟
- صيدلي...
- لا يهمني. حياتك متعلقة بحياته. لم أقطع كل هذه المسافة الطويلة كي يلفظ أنفاسه هنا.

مسكتني جرمان من الذراع.

- دعني أتفحّصه.

قال جلول:

- ها هو الكلام المعقول.

انْحنَت جرمان على الجريح، ثمّ، وبرفق، أبعدت قميصه الملطخة بالدماء؛ يقع مكان الضربة فوق النهد الأيسر، لا يكاد يظهر تحت الطبقة السميكة والمخثرة التي تحيطه. كان الجرح قبيحا وحساسا.

- فقد كثيرا من الدم.

ردّ جلول قاطعا:
- في هذه الحالة، لا داعي لتضييع الوقت.
ثمّ خاطب رفيقه:
- العوفي... يجب أن تساعد السيّدة.
ثمّ وجّه كلامه إليّ:
- العوفي ممرّضنا. اهبط إلى الصيدلية معه وساعده ليجد الأشياء اللازمة لإجراء العملية للنقيب. هل لديك ما يساعد على تنظيف الجرح والعتاد الضروري لاستخراج الرصاصة؟
قالت جرمان:
- سأتكفّل بذلك... وجوناس لن يفيدني في شيء. ومن فضلكم لا أريد أسلحة في صالوني. أنا بحاجة إلى راحة البال والسكينة كي أشتغل... يمكن للممرّض أن يبقى. أما أنت وابني...
- وهذا ما نوَيت فعله سيّدتي.
أرادت جرمان أن تحميني. أحسّ بها تقلب السماء والأرض كي تحافظ على رباطة جأشها، وكان حضوري يربكها. لا أرى كيف ستتدبّر أمرها. لم تلمس موسى جراحة في حياتها. ماذا تخفي خلف رأسها؟ وإذا مات الجريح؟ كانت عيناها الجافتان تدفعانني، تريدان بإصرار إبقائي أبعد ما يمكن من الصالون. كانت ترسل إليّ شفرات لم أتمكن من فكّ رموزها. إنها تخشى على حياتي، هذا أكيد، وتضع نفسها في المقدّمة كي تبعدني عن الخطر. اعترفت لي بعد ذلك أنها كانت ستُحِي جثة هامدة لتنقذ رأسي.
- اذهبوا إلى المطبخ لتناول الطعام. سأكون في راحة أحسن وأنتم بعيدون عن ظهري.
وافق جلول بحركة من الرأس. قدته إلى المطبخ؛ فتح الثلاجة، أخرج منها صحنا من البطاطا المغلية، وجبنا وقطعا من اللحم المفوّر، وفواكه وقارورة حليب وحطّ الكل فوق الطاولة، إل جانب رشاشه.
- هل يمكن أن تعطيني قطعة خبز؟
- إنّه عل يمينك. في خزانة المئونة.
تناول رغيفا عريضا، قضم منه وهو يسترخي على كرسي؛ أكل بشراهة مدهشة، منتقلا من فاكهة إلى قطعة جبن ومن حبة بطاطا إلى قطعة لحم دون تمييز.
قال في تجشئ مسموع:

- أنا ميّت من الجوع. حياة مرفهة بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ أنت تواصل العيش في جنة النعيم ونحن نشقى هناك في الجبال... متى ستختار جهتك؟ يجب أن تتخذ قرارك يوما...
- لا أحب الحرب.
- لا يتعلق الأمر بحب الحرب أو بغضها. شعبنا ينتفض. لقد كره من مظالم الاستعمار والخضوع والصمت. أنت طبعا، الجالس على كرسيين، يمكنك المناورة على راحتك. تضع نفسك مع الجهة لتي تلائمك.

أخرج موسى من جيبه وقطّع كرة الجبن الأحمر.

- هل يحدث لك أن ترى آندري؟
- نادرا في الفترة الأخيرة.
- قيل لنا بأنه شكّل ميليشية بمعية أبيه.
- هذا صحيح.
- كم أرغب أن أجده مقابلا لي وجها لوجه؟ أتمنى أن يعرف بأنني هربت من السجن.
- لا أعرف.
- ألم يتحدّثوا عن فراري في ريو؟
- أنا، لم أكن على علم.
- كانت معجزة. قطعوا رأسي فقامت من جديد. أتؤمن بالقدر جوناس؟
- ليس لديّ شعور بأنّ لي واحدا.
- أنا أؤمن بالقدر. تصوّر أن عجلة الشاحنة التي كانت تقلني باتجاه سجن أوريانفيل انفجرت أثناء السير وانحرفت عن الطريق. حينما فتحت عينيّ كنت مرميا وسط أجمة. وقفت ومشيت، وبما أنّ لا أحد جرى خلفي، واصلت المشي. قرصت نفسي لأتأكّد أنني لست في حلم. أليست هذه هدية من السماء؟

توقّف عن الأكل، وذهب إلى الصالون ليرى كيف تسير الأمور ناسيا عمدا رشاشه على الطاولة. عاد بعد لحظات.

- الجرح عميق ولكن النقيب رجل صلب وقوي. سيخرج من العملية سالما. يجب أن يخرج منها سالما ! وإلا...

توقّف عن مواصلة جملته، تفرّسني قبل أن يغيّر لهجته:

- الأعمار بيد الله. ونحن مؤمنون. حينما أجهزنا على رجال الدرك، لم أعرف ماذا أفعل ومسئول فرقتنا جريح بين أيدينا. وها هو اسمُك يرن في ذهني. أقسم لك

أنني سمعته. التفتت. لا أحد. لذلك، لم أحاول الفهم أكثر. مشينا مدّة ليلتَين عبر الغابات والأحراش. الكلاب نفسها تكف عن النباح عند مرورنا. أليس هذا أمرا عجيبا؟

أبعد بندقيته الرشاش بيد ساهية.

- وقعت مرارا في الكمائن. لم تصبني رصاصة ولو مرة واحدة. مع طول الأيام، أصبحت قدريا. لن تحين ساعتي إلا إذا شاء الله. لا أخاف لا عبدا ولا صاعقة... وأنت مما تخاف؟ الثورة بخير. ننتصر على جميع الجبهات، بما في ذلك جبهة الخارج، الشعب يساندنا، والرأي الدولي أيضا. سوف لن يتأخّر اليوم العظيم. ماذا تنتظر لتلتحق بنا؟
- هل ستقتلنا؟
- لست قاتلا، جوناس. أنا مكافح. أنا مستعد للتضحية بحياتي من أجل وطني. ماذا ستمنحه أنت لهذا الوطن؟
- أمي لا تفقه الشيء الكثير في الجراحة.
- أنا أيضا، ولكن يجب لأحد ما أن يقوم بالعملية. أتعرف من هو النقيب؟ إنه سي رشيد، المجاهد البطل الذي تتحدّث عنه الجرائد. لقد رأيت المسلحين الشجعان؛ لكن لا أحد يملك هيبته. عادة ما نجد أنفسنا محاصرين كالجرذان. وها هو يأتي منقذا، بقدرة قادر، ويخرجنا من الورطة بصفق الأصابع. إنه وحيد زمانه. ولا أريد له أن يموت الآن. لا تزال الثورة بحاجة إليه.
- أكيد. ولكن ماذا ستفعل بنا إن سارت الأمور ضد ما ترغب وتتوقع؟
- أيها الشقي ! لا تفكّر إلا في إنقاذ جلدك. إن الحرب التي تقضي على المئات يوميا لا تمُسّك. سأقتلك كما تُقتَل الكلاب لو لم يكن لديّ دين... بالمناسبة، هل يمكنك أن تفسّر لي لماذا لا أستطيع أن أناديك يونس؟

لم يصرخ ولم يضرب بقبضته على الطاوية؛ رماني بغيظه هكذا، بطرَف الشفتين. كان متعبا جدا وغير قادر على بذل جهد كبير. ومع ذلك، كان الازدراء الذي أثيره في نفسه عظيما، فأجّج في نفسي غضبا أكبر من الغضب الذي تركه في نفسي رفض جان كريستوف لي.

دقّ الممرّض في باب المطبخ قبل أن يدخل. كان يتصبّب عرقا.

- لقد نجحَت.

تنفس جلول الصعداء قائلا:

- الحمد لله.

شرّع ذراعيه في اتجاهي وأضاف:
- مثلما ترى... القدر معنا أيضا.
أمر الممرّض بمراقبتي وأسرع يلتحق بجريحه. سألني الممرض إن كان هناك شيء للأكل. أريت له الثلاجة وخزانة المئونة. طلب مني التراجع إلى الوراء إلى غاية النافذة والحذر من ارتكاب حماقة. كان قصير القامة، نحيفا، خرج توا من المراهقة، وجهه أحمر ومشعّر. يرتدي سترة بالية كبيرة عليه وسروال صيد يشدّه من الحزام بحفل من الخيش وحذاءً ضخما وقبيح المنظر. لم يقترب من الثلاجة، واكتفى بالتهام بقايا الطاولة.
ناداني جلول. أمرني الممرض بإشارة من يده بمغادرة المطبخ وتبعني ببصره إلى أن اختفيت في الرواق. كانت جرمان منهارة على الأريكة تحاول استرجاع قواها، صدرها يلهث تحت قميصها المبلل بالعرق. يمدّد الجريح على الطاولة بصدره العاري الملفوف بضمادة. يصفّر تنفسه المُخَنخِن في صمت الغرفة. بلل جلول كمادة داخل إناء صغير وباشر بمسح وجه الجريح. كانت حركاته مطبوعة باحترام ظاهر. أعلن قائلا:
- سنبقى عندكم بضعة أيام، الوقت الكافي كي يستعيد النقيب قوته. غدا، ستفتح الصيدلية دون أن تغيّر شيئا من عاداتك. أما السيّدة، ستبقى معنا هنا. بالنسبة لشراء المئونة وأشياء أخرى، ستقوم بها أنت. تخرج وتدخل مثلما شئت. ولكنني إذا رأيت حركة مريبة من هنا أو هناك، تعرف ماذا ينتظركما. لا نطلب إلا الضيافة لأيام معدودة، أظنك تفهم هذا جيدا. للمرة الأولى نمنح لك فرصة ذهبية لتخدم شعبك، فحاول أن لا تخيّب أملنا.
اقترحت جرمان:
- سأتكفّل أنا بالصيدلية وبالمشتريات.
- أفضل أن يتكفّل بها هو... اتفقنا جوناس؟
- ومن يؤكد لي بأنكم ستتركوننا على قيد الحياة بعد ذهابكم؟
- أنت حالة ميئوس منها فعلا، جوناس.
تدخّلت جرمان:
- أنا أثق في أقواله.
ابتسم جلول. إنها الابتسامة نفسها التي أرسلها لي في دشرته التائهة خلف هضبة المزارَين؛ خليط من تكشيرة ازدراء وشفقة. أخرج مسدسا صغيرا من جيب سرواله ووضعه بيدي.

- إنه معبأ. ما عليك إلا أن تضغط على الزناد.
أرعدتني برودة المعدن.
اخضرّت جرمان. تشبثت أصابعها بفستانها وكادت تمزّقها.
- أتريد أن أقول لك، جوناس؟ تثير شفقتي. يجب أن يكون الشخص لا يساوي بصلة نتنة كي يترك مثل هذا القدر يضيع من يديه.
أخذ مني المسدّس وأعاده إلى جيبه.
أطلق الجريح حشرجة وتحرّك. يكون في مثل عمري أو أكبر قليلا. كان أشقر، طويل القامة، عضلاته رقيقة ومرسومة بشكل جيد. تخفي لحية صهباء تقاسيم وجهه المجروح في الجبين، بحاجبين كثين وأنف معقوف، بأرنبة حادة كالشفرة.
تحرّك من جديد، مدّ ساقا، وحاول أن يستدير على جنبه؛ آلمته هذه الحركة وأطلق صيحة، فاستيقظ. في اللحظة التي فتح عينيه، تعرفت عليه، برغم السنوات ونوائب الدهر: هواري !... إنه هواري، شريكي السابق، الذي علّمني فن التمويه وصيد العصافير، في جنان جاتو. لقد أدركته الشيخوخة قبل الأوان، ولكن نظرته بقيت سليمة: داكنة، معدنية، غامضة. نظرة لن أنساها أبدا.
استيقظ هواري من غيبوبة طويلة، لكنّ وجهي لم يوحِ له بشيء. بالمقابل، وفي حركة دفاع ذاتية، أمسكني من الرقبة وجذبني بفظاظة إليه باذلا جهدا مضنيا كي يقوم. همس له جلول:
- أنت في مكان آمن، سي رشيد.
بدا كما لو أنّ هواري لم يفهم. تفرّس رفيق سلاحه، قضى وقتا قبل أن يسترجع صفاء ذهنه، مواصلا خناقي. ركضت جرمان لإنقاذي. أمرها جلول بالعودة على مكانها، وبصوت لطيف، شرح لرئيسه الموقف الجديد. بدأ الهواء ينقصني، انتظرت بصبر أن يسترجع الجريح كامل قواه العقلية. حينما أطلق سراحي، كنت أشعر بتَنمُّل في الصدغين.
أرخى الجريح جسده وسقط على الطاولة. ارتمى ذراعه في الفراغ، تدلى لحظة قبل أن يتوقف عن الحركة. وصل الممرّض راكضا، نبّهته تأوهاتي. قال آمرا:
- ارجع إلى الوراء.
تفحّص الجريح، جسّ نبضه...
- أغمي عليه مرّة أخرى. يجب وضعه على السرير الآن. إنه بحاجة إلى الراحة.

مكث المجاهدون الثلاثة عندَنا حوالي عشرة أيام. واصَلت عملي في الصيدلية كما لو أن شيئا لم يكن. خوفا من أن يزورنا قريب بغتة، هتفت جرمان لعائلتها في وهران لتخبرها أنها تسافر إلى مدينة كولامب بشّار في الصحراء وأنها ستتصل ثانية بمجرّد عودتها. نقل العوفي، الممرّض، رئيسه إلى غرفتي، وبقي إلى جانبه ليل نهار. كنت أنام في مكتب عمّي، على سرير قديم. يأتي جلول عندي باستمرار لاستفزازي. يفيض قلبه غيظا من موقفي السلبي اتجاه الحرب التي يخوضها شعبنا من أجل استقلاله. أعرف أنه لا ينتظر مني إلا كلمة واحدة ليجرني في الوحل؛ لذلك التزمت الصمت. ذات مساء، وفيما كنت أقرأ كتابا، وبعد أن تأكّد أنني لست متحمسا لخوض نقاش، قال لي:

- الحياة تشبه ما نراه في السينما: يوجد ممثلون يُغذّون الحكاية، وممثلون يؤثثون الديكور. يوجد هؤلاء داخل الفيلم ولكنهم لا يثيرون اهتمام أحد. أنت واحد منهم، جوناس. إذا كنت لا تلوم نفسك، فأنت تثير الشفقة فعلا.

أزعجه سكوتي، فصرخ:

- كيف يمكن لنظرك أن يحيد عمّا يحدث في البلد من تغيّرات عظيمة؟

رفعت بصري إليه، ثمّ عدت إلى قراءتي. خطف الكتاب من يديّ ورماه ضد الجدار:

- إنّي أحدّثك !

نهضت، أخذت الكتاب وعدت إلى سريري. من جديد، حاول أن يخطفه مني؛ هذه المرّة، أمسكته من المعصم ودفعته. تفاجأ جلول من ردّ فعلي وتفرّسني باندهاش قبل أن يغمغم:

- لستَ إلا جبانا. ترفض أن ترى ما يحدث في قرانا التي تقصفها الطائرات بالنابالم، وما يحدث في السجون حيث يشنَق أبطالنا، وفي الجبال حيث يموت المجاهدون تحت رصاص جيش العدو، وفي المحتشدات حيث يقبع مناضلونا. ما نوع البشر أنت، جوناس؟ ألم تفهم بعد أن شعبا بأكمله يكافح من أجل إنقاذ أمثالك؟

لم أجبه.

ضربني في الرأس براحة يده. قلت:

- لا تلمسني.

- واوو... سأبلّل سروالي من الهلع. أنت خوّاف وجبان. سواء قطّبت حاجبيك أو شدّدت مؤخرتك، فلا يغيّر في الأمر شيئا. أتساءل عما يمسكني من ذبحك.

وضعت كتابي جانبا وواجهته:

- ماذا تعرف أنت عن الخوف والجبن؟ من يجسّده في نظرك؟ الرجل المجرد من السلاح والذي يهدّد بفوهة مسدس في الصدغ أم ذلك الذي يهدّد بتفجير جمجمته؟

تفرّسني بازدراء.

- لست خوّافا ولا جبانا، جلول. لست أبكم ولا أعمى، كما أنني لست من صخر. إذا أردْتَ أن تعرف، لا شيء في هذه الدنيا يثير حميتي، ولا حتى البندقية التي تسمح لحاملها أن يعامل الناس بازدراء. أليسَ الإذلال هو الذي حملك على رفع السلاح؟ لماذا تمارسه اليوم بدورك؟

ارتعد من الغيظ، قاوم نفسه كي لا ينقضّ على رقبتي ويخنقني، ثمّ خرج صافقا الباب وراءه بعد أن بصق على الأرض قرب قدميّ.

لم يعد إلى إزعاجي ثانية. حينما نلتقي في الرواق، يبتعد عن طريقي بقرف. خلال إقامتهم، منعني جلول من الاقتراب من النقيب. عندما أكون بحاجة إلى استرجاع أشيائي الخاصة، يتكفل الممرض بذلك. أشير له إلى المكان الذي أرتّب فيه هذا الشيء أو ذاك، فيذهب لإحضاره. مرّة واحدة، عند خروجي من الحمّام، تمكّنت من رؤية المريض عبر فتحة الباب. كان جالسا فوق السرير، ضمادة نظيفة حول صدره؛ يدير له ظهره. فتذكّرت سنوات جنان جاتو حينما كنت أعتبره صديقي وحامي، ومَطيَرته الملوّثة بالسَلْح، ودورات صيد العصافير في الأحراش خلف ساحة السوق ، وبعد ذلك، بغتة، تشنّج قلبي وأنا أتذكّر النظرة الفارغة التي رماني بها في الوقت الذي كان فيه دحّو، ذلك الشيطان، يعذّبني بحنشه. انطفأت رغبة الكشف عن هويتي والتي كانت تؤجّج طرف لساني منذ أن تعرّفت عليه.

في آخر يوم، أخذ المجاهدون الثلاثة حماما، حلقوا لحاهم، وضعوا بذلهم وأحذيتهم الخشنة المنظفة في كيس، ارتدوا لباسي واجتمعوا في الصالون. كانت بدلتي واسعة بالنسبة للممرّض الذي لم يتوقّف عن النظر في المرآة، معجبا بمنظره الجديد. حاول الثلاثة إخفاء قلقهم، جلول بالبدلة التي اشتريتها بمناسبة زواج سيمون، النقيب في البدلة التي أهدتها لي جرمان قبل شهور قليلة. عند منتصف النهار، بعد الغداء، أمرني جلول بنشر الإزار الأبيض على كامل جدار الشرفة. عند سقوط الليل، أشعل وأطفأ ثلاث مرات في الغرفة التي تفتَح على الحقول. حينما غمز نور في عمق العتمة، خلف بحر الكروم، أمرني بقيادة الممرّض إلى الغرفة الخلفية للصيدلية وإعطائه جميع الأدوية وعلب العلاج التي يحتاج إليها. وضعنا

ثلاث علب كرتونية في صندوق السيارة وصعدنا إلى الطابق العلوي، حيث كان النقيب يذرع الرواق، مفكرا، ووجهه لا يزال شاحبا. سأل جلول:

- كم الساعة؟
- العاشرة إلا الربع.
- حان الوقت. ستأخذنا بسيارتك وتتبع الاتجاه الذي نحدّده لك.

كانت جرمان تجلس في زاوية من الصالون، فشبكّت أصابعها في دعاء خاشع، وأدخلت رقبتها بين كتفيها. كانت ترتعد. اقترب منها الممرّض، ربت على كتفها وقال: "سيمر كل شيء على أحسن حال، سيّدتي. لا تقلقي." تضاعف انكماش جرمان خلف يديها الصغيرتين.

احتلّ النقيب والممرّض المقعد الخلفي، أسلحتهما عند الأقدام. ركب جلول إلى جانبي، محركا بلا توقف رباطة عنقه. فتحت أبواب المستودع التي أغلقتها جرمان خلفنا مباشرة، وسرنا بأضواء مطفأة إلى غاية خزان كراوس للخمر، مقابل "سْنايك" آندري. يوجد الزبائن في الحانة وفي الفناء. وصلت إلى سمعنا قهقهات وصيحات. انتابني فجأة خوف من أن يبادر جلول إلى الثأر من مستخدمه السابق. اكتفى جلول برسم تكشير على شفتيه، قبل أن يشير بذقنه إلى الخروج من ريو. أشعلت أضواء المصابيح وتدحرجت السيارة في الليل.

سلكنا طريق لورمال المزفّت، ودرنا قبل الدخول إلى القرية وصعدنا باتجاه تارغا الشاطئ. كانت دراجة نارية تنتظرنا عند منعطف. تعرّفت على المراهق الذي جاء إلى الصيدلية في اليوم الأول بمسدّسه. دار دورة خاطفة وسبقنا بسرعة. قال جلول بلهجة آمرة:

- سر ببطء. وحاول أن لا تلتحق به. إذا رأيته عائدا، أطفئ الأضواء وارجع القهقري.

لم ترجع الدرّاجة النارية.

بعد حوالي عشرين دقيقة، رأيته واقفا على طرف الطريق. أمرني جلول بالتوقف وإطفاء المحرّك. خرجت أشباح عديدة من الأحراش، مسلحة بالبنادق، وحقائب على الظهور. يجذب أحد الرجال لجام بغل ضامر. نزل ركابي والتحقوا بهم؛ تبادلوا تحيات حارة. عاد الممرض نحوي، أمرني بالبقاء خلف المقود، ثمّ أسرع إلى فتح الصندوق الخلفي للسيارة. حملوا علب الدواء وأدوات العلاج على ظهر البغل. بعد ذلك، سرّحني جلول بحركة من اليد. لم أتحرّك. كيف يتركونني أذهب هكذا، سالما معافى، وأنا أستطيع الإبلاغ عنهم عند أوّل حاجز للجيش أو الدرك؟ حاولت مطاردة عيني جلول؛

ولكنه أدار لي ظهره واقتفى آثار النقيب الذي لم أسمعه يتلفظ بكلمة واحدة منذ الليلة التي كاد أن يخنقني فيها. تسلّق البغل دربا، ترنّح قليلا على ذروة صخرة ثم اختفى. تسللت الأشباح خلفه وسط الأحراش وتشادوا بالأيدي لمساعدة بعضهم البعض لتسلق جانب التلة. بعد قليل، تبخروا في الظلام. ولم أسمع إلا حفيف الأوراق التي تحركها ريح خفيفة.
رفضت يدي أن تمسك بمفتاح السيارة. كنت متأكّدا أن جلول يكون قابعا في حفرة ما، وبندقيته مصوّبة نحوي، مترقّبا هدير المحرك الذي سيغطي دوي طلقة رصاصته. قضَيْت ساعة كاملة لأقنع نفسي أنهم غادروا المكان فعلا.

بعد شهور اكتشفت رسالة بلا طابع بريد ودون مرسل إليه بين بريدي. بداخلها، ورقة منزوعة من كرّاس مدرسي تحوي قائمة من الأدوية. بلا أية إشارة أخرى. اشتريت الأدوية المشار إليها ووضعتها في علبة كرتونية. مرّ العوفي بعد أسبوع لأخذها. كانت الساعة الثالثة صباحا حينما ارتمى حصى على مصراعي نافذتي. سمعت جرمان الجلبة؛ وجدتها في الرواق، ملفوفة في فستان نومها. لم نقل شيئا. نظرت إليّ وأنا أهبط السلالم لألتحق بالغرفة الخلفية. سلّمت العلبة للممرّض، أغلقت باب الدخول وصعدت إلى غرفتي. انتظرت أن تأتي جرمان لتوبيخي؛ ولكنها عادت هي أيضا إلى غرفتها وأغلقت على نفسها بالمفتاح.
عاد العوفي خمس مرات لأخذ علب الدواء وأدوات العلاج. بالطريقة نفسها: ظرف يدسّه ليلا في صندوق بريدي، وبداخله قائمة الأدوية على طرف ورقة، ومن حين لآخر، طلبية عتاد علاج وفحص –الحقن، القطن، الضمادات، المَقاصّ، سماعات الطبيب، مضاغط، إلخ. رمي حصى على النافذة. الممرّض عند مدخل الباب. وجرمان في بهو الطابق الأوّل.
ذات مساء، تلقيت مكالمة هاتفية. طلب مني جلول أن ألتحق به في المكان الذي أوصلته مع النقيب والممرض. عندما رأتني جرمان أخرج السيارة من المستودع في الصباح الباكر، رسمت حركة الصليب. انتبهت أننا لم نعد نتحدّث مع بعض... لم يكن جلول في الموعد. كلّمني بمجرّد عودتي إلى المنزل وطلب مني الرجوع إلى المكان المشار إليه. هذه المرّة، كان راعٍ ينتظرني بحقيبة مليئة بأوراق نقدية عند قدميه. أمرني بإخفاء النقود إلى أن يأتي شخص لاستلامها. بقيت عندي الحقيبة أسبوعين. كلّمني جلول ذات أحد ليكلّفني بنقل "الطرد" إلى وهران والانتظار هناك، دون الخروج من سيارتي، مقابل محل صغير للنجارة، خلف حانة مشهورة. نفّذت الأمر. كانت النجارة

مغلقة. مرّ رجل بقربي، ثمّ عاد ثانية، توقّف على مستواي، وأراني عقب مسدّس مخفي تحت معطفه وأمرني بالنزول. "سأعود بعد ربع ساعة"، قال لي وهو يقفز خلف المقود. أعيدَت إليّ سيارتي بعد ربع ساعة تقريبا.

استمرت حياتي الثانية طوال الصيف وطوال الخريف.

آخر مرة جاء إليّ العوفي، أحسست به أكثر عصبية من سابق عهده. كان يختلس النظر باستمرار اتجاه حقول الكروم. أفرغ الأدوية بداخل جراب ظهري رماه على كتفيه وألقى إليّ نظرة لا أعرفها عنه. أراد أن يقول لي شيئا، ولكنه لم يتمكن. وقف على أطراف حذائه الخشن المترب وقبّلني على قمة جمجمتي كعلامة احترام. كان جسده يرتعد بين ذراعيّ. الساعة تشير إلى حوالي الرابعة صباحا، وقد بدأت السماء تنقشع. هل طلوع النهار هو الذي يقلقه؟ لم يكن العوفي في حالة جيّدة، بدا كما لو أنّ خوفا يقضم أحشاءه. حيّاني وأسرع إلى الاختفاء وسط الكروم. رأيته ينقضّ في الظلام، مسترقا السمع إلى صرير الأوراق التي تخون خطواته المتنامية. في السماء، يذكّر الهلال بقلامة ظفر. تصفر ريح متردّدة بين الفينة والأخرى قبل أن ترقد على أسفل الأرض.

في غرفتي، جلست على طرف السرير، دون إشعال الضوء، حدسي في ترقّب مريب... طلقات رصاص مزّقت سكون الليل، فطفقت جميع كلاب الضواحي تنبح.

عند الفجر، دقّ باب منزلي. إنه كريمو، السائق السابق لسيمون. وقف على الرصيف، ساقاه مشرعتان، يداه على خصره والبندقية تحت الإبط. يشع وجهه بابتهاج يتطاير شررا. يقف ستة رجال مسلحين وسط القارعة يحيطون عربة محمّلة بجسد مخثر بالدماء. جسد العوفي. تعرّفت عليه من خلال حذائه الخشن والجراب المبقور على صدره. قال مريمو:

- متمرّد... متمرّد قذر برائحة نتنة... خانته رائحته.

تقدّم بخطوة.

- تساءلت ماذا يفعل هذا الخنزير في قريتي؟ عند من كان؟ ومن أين خرج؟

دفعوا بالعربة إلى مستواي. تدلّى رأس المرض فوق العجلة، لقد قلعوا نصف الجمجمة. أمسك كريمو بالجراب ورماه إلى قدمي؛ تناثرت الأدوية على الرصيف.

- لا توجد إلا صيدلية واحدة في ريو، جوناس، إنها صيدليتك. وبضربة واحدة، فهمت كل شيء.

أتبع كريمو الفعل لقوله، فضربني بأخمص البندقية على الفك. أحسست بوجهي ينفجر في آلام جرمان وسقطت في هاوية مظلمة.

سجنوني في زنزانة كريهة الرائحة، وسط الجرذان والصراصير. أراد كريمو أن يعرف من هو "الفلاقة"، ومنذ متى أمَوّنه بالأدوات الصيدلانية. أجبته بأنني لا أعرفه. أغرق رأسي في حوض مليء بمياه قذرة، وضربني بسوط به ضفائر؛ كرّرت بعناد أن "الفلاقة" لم يأتِ عندي أبدا. كان كريمو ساخطا، مزمجرا، يبصق عليّ، ويركلني على جوانب جسمي. ومع ذلك، لم يأخذ شيئا من عندي. سلّمني إلى شيخ نحيف، بوجه طويل رمادي اللون وعينين ثاقبتين. بدأ هذا الأخير يقول لي بأنه يفهمني، وأنّ الناس في القرية متأكدون أنّ لا علاقة لي مع "الإرهابيين"، وأنهم أجبروني على التعامل معهم. أصررت على الإنكار الكلي. تتالى الاستنطاق، بعضه مفخّخ، وبعضه الآخر عضلي عنيف. ينتظر كريمو الليل كي يعود إلى الهجوم بتعذيبي. ولكنني قاومت ولم أقل شيئا.

ذات صباح، انفتح الباب على الجدّ روسيليو.

كان مرفوقا بضابط ببذلة عسكرية ميدانية:

- لم ننتهِ معه بعد، السيّد روسيليو.
- تضيِّعون وقتكم مع هذا الشخص. أكيد أنّ هناك سوء فهم. هذا الشاب وقع ضحية تصادف سيّء. إنّ عقيدكم مقتنع بهذا أيضا. أتتصوّر أنه يمكن لي أن أحمي خارجا عن القانون.
- المشكل ليس هنا.

ردّ الجدّ واعدا:

- لا يوجد مشكل، ولن يوجد.

أعادوا لي ملابسي.

في الخارج، وسط ساحة حجرية لما يمكن أن يشكّل ثكنة، وقف كريمو ورجاله ينظرون إليّ أنزلق بين أصابعهم، ساخطين، منزعجين. أدركوا أن شيخ ريو صالادو المبجل هو الذي تدخّل لإفراجي مدافعا عن براءتي لدى السلطات العسكرية الكبرى للناحية، وأنه الضامن لعدم مساندتي للمتمردين.

ساعدني الجدّ روسيليو على الصعود إلى السيارة وانطلق. حيّ العسكري الحارس عند مخرج الثكنة وأعطى دفعا قويا لمركبته باتجاه الطريق المعبّد. قال:

- أتمنى أن لا أكون قد ارتكبت خطأ حياتي.

لم أجبه. كان فمي منتفخا، وكذلك عينيّ بحيث صعب عليّ أن أبقيهما مفتوحتين.

لم يضف الجدّ روسيليو كلمة. أحسست به يتمايل بين الشك وتأنيب الضمير، بين تجنّده إلى جانبي وهشاشة الحجج التي قدّمها للعقيد كي يرفع عني التهمة ويعيد لي حريتي. كان الجدّ روسيليو أكثر من كبير أعيان المنطقة؛ كان أسطورة، سلطة روحية، شخص عظيم عظمة ثروته، ومع ذلك، وعلى غرار القامات الكبيرة التي تضع شرفها فوق جميع الاعتبارات الأخرى، كان يملك هشاشة تمثال خزفي. يمكنه امتلاك ما يريد بإشارة من أصبع أو بطرف العين؛ تساوي مصداقيته أي وثيقة رسمية. عند الأشخاص النافذين من مقامه، يكفي اسمهم لتهدئة العقول، ووضع حدّ للمناقشات الصاخبة، فيتلقون التنازلات، اللامعقولة أحيانا، ويحظون باللاعقاب في بعض الحدود، غير أنّهم لا يمنحون أي ظروف مخففة حينما يتعلق الأمر بالكلمة المعطاة. إذا اتضح أنها غير مؤسّسة، فلا مجال لأي هامش للمناورة. الآن وقد أعطى ضمانه إلى السلطات العليا، يتساءل جديا إن أحسن التصرف، وهذا يشغله داخليا وبعمق.

أرجعني إلى القرية، حطّني قرب منزلي. لم يساعدني على الخروج من السيارة، تركني أتدبّر أمري، دون حتى أن يلتفت إليّ. بعد ذلك، غمغم بين شفتيه:

- إنني راهنت سمعتي، جوناس. إذا حدث أن عرفت أنك لسْت إلا كاذبا مموها، سأتكفّل شخصيا بشنقك.

لا أعرف أين ذهبت لاستقاء قوة كي أسْأله:

- جان كريستوف؟
- إيزابيل !

هزّ رأسه وأضاف:

- لا أرفض لها طلب، ولكن إذا اتّضح أنها أخطأت في تقديرك، سأنكرها في الحين.

جاءت جرمان إلى الرصيف لمساعدتي. تجنّبت لومي على أي شيء. كانت مسرورة باسترجاعي حيّا، فأسرعت إلى تحضير الحمام والأكل. بعد ذلك، عالجت جروحي، وساعدتني على الدخول تحت الفراش. سألتها بعد ذلك:

- هل أنت التي اتصلت بإيزابيل؟
- لا... هي التي كلّمتني في الهاتف.
- إنها في وهران. كيف عرفت؟
- في ريو، كل شيء يُعرَف.
- ماذا حكيت لها؟

- بأنك بريء من هذه التهمة.
- وطبعا صدّقتك؟
- لم أطلب منها ذلك.

جرحتها أسئلتي. وبالأخص الطريقة التي طرحتها بها. إنّ برودة لهجتي واللوم الذي تضمّنته خيّبت أملها، وحوّلت فرحتها إلى غمّ، ثمّ إلى غضب دفين. رفعت إليّ نظرة لائمة. إنها المرة الأولى التي تنظر إليّ بهذه الطريقة. أدركت أن الحبل الذي يربطني بها بدأ يفقد بعض أنسجته، بأنّ السيّدة التي كانت كل شيء بالنسبة لي –أمي، معجزتي، أختي، متواطئتي، مسارتي وصديقتي- أصبحت لا ترى فيّ إلا غريبا.

.19

كان شتاء 1960 قاسيا إلى حدّ تجمّدت فيه دعواتنا؛ كنا سنسمعها تسقط من السماء وتتكسّر على الأرض مثل قطع الجليد. وكما لو أن الاكفهرار المخيّم في الجوّ لم يكفِ لتسويد أفكارنا، فأسرعت غيوم كثيفة لتزيد الطين بلة؛ فتنقضّ كالكواسر على الشمس، لتلتهم تحت أعيننا أشعة النهار النادرة التي من شأنها جلب قليل من الإضاءة والدفء لأذهاننا المشلولة. كان الجوّ يعجّ بالهموم؛ والناس لم يعودوا يؤمنون بالمعجزات: استقرّت الحرب بأحزانها واكتشفت المقابر أنها تملك أجنحة مخفية.

في المنزل تعكّرت الحياة. أضحى صمت جرمان يُحزنني. لا أحب أن أراها تمر قربي دون أن تراني، ولا أن تقتسم طعامي دون أن ترفع عينيها عن صحنها، وتنتظر أن أنتهي من الأكل كي تنظف الطاولة وتلتحق بغرفتها بلا أدنى كلمة. كنت شقيا، ومع ذلك لم أشعر بضرورة التصالح معها. خانتني القوة. أضحى كل شيء يتعبني، يثير في نفسي الاشمئزاز. كنت أرفض سماع نداء العقل، ولا أكترث بأخطائي؛ لا أحب إلا الركن المظلم الذي أمنع نفسي فيه من التفكير فيما يجب فعله، وما سبق أن فعلته، معرفة إن أحسنت أو أسأت التصرّف. انتابتني مرارة مثل نوّار الدفلي، مكفهرا كئيبا وساخطا ضد شيء لا أريد تحديد معالمه. بين الفينة والأخرى، تنفجر في رأسي شتائم كريمو البذيئة؛ فأجدني أغذّي اتجاهه أسوأ الانتقامات، ثمّ أهمل كل شيء وأشيّد فراغا مهمولا حولي. يختفي الحقد؛ يختفي العضب؛ كنت مقتنعا بأن ذاتي متخمة تكفي قطرة ماء لتفجيرها.

في لحظات هدوئي، أفكّر في عمّي. لا أحس أنه ينقصني. ومع ذلك، يذكّرني الغياب الذي تركه خلفه بالغيابات الأخرى التي تبترني. بدا لي كما لو أنني لا أملك أي سند أتكئ عليه، وأنني أحلّق ببطء في فقاعة خانقة، بل كنت أنا الفقاعة تحت رحمة أتفه غصن. يجب عليّ التصرّف؛ أحسّ بنفسي أزلج في مكان ما، وأتفتّت إربا إربا. لذلك استدعيت ميّتي. تتغلّب ذكراه على ذكرياتي، وسيُبعد شبحه العفاريت التي سكنتني. ربّما كان ينقصني، في نهاية المطاف؟ أحسست بعزلة دفينة بحيث كنت قاب قوسين أو أدنى من الاختفاء بدوري، أشبه بظل تختطفه العتمة. في انتظار تخفيف الرضّ الذي يؤلمني، استرخيت في مكتبه وانغمست في قراءة دفاتره –حوالي عشرة كراريس وسجّلات مليئة بالتعليقات

والنقد وأقوال الكتّاب والفلاسفة من العالم بأسره. كان يكتب يومياته أيضا، اكتشفتها بالصدفة مخفية وسط حزمة من أوراق الجرائد في عمق درج. تتعلّق كتاباته بجزائر المظلومين، والحركة الوطنية، والتعسّف البشري الذي يختزل جوهر الحياة إلى ميزان قوة تافه، إلى إرادة حمقاء وآسفة للبعض لإخضاع الآخرين واستعبادهم. كان عمّي ذا ثقافة واسعة؛ علاّمة وحكيم. فتذكّرت النظرة التي حطّها عليّ عندما غلق دفاتره؛ كانت نظرة متسامية، تلمع بذكاء مؤثّر. قال لي: "أريد أن تفيد نصوصي الأجيال المقبلة". قلت له في رغبة لمدحه: "ستخلدك هذه النصوص بعد وفاتك". تشنّجت تقاسيم وجهه، وقال: "الخلود لا يجعل ظلام القبر أكثر شفافية. حَسبُه أن يخفّف من خوفنا اتجاه الموت بما أنه لا يوجد علاج أنسب لنهايتنا الحتمية سوى وهم خلود جميل... ومع ذلك، هناك خلود محبوب إلى قلبي: ذاكرة أمّة متنوّرة. إنه الخلود الوحيد الذي يحفّز أحلامي."

حينما أجلس في الشرفة وأنظر بعيدا في الأفق ولا أرى شيئا، أتساءل إن كانت هناك حياة بعد الحرب.

زارني آندري صوزا بعد أسبوع من تدخّل الجدّ روسيليو. ركن سيارته مقابل الكروم وأشار إليّ بالنزول. قلت لا بحركة من اليد. فتح باب السيارة ووضع قدمه على الأرض. كان يرتدي معطفا واسعا بلون أسمر فاتح، مفتوحا على بطنه وحذاء "بوت"، من الجلد، يصله إلى الركبتين. من خلال ابتسامته العريضة، أدركت أنه جاء مصالحا.

- ما رأيك لو نقوم بدورة في سيارتي؟
- أنا مرتاح هنا أحسن.
- إذا سأصعد إليك.

سمعته يحيّ جرمان باحترام في مدخل البهو، ثمّ يفتح باب غرفتي. قبل أن يلتحق بي في الشرفة، ألقى نظرة على سريري ذي الفراش غير المُسوّى وعلى الكتب المكدّسة على الطاولة الصغيرة، اقترب من المدخنة حيث يحرن فوقها حصان الحطب الذي أهداه لي جان كريستوف بعد الضرب المبرّح الذي تعرّضت له على يده، في حياة سابقة أخرى.

- كان زمانا جميلا، أليس كذلك جوناس؟
- ليس للزمان عمر، دادي. نحن الذين شخنا.
- الحق معك، غير أننا لم نستفد من الخمر الذي ننتجه: لم تتحسّن حالتنا مع مرور الفصول.

اتكأ بجانبي على جدار الشرفة وترك بصره يسرح عبر الكروم.
- لا أحد في القرية يفكّر بأنّك ضالع في حكاية المتمردين. بالغ كريمو كثيرا. رأيته بالأمس وقلت له رأيي بصراحة.

التفت إليّ متجنبا النظر إلى الكدمات التي تشوّه وجهي.
- ألوم نفسي لأنني لم آتِ في وقت مبكر.
- هل كان سيغيّر في الأمر شيئا؟
- لا أعرف... ما رأيك لو رافقتني في رحلة إلى تلمسان؟ أصبحت وهران لا تعاش مع ما يحدث فيها من تقتيل يومي، وأنا بحاجة إلى تغيير الجوّ. وفي ريو، يحزنني كل شيء.
- لا أستطيع.
- سوف لن نمكث فترة طويلة. أعرف مطعما...
- لا تلح، دادي.

هزّ رأسه.
- أقدّر موقفك. ولكن لا تعذّب نفسك. ليس من مصلحتك الانعزال واجترار ضغائنك.
- ليست لديّ ضغائن. أريد أن أبقى وحدي فقط.
- أزعجك؟

استأنفت النظر بعيدا كي لا أجيب. تنهّد واتكأ من جديد عل جدار الشرفة:
- إنّ ما يحدث لنا أمر جنوني. من كان يتصوّر أن بلدنا سيسقط في هذا الحضيض الأسفل؟
- كان أمرا متوقعا، دادي. كان هناك شعب يرقد أرضا، وأقدام ترفسه كما لو كان عشبا. من الحتمي أن يتحرّك في يوم ما. بالضرورة، تنحرف الأمور.
- هل تفكّر فعلا فيما تقول؟

هذه المرّة، أنا الذي واجهته:
- دادي، إلى متى نواصل الكذب على بعضنا البعض؟

وضع قبضته على مستوى فمه ونفَث فيها متأملا أقوالي:
- صحيح أنّ هناك أمورا ليست على ما يرام، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يؤدي إلى تفجير حرب بهذا العنف؛ لا أوافقك الرأي. تتحدّث الصحف عن مئات الآلاف من القتلى. عدد كبير، جوناس، أليس كذلك؟
- وتسألني أنا هذا السؤال؟

- أنا ضائع تماما. لا أصدّق ما يحدث حولنا. وما حدث في الجزائر العاصمة يتجاوز كل حدود. وباريس لا تعرف ماذا تفعل. يتحدّثون الآن عن تقرير المصير. ماذا يعني تقرير المصير بالضبط؟ أن نمحي كل شيء ونبدأ من الصفر على أسس متساوية؟ أم...

لم يجرؤ على إتمام جملته. تحوّل قلقه إلى غضب؛ ابيضّت أصابعه من فرط خنق وساوسه.

- في نهاية المطاف، لم يفهم شيئا عن شقائنا، هذاالجنرال الأحمق.

كان آندري يلمّح إلى عبارة ديغول المشهورة "إني فهمتكم" التي ألقاها على الجمهور العاصمي في 04 جوان 1958 والتي حمّست الحشود ومنحت مهلة أطول للأوهام.

أسبوع بعد ذلك، في 09 ديسمبر 1960، انتقلت ريو صالادو بأكملها إلى عين تموشَنْت حيث أقام الجنرال تجمعا شعبيا أطلق عليها القسّ "قدّاس آخر صلاة". لقد هيأت الإشاعات الناس إلى وقوع كارثة، ولكن هؤلاء لم يكونوا متحمسين لها. لقد دعّم الخوف صفوفهم، وقلّص نظرهم؛ رفضوا أن يروا على جوانبهم الوقائع القاصمة، والآغاد الحتمية. سمعتهم عند الفجر يخرجون سياراتهم من المستودعات، يشكلون المواكب، يتصايحون بأعلى الأصوات، يتبادلون النكت والمزح، يصرخون بأعلى حناجرهم كي يغطون هذا الصوت المذعور الذي يمنعهم من النوم والذي يكرر لهم بلا كلل ولا هدنة بأنّ الأمور قد حُسِمَت وأن القدر فد فصل في القضية بشكل لا رجعة فيه. ها هم يضحكون بملء أشداقهم ويرفعون أصواتهم عالية ويتظاهرون بأن صوتهم لا يزال مسموعا ونافذا وأنهم سوف لن يستسلموا، ومع ذلك نرى جيدا بأن حماسهم هشّ ولا يدوم وأن الهيبة التي يتظاهرون بها لا مصداقية لها وأن النظرة التائهة تنفصل تماما عن الثقة التي يشهرونها أمامهم. يأملون إرجاع القدر إلى التعقل بالحفاظ على رباطة جأشهم وإنقاذ المظاهر، سيؤثرون عليه بالضرورة ويُحدثون المعجزة. ولكنهم تناسوا بأن ساعة الحسم قد انطلق دورانها وأنه لا يوجد شيء سيسترجعونه، وأن مواصلة السير في ليل جميع الأوهام لا يقوم بها إلا الأعمى، وأنهم يترقبون فجرا قد انقشع على كون آخر غير كونهم ويعاندون على انتظاره في مكان غير مكانه. خرجت أقوم بدورة في الأزقة الفارغة. ثمّ ذهبت باتجاه الجهة الأخرى للمقبرة اليهودية أواجه الخراب المفحّم للمنزل الذي عرفت فيه، عبر ضمة عابرة، تجربتي الجنسية الأولى.

كان حصان يرعى العشب بقرب الإسطبل السابق، غير آبه بانحراف الإنسان.
جلست على ترعة تراب وبقيت هناك إلى غاية منتصف النهار، أعيد رسم صورة السيّدة كازيناف: ولكنني لم أرَ إلا سيارة سيمون وهي تحترق وإيميلي تضمّ ابنها إلى جسدها النصف العاري.
رجعت السيارات من عين تموشَنت. ذهبت صباحا في ضجيج صاخب، شاهرة الأعلام الثلاثية اللون. عادت من التجمع كالخروج من الكنسية، في صمت موكب جنائزي، الأعلام منكّسة والرؤوس مطأطأة. خيّم على القرية صمت ثقيل. تحمل الوجوه حداد آمل محكوم عليه منذ زمان طويل وقد حاولوا إحياءه بنفثات دخان.
ستكون الجزائر جزائرية.
في الغد، سطّرت يد منتصرة على واجهة خزان خمر، بالدهان الأحمر، أحرفا كبيرة:FLN.

تكتم وهران نفَسها في ربيع 1962. بحثت عن إيميلي. كنت خائفا على إيميلي. أنا بحاجة إليها. أحبها وعدت لأؤكّد لها حبّي. كنت أحسّ بنفسي قادرا على مواجهة العواصف والرعود وجميع اللعنات وجميع شقاوات الكون. لم أصبر على بعدها. لم أعد أتحمل أن أمدّ يدي نحوها ولا ألقى إلا غيابها على طرف أصابعي. قلت لنفسي: سترفضك، ستقول لك كلمات جارحة، ستسقط السماء على رأسك؛ وهذا لم يثبط عزيمتي. لم أعد أخشى فسخ الوعود، وسحق روحي في خنق قبضتي؛ لم أعد أبالي بإهانة الآلهة، وتجسيد الخزي إلى يوم الدين. في المكتبة، قيل لي أن إيميلي خرجت ذات مساء ولم يظهر عنها خبر بعد ذلك. تذكّرت رقم الحافلة التي ركبت فيها خلال مروري الأخير، ونزلت في جميع المحطات وذرعت جميع الأزقة المتفرعة عنها. خيِّل لي أنني أتعرّف عليها في شبح كل امرأة تختفي عند دورة، أو عند مدخل عمارة. سألت عنها عند البقالين، ومحافظات الشرطة، وموزعي البريد، ولم أشعر لحظة أنني أضيّع وقتي رغم نهايات أيامي بلا أدنى إشارة من شأنها أن تقودني إليها. ولكن أين يمكنني أن أجدها في مدينة في حالة حصار قصوى، في حلبة مفتوحة على جميع الاحتمالات، وسط الفوضى العارمة، وغضب البشر؟ تولد الجزائر الجزائرية بالقوة وفي جرف من الدموع والدماء؛ لفظت الجزائر الفرنسية أنفاسها في برك من الدماء. ووجدت الاثنتان في نهاية الدرب القوة اللازمة للتصادم والاقتتال كما لم تفعلا من قبل، برغم السنوات السبع من الحرب والرعب. لم تغيّر أيام المتاريس المقامة في الجزائر العاصمة في جانفي 1960 شيئا من زحف التاريخ الجارف. وزاد انقلاب الجنرالات الذي قام

بها رباعي من الانشقاقيين في أفريل 1961 من إغراق الشعبين في دوّامة سريالية. لقد تجاوزت الأحداث العسكريين وأصبحوا يطلقون النار بدون تمييز على المدنيين، لا يدفعون هجوما إلا ليجرفهم هجوم آخر. رفع مساندو القطيعة النهائية مع الوطن-الأمّ، فرنسا، أولئك "المنخدعون" من طرف مناورات باريس، السلاح وأقسموا على استرجاع الجزائر التي سُلبَت منهم، شبرا شبرا. غرقت المدن والقرى في كابوس الكوابيس. تردّ التفجيرات على التفجيرات، والهجومات العقابية على الاغتيالات، الاختطافات على قصف وحدات الكومندوس. الويل للأوربي الذي يُصادَف مع مسلم، العقاب الشديد للمسلم الذي يتواطأ مع أوربي. عزلت حدود حمراء الأقوام التي انكمشت على نفسها، بغريزة بدائية، حارسة فضاءاتها ليل نهار، غير متردّدة من رجم المتهوّر الذي يخطئ في العنوان. كل صباح، تُكتشَف جثث بلا حياة مفكّكة في سواقي الطرقات؛ تخوض أشباح معارك منظمة مرعبة ليلا. انتشرت الخربشات على الجدران كالنقوش على الشواهد في المقابر. تختلط عبارات "انتخبوا نعم"، وFLN مع "تحيا الجزائر الفرنسية" والحروف الثلاثة للجحيم: OAS، المنظمة المسلحة السرية التي ولدت من احتضار المستعمرات، من رفض الأمر الواقع، والتي سيزيد من عمق حفرة الانحرافات، وإلى غاية قلب جهنم.

تبخّرت إيميلي، ولكنني كنت مصمما على البحث عنها في عمق أعماق اليمبوس. أحسست بها قريبة، على مدى سعة الذراع؛ اقتنعت اقتناعا راسخا أنه يكفي رفع ستار، دفع باب، إبعاد متسكع عن طريقي كي أصادفها أمامي. كنت مجنونا. لم أرَ برك الدماء على الأرصفة ولا آثار الرصاص على الجدران. ولم تمسسني شكوك الناس. أحيانا، تعبرني عدوانيتهم وازدرآتهم وشتائمهم دون أن تؤخّر خطواتي. ليس في ذهني إلا صورتها، وعيناها بمثابة أفقي الوحيد؛ أما الباقي فلا يهمّني. صادفني فابريس اسكاماروني وأنا أغامر بالدخول إلى حيّ تفوح منه روائح السمّ والموت. أوقف سيارته على مستواي وصرخ لي بأن أركب بسرعة قبل أن تنطلق السيارة بسرعة جنونية. "هل أنت مجنون، جوناس؟ هذا حي قطع الرؤوس"... "أبحث عن إيميلي"... "كيف تريد العثور عليها وأنت لا تعرف حتى أين تضع قدميك؟ إنّ هذا الحيّ أسوأ من حقل ألغام !"

يجهل فابريس مكان إقامة إيميلي. لم تأتِ يوما لرؤيته في مكتبه. التقى بها صدفة منذ شهور في حي "شوبو". وعَدني بالبحث عنها من جهته.

في شوبو، أشاروا لي إلى عمارة في شارع "لوران-غيريرو". أكّدت لي البوابة أن السيّدة التي أبحث عنها سكنت هنا فعلا في الطابق الثاني، ولكنها رحلت بعدما وقع اقتتال في العمارة.

- ألم تترك عنوانا لتتلقى بريدها المتأخّر؟
- لا... ولكن إذا لم تخنني الذاكرة، سمعتها تقول لصاحب الشاحنة بأن يقودها إلى سانت أوبار.

في سانت أوبار، ضربت على جميع الأبواب. دون جدوى. أين تكون؟ أين تختفي؟ المدينة عاليها سافلها. زاد وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 في تأجيج ضغائن آخر جيوب المقاومة. اشتبكت الخناجر مع الرشاشات، استبدلت القنابل بالمتفجرات؛ حصدت الرصاصات التائهة أرواحا لا تحصى. فكانت إيميلي تتراجع في الوقت الذي أتقدّم فيه عبر الدخان وروائح حرق الجثث. أتكون قد قتلت؟ في تفجير مباغت، برصاصة تائهة؟ بُقِرَت بخنْجَر تحت أدراج مدخل عمارة؟ لم تترك وهران أحدا ينجو من جنونها، تحصد الأوراح بملء أذرعها، لا تكترث لا بالشيوخ ولا بالأطفال ولا بالنساء ولا بالمعوقين ذهنيا الذين يطوفون وسط هلوساتهم. كنت هناك حينما انفجرت سياراتان ملغمتان في ساحة الطحْطاحة وخلفتا مائة قتيلا وعشرات الجرحى في صفوف السكان المسلمين من المدينة الجديدة؛ كنت هناك حينما تمّ استخراج عشرات الجثث الأوربية من المياه الملوّثة للبحيرة الصغيرة؛ كنت هناك عندما قام كومندوس من الجيش المسلح السري بهجوم على سجن المدينة لإخراج المساجين من جبهة التحرير الوطني إلى الشارع واغتيالهم على مرأى ومسمع من المارة؛ كنت هناك عندما فجّر مخربون مخازن البنزين في الميناء وأغرقوا واجهة البحر خلال عدّة أيام تحت رحمة الدخان الكثيف المتصاعد؛ وأقول لنفسي بأن إيميلي ستسمع كل هذه التفجيرات وتعيش نفس التشنجات وتخضع لنفس الرعب الذي أخضع له، ولا أفهم لماذا لا تتصادف طرقنا، لماذا لا يعمل القدر أوالصدفة أوالمكتوب على تواجدنا في زقاق واحد وفي اللحظة نفسها؟ ربّما كان شؤم ساخر يجعل منكبينا تحتك وسط هذه الحشود المنحلّة دون أن ننتبه. كنت غاضبا ضد الأيام الهاربة في جميع الاتجاهات وهي تشوّش الدروب التي تقود إلى إيميلي، ساخطا لأنني ألتقي بجميع أصناف البشر، وأزور جميع المحلات، وأقطع جميع ميادين الرمي، والأماكن التي تقطَع فيها الرؤوس، والمذابح العمومية والخاصة دون أن أرى ولو أثرا واحدا، سراب إشارة تقودني إلى غاية إيميلي، لأنني أفكّر بأنها على قيد الحياة فيما تعصف ريح هلعة على السكان الأوربيين.

انفتح موسم "الحقيبة أو التابوت". تمّت الرحلات الأولى للهجرة في فوضى عارمة. انقضّت السيارات الرازحة تحت الأمتعة والشهقات باتجاه الميناء والمطارات، والآخرون باتجاه المغرب. ينتظر المتأخرون بيع ممتلكاتهم قبل الشروع في الرحيل؛ في التسرّع تباع المحلات والمنازل والسيارات والمصانع والورشات بأثمان زهيدة؛ أحيانا، لا يجد الأوربي الوقت لانتظار الشاري، ولا حتى لتحضير حقيبته الخاصة.

في ريو صالادو، بقيت النوافذ والأبواب مشرعة على منازل شاغرة. تكدّست الحقائب والصرر على الأرصفة. غادر كثير من السكان بيوتهم باتجاه الهجرة. ولا يعرف الباقون ماذا يفعلون بأيامهم ولا إلى من يسلّمون أرواحهم. شيخ ممزق في حالة يرثى لها عند عتبة منزله، وقد شلّ جسده داء المفاصل. يحاول شاب مساعدته على المشي فيما كانت العائلة قلقة داخل شاحنة فورغون غاصة كعلبة سردين. قال الشيخ بصوت مبحوح: "كان عليهم أن ينتظروا موتي... أين سأموت الآن؟" في الشارع الرئيسي، عدد كبير من السيارات والشاحنات والعربات، تاريخ بأكمله يستعد لمغادرة المكان. في محطة القطار، يترقب حشد فقد حاسة التوجه وصول قطار انتظروه طويلا. يركض الناس من مكان إلى آخر، تائهين، عيونهم جاحظة، يشبهون عميان أطلقوا في الطبيعة، أهملهم أولياؤهم الصالحون. ولم يعد للجنون والخوف والحزن والغرق والمأساة إلا وجه واحد: وجوههم.

جلست جرمان على عتبة الصيدلية، رأسها بين يديها. لم يكن جيراننا في منازلهم؛ وحدها الكلاب تدور خلف الأسيجة. سألتني:

- ما العمل؟

قلت لها:

- ستبقين هنا. لا يمسك أحد بسوء.

أخذتها بين ذراعيّ. كانت ضامرة بحيث كنت قادرا على أخذها في تجويف يدي. كانت عبارة عن حزن وهلع، ذهول وانهيار، شك وتيه. احمرّت عيناها من البكاء والخوف. ارتجفت ساقاها تحت ثقل ألف سؤال. قبّلتها في خديها المبللتين بالدموع، وعلى جبينها المغضن بالأخاديد، وعلى رأسها المشقق بأفكار حزينة. شدّدت بين يديّ كل هلع الكون... ساعدتها على الصعود إلى الطابق الأول ونزلت إلى الزقاق. رفعت السيّدة لامبير يديها إلى السماء وضربتهما على فخذيها. "أين سأذهب؟ أين سأذهب؟ ليس لديّ أولاد ولا أقرباء في أي مكان." طلبت منها أن تعود إلى بيتها. لم تسمعني وواصلت مناجاتها. عند نهاية الزقاق، يركض أفراد

عائلة رافيغاز في جميع الاتجاهات، حقائبهم على أكتافهم. في ساحة البلدية، تطالب عائلات إحضار حافلات، أمتعتها مبعثرة على الرصيف. يجتهد رئيس البلدية لتهدئتها، دون جدوى. من جهته، يصيح فيهم الجدّ روسيليو بالعودة إلى منازلهم وانتظار تهدئة الأمور. "نحن هنا في منازلنا وأرضنا. لن نذهب إلى أي مكان." لا أحد يستمع إليه.

كان آندري صوزا وحيدا في حانته المفتوحة للريح من الجهات الأربعة، وسط الطاولات المكسّرة، والمصرف المشقق والمرايا المنجّمة. تلمع الأرضية بشظايا الزجاج وأفواه القارورات المهشّمة. تتدلى المصابيح السقفية ببؤس فوق الخراب العائم. أما آندري، فكان يلعب البليار. لم يبالِ بوجودي. لم يبالِ بأي شيء. حكّ طرف طبشور على ذيل العصا، اتكأ على طرف الطاولة وسدّد كرة متخيلة. لا وجود لكريات على البليار، وسجادته ممزّقة. لم يكترث آندري. سدّد الكرة التي كان يراها بمفرده وضرب. ثمّ انتصب واقفا، تبع بنظره مدار الكرة، وحينما يسجّل نقطة، يشهر قبضة انتصار وينتقل إلى الجهة الأخرى من البليار. من حين لآخر، يقترب من المصرف، يمص سيجارته، يعيدها إلى المنفضة، وبعد ذلك يستأنف مقابلته. قلت له:

- لا يجب أن تبقى هنا، دادي.

ردّ بعصبية وهو يضرب الكرة:

- إنّني في داري.
- رأيت مساكن كثيرة تحترق وأنا عائد من وهران قبل قليل.
- سوف لن أتحرّك من هنا. أنتظرهم.
- أنت تعرف جيّدا أن هذا غير معقول.
- لن أتحرّك من هنا، قلت لك.

واصل اللعب، مديرا ظهره لي. انطفأت سيجارته؛ أشعل أخرى، ثمّ أخرى، إلى أن سحق بيد ساخطة العلبة الفارغة. النهار على وشك الغروب؛ تزحف الظلمة خلسة على الحانة. واصل آندري اللعب طويلا قبل أن يرمي العصا وينهار جالسا عند أسفل المصرف. جذب ركبتيه تحت ذقنه، شبّك أصابعه خلف قذاله. مكث في تلك الوضعية مدّة طويلة، أنهاها بتأوّه كئيب. بكى آندري وذرف جميع دموع جسده، رأسه دائما على ركبتيه ويداه على الرقبة. ثمّ مسح وجهه بطرف من قميصه ووقف. خرج إلى الفناء يبحث عن جيركانات البنزين، رَشّ المصرف والطاولات والجدران

والأرضية، حكّ عود كبريت وترك النيران تنتشر داخل الصالة. أمسكته من مرفقه وأخرجته. وقف في الفناء وتابع منذهلا احتراق "السنايك" الذي شغف ببنائه وتسييره بحماس فياض لا مثيل له، ليتبخّر مع الدخان الصاعد في الليل الساكن. عندما ابتلعت النيران السقف، التحق آندري بسيارته. دون أن ينطق بكلمة. دون أن يلقي نظرة باتجاهي. أشعل المحرّك، أرخى الفرامل وسار ببطء باتجاه مخرج القرية.

في 04 جويلية 1962، توقفت سيارة بيجو 203 أمام الصيدلية. أمرني رجلان يرتديان البذل والنظارات السوداء بمتابعتهما. قال أحدهما بالعربية وبنبرة قبائلية قوية: "شكليات بسيطة فقط". كانت جرمان مريضة، ونائمة في غرفتها. قال السائق مُطمْئنا: "سوف لن نستغرق وقتا طويلا". ركبت في المقعد الخلفي. دارت السيارة في نفس المكان. ارتخيت على المقعد. كنت متعبا جدا لأنني قضيت الليلة بقرب جرمان المريضة.
تشبه ريو نهاية عهد، مُفرغا من لبّه، ومسلّما لقدر جديد. سُحب العلم المثلث اللون الذي كان يزيّن واجهة دار البلدية. في الساحة، أحاط ريفيون معممون خطيبا واقفا فوق سور الفوّارة. كان يكلمهم بالعربية وهم لاصقون بشفتيه. بقي بعض الأوربيين يمشون في الأزقة خائفين، عاجزين على مغادرة أراضيهم ومقابرهم ومنازلهم والمقاهي التي رأت ميلاد ووفاة صدقات وتحالفات ومشاريع، وبالمختصر المفيد، وطنهم الذي ولدوا وترعرعوا فيه ويوجد به جوهر وجودهم.
كان يوما جميلا، بشمس كبيرة مثل ألم الذاهبين، عظيمة مثل فرح الآتين. بدت أشجار الكروم متمايلة في انعكاس الضوء، وتقمّص السراب البعيد صورة البحر. تحترق منازل المزارع هنا وهناك. أعطى الصمت المخيّم في الطريق أنه خاشع على نفسه. التزم مرافقيّ الصمت. لا أرى إلا رقبتيهما المستقيمتين، ويدي السائق على المقود، وساعة رفيقه المتلألئة على معصمه. عبرنا لورمال كما نعبر حلما عصي الإمساك به. هناك أيضا، كثرت التجمعات حول خطباء ملهمين. تؤكّد الأعلام الخضراء والبيضاء بهلال ونجمة حمراوين في الوسط ميلاد جمهورية جديدة، لجزائر رُدَّت إلى أهلها.
كلما اقتربنا من وهران أكثر، إلا وتناثرت هياكل السيارات المرمية على طرفي الطريق. بعضها محترقة، والأخرى مفكّكة، أبوابها مقلوعة وصنادقها مشرعة. تناثرت في المحيط القريب حقائب وأصرة مبقورة، مهشمة، وملابس مرمية فوق

الأحراش القريبة وأمتعة أخرى مهملة على القارعة. هناك آثار اعتداء، ودماء على التراب، والزجاج الأمامي للسيارات مكسّر بأعمدة حديدية. لقد تمّ توقيف عائلات كثيرة عبر طرقات الهجرة وقتل أفرادها. تمكّنت عائلات أخرى من العرب عبر الحقول والتحقت بالمدينة راجلة، مجرّدة من أمتعتها.

كانت وهران في حمى هائجة. يتطارد آلاف الأطفال عبر الحقول والأراضي المهملة، يرمون بالأحجار السيارات المارة، ويغنون بأعلى أصواتهم تحريرهم الخاص. تعجّ الشوارع بالناس، بحشود مبتهجة. ترتجّ العمارات تحت زغاريد النساء، وهنّ يرتدين الحايك الأبيض متل الرايات، وضربات البندير والطبل والدربوكة الصاخبة والأغاني الوطنية.

دخلت سيارة البيجو إلى ثكنة "ماجينتَة" حيث أقام جيش التحرير الوطني، الذي دخل إلى المدينة مؤخرا، مقرّه القيادي. توقفت قرب جناح. أمر السائق حارسا بأن يخبر "الملازم" بوصول ضيفه.

كانت ساحة الثكنة غاصة بالرجال يرتدون بذلا عسكرية، وبالشيوخ يلبسون عباءات والمدنيين.

- جوناس، صديقي جوناس، كم أنا سعيد برؤيتك !

فتح لي جلول ذراعيه عند مدخل البناية. إنه هو الملازم. يرتدي بذلة المظليين وقبعة أدغال ونظارات سوداء وبلا شرائط الرتبة. ضمّني إلى صدره حدّ الاختناق، قبل أن يبعدني عنه ليتفرّسني من الرأس إلى القدمين.

- يبدو لي أنك ضعفت... كيف هي أحوالك؟ فكّرت فيك كثيرا في المدّة الأخيرة. أنت رجل متعلّم، أجبت بالحضور حينما كان الوطن بحاجة إليك، فتساءلت إن لم يحن الوقت لتضع علمك وشهادتك في خدمة الجمهورية الناشئة. لستَ ملزما بإجابتي الآن. على كل حال لم أستدعِك لهذا الموضوع. لديّ دين اتجاهك، وقرّرت أن أدفعه لك اليوم لأنّ غدا سيكون يوما آخر، وأنا مصرّ على الدخول في حياتي الجديدة بلا أدنى دين في رقبتي. وإلا كيف تريدني أن أتمتع جيدا بحريتي المطلقة والدائنون في ذيلي؟
- لا دين لك عندي، جلول.
- إنه لطف منك، ولكن لا أريد أن أبقى مدينا لك بشيء. لم أنسَ اليوم الذي أعطيتني فيه نقودا وأوصلني إلى دشرتي فوق دراجتك. ربّما كان الفعل بالنسبة إليك بلا قيمة كبيرة. ولكنه كان عندي بمثابة اكتشاف رائع: اكتشفت أن العربي، العربي الجميل، العربي المعتز بنفسه والسخي ليس خرافة قديمة

ولا ما فعله المعمِّر به... لست متعلِّما كي أفسِّر لك ما دار برأسي في ذلك اليوم، ولكنه غيّر حياتي.

أمسكني من الذراع.

- تعالى معي.

قادني إلى بناية بها أبواب حديدية كثيرة. فهمت أن الأمر يتعلق بزنازن. أدخل جلول المفتاح في قفل، سحب المغلاق وقال:

- إنه من أشرس مناضلي منظمة الجيش السري، متورِّط في عمليات إرهابية عديدة. استخدمت كل ما بسلطتي كي أبقيه على قيد الحياة. أتركه لك. بهذه الطريقة، أكون قد سددت ديني اتجاهك... هيا، افتح الباب، وقل له بأننا أطلقنا سراحه ويستطيع الذهاب أينما شاء، باستثناء بلدي هذا الذي ليست له أي مكانة في ربوعه.

حياني تحية عسكرية، دار على عقبيه ورجع إلى مكاتبه.

لم أفهم قصده لأنني جهلت عمن يتكلّم. وضعت يدي على قفل الباب، جذبته بهدوء. ارتفع صرير حاد. انهمر ضوء النهار داخل الزنزانة التي ليس بها نافذة، أحسست بنفحة هواء ساخن كأنني أدخل كوشة. تحرّك شبح في ركن. أبهره الضوء، فرفع يده إلى مستوى جبهته كي يحمي عينيه من النور المباغت.

- هيا... اخرج...

صرخ حارس لم أنتبه إلى وجوده.

تحرّك الأسير بصعوبة، اتكأ على الجدار كي يقف. وجد مشاقة في الوقوف على ساقيه. حينما تقدّم نحو الخروج، قفز قلبي داخل صدري. إنه جان كريستوف، جان كريستوف لامي، أو ما تبقى منه، رجل محطّم، جائع، يرتعد تحت قميصه المتسخ والسروال المدعوك المتدلي، الممزّق، أحذيته بلا خيط. التهمت لحية أيام عديدة وجهه الضامر الشاحب مثل شفرة سكّين. تنبعث منه رائحة بول وعرق، وتختفي زاويتا فمه تحت طبقة من البصاق الأبيض الجاف. رفع إليّ نظرة سوداء، مندهشا من وجودي هنا، أشرف على حالة الانهيار التي وقع فيها، حاول أن يرفع ذقنه، ولكن الظاهر أنه متعب جدا. أمسكه الحارس من الرقبة وأخرجه من الزنزانة بفظاظة حاقدة. قلت للحارس:

- أتركه...

نظر إليّ جان كريستوف لحظة، ثمّ وقبل أن يتجّه نحو مخرج الثكنة قال:

- لم أطلب منك شيئا.

وابتعد. وهو يعرج قليلا. بينما كان يبتعد، لم أمنع نفسي من التفكير في كل الأشياء التي تقاسمناها معا، في عهد البراءة المزهرة، فانتابني حزن عميق.
شاهدته يبتعد، ظهره مقوّس، الخطوة مترنّحة؛ كان المشهد بالنسبة إليّ يمثل حياة بأكملها تنطفئ تحت عينيّ، وفكّرت بأنه إذا كانت الحكايات التي كانت أمي تحكيها لي سابقا تترك في نفسي طعم شيء لم ينتهي، لأنّ نهايتها كانت تشبه تماما النهاية التي اختارها جان كريستوف اليوم، فأضحى شبحا تائها، يحمل في صرير حذائه المتأوِّه قدرا غامضا، مجهولا.
مشيت في الشوارع المبتهجة، وسط الأناشيد والزغاريد، تحت الأعلام الخضراء والبيضاء ووسط ضجيج الحافلات المحتفلة بعرس الاستقلال. غدا اليوم الخامس من جويلية، سيكون للجزائر بطاقة هوية وراية ونشيدا وطنيين، وآلاف العلامات التي ينبغي إحياؤها من جديد. على الشرفات، تستسلم النساء للفرح وللبكاء.
يرقص الأطفال في الساحات العمومية، يهجمون على النصب التذكارية والفوارات وأعمدة مصابيح الإنارة العمومية وسقوف السيارت، يركضون وسط الشوارع كما الشلالات المتدفقة. يغطي صراخهم ضجيج المزامير والضوضاء والصفارات والخطابات؛ كانوا يمثلون الغد.
ذهبت إلى الميناء لرؤية المنفيين يغادرون. كانت الأرصفة غاصة بالمسافرين والأمتعة ومناديل الوداع. تنتظر السفن الإبحار، متمايلة تحت حزن المهجّرين. هناك عائلات تبحث عن أفرادها وسط الضوضاء، أطفال يبكون، شيوخ ينامون فوق أصرة أمتعتهم، أضناهم اليأس، يدعون في نومهم أن لا يستيقظوا أبدا. اتكأت على سور مشرف على الميناء وفكّرت في إيميلي قد تكون هنا في مكان ما وسط هذا الحشد العظيم من الهلعين، يتزاحمون عند أبواب المجهول، أو ربّما تكون قد غادرت وهربت أو ماتت، أو لا تزال عاكفة على جمع أغراضها خلف هذه العمارات بهيئتها العسكرية، وبقيت منحنيا على الميناء إلى أن خيّم الليل، إلى أن طلع النهار، عاجزا على الاقتناع بأن الذي لم يبدأ بعد قد انتهى فعلا ونهائيا وقبل الأوان...

أَكْس أونبروفانس
(اليوم).

- سيّدي...
ابتسم لي وجه المضيفة الملائكي. لماذا تبتسم لي؟ أين أنا؟... غفوت قليلا. بعد لحظة ضباب، أدركت أنني داخل طائرة بيضاء مثل غرفة العمليات الجراحية، وأن الغيوم المتدحرجة خلف الكوّة ليست للعالم الآخر. عاد إليّ صفاء ذهني كلية: توفت إيميلي. لفظت أنفاسها الأخيرة يوم الاثنين في مستشفى أكس أونبروفانس. أخبرني فابريس اسكاماروني بوفاتها منذ أسبوع.
- ارفع ظهر مقعدك، سيّدي. ستهبط بنا الطائرة بعد لحظات.
رنّت أقوال المضيفة الخفيضة في رأسي. أي مقعد؟... ساعدني جاري، مراهق ببذلة رياضية مرصعة بألوان الفريق الجزائري لكرة القدم، على إيجاد الزر المقصود وتسوية ظهر مقعدي.
قلت له: شكرا.
- لا شكر على واجب، عمّو. أتسكن في مارسيليا؟
- لا.
- ينتظرني ابن عمّي في المطار. إذا أردت، يمكن أن نحطّك في مكان ما بالمدينة.
- شكرا على اهتمامك بي، ولكن لا داعي. أنا أيضا، هناك من ينتظرني.
أتأمل قذاله المجتّز وفق شروط موضة معوجة، وخصلة الشعر المتبقية على حافة الجبهة، الواقفة بفضل طبقة سميكة من الجيلاتين. سألني قائلا:
- هل تخاف من الطائرة؟
- لا.
- والدي لا يستطيع رؤية هبوط طائرة دون أن يغطّي عينيه بيديه.
- إلى هذا الحدّ؟
- أكيد أنك لا تعرفه. نسكن في الطابق التاسع، حي جان دي لافوتين في غامبيطة. أظنك تعرف هذه الجهة من وهران؟ هذه العمارات العملاقة التي تدير ظهرها للبحر. في أغلب الأحيان، يتجنّب أبي ركوب المصعد. مع أنه شيخ يقترب من الستين، وقام بعملية جراحية لغدّة البروستات.
- يقترب من الستين فقط، وتسميه شيخا.

- أعرف، ولكن هي العادة عندنا. لا نقول بابا، بل نقول "الشيخ، الشايب"... وأنت كم عمرك، عمّو؟
- أنا ولدت منذ زمان بعيد جدا إلى حدّ أنني نسيت عمري.
ولجت الطائرة وسط الغيوم؛ هزّته اضطرابات جوّية خفيفة في الوقت الذي بدأ الهبوط. ربت جاري الشاب ظهر يدي المتشبثة بمسند المقعد:
- لا شيء، عمّو. ننتقل من الطريق السيار إلى الدرب لفترة قصيرة. الطائرة، عمّو، أضمن وسيلة نقل في أيامنا هذه.
التفتت إلى الكوّة وشاهدت الغيوم القطنية تتحوّل إلى شلال، ثمّ ضبابة، قبل أن تضمر وتعود بقوة، تتمدّد من جديد، قبل أن تتبدّد، لتظهر زرقة السماء، تخدشها سحابات كثيرة الألياف. عمّا جئت أبحث من هنا؟... يغطي صوت عمّي هدير المحركات: إذا أردت أن تجعل من حياتك حلقة من الأبد وتحافظ على صفاء ذهنك إلى غاية لبّ الهذيان، اعشق... اعشق بكل قواك، اعشق كما لو أنك لا تعرف أن تفعل غير هذا، اعشق إلى حدّ إثارة غيرة الأمراء والآلهة... لأنّ كل قبح يجد جمالا له في العشق.
كانت هذه آخر أقوال عمّي. قالها لي على فراش الموت، في ريو صالادو. اليوم، وبعد مرور أزيد من نصف قرن، لا يزال صوته يرن بداخلي كما النبوّة: إن الذي يمرّ جانب أجمل قصة حياته لا يبقى له إلا عمر الندم، ولا تكفي جميع تنهدات الكون لتهدهد روحه... هل غامرت بعيدا عن إقليمي المفضّل لطرد هذه الحقيقة نهائيا أم لمواجهتها؟... مالت الطائرة جانبا لتقوم بدورة، فظهرت أرض فرنسا بغتة كما لو أنها انبثقت من العدم. ارتعد قلبي داخل صدري، وأحسست بيد غير مرئية تشدّ عنقي. كنت متأثرا جدا بحيث أحسست بأصابعي تخترق كساء المسند... بعد قليل، عكست الجبال الصخرية أضواء النهار. إنها الحارسة الأبدية الحازمة، الساهرة على الشاطئ، غير آبهة بالبحر المضطرب، الزاحفة أمواجه إلى غاية أسفلها. ثمّ، وعند نهاية الدورة، ظهرت مارسيليا !... أشبه بعذراء تتدفأ تحت الشمس. بدت المدينة غافية، غير مكترثة بضوضاء الأمواج ولا بالجلبة التي تأتيها من عمق البلد، منتشرة على تلالها، ساطعة ألوانها، بطنها منقشع، والخصر مفتوح للرياح من جميع الجهات. مارسيليا، المدينة الخرافة، أرض العمالقة السقماء، نقطة التقاء الآلهة الذين يفتقرون إلى مقام، مفترق طرق مناسب للآفاق التائهة، متعدّدة لأنّ سخاءها لا ينضب؛ مارسيايا، آخر ميدان لمعاركي حيث أسلّم فيه السلاح، هزمني عجزي لمواجهة التحديات، لانتزاعي سعادتي. هنا في هذه المدينة، حيث أن المعجزة مسألة ذهنيات، حيث تبرع الشمس في إنارة الضمائر حينما تجتهد قليلا لفك أقفال أبواب دهاليزها المخفية، هنا قدّرت الضرر الذي قمت به ولم أغفر لنفسي أبدا... منذ أزيد من خمسة وأربعين سنة، جئت هنا

لألتحق بشبح قدري، لأرقّع بعضا من أسماله؛ حاولت جبر انكساراته، علاج جروحه؛ لأتصالح مع حظي الذي لامني على عدم الإمساك به في الوقت المناسب، لأنني شككت فيه، وفضّلت الحذر فيما كان هو يسلّم لي أحشاءه؛ لأطلب عفوا صعبا باسم ما يجعله الله فوق جميع الانتصارات وجميع الانكسارات: الحب، العشق. جئت من هنا، منذهلا، مترددا، ولكنني صادق، أطلب إنقاذا، إنقاذ روحي أولا، وبعد ذلك روح الآخرين الذين لم أتوقف عن حبهم برغم الضغائن التي فرّقتنا، والغيوم السوداء التي حجبت أصيافنا. لا زلت أتذكّر ذلك الميناء بأضوائه المتمايلة الذي تستعد لاستقبال الباخرة الآتية من وهران، والليل الذي يغرق أرصفته، والأشباح على الجسور؛ رأيت بوضوح وجه الجمركي بشلاغمه الكثّة الذي أمرني بإفراغ جيوبي ورفع ذراعيّ كمذنب، والشرطي الذي لم يقبل مبالغة زميله، وسائق الطاكسي الذي قادني إلى الفندق ساخطا على طريقتي الفظة في غلق باب السيارة، وعامل الاستقبال الذي تركني أنتظر نصف ليلة كي يتأكّد إن بقيت له غرفة شاغرة في الحي بما أن حجزي لم يسجّل... كانت أمسية رهيبة من شهر مارس 1964، بريح عاصفة تطيح ثورا وسماء نحاسية تتفجّر رعودا وبروقا. لم تكن بالغرفة تدفئة. مهما تقلّبت تحت الفراش، فكنت أرتجف بردا. تصرّ النافذة تحت ضربات العاصفة. على طاولة السرير التي ينيرها مصباح خافت، تقبع حقيبتي اليدوية الجلدية. بداخلها، توجد رسالة من توقيع آندري صوزا: عزيزي جوناس، مثلما طلبته مني، عثرت على أثر إيميلي. تطلّب مني جهد كبير، ولكنني مسرور لأنني عرفت مكان تواجدها. من أجلك. تشتغل كاتبة لدى محامي بمارسيليا. حاولت الاتصال بها عبر الهاتف؛ رفضت أن تكلّمني *!!!* أجهل السبب. لم أكن قريبا منها يوما كي يحصل بيننا خلاف. ربّما التبس عليها الأمر وحسبتني شخصا آخر. لقد كسّرت الحرب جميع معالمنا بحيث أتساءل إن لم يكن ما عشناه ناجم عن هلوسة جماعية. ولكن لا عليه، لنترك الوقت يقوم بعملية الحداد. لا تزال الجروح عميقة ويصعب أن نطلب من الناجين التعقل ولو قليلا... ها هو عنوان إيميلي: *143*، شارع الإخوة جوليان، ليس بعيدا عن "الكانيبيار". ستجده ببساطة. تقع العمارة مقابل حانة النخلة. إنها معروفة جدا، حانة النخلة. قدّاس الأقدام السود. تصوّر؟ لا يسموننا إلا بالأقدام السود، الآن. كما لو أننا مشينا طوال حياتنا في الشحم الأسود... عندما تصل إلى مارسيليا، اهتف لي. سأكون مسرورا بركل مؤخرتك إلى أن أخرج ما في بطنك من الأذنين. أقبلك من كل جوارحي. دادي."

يقع شارع الإخوة جوليان على بعد منازل قليلة من الفندق الذي أقمت فيه. دار بي سائق الطاكسي نصف ساعة كاملة قبل أن يحطّني قرب حانة النخلة. ضرورات كسب العيش. تعجّ الساحة بالناس. بعد عواصف الأمس، استرجعت مارسيليا شمسها كما لو أن شيئا لم يكن. يضيء نور النهار وجوه المارة. كان رقم 143 عمارة

قديمة، تقع بين عمارتين حديثتي العهد بالبناء، بلون أخضر بالٍ، ونوافذ مهترئة، مختفية خلف مصاريع مغلقة. تحاول مزهريات تزيين ابتذال الشرفات، عند ظلال ستائر مترهّلة... لقد ترك في نفسي أثرا غريبا، مدخل العمارة 143 للإخوة جوليان. كما لو أنه رافض لأضواء النهار، عدواني لأفراح زقاقه. صعب عليّ تصوّر إيميلي تضحك بملء شدقيها خلف نوافذ كئيبة بهذا الشكل.

اتّخذت مكانا بطاولة خلف الواجهة الزجاجية للحانة، بحيث أراقب الدخول والخروج عند أسفل العمارة المقابلة. كان يوم أحد مشع. لقد نظف المطر الأرصفة والأرضية تفور. كان بطالون حولي يبنون العالم ويهدمونه داخل كأس نبيذ؛ يملك جميعهم لهجة القرى الجزائرية، ولا تزال الوجوه تحمل سمرة شمس الضفة الجنوبية؛ يكوِّرون حرف "ر" مثلما نكوّر الكسكسي، بمتعة كبيرة. مهما ابتعد حديثهم وطاف حول العالم، إلا أنه يعود لا محالة إلى الجزائر. لا تلوك أفواههم إلا اسم الجزائر.

- أتعرف فيما أفكّر، خوان؟ في عجّة البيض التي نسيتها فوق النار فيما كنت أرتّب أمتعتي. أتساءل اليوم إن لم يحترق المنزل بعد ذهابي المستعجل.
- هل أنت جاد، روجي؟
- طبعا، وقسرا. لم تتوقّف عن إزعاجنا بكل القذارات التي تركتها خلفك في البلد. ألا يمكنك الحديث عن موضوعات أخرى؟
- عمّا أتحدّث روجي؟ الجزائر هي كل حياتي.
- في هذه الحالة، ماذا تنتظر كي تموت وتتركني في حالي؟ تصوَّر بأنني أريد أن أتحدّث عن أشياء أخرى.

عند المصرف، شكّل ثلاثة سكارى يرزحون تحت قبّعات باسكية حلقة صغيرة ويشربون على نخب ذكرى العمليات الصاخبة التي قاموا بها في حي باب الواد. كانوا يتظاهرون بالحيطة ولكنهم يتعمدون أن تُسمَع أصواتهم من الشارع. إلى جانبي، يجرّ أخوان توأمان صوتيهما الدبقين على الطاولة المزدحمة بقنينات البيرة ومنافض السيجارة الغاصة بالرماد والعقائب المدخّنة. بسحنتيهما السمراء وفميهما المزبدين بالبصاق، يذكّران بصيادي السمك في ميناء الجزائر، بقمصانهما البحرية البالية، وعقب السيجارة الطافئ في زاوية الفم ووجههما المعجّنَين كوجهي قوّادين متقاعدين.

- لقد قلت لك بأنها لا تريد إلا نقودك، يا أخي العزيز. لا علاقة لهن بفتيات بلدنا اللائي يعرفن احترام الرجال ولا يتركنك تسقط أبدا. ثمّ، قل لي ماذا أعجبك في

هذا الجليد الضخم؟ تتقلّب أحشائي بمجرّد تصورك وأنت تضمها بين ذراعيك.
ثمّ، لا تحسن حتى طبخ طبق مرق شهيّ...
شربت ثلاثة أو أربعة فناجين قهوة دون أن يفارق بصري رقم 143. بعد ذلك، تناولت غدائي. ولا ظل لإيميلي. غادر السكارى الحانة؛ وكذلك الأخوان التوأمان. خفّ الضجيج فترة، قبل أن يعود مع دخول مجموعة من الأصدقاء المنتشين. كسّر النادل كأسين ودفّق قارورة ماء على زبون استغل الفرصة ليخرج ما بجعبته من أفكار سيئة حول الحانة والأقدام السود ومارسيايا وأوربا والعرب واليهود والبرتغاليين وعائلته الخاصة، هذه "لُمامَة من الأنانيين والمنافقين"، التي لم تتمكن من تزويجه هو الذي تجاوز الأربعين من العمر. تُرك يقيء كل القذارت التي تنغّص حياته قبل أن يُطلب منه مغادرة الحانة.
شحب ضوء النهار؛ يستعد الليل لاحتلال المدينة.
بدأت أحسّ بمفاصلي توجهني من كثرة الجلوس في زاويتي دون حراك حينما ظهرت أخيرا. خرجَت من العمارة، حاسرة الرأس، شعرها ملموم في كُعَيكة. ترتدي معطفا مشمّعا بطوق عريض وحذاء "بوت" يصلها إلى الركبتين. بخطواتها السريعة ويديها داخل جيوبها، تحسبها تلميذة بالثانوية تلتحق بصديقاتها للتسلية.
وضعت جميع القطع النقدية التي كانت بحوزتي في سلة الخبز الصغيرة التي نسي النادل أخذها وركضت لألتحق بها.
فجأة، انتابني الخوف. هل يحق لي النزول على حياتها هكذا بغتة، دون سابق إخبار؟ هل عفت عنّي؟
كي أقاوم تنافر الأصوات التي تعجّ برأسي، بدأت أصيح مناديا:
- إيميلي ! إيميلي !
توقفت فجأة كما لو أنها اصطدمت بجدار غير مرئي. تكون قد تعرّفت على صوتي لأنّ كتفيها تقلّصتا ورقبتها انحفرت تحت الكعيكة. لم تلتفت. بعد أن شنّفت أذنيها قليلا، استأنفت سيرها.
- إيميلي !
هذه المرة، دارت على عقبيها بسرعة كاد تفقد لها التوزن. لمعت عيناها في وجهها الشاحب؛ تماسكت بغتة، وسحبت دموعها... ابتسمت لها ببلادة، فارغ الذهن.
ماذا سأقول لها؟ من أين سأبدأ؟ كنت مستعجلا للقائها بحيث لم أحضِّر شيئا.
تفرّستني إيميلي متسائلة إن كنت حقا من لحم ودم.

- أنا، جوناس.
- نعم؟...

كان وجهها قطعة من النحاس، مرآة عمياء. لم أتصوّر أنها ستستقبلني بهذه البرودة.

- بحثت عنك في كل مكان.
- لماذا؟

باغتني السؤال. فقدت صفاء ذهني. كيف لا يمكنها أن تدرك ما هو ساطع للعيون؟ تلقيت الضربة برباطة جأش، ترنّحت قليلا مثل ملاكم مدوّخ وسط الحلبة. صُعقت، وخفّفت من اندفاعي. سمعت لساني يتلعثم:

- كيف هذا "لماذا"؟... أنا هنا من أجلك.
- لقد سبق وأن قلنا كل شيء في وهران.

وحدها الشفتان تحركتا في وجهها.

- في وهران، كانت الظروف مختلفة.
- في وهران أو في مارسيليا، الأمر سيان.
- أنتِ تعرفين بأنّ هذا غير صحيح، إيميلي. الحرب انتهت، والحياة متواصلة.
- بالنسبة إليك، ربّما.

كنت أسيل عرقا.

- أعتقد صادقا أن...

قاطعتني قائلة:

- كنت مخطئا.

ما هذه البرودة؟ تجمّد أفكاري، كلماتي، روحي.

تسدّدني بنظرتها، مستعدّة لإطلاق النار.

- إيميلي... قولي لي ماذا ينبغي أن أفعله، ولكن من فضلك، لا تنظري إليّ بهذه الطريقة؛ سأعطي كل ما لديّ من أجل...
- لا نعطي إلا ما نملك، وفوق هذا... لا تملك كل شيء... ثمّ إنّ هذا لا ينفع. لا نعيد بناء الحياة من جديد. فيما يخصّني، لقد أخذت مني أكثر مما يمكن أن ترجعه لي.
- أنا آسف.
- ليست إلا كلمات. أظن بأنني سبق وأن قلت لك هذا الكلام.

كان حزني كبيرا جدا إلى حدّ أنه احتلّ كياني بأكمله، ولم يترك مكانا لا للغضب ولا للغمّ.
وضد أيّ انتظار، انخفض سواد نظرتها وارتخت تعابير تقاسيم وجهها. حدّقتني طويلا، كما لو أنها تعود إلى الماضي للبحث عنّي. لفّني عطرها. أخذَت وجهي في تجويف راحتي يديها، مثلما كانت تفعل أمّي سابقا قبل أن تحطّ قبلة على جبيني. لم تقبّلني إيميلي. لا على الجبين ولا على الخد. اكتفت بالنظر إليّ. تصلني نفثات أنفاسها. رغبتُ لو تركت يديها عليّ إلى الأبد.
- ليس الخطأ لأحد، يونس. لا تدين لي بشيء. هكذا هي الدنيا، وكفى. ولم تعد تغريني بشيء.
أدارت لي ظهرها وواصلت طريقها.
بقيت مغروسا على الرصيف، جامدا من الرأس إلى القدمين، فرأيتها تخرج من حياتي كما أخت توأم كانت تحسّ بضيق المكان داخل جسدي ولم تستطع التأقلم. كانت آخر مرّة أراها.
في المساء نفسه، امتطيت الباخرة للعودة إلى البلد، ومنذ ذلك اليوم لم تطأ قدماي أرض فرنسا قبل نهار اليوم.
كتبت لها الرسائل وبعثت لها بطاقات بريدية عند كل عيد... ولم تجبني ولو مرة واحدة. فكّرت أنها تكون قد غيّرت العنوان، وأنها ذهبت إلى مكان آخر، إلى أبعد نقطة ممكنة من ذكرياتها، وربّما كان هذا أفضل لي ولها. صحيح أنني ندمت كثيرا، وأنا أفكّر في الأشياء الجميلة التي كان يمكن أن نقوم بها معا، في الجراح التي نكون قد تفاديناها، في الشقاوة الذي نكون قد عاجناها تلقائيا، في العفاريت الشريرة التي نكون قد تخلصنا منها. لم ترد إيميلي أن تنقذ شيئا، ولا أن تقلب الصفحة، ولا أن تتخلّص من حداد أي شجن. كانت اللحظات القليلة التي خصصتها لي في ذلك الشارع الرازح تحت قيظ الشمس كافية لأدرك أن هناك أبوابا إذا انغلقت على ألم تحوّلها إلى هاوية لا يمكن حتى للنور الإلهي إن يصلها... تعذّبت كثيرا بسبب إيميلي؛ عذّبني حزنها، وتنسّكها، واختيار حياتها منزوية في مأساتها. وبعد ذلك، حاولت أن أنساها، آملا أنني سأخفف بهذه الكيفية الضرّ الذي يسكننا. كان عليّ إيجاد ذريعة، الاعتراف بواقع يرفض قلبي أن ينظر إليه وجها لوجه. الحياة قطار لا يتوقف في أية محطة. إمّا أننا نركبه وهو ماشٍ أو نبقى على الرصيف ننظر إليه وهو يبتعد، ولا توجد مأساة أكبر من محطة شبحية. هل كنت سعيدا بعد ذلك؟ أظن أنني كنت سعيدا نوعا ما؛ عرفت أفراحا،

لحظات لا تنسى؛ وعشقت من جديد وحلمت مثل طفل منبهر. ومع ذلك، بدا لي كما لو أن قطعة ما تخص لتكتمل حياتي، وأن شيئا ما لا يستجيب للنداء، وأن غيابا يعذبني؛ باختصار، ما فعلته هو أنني كنت أدور على حافة السعادة.
انحطّت الطائرة بهدوء على أرضية المطار في هدير مدوٍ لمحركاتها. أراني جاري الشاب شيئا عبر الواجهة الزجاجية لمحطة المطار، حيث تنتظر طائرات أخرى الإقلاع، أشبه بطيور عملاقة من الجنّة، المنقار في غربال "الساس". أخبرنا صوت في مكبّر الصوت عن الحرارة الخارجية والساعة المحلية وشكرنا على اختيار الخطوط الجوية الجزائرية، قبل أن يوصينا بالبقاء جالسين، أحزمتنا مربوطة، إلى غاية التوقف الكلي للطائرة. ساعدني الشاب على حمل جرابي وأرجعه لي قرب شبابيك شرطة الحدود. عندما أتممنا إجراءات المرور، أظهر لي جهة الخروج معتذرا عن تركي أتدبّر أمري لأن له أمتعة سيسترجعها.
انزلقت الباب الزجاجية البيضاء في البهو الخارجي. يترقّب الناس خلف خط أصفر، مستعجلين بالتعرّف على وجه مألوف في خضم زحف المسافرين النازلين. انسلخت طفلة صغيرة من يد قريبة وركضت ترتمي في أحضان جدّة بالجلابية. التقت سيّدة شابة زوجها؛ تبادلا قبلا على الخدين ولكن عيونهما كانتا تتقّدان. يقف خمسيني جانبا، يحمل بين يديه لوحة كرتونية كبيرة، نقرأ فوقها: ريو صالادو. خلال لحظة، بدا لي أنني أرى عائدا من الآخرة. صورة سيمون، قصير القامة وبدين، بساقين معوجّتين قليلا وجبهة بدأت تتعرى. وهذه العيون، إلهي ! التي تتفرّسني، تتعرّف عليّ. كيف استطاع أن يتعرّف عليّ من بين جميع هؤلاء الناس بينما لم نلتقِ أبدا؟ وجّه لي ابتسامة صغيرة، تقدّم ومدّ لي يدا ممتلئة ومشعرة في المفاصل، أشبه بيد أبيه.

- مِشال؟...
- هو بالذات والصفات، سيّد جوناس. مسرور أنا برؤيتك. هل قمت بسفر مريح؟
- غفوت أثناء الرحلة.
- هل لديك أمتعة؟
- هذا الجراب فقط.
- طيّب. سيارتي بالموقف.

دعاني لمرافقته وهو يخلصني من حملي.

تتفرّع الأزقة أمامنا بصورة مدوّخة. يسوق مِشال بسرعة، بصره ثابت. لم أتجرّأ على تفرّسه. اكتفيت بالنظر إليه خلسة. إنه يشبه أباه بشكل عجيب، سيمون، صديقي. انكمش قلبي حول ذكرى خاطفة. كان عليّ أن أتنفّس بقوة كي أخرج المرارة التي تقيّحت بصدري، فركّزت عينيّ على الطريق التي تفرّ أمامي بسرعة مذهلة، على التزعرج اللامع للسيارات، على اللوحات الإشارية المحلّقة: صالون دي فروفانس، بعيدا إلى الأمام؛ مارسيليا، الخروج المقبل على اليمين؛ فيترولس، الدورة الأولى على اليسار...

- أظنّ أنّك جائع، سيّد جوناس. أعرف مطعما صغيرا...
- لا داعي، يا ابني. لقد غذونا في الطائرة.
- حجزت لك غرفة في فندق "الدلافين الأربعة"، غير بعيد عن مُنتَزه ميرابو. الحظ معك، سيكون الجوّ مشمسا طوال الأسبوع.
- سوف لن أبقى أكثر من يومين.
- إنهم ينتظرونك بشغف كبير. يومان غير كافيين.
- يجب أن أعود إلى ريو. عندي حفيد سأزوّجه... كان بودّي أن أحضر الجنازة معكم، ولكن عطلني الحصول على الفيزا. مشقّة كبيرة... اضطررت إلى الاستنجاد بعلاقة نافذة...

ولجت السيارة تحت قلعة زجاجية انبثقت من لا مكان. قال مِشال شارحا:

- إنها محطّة إيكس للقطار السريع.
- لا أرى المدينة.
- إنها محطّة خارجية. فتحت أبوابها منذ حوالي خمس أو ستّ سنوات فقط. المدينة على بعد خمس عشرة دقيقة من هنا... هل سبق لك أن زرت إيكس، سيّد جوناس؟
- لا... في الحقيقة، جئت مرّة واحدة فقط إلى فرنسا. إلى مارسيليا، في مارس 1964. وصلت ليلا، وما أن وصلت الليلة المقبلة حتى وجدتني أستقل باخرة العودة إلى الجزائر.
- كانت زيارة خاطفة؟
- هذا هو.
- طرد؟
- رفض.

التفت إليّ مِشال، مقطّبا حاجبيه. قلت له كي نمر إلى موضوع آخر:

- إنها حكاية طويلة.

عبَرنا منطقة تجارية غاصة بمحلات المساحات الكبرى، والحوانيت ومواقف تعجّ بالسيارات. تحاول مصابيح النيون الضخمة أن تستخلف ملصّقات الإشهار فيما تتدفق أمواج بشرية على المحلات والوكلاء المعتمدين. سدّ ازدحام السيارت مدخلا فرعيا، ممدّدا الطابور على مئات الأمتار. قال مِشال:

- مجتمع الاستهلاك. يقضي الناس تقريبا كامل عطلتهم الأسبوعية داخل المساحات الكبرى. شيء رهيب، أليس كذلك؟ نأتي هنا، زوجتي وأنا، كل يوم سبت. وإذا حدث أن تخلفنا مرّة لسبب ما، ينتابنا ضيق كبير ونتخاصم بجدّ من أجل تفاهات.
- لكل عهد مخدِّراته.
- صحيح، سيّد جوناس. لكل عهد مخدّراته.

وصلنا إلى إيكس أوبروفانس بحوالي عشرين دقيقة تأخير بسبب حادث سيارة على مستوى جسر "الأرك". الجوّ جميل والسكان أغلقوا أبواب منازلهم وتدفقوا على وسط المدينة. تعجّ الأرصفة بالمتجولين؛ جوّ احتفالي. تدفّق الطارمة باقات مياهها في قلب مفترق طرق، تزيّنه أسود حارسة تحيطه من جميع الجوانب. يأخذ يباني صورة لزوجته وسط زخم السيارات. تدفّقت مجموعة أطفال بداخل حديقة صغيرة بها ألعاب متنوّعة؛ يحلّق بعضهم في الهواء تحت أنظار الأولياء القلقة، برغم أنهم مقيّدون بأحزمة مطاطية. اسودّت الشرفات الغارقة تحت الشمس بالزبائن؛ لا وجود لطاولة شاغرة؛ يركض النادلون في جميع الاتجاهات، يحملون صينيات على راحات أيديهم. ترك مِشال حافلة صغيرة أيكولوجية غاصة بالسيّاح تمرّ قبل أن يصعد ببطء مُنتزه ميرابو الذي غادره في الأعلى، على مستوى حنفية عتيقة، كي يسلك زقاق 04 سبتمبر. لا يبعد فندقي عن فوّارة تتدفّق مياهها عبر أفواه أربعة دلافين منذهلة. عند بهو الاستقبال، رحّبت بنا امرأة شقراء، طلبت مني ملء بطاقة قبل أن توجّهني نحو غرفة مسقّفة في الطابق الثالث. قادنا، مِشال وأنا، خادم إلى غاية الغرفة، حطّ جرابي على طاولة، فتح النافذة، تأكّد من أنّ كل شيء في مكانه قبل أن ينسحب متمنيا لنا إقامة طيّبة. قال مِشال:

- أتركك تستريح قليلا، وأعود إليك بعد ساعتين.
- أريد الذهاب إلى المقبرة.
- برمجنا زيارة المقبرة غدا. اليوم، ينتظرك الجميع عندنا في البيت.
- يجب أن أذهب إلى المقبرة الآن، ما دام الليل لم يحن بعد. أنا مصرّ على هذا.

- مثلما تريد. أكلّم أصدقاءنا كي أطلب منهم تأخير الموعد بساعة.
- شكرا. لست بحاجة إلى أية راحة. لنذهب مباشرة، إذا لم ترَ مانعا.
- لديّ مشكل صغير أسوِّيه قبل ذلك. لن أتأخّر عنك كثيرا. ساعة واحدة، أيناسبك الأمر؟
- طيّب. ستجدني في الأسفل، عند بهو الاستقبال.

أخرج مِشال هاتفه الجوّال، وذهب وهو يغلق الباب خلفه.

عاد إليّ بعد نصف ساعة، وجدني واقفا أنتظره عند مدخل الفندق. ركبت إلى جانبه. سألني إنْ ارتحت قليلا؛ أجبته أنني تمدّدت قليلا وهذا أرجع لي حيويتي. هبطنا مُنتزه ميرابو المبتهج تحت ظل أشجار الدُلب. سألته:

- بماذا تحتفلون اليوم؟
- الحياة، سيّد جوناس. تحتفل إيكس بالحياة كل يوم.
- هل هذه المدينة مزهوة دائما بهذه الطريقة؟
- في أغلب الأحيان.
- أنتم محظوظون لأنكم تسكنون في هذه المنطقة.
- إيكس مدينة رائعة. كانت أمّي تقول دائما أن شمس إيكس عوّضتها تقريبا عن شمس ريو صالادو. لن أغادرها إلى مكان آخر مهما كانت الأسباب.

كانت مقبرة القديس بيار، التي دُفن فيها إلى جانب الشهداء والمشاهير الفنان بول سيزان، فارغة. استقبلني عند المدخل نصب تذكاري وطني صخري لفرنسي الجزائر ومهجّري ما وراء البحر. نقرأ عليه: "إن قلب الأحياء هو القبر الحقيقي للأموات". تسيّج ممرات مبلطة قطعا أرضية معشوشبة، تحرسها مصليات عتيقة. تذكّر صور على القبور أولئك الذين فارقوا الحياة؛ أمّ، زوج، أخ ذهب مبكرا. القبور مزهرة؛ يخفّف لمعان الرخام الذي غُلّفت به انعكاسات ضوء النهار، ويملأ الصمت بسكينة ريفية. قادني مِشال عبر الممرات المرسومة جيدا؛ يصرّ خطوه على الحصى؛ لقد لحق به حزنه ثانية. توقف عند قبر من الغرانيت الأنتراسيتي، منقط بالأبيض، تزيّنه مجموعة من باقات الأزهار الساطعة. نقرأ على الشاهد:

إيميلي بن يامين، المولودة كازيناف. *1931-2008.*

بكل بساطة. سألني مِشال:

- أعتقد أنّك تريد أن تبقى وحيدا بعض اللحظات؟
- من فضلك.
- سأمشي قليلا.

- شكرا.
هزّ مِشال رأسه، وقد أدخل شفته السفلى في فمه. كان حزنه عظيما. ابتعد، ذقنه في تجويف حلقه، ويداه مضمومتان عند الظهر. حينما اختفى وراء مجموعة من المصليات الحجرية، قرفصت قرب قبر إيميلي، ضممت أصابعي على مستوى شفتي وتلوت آيات قرآنية. ليس الأمر مستساغا ومع ذلك أفعله. في عيون الأئمة والقساوسة، نحن مختلفون، ولكننا متساوون في نظر المولى. قرأت الفاتحة، ثمّ آيتين من سورة ياسين...
بعد ذلك، أخرجت من الجيب الداخلي لسترتي صرّة صغيرة من القطن، جذبت الخيط لفتحها، أدخلت أصابعي المرتعدة وأخرجت بعض البتلات الجافة ونثرتها فوق القبر. إنه غبار الزهرة التي قطفتها من مزهرية منذ أزيد من سبعين سنة؛ بقايا هذه الوردة التي دسستها في كتاب إيميلي بينما كانت جرمان تعالجها بحقنة في الغرفة الخلفية لصيدليتنا في ريو صالادو.
أرجعت صرّتي الفارغة إلى جيبي ونهضت. ارتعدت ساقايّ؛ اتكأت قليلا على نصب القبر كي أسترجع أنفاسي. هذه المرّة، سمعت وقع خطواتي تصر على ممر الحصى. امتلأ رأسي بضجيج وقع الخطى، بأصوات متقطّعة وصور خاطفة...
تجلس إيميلي تحت سقيفة مدخل صيدليتنا، رأسها بداخل قلنسوة معطفها، ويداها تلعبان بخيوط حذائها. حسبتها ملكا سقط من السماء. تتصفح إيميلي سارحة كتابا بغلاف خشن. ماذا تقرئين؟ كتاب مصوّر عن الغوادالوب. ما معنى الغوادالوب؟ جزيرة فرنسية كبيرة في الكارايب... إيميلي على أهبة عقد قران خطبتها بسيمون، تتوسّلني في الصيدلية. قل نعم وسألغي كل شيء... ترنّحت الممرات أمام بصري. انتابني دوار خفيف. أحاول التقدّم بسرعة ولا أستطيع. كما لو أنني في حلم، ترفض ساقايّ حملي، تنغرس في الأرض...
يقف شيخ عند مدخل المقبرة، مرتديا بذلة غاصة بالميداليات الحربية. اتكأ على عصا، حاسر الرأس، الوجه معجّن، ينظر إليّ وأنا أتجه نحوه. لم يتحرّك جانبا كي يفسح لي الطريق، منتظرا أن أصل إلى مستواه كي يخاطبني:
- لقد خرج الفرنسيون. اليهود والغجر أيضا. بقيتم وحدكم فقط. فلماذا تتقاتلون؟
لم أفهم عمّا يتكّلم ولا لماذا يخاطبني بهذه اللهجة. لم يذكّرني وجهه بشيء خاص. ومع ذلك، بدت عيناه أليفتين عندي. فجأة، عبَر برق ذهني وأضاء ذاكرتي...
كريمو!... إنه كريمو، الحركي الذي أقسم على قتلي في ريو. في اللحظة التي

موقعته في ذاكرتي، استيقظ ألم حاد في فكي: الألم نفسه الذي هزّني قديما حينما ضربني بأخمص البندقية على الوجه.

- أتتذكّرني الآن؟ أرى من خلال قسمات وجهك أنك تتذكّرني فعلا.

دفعته برفق جانبا كي أكمل طريقي.

- إنّ هذا لصحيح. لماذا كل هذه المجازر المقرفة، وهذه الاعتداءات التي لا تريد أن تنتهي؟ أردتم الاستقلال؟ لقد أخذتموه. أردتم أن تقرّروا مصيركم بأيديكم؟ لا عليه. إذا لماذا الحرب الأهلية؟ لماذا امتلأت جبالكم بالإسلامويين؟ وهذا الجيش الذي يضع نفسه فرجة للعالم؟ أليس هذا دليل على أنكم لا تصلحون إلا للدمار والقتل؟
- من فضلك... جئت أترحّم على قبر، وليس لتحريك مدافن العظام.
- كم تثير شفقتي !
- ماذا تريد، كريمو؟
- أنا... لا شيء... فقط لأتفرّس سحنتك عن قرب. حينما كلّمنا مِشال ليخبرنا بأنك أخرت ساعة اللقاء، كنت كما لو أن ساعة القيامة هي التي أُخّرت إلى أجل غير مسمى.
- لا أفهم ماذا تقول.
- هذا لا يدهشني، يونس. هل فهمت شقاءك مرّة واحدة في حياتك على الأقل؟
- بدأت تتعبني كريمو. أجدك مقرفا كما الموت، وإذا أردت رأيي، لست هنا من أجلك.
- أما أنا، فجئت من أجلك. جئت من آليكانتي خصيصا لأؤكد لك أنني لم أنسَ شيئا، ولم أعفُ عن شيء أيضا.
- لهذا أخرجت بذلتك القديمة وجميع هذه الميداليات من حقيبتك الكرتونية التي تتعفّن في قبوك؟
- لقد أصبت.
- أنا لست ربّ العالمين، كما أنني لست الجمهورية. ليس لديّ امتياز للاعتراف بذويك، ولا ندم كي أتعاطف مع حزنك... لست إلا ناجٍ يجهل لماذا خرج بلا أدنى خدش بينما لا يملك أفضالا عن الذين تركوا حياتهم هناك... وإذا كان هذا يطمئنك، أقول لك أننا في الهمّ سوى. لقد خنّا شهداءنا، وأنتم خنتم أجدادكم، ثمّ تعرّضتم للخيانة بدوركم.
- لم أخن أحدا.

- أيها المجنون المسكين ! ألا تعرف أن الذي ينجو من حرب هو خائن بمعنى من المعاني؟

أراد كريمو أن يقفز، وقد اعوجّ فمه من غضب داخلي؛ أوقفته عودة مِشال بغتة. بعد أن تفحّصني من علو سمومه، ارتضى أن يبتعد قليلا عن طريقي ليتركني ألتحق بالسيارة المركونة في الأسفل، قرب سوق.

- هل تأتي معنا، كريمو؟

قال مِشال وهو يفتح لي الباب.

- لا... سآخذ طاكسي.

لم يلحّ مِشال.

قال مِشال مباشرة بعد انطلاق السيارة:

- آسف على كريمو.
- لا خطورة في الأمر. هل سأحظى بنفس الاستقبال في المكان الذي سنذهب إليه؟
- سنذهب إلى منزلي. أقول لك أمرا ربما سيدهشك. كان كريمو قبل ساعات قليلة متشوقا لرؤيتك. لم يكن يبدو أبدا أنه يخفي حقدا أو يريد ثأرا. وصل بالأمس من إسبانيا. طوال سهرة البارحة، كان يضحك وهو يتحدّث عن حياته بريو صالادو. لا أعرف ماذا جرى له فجأة.
- نزوة عابرة ينساها بسرعة. وأنا أيضا.
- هذا كلام معقول. كانت أمّي تقول دائما أن الناس العقلاء سينتهي بهم المطاف حتما إلى المصالحة.
- أقالت إيميلي هذا الكلام؟
- نعم، لماذا؟

لم أجبه.

- كم لديك من أطفال، سيّد جوناس؟
- اثنان... ولد وبنت.
- والأحفاد؟
- خمسة... إن الصغير الأخير الذي سأزوّجه الأسبوع المقبل تحصّل على لقب بطل الجزائر في الغطس البحري لمدّة أربع سنوات متتالية. ولكن افتخاري وأملي يرتكز خاصة على نورة، حفيدتي. في الخامسة والعشرين من عمرها، تسيّر إحدى أكبر دور النشر في البلد.

ضغط مِشال على السرعة. صعدنا طريق أفينيون إلى غاية الضوء الأحمر؛ تشير ملصقة إلى اتجاه طريق بروني؛ سلكها مِشال. إنها طريق ضيقة وملتوية تصعد إلى أعالي المدينة، تحيطها من الجهتين جدران واطئة تحتمي خلفها منازل جميلة، وتارة أخرى بنايات مهيبة تحميها سياجات حديدية متحرّكة. الحي هادئ، مزهر ومضيء. لا يوجد طفل واحد يلعب في الخارج. وحدهم بعض الأشخاص المسنين ينتظرون الحافلة، تحت ظل النباتات المتسلقة.

يحتل منزل عائلة بن يامين ذروة هضبة، مخفية داخل أحراش. إنها فيلَّة صغيرة مدهونة بالأبيض، يحيطها جدار من الحجر المنحوت المغلّف باللبلاب. ضغط مِشال على جهاز التحكم عن بعد؛ انفتح السياج آليا عن حديقة كبيرة، يجلس في عمقها ثلاثة رجال حول طاولة في الهواء الطلق.

ترجّلت. هبطت الأرضية المعشوشبة تحت حذائي. وقف اثنان من الشيوخ الثلاثة. تبادلنا النظرات بصمت. تعرّفت على أطولهم، مقوّس بعض الشيء وأصلع الرأس. نسيت اسمه. لم نكن على صلة قريبة في ريو صالادو؛ كان جارا لنا، نكتفي بتبادل التحية عند الاقتضاء، ونتجاهل بعضنا البعض بمجرد استدارة الظهر. كان أبوه رئيس محطة القطار. إلى جانبه، سبعيني احتفظ بلياقته، الذقن مندفع، والجبهة بارزة؛ إنه برينو، الشرطي الشاب الذي يحب التعنتر في الساحة وهو يدير خيط صفارته حول أصبعه. تفاجأت لإيجاده هنا؛ لقد سمعت أنه قتل في اعتداء لمنظمة الجيش السري بوهران. اقترب مني، مدّ لي يده اليسرى؛ يحمل يدا اصطناعية في الساق اليمنى.

- جوناس... ما أسعدنا برؤيتك !

- أنا أيضا سعيد برؤيتك، برينو.

صافحني صاحب القامة الطويلة بدوره. شدّت يده يدي برخاوة. بدا متضايقا. أفترض أننا جميعا متضايقون. داخل السيارة، تخيّلت لقاءً حماسيا مبتهجا، بعناق قوي وضحك صاخب يرافق الربت على الكتف والظهر. أرى نفسي أعانق البعض، وأدفع البعض كي أتفحّصهم جيدا، لتحضرني فجأة الألقاب والمزح القديمة، العودة إلى الطفولة لحظة استذكار هذه الأشياء المنسية، والتغلب على جميع الأشياء الأخرى التي سكنت لياليا خلال سنوات كي لا نحافظ إلا عما يرضينا، وما من شأنه أن يغلّف الذكريات بأريحية ولون جميل. الآن، وها نحن معا، الواحد بقرب الثاني، كلنا ذكريات متأججة، القلوب خافقة والعيون عائمة تحت

الدموع، يشلّ ضيق غامض اندفاعاتنا فبقينا واجمين، أشبه بأطفال صغار يلتقون أوّل مرة ولا يعرفون كيف يباشرون المحادثة بينهم.
سألني طويل القامة:
- أتتذكّرني، جوناس؟
- إن اسمك على طرف لساني، ولكن الباقي صافٍ في ذهني. كنت تسكن في رقم 06، وراء السيّدة لامبير. أراك في هذه اللحظة وأنت تتسلق الجدار كي تخطف الفواكه من بستانها.
- لم يكن بستانا، إنها شجرة تين فقط.
- كانت حديقة. أنا أسكن في رقم 13 ويحدث لي الآن أن أسمع السيّدة لامبير تصرخ خلف الأطفال الذين يتسللون إلى أشجارها المثمرة...
- أصحيح هذا؟ لا أحتفظ في ذكرياتي إلا بشجرة التين.
صرخت وأنا أصفق أصابعي:
- غوستاف... غوستاف غوسي. الكسول المحلّف لقسمنا. دائما في زاويته يدبّر المكائد والتشقلبات.
انفجر غوستاف ضحكا وجذبني إلى صدره بفظاظة.
سأل الشيخ الثالث دون أن يتحرّك من مكانه:
- وأنا؟ هل تتذكّرني أنا؟ لم أسرق شيئا أبدا من البساتين، وفي القسم، كنت رصينا كما الصورة.
في المقابل، لقد شاخ حقا، آندري صوزا، متبختر ريو الذي كان يصفق أوراقه النقدية مثلما يفعل أبوه مع السوط. كان ضخما، بدينا، ببطن تتدفق على ركبتيه، وقد وجدت حمالات سرواله صعوبة في شدّها. ابتسم لي بكامل طاقم أسنانه، رأسه أصلع مبقع بلطخات النمش، ووجهه لا تكاد ملامحه تظهر وسط الأخاديد.
- دادي !
- نعم، دادي. خالد كما الأكاديميين.
فدفع كرسيه المتحرّك إلى غاية مكان وقوفي. قال موضّحا:
- أستطيع المشي ولكنني ثقيل جدا.
ارتمينا في حضني بعضنا البعض. انفجرت دموعنا؛ ولم نفعل شيئا لإيقافها. نبكي ضاحكين ونتبادل الضربات على جوانبنا.
فاجأنا المساء ونحن نضحك حول الطاولة، مقهقهين بأصوات مجلجلة ونسعل إلى حدّ قلع حقولنا. وصل كريمو منذ ساعة، وقد تغيّر مزاجه. لقد أفرغ جعبته في

المستشفى. جلس قبالتي، بنوع من تأنيب الضمير على ما بدر منه في الظهيرة. ربّما يخفي بداخله صرخة لم يجد أبدا مناسبة لإطلاقها؟ على كل حال، بدا هادئا كما لو أنه صفى حساباته مع نفسه. تردّد قليلا قبل أن يجرؤ على رفع بصره اتجاهي. بعد ذلك، استمع إلى حديثنا عن ريو، عن الحفلات الراقصة في الصيف، عن موسم قطف العنب، عن اللقاءات الماجنة التي تتواصل بعد السكر، عن الجدّ روسيليو وحكاياته السرية الطائشة، وعن الولائم تحت ضوء القمر؛ ولم نستحضر مرّة حدثا شقيا أو ذكرى غير لائقة.

طهت لنا زوجة مِشال، امرأة قوية البنية من أوليف، نصف بربرية ونصف بروتونية، طبق البويابيس الشهي، بأنواع لا تحصى من السمك الذائب في الفم كما الجبن.

سألني آندري:

- لا زلت على عادتك لا تشرب الحمر؟
- ولا قطرة.
- أنت لا تعرف ماذا تضيِّع.
- لو كان هذا ما ضيّعته فقط، لهان الأمر، دادي.

سقى لنفسه كأسا، نظر إليه مليا وأفرغه في فمه في جرعة واحدة.

- صحيح أن ريو لم تعد تنتج خمرا؟
- صحيح.
- يا للقذارة ! خسارة حقيقية... أقسم لك أنني لا زلت إلى يومنا هذا أشعر على طرف لساني البصمة الساحرة لذلك النبيذ الرقراق لبلدنا هناك، ماركة أليكانت دالمالح التي تغرينا على التعتعة بالسكر حتى نرى الديك حمارا.
- لقد خرّبت الثورة الزراعية جميع كروم المنطقة.

قال غوستاف مستنكرا:

- ماذا غرسوا في مكانها؟ البطاطا؟

أبعد آندري القنينة كي يبقيني تحت بصره كلية:

- وجلول؟ كيف كان مصيره؟ أعرف أنه كان نقيبا في الجيش الجزائري وأنه كان على رأس منطقة عسكرية في الجنوب. ولكن منذ سنوات قليلة، أجهل مصيره.
- لقد أخذ تقاعده من الجيش برتبة كلونيل في بداية سنوات التسعين. لم يسكن بريو أبدا. كانت له فيلّة في وهران، أمل أن يقضي بها سنوات تقاعده. ولكن الإرهاب الإسلاموي وقع علينا كالصاعقة وتمّ اغتيال جلول قرب منزله، بخرطوشة بندقية صيد، وهو جالس عند باب بيته يشمّ هواء المساء الطري.

قفز آندري، وقد طارت السكرة من رأسه.
- جلول مات؟
- نعم.
- قتله إرهابي؟
- نعم، أمير من الجماعات الإسلامية المسحلة. واسمع جيدا، دادي: حفيده الخاص.
- قاتل جلول هو حفيده؟
- لقد سمعت جيدا.
- إلهي ! ما هذا القدر الحزين الساخر...
التحق بنا فابريس اسكاماروني في الليل. تأخّر بسبب إضراب عمّال السكك الحديدية. استأنف العناق من جديد. لم ينقطع الحبل بيني وبين فابريس أبدا. فبعد أن أصبح صحفيا كبيرا وكاتبا ناجحا، كنت أراه بانتظام على بلاطوهات التلفزيون. عاد إلى الجزائر مرارا لأسباب مهنية وكان يستغل فرصة إنجاز تحقياقات صحفية ليقوم بدورة إلى ريو صالادو. كان يقيم عندي. عند كل زيارة من زياراته، في الصباح الباكر، ومهما كان الجوّ، قارا ماطرا أو قائظا، كنت أرافقه لزيارة قبر أبيه. توفيت أمّه خلال سنوات السبعين، في غرق سفينة مسافرين في عرض صردينيا.
الآن، امتلأت الطاولة بزجاجات الخمر. لقد أحيينا موتانا وشربنا على نخبهم؛ سألنا عن أحيائنا، ما مصير فلان، لماذا اختار الهجرة إلى الأرجنتين، والآخر لماذا اختار الاسقرار بالمغرب؟... امتلأ آندري مثل الغليون، ومع ذلك لا يزال في صفاء غريب. لم يتوقّف برينو وغوستاف من الذهاب إلى دورة المياه.
أما أنا فكنت أترقّب السيّاج.
بقي واحد لم يستجب للنداء: جان كريستوف لامي.
أعرف أنه على قيد الحياة، وكان مع إيزابيل على رأس مؤسّسة كبيرة مزدهرة في منطقة كوت دازور. لماذا لم يكن هنا؟ لا تبعد نيس عن إيكس إلا بسفر ساعتين.
وصل آندري من باستيا، برينو من بربينيان، كريمو من إسبانيا، فابريس من باريس، غوستاف من صاوون إي لوار... هل لا يزال يلومني؟ ماذا فعلت له في واقع الأمر؟ مع طول الوقت، لا شيء... لم أفعل له شيئا. أحببته مثل أخ، وبكيت يوم فراقه مثل أخ أيضا، وعهدنا في عقبي حذائه بلا خيط. هزّني برينو:
- عد إلى الأرض، جوناس.

- نعم؟
- بماذا تفكّر؟ أكلّمك منذ دقائق وأنت لا ترد.
- عفوا. كنت تقول؟...
- أتحدّث عن البلد. أقول بأننا عشنا أيتام بلدنا.
- وأنا يتيم أصدقائي. أجهل من منّا فقد أكثر: وهذا لا يمنع أن اليتم يضغط على القلب بنفس الطريقة.
- لا أظن أنّك فقدت أكثر منا في عميلة التبادل، جوناس.

قال آندري بفلسفة:

- هذه هي الحياة. ما تربحه بيد، تردّه باليد الأخرى. ولكن إلهي ! لماذا نضطر إلى ترك الأصابع أيضا؟... الحق مع برينو. ليس الأمر سيان. لا، إن فقد الأصدقاء ليس مثل فقد البلد. تتمزّق أحشائي كلما فكرت في الأمر. الدليل أننا هنا لا نقول "نوستالجيا" بل نقول "نوستالجيريا"، نسبة إلى الجزائر.

تنفس بعمق؛ لمعت عيناه تحت ضوء المصباح. اعترف قائلا:

- الجزائر لاصقة بجلدي. تارة، تثير فيّ حكّة مثل بذلة نيسوس، وتارة أخرى تعطّرني مثل عطر مسكر. أحاول التملص منها، ولا أستطيع. كيف أنسى؟ أردت شطب ذكريات الطفولة والشباب، المرور إلى شيء آخر، الانطلاق من الصفر. محاولات فاشلة. أنا لست قطا ولا أملك إلا حياة واحدة، وحياتي بقيت هناك، في البلد... حاولت جمع جميع البشائع لأقيئه، بلا جدوى. الشمس، الشواطئ، أزقتنا، طبخنا، سكراتنا الرائعة، وأيامنا السعيدة تتغلّب على غضبي فأجد نفسي أبتسم في اللحظة التي أكون فيها مستعدا للعضّ. لم أنسَ أبدا ريو صالادو، جوناس. ولا ليلة، ولا لحظة. أتذكّر كل عشبة على هضبتنا، كل مزحة في مقاهينا، وحمقات سيمون تغطي حتى وفاته، كما لو أن سيمون يرفض أن نشرك نهايته المأساوية بمأساة أحلامنا الجزائرية. أؤكّد لك أنني هنا أيضا حاولت النسيان. حاولت، أكثر من الجميع، أن أقلع جميع ذكرياتي، الواحدة بعد الأخرى، بمقلاع-مسامير قوي كما كنا نفعل قديما بضروسنا المسوّسة. ذهبت إلى جميع بقاع الدنيا، أمريكا اللاتينية، أسيا، كي أبتعد عن بلدي، وأخلق حياة أخرى جديدة. أردت التأكد من أنه توجد بلدان أخرى، وأنه بإمكان خلق بلد مثلما نخلق عائلة جديدة؛ خطأ جسيم. يكفي أن أتوقّف لحظة كي يجرفني البلد من جديد. يكفي أن ألتفت كي أنتبه إلى أنه هنا، قريب جدا، يستخلف ظلي.

تدخّل غوستاف وهو على قاب قوسين أو أدنى من السقوط في إغماء كحولي:

- لو غادرنا البلد بمحض إرادتنا، لهان الأمر. ولكننا أجبرنا على الهجرة، أجبرنا على ترك ديارنا، وممتلكاتنا، والذهاب في استعجال كارثي، حقائبنا معبّأة بالأشباح والأحزان. جرّدونا من كل شيء، بما في ذلك أرواحنا. لم يتركوا لنا شيئا، ولا حتى العيون لنبكي. هذا ظلم، جوناس. ليس جميع الناس كانوا معمرين، وكانت لهم سوط يتجبرون بها؛ نحن أيضا، كان لنا فقراؤنا، وأحياؤنا الفقيرة، ومهمشونا، وناسنا أصحاب الإرادات الحسنة، وحرفيونا الأصغر من حرفييكم، ونقوم غالبا بنفس الأدعية. لماذا وضعونا جميعا في قفص واحدا؟ لماذا حملونا أوزار كمشة من الإقطاعيين؟ لماذا أرادوا إقناعنا بأننا غرباء على أرض رأت مولد آبائنا وأجدادنا، وآباء أجدادنا، وأننا كنا مغتصبي بلد بنيناه بأيدينا وسقيناه بعرقنا ودمائنا؟... طالما لم نتلقَ جوابا، سوف لن يندمل الجرح.

أقلقني التوجّه الذي انحازت إليه المناقشة. يبلع كريمو كأسا بعد أخرى؛ خشيت أن يعود إلى الحديث الذي دار بيننا في المقبرة. لم يقل كلمة منذ وصوله. تدخّل بغتة:

- أتعرف، جوناس؟ أريد بصدق أن تخرج الجزائر من أزمتها.

قال فابريس:

- ستخرج من أزمتها. الجزائر بلد غني مهمل. يكفي حضور إرادة قوية. في هذه اللحظة، تبحث الجزائر عن نفسها، أحيانا في المكان الذي لا توجد فيه. حتما، ستكسّر أسنانها. ولكنها لا تزال طفلة صغيرة، وستقوم لها أسنان أخرى.

مسكني برينو من اليد وشدّها بقوة.

- أريد العودة إلى ريو، ولو لمدّة يوم وليلة.

قال آندري:

- ومن يمنعك؟ توجد كل يوم طائرة باتجاه وهران أو تلمسان. في أقل من ساعة ونصف، وأنت في الخراء إلى الرقبة.

انفجرنا ضاحكين إلى حدّ إزعاج الجيران. قال برينو:

- أتحدّث بجد.

قلت:

- ونحن أيضا. دادي معه الحق. تشتري تذكرة سفر، تقفز في الطائرة، وفي أقل من ساعتين، تكون في بلدك. ليوم أو للأبد. لم تتغيّر ريو. صحيح أنها فقدت شيئا من بريقها، وقد ذبلت أزقتها المزهرة، ولا توجد خزانات الخمر، وإلا القليل

من الكروم، ولكن الناس رائعون ومحببون. إذا جئت عندي، ستكون مجبرا على الذهاب عند الآخرين، ولن يكفيك دهر بأكمله.

أعادني مِشال إلى فندقي في حوالي منتصف الليل، صعد معي إلى الغرفة، وهناك، سلّم لي علبة حديدية مغلقة بقفل صغير.

- كلفتني أمّي بتسليمك هذه الأمانة قبل أيام من وفاتها. لو لم تأتِ إلى هنا، كنت سأضطر إلى المجيء إلى ريو صالادو.

أخذت العلبة، تأملت الرسومات القديمة التي تقشّرت فوقها. إنها علبة حلويات عتيقة، بصوّر تمثّل مشاهد حياة القصر، ونبلاء في بساتينهم، وأمراء جذابين يقضون ساعات حلوة برفقة عاشقاتهم الجميلات قرب فوّارة ماء؛ إذا استندنا إلى وزنها، فلا يبدو أنها تحتوي على الشيء الكثير.

- سأمر عليك صباح غد على العاشرة. سنتناول غداءنا عند حفيدة آندري صوزا، في مانوسْك.
- إذا موعدنا على العاشرة، مِشال. وشكرا.
- لا شكر على واجب، سيّد جوناس. تصبح على خير.

وذهب.

جلست على حافة السرير، العلبة بين يديّ. ما هذه الرسالة المتأخرة من إيميلي؟ إشارة ما بعد الموت؟ أستحضر صورتها، في مارسيليا، شارع الأخوان جوليان، في ذلك اليوم القائظ من شهر مارس 1964؛ أرى ثانية نظرتها الجامدة، وجهها الصلب، شفتيها المحتقنتين وهي تسحق آخر حظوظي في استرجاع الوقت الضائع. ارتعشت يدي؛ أحسّ ببرودة المعدن تسري إلى داخل عظامي. يجب فتح العلبة. علبة بندور أو علبة موسيقى، ما الفرق؟ في الثمانين من العمر، مستقبلنا وراؤنا. ولا يوجد أمامنا إلا الماضي.

فككت القفل الصغير، رفعت الغطاء: رسائل !... بداخل العلبة، لا توجد إلا رسائل. رسائل اصفرّت من القدم والانغلاق، بعضها انتفخ من الرطوبة، البعض الآخر مدعوكة بشكل أرعن كما لو أن يدا حاولت إرجاعها إلى وضعها الأصلي بعد أن رفستها. تعرّفت على خطي في ظهر الأغلفة، وطوابع بلادي... فهمت أخيرا لماذا لم ترُد إيميلي على رسائلي: لم تُفتَح رسائلي أبدا ولا البطاقات البريدية أيضا.

دفّقت محتوى العلبة على السرير، تفحّصت الأظرفة واحدة بعد الأخرى أملا في العثور على رسالة من إيميلي... وجدت رسالة بلا طابع بريد ولا عنوان، لا تزال صلبة عند الملمس، بها فقط اسمي وشريط لاصق للغلق.
لم أجرؤ على فتحها.
غدا، ربّما...

تغدينا عند حفيدة آندري، في مانوسك. هناك أيضا، أخرجنا حكاياتنا القديمة، ولكن الملل بدأ ينتابنا. جاء شخص آخر من الأقدام السود يحييينا. حينما استمعت إلى صوته، ظننت أنه جان كريستوف لامي هو الذي وصل، مما بعث في نفسي جرعة من طاقة مجهولة نفثت في روحي قوة جديدة؛ خارت قواي مباشرة بعد أن اكتشفت زيف ظني. رافقنا الغريب لحوالي ساعة قبل أن ينسحب. مع مرور الدقائق وتتالي الحكايات التي لم يمسك بخيوطها، أدرك أنّ شيئا ما يشوّش ذاكرته، يهزّ نظاما داخليا تعوّد عليه، برغم أصوله الوهرانية، وبالضبط من قرية لاموريسيير، قرب تلمسان... كان برينو أوّل من غادرنا برفقة كريمو باتجاه بربينيان، حيث سيقضي هذا الأخير ليلة عند صديقه قبل عبور الحدود الأسبانية.
على الساعة الرابعة بعد الزوال، تركنا آندري عند حفيدته ورافقنا فابريس إلى محطة إيكس للقطار السريع. سألني فابريس:
- هل أنت مُجبر حقا على العودة إلى البلد نهار الغد؟ ستكون هيلان سعيدة جدا برؤيتك. لا تبعد باريس إلا بثلاث ساعات من هنا. يمكنك أخذ الطائرة إلى مطار أورلي. لا أقطن بعيدا عن المطار.
- مرّة أخرى، فابريس. سلّم على هيلان كثيرا. ألا زالت تكتب؟
- لقد أخذت تقاعدها منذ فترة من الزمن.
وصل القطار، في وحشية رائعة. قفز فابريس فوق المرقاة، عانقني مرة أخرى والتحق بمكانه في المقطورة. انطلق القطار، منزلقا بهدوء على السكة الحديدية. أبحث عن صديقي وراء الواجهات الزجاجية الكبرى فرأيته واقفا، يحييني بوضع يده على صدغه. ثمّ خطفته مني سرعة القطار.
عند عودتنا إلى إيكس، دعانا غوستاف إلى مطعم "الطفلان". بعد العشاء، ذرعنا منتزه ميرابو في صمت. الجوّ جميل، وشرفات المقاهي والمطاعم لا تزال غاصة بالزبائن. أمام قاعات السينما، يقف الشبان في طوابير خفيفة لاقتناء التذاكر.

جلس موسيقي أشعث الشعر على الأرض وسط المنبسط يرقع خيوط كمانه، وكلبه ممدّد إلى جانبه.
قرب فندقي، أطلق راجلان صرخات اتجاه سائق سيارة كاد يدهسهما. لم يجد هذا الأخير ما يقوله للدفاع عن نفسه، فركب سيارته واصطفق بابها خلفه بفظاظة. سلّمني أصدقائي لمسئولة الاستقبال وانسحبا واعدين إياي بالعودة صباح غد على السابعة لأخذي إلى المطار.
أخذت حماما ساخنا وانزلقت تحت فراشي.
على طاولة السرير، جثمت علبة إيميلي، جامدة مثل مرمدة جنائزية. امتدّت يدي عفويا لإزالة القفل ولكنها لم تجرؤ على رفع الغطاء.
لم أتمكن من غمض جفوني. حاولت أن أفرغ ذهني من أي تفكير. شدّدت الوسادة، تمدّدت على جانبي الأيمن، على جانبي الأيسر، على الظهر. أنا شقي. يعزلني النوم، ولا أريد أن أكون وحيدا في الظلام. كما لا أريد أن أجد نفسي وجها لوجه مع ضميري. أنا بحاجة إلى أن أحيط نفسي بمتملقين، أن أقتسم مكبوتاتي، أن أبتدع كباش الفداء. هكذا كان الأمر دائما: عندما لا نجد حلا لشقائنا، نبحث له عن مذنب. شقائي غامض. أشعر بالحزن ومع ذلك لا أستطيع تحديده. إيميلي؟ جان كريستوف؟ السنّ؟ هذه الرسالة التي تنتظرني داخل العلبة؟... لماذا لم يأتِ جان كريستوف؟ هل الحقد أمتن من رجاحة العقل؟...
عبر النافذة المنفتحة على سماء زرقاء وهلال شاحب، كنت مستعدّا لأرى دناءاتي وأفراحي وكذا الوجوه المألوفة، تمرّ أمام بصري ببطء. أسمعها تتدفق في هدير انجراف. ما هو الفرز الملائم؟ ما هو الموقف الذي سأتّخذه؟ أطوف في المكان نفسه حول هاوية، كما البهلوان فوق حبل رقيق، أو عالم براكين مُهلوس على حفى فوهة بركان يغلي؛ أقف عند أبواب الذاكرة، هذه الوشائع اللامتناهية من خلايا النحل التي تصنفنا وترتّبنا، هذه الأدراج الكبيرة المظلمة التي نخبئ بداخلها الأبطال العاديين الذين كنا نمثلهم في يوم ما، الأساطير العبثية التي لم نتمكن من تجسيدها، وأخيرا الأدوار الأولية والثانوية التي تقمصناها، بعبقرية تارة، وبحماقة تارة أخرى، بجمال ووحشية، نرزح تحت ثقل إخفاقاتنا الصغيرة، وانتصاراتنا، وكذباتنا واعترافاتنا ووعودنا وتوباتنا، وشهاماتنا وانكساراتنا، يقينياتنا وشكوكنا؛ باختصار، أوهامنا غير المروّضة... بماذا سنحتفظ وسط هذا الزحم من الخلايا المتأججة؟ ماذا سنرفض؟ لو طلب منا أن نختار لحظة واحدة من حياتنا سنأخذها معنا في السفر الكبير، هل يسهل علينا الاختيار؟ على حساب من وماذا؟ كيف

نتعرّف على أنفسنا وسط هذا الكم الهائل من الأشباح، من الظلال، من العمالقة؟... من نحن بالضبط؟ ما كنّاه فعلا أو ما أحببنا أن نكونه؟ الضرر الذي تسببنا فيه للغير أم الضرر الذي تلقيناه من الغير. المواعيد التي تخلفنا عنها أم اللقاءات الخاطفة التي غيّرت مجرى حياتنا؟ الكواليس التي أنقذتنا من الغرور أم الأضواء الكاشفة التي كانت سببا في حرقنا؟ نحن كل هذا في آن واحد، لأن الحياة كانت كلها لنا، بأعاليها وسفاسفها، بإنجازاتها وإخفاقاتها؛ كما نمثل جميع الأشباح التي سكنتنا... نجسّد شخصيات عديدة مختزلة في واحدة، مقنعة في أدوارها المختلفة التي مثلناها بحيث يصعب علينا معرفة الدور الذي مثلنا سابقا، ويمثلنا الآن، وسيعيش بعدنا.

أسترق السمع إلى الضوضاء السابقة؛ لم أعد وحيدا. تتدحرج الهمسات وسط الذكريات المتقطّعة، أشبه بحطام حول جلجلة؛ جمل مشفرّة، نداءات مبتورة، ضحكات وشهقات مختلطة، متشابكة... أستمع إلى إيزابيل وهي تلعب بالبيانو – ألحان شوبان-، أرى أصابعها الرقيقة تتزحلق على الملامس بمهارة نادرة، أبحث عن وجهها الذي أتصوّره يتمدّد من التركيز الانتشائي؛ ترفض الصورة التزحزح عن مكانها، تتجمّد بعناد على ملامس البيانو فيما كانت النوطات تنفجر في رأسي في شلال من الأضواء الاحتفالية... ينبثق كلبي من خلف الترعة الترابية، مقطبا حاجبيه الكبيرين فوق نظرته السوداوية؛ أمدّ يدي لمداعبته؛ حركة عبثية ولكنني أواصل القيام بها. تنزلق أصابعي على الغطاء كما على المَعْط. أترك الذكرى تستولي على نفَسي، على سُهادي، على كياني جلّه. أرى كوخنا في طرف درب يكاد ينمحي... أنا الطفل الأبدي... لا نسقط ثانية في الطفولة، بل لا نخرج منها أبدا. شيخ، أنا؟ ما الشيخ إلا طفل تقدّم في السنّ أو تغيّرت ملامح جسده؟... تنحدر أمّي عبر الترعة الترابية، الغبار بقدميها مثل آلاف النجوم... أمّي، يا أمّي العزيزة. ليست فقط كائنا، أمّا، وإن كانت وحيدة زمانها، أو دهرا بأكمله؛ الأمّ حضور أبدي لا يمحوه القِدم ولا إخفاقات الذاكرة. لديّ الدليل في جميع الأيام التي يصنعها الله، في جميع الليالي حينما يقعدني الكمون في عمق السرير. أعرف أنها هنا، وأنها كانت بقربي عبر السنوات، والأدعية المجهضة، والوعود الملغاة، والغيابات العصية الاحتمال والأحزان الضائعة... بعيدا، يقرفص أبي على ركام حجري، على رأسه مِظَل من الحلفاء ينغرس إلى حد الأذنين، وينظر إلى الريح وهي تلفّ ضمور الأكواخ... وبعد ذلك، يتهيّج كل شيء: النار التي تلتهم حقولنا، القايد فوق "الكاليش"، العربة التي حملتنا إلى حيث لا يستطيع

كلبنا مرافقتنا... جنان جاتو... الحلاق وهو يغني، ساق الحطب، ألمورو، هواري وعصافيره... جرمان وهي تفتح لي ذراعيها تحت نظرة عمّي العطوفة... ثمّ ريو، وبعد ذلك ريو، دائما ريو... أغمض عينيّ، كي أضع حدا لشيء ما، لأوقف حكاية استحضرتها ألف مرة وزوّرتها ألف مرة... شيش !... أضحت جفوننا أبوابا مختلسة؛ تحكي لنا وهي مغلقة؛ تنفتح على ذواتنا وهي مفتوحة. نحن رهائن ذكرياتنا. لم تعد عيوننا ملكا لنا... أبحث عن إيميلي عبر الفيلم المفتّت في رأسي؛ إنها ليست في أي مكان. يستحيل العودة إلى المقبرة، ولملمة غبار الوردة؛ يستحيل العودة إلى رقم 143، شارع الإخوة جوليان، والارتقاء إلى مصف الناس العقلاء، ناس ينتهي بهم المطاف إلى التصالح دائما. أتخبّط وسط الحشد الهائل المتزاحم الذي يغرق ميناء وهران في صائفة 1962؛ أرى عائلات تائهة على الأرصفة، تتراكم مع الأمتعة القليلة التي تمكّنت من إنقاذها، والأطفال الذين ينهكهم التعب ينامون على الأرض، والباخرة المهيئة لتسليم المستأصلين إلى تيهان النفي؛ ركضت من وجه إلى آخر، من عناق إلى منديل وداع، فلم أعثر على أثر لإيميلي... وأنا، في خضم كل هذا؟ لست إلا بصرا يركض، يركض، يركض عبر بياضات الغياب وعري الصمت...

ماذا سأفعل بليلتي؟

لمن سأبوح بأشجاني.

في حقيقة الأمر، لا أريد أن أفعل شيئا من ليلتي ولا أن أبوح بأشجاني إلى أحد... توجد حقيقة تثأر لنا من جميع الحقائق الأخرى: توجد نهاية لكل شيء، ولا يوجد شقاء أبدي.

استرجت رباطة جأشي بين يديّ، فتحت العلبة، ثمّ الرسالة. مؤرّخة بأسبوع قبل وفاة إيميلي. استنشقت الهواء بقوة وقرأت:

"عزيزي يونس.

انتظرتك بعد لقائنا في مارسيليا. في المكان نفسه. انتظرتك في الغد، وفي الأيام التالية. ولكنك لم تأتِ ثانية. المكتوب مثلما يقال عندنا. يكفي شيء بسيط لما هو خير، ولما هو غير كذلك أيضا. يجب أن نحسن تقبل الأمور. مع الوقت، نتعقّل. أنا نادمة عن جميع المآخذ التي لمتك عنها. ربّما لهذا السبب لم أتجرّأ على فتح رسائلك. يوجد من الصمت من لا يقبل الإزعاج. كما المياه الراكدة، تهدئ روحنا.

اسمح لي مثلما سمحت لك.

من المكان الذي أوجَد فيه الآن، بقرب سيمون والأعزاء الذين افتقدناهم، أحتفظ في قلبي دائما بصورة عنك.

إيميلي."

كما لو أنّ جميع النجوم تحوّلت فجأة إلى واحدة، كما لو أنّ الليل، كامل الليل، دخل فجأة إلى غرفتي ليسهر على حمايتي. أعرف الآن بأنني سأنام هنيئا أينما ذهبت.

مطار مرينيان هادئ. لا توجد حشود والطوابير أمام أكشاك التسجيل قليلة. الجناح المخصّص للخطوط الجوية الجزائرية شبه فارغ. يتفاوض بعض حاملي الحقائب –الترابانديست عند العارفين، مهربون معاندون، أنتجتهم الندرة وغريزة كسب العيش- حول الحمولة الزائدة لأمتعتهم باستعمال جميع الحيل؛ ولكن تمثيلهم لا يبهر الموظّف. في الخلف، ينتظر شيوخ متقاعدون دورهم في صبر، عرباتهم مثقلة هي أيضا. سألتني الموظفة:

- أعندك أمتعة، سيّدي؟
- هذا الجراب فقط.
- أتبقيه معك؟
- هذا يجنبني الانتظار عند الوصول.

قالت وهي ترجع لي جواز سفري:

- الحق معك. ها هي تذكرة العبور. الإقلاع على التاسعة والربع، باب 14.

كانت ساعتي تشير إلى الثامنة وعشرين دقيقة. دعوت برينو ومِشال إلى شرب فنجان قهوة. جلسنا إلى طاولة. حاول برينو أن يجد لنا موضوعا مهما، بلا جدوى. شربنا قهوتنا في صمت، عيوننا سارحة. كنت أفكّر في جان كريستوف لامي. بالأمس، كنت على وشك أن أسأل فابريس لماذا تغيّب "بكرنا"؛ تعثّر لساني وأهملت الأمر. عرفت من آندري أنه حضر جنازة إيميلي، وأنّ إيزابيل التي رافقته كانت في صحة جيدة، وأنهما يعرفان أنني قادم إلى إيكس... أنا حزين بسببه.

أعلن مكبّر الصوت الانطلاق الفوري لرحلة الخطوط الجوية الجزائرية رقم 1069 باتجاه وهران. إنها رحلتي. عانقني برينو، طويلا. قبّلني مِشال على الخدين، قال لي شيئا لم أفهمه جيدا. شكرته على حسن ضيافته، ثمّ حرّرتهما معا.

لم ألتحق بقاعة الانطلاق.

طلبت قهوة ثانية.

انتظرت...

قال لي حدسي أن شيئا ما سيحدث، وأنّ عليّ بالصبر الجميل والبقاء مسمرا في الكرسي الذي أجلس عليه. صرخ صوت امرأة في مكبّر الصوت:

نطلب من المسافرين المتوجهين إلى وهران في رحلة الخطوط الجوية الجزائرية رقم *1069* أن يلتحقوا فورا بقاعة الركوب. ستنطلق الطائرة بعد لحظات. نطلب من المسافرين المتوجهين إلى وهران أن يلتحقوا فورا بقاعة الركوب.

فنجان قهوتي فارغ. رأسي فارغ. أحس أنني أفرغت من الداخل. وهذا الحدس الذي يأمرني بالبقاء جالسا والانتظار. تسري الدقائق على كتفيّ كما لو أنها جُسأَة. أشعر بألم في الظهر، في الركبتين، في البطن. يلوي صوت المكروفون تلابيب مخي، يرن في صدغي بغيظ. هذه المرّة، يقصدني النداء شخصيا، يطلب مني الالتحاق الفوري بقاعة الركوب، الباب 14. نطلب من السيّد محي الدين يونس أن يلتحق فورا بقاعة الركوب، باب *14*. السيّد محي الدين يونس، هذا آخر نداء...

فكّرت بأن حدسي شاخ ولم يعد يُعتمد عليه. هيّا يا شيخ، ما عندك شيء تنتظره. أسرع إذا أردت أن لا تفوتك الطائرة. سيتزوّج حفيدك بعد ثلاثة أيام.

تناولت جرابي واتجهت نحو جناح الركوب. بمجرد أن وقفت في طابور الانتظار حتى سمعت صوتا آتيا من عمق لا أعرف ماذا:

- جوناس !

إنه جان كريستوف.

إنه هنا، خلف الخط الأصفر، ملفوفا في معطفه، الرأس شائب، المنكبان خفيظان، أشيخ من العالم. قلت وأنا أعود القهقري:

- بدأت أيأس.
- ومع ذلك، قمت بكل شيء كي لا آتي.
- إنه الدليل على أنّك بقيت رأس بغل مثل عهدي بك دائما. ألا ترى بأنّنا تجاوزنا عمر العجرفات الصغيرة؟ نحن الآن على هامش الزمان. ولم يبقَ في غسق حياتنا إلا قليل من المتع، ولا أظن أن هناك سعادة أكبر من رؤية وجه عزيز افتقدناه منذ خمسة وأربعين سنة.

ارتمينا في حضني بعضنا البعض. كما لو أن مغناطيسا قويا جذبنا. كنا أشبه بنهرين يتدفقان من جهتين متقاطبتين، يجرّان جميع عواطف الأرض، وبعد أن يرتطمان بالجبال والسهول، يلتحمان في مجرى واحد وسط لجّ الزبد والإعصار. أستمع إلى جسدينا الهرمين يصطدمان، ودعك ملابسنا يلتبس مع رضّة عضلاتنا. توقف الزمان لحظة. نحن وحيدان في الكون. ضممنا بعضنا بعضا بشدّة، مثلما كنا نفعل قديما حينما نشدّ أحلامنا بالنجدين، متصوِّرين أنها ستتملّص منا عند

أول ارتخاء. تساند هيكلانا الباليان إلى حد النخاع الشوكي، ومكثا واقفين في زوبعة أنيننا. لسنا إلا ليفتين عصبيتين، خيطين كهربائيين عاريين يهدّدنا بقطع التيار، طفلين صغيرين أهملا فجأة وسط الزحمة وهما يبكيان بلا تحفظ أمام الغرباء. شوّش علينا الصوت النسوي في المكبّر:

نطلب من السيّد محي الدين يونس أن يتقدّم فورا إلى قاعة الركوب، باب *14*.

- أين كنت كل هذه الأيام؟

ابعدته قليلا كي أتفحّصه أحسن.

- إنني هنا، هذا هو المهم.
- أتفق معك.

من جديد، تعانقنا.

- أنا سعيد جدا برؤيتك.
- وسعادتي أكبر، جوناس.
- هل كنت في الضواحي بالأمس، وقبل الأمس؟
- لا، كنت في نيس. كلّمني فابريس ليصفني بأرذل الأسماء، ثمّ استخلفه دادي. قلت أنني لن آتي. وهذا الصباح، أخرجتني إيزابيل من الدار بالقوة. على الخامسة صباحا. ركضت كما المجنون. وفي عمري هذا.
- كيف حالها.
- تماما مثلما تعرفها. لا تتعب ولا تمل... وأنت؟
- لا أشتكي.
- يبدو أنك في صحة جيدة... رأيت دادي؟ أتعرف بأنه مريض وبجد؟ لقد قام بالسفر خصيصا من أجلك... كيف تمّ اللقاء بينكم؟
- ضحكنا إلى حد الدموع، ولكننا بكينا أيضا.
- أتصوّر.

نطلب من السيد محي الدين يونس أن يلتحق فورا بقاعة الركوب، باب *14*.

- وريو؟ كيف حال ريو؟
- يمكنك أن تتأكد بنفسك.
- هل عفوا عني؟
- وأنت هل عفوت؟
- أنا شخت، جوناس. لا أملك وسائل حقدي؛ يطيح بي أدنى غضب صغير.

- أترى؟... أسكن نفس المنزل مقابل الكروم. الآن أعيش وحدي. ترملت منذ عشر سنوات، عندي ابن متزوّج في تمنراسنت، وبنت أستاذة في جامعة كونكورديا بمونريال. ليس المكان هو الذي ينقص. يمكنك اختيار الغرفة التي تلائمك؛ إنها شاغرة كلها. أتتذكر الحصان الخشبي الذي أهديته لي كي أتغاضى عن الضرب المبرّح الذي أسديته لي بسبب إيزابيل؟ إنه يوجد دائما في المكان الذي رأيته فيه في المرة الأخيرة، فوق المدخنة.

اقترب مني موظف الخطوط الجوية الجزائرية، بدا تائها نوعا ما:

- أتسافر إلى وهران؟
- نعم.
- أنت هو محي الدين يونس؟
- نعم، أنا هو.
- من فضلك، لا ننتظر إلا إياك كي تنطلق الطائرة.

غمز لي جان كريستوف:

- تبقى على خير جوناس. اذهب بالسلامة.

أخذني بين ذراعيه. أحسست بجسده يرتعد في ضمتي. دام عناقنا دهرا –برغم انزعاج الموظف. انسحب جان كريستوف أوّلا. قال لي بصوت خفيض، الحلق مختنق والعينان حمروان:

- اهرب الآن.
- إنني بانتظارك.
- سآتي، إنني أعدك.

ابتسم لي.

أسرعت لألحق تأخري، يسبقني موظف الخطوط الجوية الجزائرية كي يفسح لي الطريق عبر الطابور، مررت بالسكانير، ثمّ بشرطة الحدود. في اللحظة التي باشرت فيها المرور إلى المنطقة الحرّة، رفعت رأسي للمرة الأخيرة على ما أتركه خلفي ورأيتهم جميعا، العدد الكامل، الأموات والأحياء، واقفين مقابل الواجهة الزجاجية، وهم يحّيونني بإشارات الوداع.

النهاية...